

الحدث التوراتي
والشرق الادنى
القديم

* الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم

* تأليف : فراس السواح

* الطبعة الثالثة

* الناشر : دار علاء الدين

دمشق : ص.ب: ٣٠٥٩٨

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١

تلكس : ٤١٢٥٤٥

فاكس : ٢٣١٧١٥٩

* التنضيد الضوئي : دار علاء الدين

* الإخراج الفني : * ناظر شهاب الدين

* جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

٢٠٠٠ / ٢ / ١٩٩٧

فراس السواح

الحدث التوراتي
والشرق الادنى القديم

نظرية كمال الصليبي
في ميزان الحقائق التاريخية والآثرية

مقدمة

لقد غدا من نافذة القول اليوم التحدث عن صحة المرويات التوراتية من الناحية التاريخية ، أو المجادلة في إمكانية اعتمادها مرجعاً على هذه الدرجة من المصدقية أم تلك . ذلك أن المعلومات التاريخية والأركيولوجية التي توفرت لدى الباحثين خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، قد أظهرت بجللاء الطابع غير التاريخي لهذه المرويات ، وعدم اتساقها مع تاريخ فلسطين وبقية مناطق الشرق الأدنى القديم خلال معظم الفترة التي تغطيها الأسفار التوراتية . ولقد بدأت ملامح هذا المأزق التاريخي لكتاب التوراة تتوضح منذ العقد الأخير للقرن التاسع عشر ، عندما حاول بعض الباحثين المرموقين من أمثال E.Meyer و Gunkel ، ومنذ ذلك الوقت المبكر ، بأن الأسفار التوراتية ليست تاريخاً موثقاً يمكن الركون إليه ، وأن مصدرها الرئيسي هو الحكايا الشعبية والملاحم والقصص البطولي ، مما كان متداولاً شفاهة في فلسطين والمناطق المجاورة زمن تحرير أسفار الكتاب . ورغم أن هذا الاتجاه التحرري المبكر قد جرى تعطيله من قبل مدرسة «علم الآثار التوراتي» التي أخذت أفكارها بالانتظام فيما بين عامي ١٩٢٠ و ١٩٣٠ بتأثير العلامة وليم فوكسويل أولبرايت في أمريكا ، ومارست سلطة قوية على الدراسات التوراتية حتى ستينيات القرن العشرين ، إلا أن ما أفاضته التنقيبات الأركيولوجية الحديثة في فلسطين خلال العقدين الأخيرين على وجه الخصوص ، لم يترك من الباحثين الجادين من يناقش في صحة الخبر التوراتي ، إلا بقية متعنة من تلامذة أولبرايت تجمعها مجلة «علم الآثار التوراتي» الأمريكية التي يرأس تحريرها الصهيوني المعروف هيرشل شانكس .

من هنا ، فقد كان من المستغرب أن يأتي الهجوم المضاد على الاتجاه الجديد المتحرر من اللاهوت التوراتي من قبل مؤرخ عربي هو الدكتور كمال الصليبي ، لا من أية جهة علمية رصينة في الغرب . لقد أدرك الدكتور الصليبي أن الدفاع عن تاريخية التوراة وفق المعطيات العلمية الراهنة هو مسألة خاسرة ، فقام بالتفاقة بارعة على المشكلة بربمتها ونقل مسرح الحدث التوراتي في فلسطين إلى منطقة غرب شبه الجزيرة العربية . وبذلك تمت حماية المرويات التوراتية من أية مقارنة جدية مع وقائع علم الآثار وعلم التاريخ ، لأن المنطقة الجديدة للتوراة مجهولة تماماً من الناحية التاريخية والأركيولوجية ، ولم يضرب فيها المنقبون حتى الآن معولاً واحداً . وهو إذ يكرر عبر فصول كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» بأن المرويات التوراتية قد وقعت بحذافيرها وكما سجلها أحبار اليهود ، فإنه ينطلق من موقع آس من هجوم علم الآثار

وعلم التاريخ . كما عمد الدكتور الصليبي إلى حماية نظريته بسور دفاعي آخر عندما تجاهل كلية مناهج البحث التاريخي ولجأ إلى المنهج اللغوي المقارن ، مظهراً براعة فائقة في قراءة النصوص العبرية التوراتية وتأويلها ، وبراعة لاتقل عنها في دراسة وتحليل أسماء المواقع في منطقة غرب شبه الجزيرة العربية ومطابقتها على أسماء المواقع التوراتية .

إن المشكلة التي خلفها وراءه الدكتور الصليبي لا تكمن في محتوى نظريته بالدرجة الأولى ، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية . ذلك أن المقولات غير المدعمة علمياً تصدر عن مؤرخ مرموق ، يمكن أن تقود إلى مزالق ومناهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار اليوم في هذه المنطقة من العالم . وقد ساعدت هذه المقولات بالفعل بعض المؤلفين المتأثرين بالدكتور الصليبي على تجاهل المنهج التاريخي لصالح التبرير والرؤية الانفعالية والايديولوجية لأحداث التاريخ .

إن مايلي من صفحات هذا الكتاب هو حوار علمي هادي ، يستند إلى الحقائق التاريخية والآثارية في مقابل المنهج اللغوي الأحادي لكمال الصليبي ، وفي مقابل المواقف الانفعالية والايديولوجية التي يصدر عنها آخرون . ويتوجب عليّ أن ألفت نظر القارئ الكريم ، منذ البداية ، إلى أن التوكيد على منطقة فلسطين كمسرح للحدث التوراتي لا يتضمن الأقرار بتاريخية هذا الحدث . ذلك أن محرري التوراة الذين عكفوا على تدوين أسفاره منذ أواخر القرن السادس قبل الميلاد ، كانوا يهدفون إلى التأصيل للديانة اليهودية التي أخذت ملامحها بالتوضيح عقب عودة بقية سبي يهوذا من بابل ، وابتكار جذور للمعتقد التوراتي تضرب في تاريخ فلسطين القديم . وقد عمدوا في سبيل ذلك إلى الاستفادة من كل ما وقع تحت أيديهم من أخبار مملكتي إسرائيل ويهوذا ، (وهما مملكتان فلسطينيتان محليتان لم تعرفا قط الديانة اليهودية) وفسروا هذه الأخبار بما يتلاءم والايديولوجية التوراتية . إضافة إلى استخدامهم لمادة قصصية شعبية شائعة في المنطقة تروي أحداثاً معروفة في القدم ويحتلط فيها التاريخ بالخرافة ، وصاغوا من كل ذلك رواية مضطربة مليئة بالفجوات والثغرات . كما أريد أن ألفت النظر أيضاً إلى مسألة تتعلق بأهداف هذا الكتاب ، فنحن لسنا معنيين حقاً بموطن التوراة ولا نعيم كبير اهتمام للتاريخ اليهودي ، ولكننا معنيون بالدرجة الأولى بترسيخ أصول منهج علمي في دراسة تاريخ هذه المنطقة . من هنا ينبغي أن يفهم هذا الكتاب باعتباره أطروحة في الدفاع عن المنهج ، لا وقوفاً إلى جانب هذه الفكرة أو تلك .

فراس السواح

١٩٩٧ / ١ / ١

مدخل: أطروحات كمال الصليبي ونتائجها

لقد كان الأمر عبارة عن اكتشاف تم بالصدفة، يقول المؤلف . فبينما كان يبحث عن أسماء الأماكن ذات الأصول غير العربية في غرب شبه الجزيرة العربية، فوجيء، بوجود أرض التوراة كلها هناك، وذلك في منطقة بطول يصل إلى ٦٠٠ كيلومتر ويعرض يبلغ حوالي ٢٠٠ كيلومتر. تشمل ما هو اليوم عسير والجزء الجنوبي من الحجاز. (انظر خريطة الصليبي رقم ١ في آخر كتابنا) . وكان أول ما تنبه إليه أن في هذه المنطقة أسماء أمكنة كثيرة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبين له أن جميع أسماء الأمكنة التوراتية العالقة في ذهنه، أو جلها، مازال موجوداً فيها، وأن الخريطة التي نستخلصها من نصوص التوراة في أصلها العبري، سواء من ناحية أسماء الأماكن أو من ناحية القرائن أو الاحداثيات، تتطابق تماماً مع خريطة هذه الأرض. وهي، كما يرى، حقيقة ذات أهمية أولية، نظراً لأنه لم يثبت بعد، في رأيه، تطابق الخريطة الموصوفة في التوراة مع الخريطة التي اعتبرت حتى الآن أنها كانت بلاد التوراة. وبما أنه لم يستطع العثور على مثل هذا التجمع لأسماء الأمكنة التوراتية، في صيغتها الأصلية عادة، في أي جزء آخر من الشرق القديم، فقد قدم الاستنتاج المذهل نفسه بنفسه: فاليهودية لم تولد في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربية، ومسار بني إسرائيل كما روي في التوراة، كان هناك، في

غرب شبه الجزيرة العربية ، وليس في أي مكان آخر* .
وبما أن التوراة عبارة عن نصوص باللغة القدم كتبت أصلاً بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط ، ولأن لغة هذه النصوص قد خرجت عن إطار الاستعمال العام من زمن يعود إلى ما قبل القرن السادس والخامس قبل الميلاد ، أي إلى ما بعد استكمال نصوص التوراة ، فإنه لا يمكن لأحد أن يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب الذي تكلمها . وهذا بغض النظر عن مسائل أخرى كثيرة تتعلق بالتهجئة والصرف والنحر . ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجب على الباحث إما أن يتبع تقليد العبرية المتأخرة ، أو أن يسعى إلى الارشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حية مثل العربية والسريانية التي هي صيغة مستمرة من الأرامية القديمة . وعلى العموم فإن من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها لغة مجهولة عملياً ، ويجب تفكيك رموزها من جديد بدلاً من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار فيما عدا بعض الغوامض .

إلا أنه بفضل الأمانة العلمية الدقيقة التي تحلى بها «المسوريون» وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية فيما بين القرن السادس والتاسع الميلاديين ، فإن النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل إلينا من القدم دون أن يمس تقريباً ، رغم أن ادخال الحركات والضوابط عليه ، بصورة اعتباطية في احيان كثيرة ، قد غير اعراب الجمل وحور المعاني ، وأدخل على النص التوراتي تحريفات

* - نحاول في هذا العرض الموجز والوافي لنظرية الصليبي اعتماد كلام المؤلف بحرفيته ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . وهو مأخوذ من مقدمته ومن الفصلين الأول والثاني من الترجمة العربية الصادرة عن مؤسسة الأبحاث العربية ببيروت ١٩٨٥ . وقد أعدنا ترتيب التسلسل في أفكار المؤلف بطريقة رأيناها أفضل لاعطاء صورة واضحة ووافية عن نظريته في هذا الحيز الضيق ، دون أن تغفل ، على ما نعتقد ، فكرة أساسية واحدة .

هي أضخم بكثير مما يتصوره علماء التوراة . ذلك أن عمل الماسوريين قد بدأ بعد مضي ألف سنة على الوقت الذي كانت فيه العبرية لغة حية ومتداولة . ومن هنا وصلتنا أسماء الأمكنة التوراتية بنصها العبري غير المصوت دون أن يطالها تحريف أو تبديل . أما أسماء الأماكن في غرب شبه الجزيرة العربية فقد شهدت بعض التغيير في اطاري علم الأصوات وعلم التشكل الكلامي بعد حوالي ثلاثة آلاف سنة فصلت بين الصيغ التوراتية لهذه الأسماء ومثائلها القائمة اليوم . وفي اطار التغييرات اللغوية التاريخية تبدو هذه الفترة الزمنية طويلة جداً ، ولا بد أنها استوعبت أكثر من تغير لغوي واحد جرى في بلاد الشرق القديم . ولكن المدهش فعلاً هو أن هذه الأسماء بقيت ، في أكثرها ، قابلة للتمييز الفوري في زنها العربي الراهن .

ولا يمكن معرفة الكيفية التي كانت تلفظ بها أسماء الاماكن التوراتية . وإذا أراد الباحث أن يقارن بين الصيغتين المكتوبتين لهذه الأسماء ، بالعبرية التوراتية وبالعربية الحديثة ، فعليه أن يأخذ في الاعتبار طبيعة الأبجدية السامية . هذه الأبجدية كانت تقتصر في الأصل على ٢٢ حرفاً ساكناً ، بها فيها الوقف الحنجريه ، أي الهمزة ، التي تعتبر في اللغات السامية حرفاً ساكناً ، والحرفين شبه الصوتيين الواو والياء . ولكن النطق بهذه اللغات كان يعتمد حروفاً أكثر من هذه الحروف منذ البداية . وفي العبرية المتأخرة أضيف حرف ساكن جديد إلى الأبجدية الأصلية بتنقيط الحرف المسمى سين ، فصار يمكن تصويته كسين أو كشين . والعربية التي استعارت من شقيقاتها الساميات كتابتها استخدمت هي أيضاً الأبجدية ذات الأحرف الـ ٢٢ الأصلية في البداية ، ومع مرور الزمن ، أدخلت عليها لا أقل من ستة أحرف جديدة باضافة النقط إلى ستة أحرف كانت موجودة في الأصل . ولا شك أن الأمر نفسه كان ينطبق على العبرية في زمانها حيث عرفت لغة النطق عدة أحرف ساكنة لم تكتب بأحرف مستقلة إلا في وقت متأخر . ولا بد أن الناطقين بالعبرية ، شأنهم شأن الناطقين بالعربية ، كانوا يعون العلاقة بين أحرف

النطق وأحرف الكتابة هذه عن طريق الحدس . ولا يستبعد إطلاقاً أن يكون المتكلمون بالعبرية في القدم قد تلفظوا بأحرف ساكنة لم يكتبوها، مثل الذال والضاد والظاء . وبناء على هذا فلا بد أن اللفظ العبري القديم لأسماء الأماكن التوراتية في غرب شبه الجزيرة العربية، كان أقرب إلى اللفظ العربي الحالي . والدراسة الميدانية للطريقة التي تلفظ بها هذه الأسماء اليوم قد تساعد كثيراً على فهم طبيعة الفونولوجيا العبرية القديمة التي لم يكشف سرها بعد . ولكي يستطيع الباحث أن يتعرف على الأسماء التوراتية القديمة في صيغتها العربية الحديثة، لا بد له من تتبع عملية القلب والاستبدال في الجذر المشترك بين اللغتين العبرية والعربية، وهي ظاهرة مشهودة كثيراً في اللغات السامية (زوج - جوز)، وكذلك عملية تحولات الأحرف . فالأبجديتان تشتركان في ٢٢ حرفاً، وتنفرد العربية بستة أحرف هي : ث، خ، ذ، ض، ظ، غ . وهناك جذور كثيرة مشتركة بين العبرية التوراتية والعربية، وذلك دون تغير في الأحرف في بعض الأحيان، ومع تحول في الأحرف في أحيان أخرى . والتحويلات في الأحرف التي يقرها علماء اللغات السامية بين اللغتين هي

ك ← خ، ق	ء ← و، ي
م (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر).	ج ← غ، ق
← ن (خصوصاً في لاحقة جمع المذكر)	د ← ذ، ز
ن ← م	وأحياناً ض، ظ
ع ← غ	و ← ء، ي
ف ← ث	ز ← ذ، ص
ص ← س، ض، ز، ظ	ض، ظ
ق ← ج، غ، ك	ح ← خ
ش ← س، ث	ط ← ت
س ← ش	ي ← ء، و
ت ← ث، ط	

ويلاحظ من المقابلة بين أسماء الأماكن التوراتية، وتلك الموجودة إلى اليوم في غرب شبه الجزيرة العربية أن معظم هذه الأسماء قد تعرب في اللفظ وليس في المعنى. ولذلك فإن التغيير في معظم هذه الأسماء قد تم إما عن طريق قلب الأحرف، أو عن طريق تغيير الأحرف شبه الصوتية (ء، و، ي) دون الأحرف الصحيحة. ولم يتعرب من هذه الأحرف في أكثر الأحيان إلا الأحرف العبرية التي تقابل الأحرف العربية الإضافية (ث، خ، ذ، ض، ظ، غ)، والميم عندما تكون لاحقة المذكر العبرية، فتقلب نوناً في العربية. ومن ناحية أخرى هناك أسماء أماكن عبرية ما زالت موجودة اليوم بشكل مترجم لا بشكل معرب، مثل «شعليم» والتي هي اليوم «الثعالب» في صفة جمع التكسير العربي بدلاً من جمع المذكر في الاسم التوراتي. ويلاحظ أيضاً أن حرف اللام في الأماكن التوراتية، مهما كان موضعه في التركيب، كثيراً ما ينقلب إلى «أل» التعريف في الاسم المعرب، فالاسم «جلعد» يصبح «الجعد» و«لمعه» يصبح «المعلاة». أضف أن أداة التعريف العبرية وهي الهاء تنقلب إلى أداة التعريف العربية في معظم الأحيان. وهناك أيضاً أسماء الأماكن التوراتية على وزن «يفعل» و«تفعل» التي تتحول إلى العربية على وزن «فعل» و«فعله». فالاسم التوراتي «يقطن» يصبح في شكله الحالي «قطن». والاسم «تعنك» يصبح «عنقه».

والمقابلة بين الألفاظ في اللغات السامية تكون بمقابلة التركيب الأساسي لهذه الألفاظ بين لغة وأخرى دون النظر إلى اللواحق وأحرف العلة عندما تكون هذه معتمدة فقط للتصويت. فاسم المكان التوراتي «شمرون» هو في الأصل «شمرون» بدون تصويت، يقابله في العربية اسم المكان «شمران» الذي هو أيضاً «شمرن». و«شبعه» التوراتية هي في الأساس «شبع» يقابلها في العربية اسم «الشباعه» الذي هو أيضاً «شبع».

اعتماداً على هذا المنهج في مقابلة الأسماء، عثر المؤلف على كامل الأرض التوراتية في غرب العربية. ولكي نعطي فكرة عن هذه الأرض

التوراتية التي وجدها كمال الصليبي ، لا بد من ايراد بعض الأمثلة عن أسماء الأماكن التوراتية التي عشر عليها هناك باسمائها كما يقول ، لنوضح بشكل تطبيقي كيفية استخدامه لمنهجه . وسنقوم فيما يلي بتقسيم الأمثلة العشوائية التي أخذناها من الكتاب إلى زميتين . في الأولى أمثلة عن مقابلات تؤدي إلى نتيجة فيها نظراً ، وفي الثانية أمثلة عن مقابلات جاءت نتيجة عمليات معقدة من القلب والاستبدال لا يمكن تصور حصولها إلا نظرياً .

الزمرة الأولى

القرارة (ص ١٠١) .	جرار «جرر»
القناع (ص ١٠٢) .	كنعان «كنعن»
آل عزه (ص ١٠٠) .	غزه «غز»
آل زيدان (ص ٩٩) .	صيدون «صيدن»
زور الوادعه (ص ٣٤) .	صور «صر»
القابل (ص ٣٥)	جبيل «جبل»
عين قديس (ص ٩٣) .	قادش «قدش»
دامس (ص ٩٩) .	سدوم «سدم»
الغمر (ص ٩٩)	عموره «عمره»
مقدي (ص ١١٩) .	مجدو «مجد»
وفيه (ص ١٢٠) .	يافو «يف»

الزمرة الثانية

طناطن (ص ١٦١) .	نتينيم «نتين»
العثايات (ص ١٦١) .	طباعوت «طبعوت»
الكرباس (ص ١٦٤)	برقوس «برقس»

هسوفرت «هـ سفرت»	رصفه (ص ١٦٥).
أدونيقام «ء د - نيقم»	القائم (ص ١٦٨).
فرعوش «فرعش»	الجعافر (ص ١٧٠).
مغبيش «مجبيش»	مشاجيب (ص ١٧٢).
زكاي «زكي»	الضيق (ص ١٧٣).
نفتوحيم «نفتحيم»	المفاتيح (٢٤٩).
فتروسيم «فترسيم»	الشرفات (ص ٢٥٠).
كفتوريم «كفتريم»	الرفقات (ص ٢٥٠).
عقرون «عقرون»	الجرعان (ص ٢٥٣).
أورشليم «أورشليم»	آل شريم (ص ١٨٣).

إضافة إلى هاتين الزمرتين هناك زمرة ثالثة لا تحتوي على الكثير من الكلمات . فعندما لا يجد المؤلف موقعاً مقابلاً للإسم التوراتي ، يعتمد إلى الجمع بين اسمين لموقعين متجاورين . فكميش ، الموقع المعروف تاريخياً على الفرات في الشمال السوري يجده في القريتين المتجاورتين «القر» و «القماشه» في منطقة الطائف (ص ٣٧)، وكأحد البدائل المقترحة لأورشليم يضع القريتين المتجاورتين «أروي» و «آل سلام» قرب الناص (ص ١٨٣) . وإذا كان من الأضمن للباحث في التوراة أن يعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة يجب تفكيك رموزها من جديد ، كما يقول المؤلف ، فانه ينظر إلى النص التوراتي بأحرفه الساكنة ويقرؤه بعيداً عن التصويت التقليدي ، مخالفاً في قراءته الخاصة للأمثلة التي يقدمها ، ليس فقط النص المسوري العبري المحرك ، وهو النص العبري الكامل الوحيد ، بل كل الترجمات التي وضعت للكتاب منذ الترجمة اليونانية المعروفة بالسبعينية التي تمت أواسط القرن الثالث قبل الميلاد . ثم يضيف إلى ذلك وجهات نظر خاصة جداً في نحو وصرف اللغة العبرية لم يقل بها أحد من علماء التوراة قديمهم وحديثهم ، ويعمد إلى

استنباط معان جديدة لبعض الكلمات العبرية استناداً إلى اللغة العربية أو الآرامية . وسنورد مثلاً على ذلك من قراءته لقصة ابراهيم وملكي صادق في سفر التكوين : ١٤ التي عالجها في فصله الثاني عشر .

هل كان هناك حقاً ، في أي مكان ، ملك - كاهن معاصر لابراهيم يدعى «ملكي صادق»؟ هكذا يتساءل المؤلف في مطلع فصله الموسوم : «ملكي صادق وآلهة السراة» ثم يتابع : هذا ما يعتقده اليهود والمسيحيون بناءً على قراءتهم المغلوطة للتوراة ، سواء في نصها المسموري المحرك ، أو في الترجمات القديمة والحديثة . والواقع ان التوراة العبرية ، بنصها الأصلي غير المحرك ، لا تذكر ملكاً - كاهناً بهذا الاسم . صحيح أنه قد وردت في نصين توراتيين بنية من الأحرف الساكنة التي تقرأ «ملكي صدق» (التكوين ١٤ : ١٨ والمزامير ١١٠ : ٤) ، لكن هذه البنية في كلتا الحالتين ، ليست اسماً لشخص . والواقع هو أن «ملكي صدق» في التكوين ١٤ : ١٨ ليست اسم علم بل تعبير اصطلاحي يفيد معنى الطعام . والنص الكامل في التكوين ١٤ : ١٨ يقرأ بأحرفه الساكنة كما يلي : «و- ملكي صدق ملك شلم هو صيء لحم و- بين و- هو- كهن ل- ل- عليون» . وقد جرى تصويت هذا النص تقليدياً لكي يؤدي المعنى التالي : «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخبزاً وكان كاهناً لله العلي» .

لكن «ملكي» في هذا الاطار ، يتابع المؤلف ، ليست لفظة «ملك» بمعنى «الملك» مضافة إلى ضمير المتكلم ، بل هي جمع «ملك» صيغة تقليص للفظة «ملوك» بمعنى «لقمة» أو «ملء الفم» ، وهي اشتقاق من جذر فعلي وارد في العربية دون العبرية هو «ل» (ألك ، أي علك أو مضغ) ومن مشتقات هذا الجذر بالعربية* عبارة «ألك صدق» أي ما يؤكل وهو الطعام .

* - هكذا وردت في الترجمة العربية للكتاب . ونعتقد بوقوع خطأ مطبعي لأن المقصود هنا «العبرية» وليس «العربية» .

وهكذا يصبح المعنى الصحيح لنص التكوين ١٤ : ١٨ كما يلي «وملك شلم
أخرج ألوك صدق (أي طعاماً)، خبزاً وخمراً وكان كاهناً لعل عليون» .

هذا الاكتشاف المذهل، كما يصفه المؤلف، والذي جاء نتيجة مقابلة
الاسماء، قد قاده إلى تقديم الأطروحة الرئيسية لكتابه . ففي دراسته تنقلب
الأمور رأساً على عقب . وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة
ومناقشة صحتها التاريخية، فانه يأخذ تاريخيتها كمسلمة ويناقش جغرافيتها .

فمن بين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم
المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً
ومفصلاً . وعليه فليس هناك أدنى شك بأن اسلاف الاسرائيليين كانوا ذات
يوم قوماً قبلياً وقع في الأسر وأجبر على العمل والسخرة في مكان يسمى
«مصريم»، لم يكن بالضرورة مصر، وأنهم خرجوا من هناك برعاية قائد يسمى
موسى نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم الشريعة، وأنهم عبروا نقطة معينة
تسمى «هـ - يردن» ليست بالضرورة نهر الأردن ليستقروا في أرض كانت لهم
عليها أخيراً السيطرة السياسية، وهي ليست من حيث المبدأ فلسطين . وبعد
عصر القضاة والمملكة الموحدة تحت راية شاول فداود فسلیمان، تابع التاريخ
الاسرائيلي مساره كما ذكرت التوراة العبرية أنه فعل .

ولكن افترض أن كل هذا التاريخ حصل في فلسطين، ودراسة
النصوص التوراتية على هذا الأساس، سيؤدي إلى الابقاء على بحر من
الأسئلة بلا جواب . وإذا نقلت جغرافيا التوراة من فلسطين إلى غرب شبه
الجزيرة العربية، لا تبقى هناك أية صعوبة . وتصبح الصورة التاريخية العامة
للتوراة العبرية، التي هي الوحيدة التي تروي القصة الكاملة لأحد شعوب
الشرق الأدنى القديم، مفتاح اللغز لكل الأحاجي الغامضة لتاريخ الشرق
القديم، بدلاً من أن تكون هي نفسها الأحجية، وهي بعيدة كل البعد عن
كونها ذلك .

أما لماذا كانت نصوص التوراة بمثابة اللغز في تاريخ الشرق القديم

فيرجع ، كما يرى المؤلف ، إلى ان الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال المائة سنة الأخيرة ، تلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة . ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد ، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمين ، والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال من علماء الآثار ، من أقصاها إلى أقصاها ، وإن بقايا العديد من الحضارات المنسية قد نبشت من تحت الأرض ودرست وأرخت ، في حين أنه لم يعثر في أي مكان كان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة إلى أي حد بالتاريخ التوراتي . وأكثر من ذلك ، فإن التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأماكن ، وليس بين هذه أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أماكن في فلسطين . وحتى في هذه الحالة فإن الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية . ومع أنه قد جرى التحقيق في كامل ميدان التاريخ القديم للشرق الأدنى بعمق ، وبالعلاقة مع دراسة التوراة العبرية ، فإن هذا التاريخ ، في الموقع الذي هو فيه حالياً ، ما زال مليئاً بالغاز عدم اليقين ، مثله مثل علم التوراة الحديث . وسجلات مصر والعراق القديمة ، التي قرئت على ضوء النصوص التوراتية ، والتي أخذت تلميحاتها الطبوغرافية تقليدياً على أنها تتعلق بفلسطين والشام ومصر والعراق ، أجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين . والحملات المصرية والآشورية التي فهمت على أنها كانت موجهة ضد فلسطين وبلاد الشام ، كانت في الواقع موجهة نحو غرب شبه الجزيرة العربية . وأخبار هذه الحملات إذا قرئت في نصوصها الأصلية ، لا من خلال الترجمات التي وضعت لها حتى الآن ، سوف تساعد في كشف حقيقة مجريات الأحداث في الشرق القديم .

كل هذا لا يعني في رأي المؤلف ، أن اليهود لم يكن لهم أي وجود في

فلسطين خارج غرب شبه الجزيرة العربية في أيام التوراة، بل جل ما يعني هو أن التوراة هي بالدرجة الأولى سجل للتجربة التاريخية اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية في زمن بني اسرائيل. وفي غياب السجلات الضرورية لا بد من التكهن بكيفية استقرار اليهودية في وقت مبكر في فلسطين. وهنا يقول الصليبي أنه سيغامر بتفسير يقدمه.

فأولاً: يرى الصليبي أن بني اسرائيل قد طوروا في منطقة عسير منذ مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ديانة قادرة على اجتذاب المهتدين إليها من خارج موقعها الأصلي، خصوصاً وأنها كانت ديانة ذات كتاب طورها أناس قادرون على القراءة والكتابة. والمرجح أن الانتشار المبكر لليهودية من موطنها الأصلي إلى فلسطين وبقاع أخرى في الشمال اتبع مسار القوافل التجارية، لأن منطقة عسير كانت نقطة تقاطع الخطوط التجارية الرئيسية في ذلك الزمن.

ثانياً: بسبب مواردها الطبيعية وموقعها التجاري كان غرب شبه الجزيرة العربية محطاً لأنظار الفاتحين. ويعد كل هجوم شامل من ناحية مصر أو بلاد الرافدين، كانت موجات جديدة من المهاجرين تتجه نحو جنوب بلاد الشام. ثالثاً: كان للحروب التي نشبت بين ملوك «يهوذا» وملوك «اسرائيل» والتي لم تتوقف منذ انهيار مملكة سليمان الموحدة، أكبر الأثر في دفع الهجرات نحو فلسطين. كما كانت هذه الهجرات تتعزز بالغزوات الخارجية.

رابعاً: في عام ٧٢١ ق.م قام الملك الآشوري صارغون الثاني بتصفية مملكة اسرائيل واستاق الأعيان من سكانها أسرى إلى بلاد فارس. ثم في العام ٥٨٦ ق.م قضى الملك البابلي نبوخذ نصر على مملكة يهوذا واقتاد الألوف من رعاياها إلى بابل. ويبدو أن وجوداً يهودياً، قوياً كان قد قام خلال هذه المرحلة في فلسطين، فلما ساءت أحوال الاسرائيليين في غرب شبه الجزيرة العربية صار اليهود هناك يتوسمون الخير في أرض الاستيطان الجديدة.

خامساً: بعد انهيار الدولة البابلية الجديدة على يد الفرس الذين كانوا يميلون إلى مصادقة اليهود، سمحوا لهم بالعودة فرجع منهم حوالي ٤٠ ألفاً مع

عائلاتهم إلى غرب شبه الجزيرة العربية وفي نيتهم إعادة بناء مجتمعاتهم هناك . غير أن الوضع الدولي الجديد كان قد غير مسالك التجارة من الجنوب إلى الشمال مما أدى فجأة بشبه الجزيرة العربية وشبكاتها التجارية إلى الركود الاقتصادي .

سادساً: عندما عاد المنفيون إلى بلادهم وجدوا كل ما حولهم خراباً وفقراً، ولم تكن الأوضاع العامة في شبه الجزيرة العربية تسمح لهم بإعادة بناء مجتمع متوازن اقتصادياً واجتماعياً . وبدوا أنهم أخفقوا في إعادة الروح إلى دولة ماتت وعفا عليها الزمن . وأما ما تلا ذلك فلا يمكن اكتشافه إلا بالتكهن ، لأن الرواية التاريخية للتوراة تتلاشى وتنتهي عند هذه النقطة وينتهي معها تاريخ بني اسرائيل الذين زالوا من الوجود كشعب . أما اليهودية كدين فاستمرت . ويحتمل أن يكون معظم العائدين في المرحلة الأخينية قد رجعوا إلى بلاد فارس والعراق . ومنذ ذلك الوقت فصاعداً وحتى تدمير الرومان لأورشليم الفلسطينية عام ٧٠ ميلادية تركز التيار الرئيسي للتاريخ اليهودي حول فلسطين . وقبل أن يمر وقت طويل كانت أصول اليهودية في غرب شبه الجزيرة العربية قد دخلت غياهب النسيان .

سابعاً: منذ بدايات استيطانهم في فلسطين قادمين من غرب شبه الجزيرة العربية ، أطلق اليهود على مستوطناتهم التي أحدثوها وعلى مستوطنات بائدة أحيوها أسماء مدنهم القديمة في موطنهم الأصلي . وفعلت مثلهم الشعوب التي جاورتهم هناك والتي هاجرت أيضاً إلى فلسطين وبلاد الشام مثل الفلسطينيين والكنعانيين والآراميين والموآبيين .

ثامناً: من العوامل التي ساعدت على طمس ذكرى الماضي اليهودي ، ما يتعلق بالتطورات السياسية في غرب شبه الجزيرة العربية وفي فلسطين بعد انقراض بني اسرائيل . ففي غرب شبه الجزيرة العربية ، أدى الضعف التدريجي الذي أصاب الامبراطورية الأخينية إلى نشوء كيانات سياسية جديدة ، مثل دولة معين التي قامت في المنطقة ذاتها التي شهدت قبلاً قيام مملكة

الاسرائيليين . وقد تشتت يهود شبه الجزيرة العربية بين هذه الكيانات المحلية . أما في فلسطين فقد رسمت فتوحات الاسكندر عام ٣٣٠ ق.م نهاية الامبراطورية الفارسية ، وبعد موته واقامة المملكة السلوقية في سورية ومملكة البطالسة في مصر ، خضعت فلسطين للسلوقيين بعد نزاع عليها مع البطالسة . وخلال القرن الثاني قبل الميلاد ، اغتنم اليهود فرصة استمرار النزاع على فلسطين بين السلوقيين والبطالسة فقاموا بثورة ناجحة حوالي سنة ١٤٠ ق م ، وتمكن قادة هذه الثورة من الحشمونيين الكهنة من السيطرة على اورشليم وتوسيع رقعة الاراضي اليهودية في فلسطين . وكان يهود العالم قد اعتادوا على النظر الى هيكل اورشليم الفلسطينية على أنه قدسهم الرئيسي ، على ما يبدو ، فاعتبر الحشمونيون أنفسهم الورثة الشرعيين لاسرائيل القديمة واستمرت مملكتهم حتى مجيء الرومان الذين أنهوا استقلالهم . وبغض النظر عما كانه الاسم الأصلي لأورشليم الفلسطينية في الحقيقة ، فمن المؤكد انه قد تم الاعتراف بها كأورشليم داود وسليمان الأصلية ، وذلك في أيام الحشمونيين ، إن لم يكن أبكر . وفي ذلك الوقت كان قد تم أيضاً اعتبار فلسطين بأنها هي الأرض الأصلية لشعب اسرائيل البائد وللتوراة العبرية . وكان المسرح الجغرافي للروايات التوراتية قد أصبح يفهم على أنه يضم بشكل رئيسي بلاد الشرق الأدنى الشالية ، وليس غرب شبه الجزيرة العربية .

نتائج اطروحات الصليبي :

بعد هذا العرض الموجز والوافي للأطروحات الرئيسية لنظرية كمال الصليبي ، نريد أن نبسط عدداً من النتائج الخطيرة التي توصلنا اليها النظرية . ونحن معنيون بهذه النتائج وحريصون على مناقشتها أكثر من حرصنا على مناقشة مسألة أصل التوراة وتاريخ قدماء الاسرائيليين . وإذا كان حوارنا المقبل عبر صفحات هذا الكتاب أن يتركز حول مسرح الحدث التوراتي ، فذلك من

أجل المسألة الرئيسية التي أثارت نظرية الصليبي الشكوك حولها، وأعني تاريخ الشرق الأدنى القديم، برمته، وخصوصاً خلال النصف الثاني من الألف الثاني، وكامل الألف الأول قبل الميلاد.

أولاً: إن النقاش الدائر داخل حلقات علماء التوراة والتاريخ والآثار حول مصداقية التوراة ككتاب تاريخي، يمكن الركون إلى معلوماته المتعلقة بأحداث الشرق القديم، وهو نقاش لم يحسم بعد، قد حسمه كمال الصليبي لصالح كتاب التوراة الذي اعتبره كتاباً تاريخياً موثقاً في جميع تفاصيله. فالإسرائيليون من بين جميع شعوب الشرق القديم كانوا وحدهم المالكين لاحتساس مرهف بالتاريخ، وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره (ص ٥٣). ولم يأت هذا الحسم لصالح المسائل التي صممت عنها وثائق الشرق القديم وأوردها كتاب التوراة، بل تعدى ذلك إلى التشكيك في مصداقية كل وثائق الشرق القديم لصالح النصوص التاريخية التوراتية.

ثانياً: تضع نظرية كمال الصليبي تاريخ منطقة الشرق القديم على أرضية مهتزة، لأنه يرى أن السجلات التاريخية للمنطقة قد قرئت حتى الآن بشكل مغلوط، وأجبرت على إعطاء مؤشرات جغرافية أو تاريخية تتوافق مع الأحكام المسبقة لدى الباحثين التوراتيين (ص ٥١ - ٥٢). وبذلك يسقط المؤلف من اعتباره كل الجهود المضنية لعلماء اللغات القديمة، التي بذلت خلال أكثر من قرن ونصف بكل دقة ودأب المناهج العلمية الحديثة، ويضرب صفحاً عن شبكة المعلومات المتناسكة التي وصل إليها علم التاريخ استناداً إلى وثائق الشرق القديم المكتوبة. وبذلك يخرج كتاب التوراة من دائرة الشكوك لتدخل إليها ألواح الشرق القديم.

ثالثاً: أسقط المؤلف من حسابه كل نتائج علم الآثار في فلسطين وبلاد الشام، وكل شبكة المعلومات المتناسكة والمتقاطعة مع شبكة المعلومات التاريخية، التي رسمتها بدقة أجيال متعاقبة من علماء الآثار خلال قرن ونصف

القرن ، وذلك لضالـح معلـوماته المتحصـلة عن طـريق مقابـلة أسـماء الأماكن .
وهو يرى «أن الدراسة اللغوية لأسماء الأماكن هي ضرب من علم الآثار» (ص ١٨)
بل تتفوق عليه أحياناً [«لأن الاكتشافات الأثرية اكتشافات خرساء مالم تتضمن كتابات منقوشة ، في حين أن أسماء الأماكن ناطقة ، لا تخبرنا بما هي فحسب بل تخبرنا أيضاً بكيفية نطقها الفعلي وبمعناها وباللغة أو نوع اللغة التي انبثقت عنها . وفي غياب الكتابات والنقوش تبقى الاكتشافات الأثرية صعبة التفسير ، وإلى درجة تجعل الجدل بين علماء الآثار حول المغزى التاريخي لاكتشافات معينة كثيراً ما يتدنى إلى مستوى الضغائن الشخصية»] (ص ٦٠) . وهكذا تتحول كل انتصارات علم الآثار الحديث إلى معلومات متناقضة ، عند المؤلف ، تهبط إلى مستوى الضغائن الشخصية .

رابعاً : نادراً ما استخدم المؤلف تعبير «علماء تاريخ» أو «علماء آثار» ، وغالباً ما استخدم تعبير «الباحثين التوراتيين» أو «علماء التوراة» وكأن تاريخ الشرق القديم قد كتبه الباحثون التوراتيون ، وآثاره قد نبشها علماء التوراة . وهذه صورة غير مطابقة للواقع تماماً ، ففي مجال تاريخ وآثار الشرق القديم اليوم ، هناك تصنيف دقيق جداً يفرق بين الباحثين الموضوعيين ونتائجهم ، وعلماء التوراة والمؤرخين والآثاريين الدائرين في فلكهم . وانه لمن الظلم لنتائج علمي التاريخ والآثار في حقل الشرق القديم أن تدمغ بهذا الشكل التعسفي .
خامساً : يرسم كتاب الصليبي خارطة سياسية وبشرية فريدة من نوعها لبلاد الشام وغرب العربية . فبعد أن نقل مسرح الحدث التوراتي إلى غرب العربية ، كان عليه أن ينقل معه كل مواطن الشعوب التي تشابكت أخبارها في الرواية التوراتية . وبما أن هذه الشعوب موجودة تاريخياً وآثارياً باسمائها ومواطنها في منطقة مصر والهلال الخصيب ، فقد عمل على إيجاد مشائلهما في غرب العربية . فالكنعانيون موجودون في فلسطين والساحل السوري وأيضاً في عسير وغرب العربية ، ومدنهم تحمل الأسماء ذاتها هنا وهناك . والآراميون موجودون في بلاد الشام الداخلية وأيضاً في غرب العربية ومدنهم تحمل الأسماء

ذاتها، وكذلك الفلسطينيون بمدنهم الخمس الرئيسية القائمة على الجهة البحرية من فلسطين، وفي أماكن متفرقة من غرب العربية، ومثلهم الأموريين والموآبيون والعمونيون وغيرهم. حتى لكأنها مرآة عاكسة وضعت عند خط ما في شمالي شبه الجزيرة العربية تلقي بصورة بلاد الشام نحو غرب العربية، لتخلق هناك طيفاً لا نظنه إلا وهماً لا سند له.

سادساً: غير أن تلك الصورة المعكوسة تغدو هي الأصل وفق نظرية المؤلف، ونصوص الشرق القديم يجب إعادة دراستها من جديد في نصوصها الأصلية، لتظهر بما لا يدع مجالاً للشك بأنها كانت سجلات لوقائع جرت في غرب العربية لا في بلاد الشام. كل ذلك يخلق معضلة تاريخية لم يحدد المؤلف أبعادها ولم يعن بتقديم مفتاح واحد لحلها: فإذا كانت سجلات مصر وبلاد الرافدين (خصوصاً آشور) معنية بتاريخ غرب العربية، فأين الوثائق المعنية ببلاد الشام وهي الجار الأقرب سواء بالنسبة لمصر أم لآشور؟ وأين تاريخ بلاد الشام في أخبار الوثائق القديمة التي تتقاطع فوقها دون أن تحفل بها؟ ان النتيجة التي لم ينتبه اليها المؤلف، لمثل هذا الطرح، هي تغييب تاريخ بلاد الشام وإبراز تاريخ بني إسرائيل.

هذه النتائج هي موضوع حوارنا مع كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» عبر الصفحات المقبلة.

حول المنهج

سوف يعتمد منهجنا في هذا الكتاب، أساساً، على مناقشة النتائج لا على الدخول في جدل عقيم حول الوسائل . ففيمما يتعلق بكل مسألة من المسائل الرئيسية التي أثارها كمال الصليبي ، سوف نفترض الصحة في منهجه ووسائله ، حتى نتوصل إلى نتائج معاكسة نستمدّها من البيئة التاريخية والبيئة الأركيولوجية والبيئة النصية المستمدة من كتاب التوراة ذاته ومن مواضع غير مختلف على قراءتها . أي ان هذا الكتاب سيكون بمثابة الفصل المفقود في كتاب الصليبي ، الذي يعني باختبار النتائج المتحصلة وفق منهج مقابلة أسماء المواقع ، ومقاطعها مع النتائج المتحصلة باستخدام منهج مغاير .

ففي حالة بارزة هي حالة مدينة «صور» الوارد ذكرها مراراً في التوراة ، يصل الصليبي إلى نتيجة مفادها أن صور التوراتية ليست هي «صور» الفينيقية الواقعة على الساحل السوري ، بل هي الواحة المسماة اليوم «زور» أو «زور الوادع» في منطقة نجران بمحاذاة بلاد «يام» المجاورة للصحراء العربية الداخلية ، وسفن صور التي تروي عنها التوراة كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة لا سفن تمخر البحر (ص ٣٤ - ٣٥) . إن امتحاننا لهذه المسألة لن يتبدى بمجادلة المؤلف في نوعية القلب والاستبدال التي طرأت على الاسم التوراتي ولا في الطريقة التي قرأ بها كلمة «سفن» بالعبرية ، وما إلى ذلك من وسائل منهجه ، بل بالتعامل مع النتيجة مباشرة .

فإذا كانت وثائق وادي الرافدين التاريخية هي سجلات لأحداث جرت في غرب العربية، كما يؤكد المؤلف، فإننا واجدون فيها ولا شك ما يؤيد صحة نتائجه حول مدينة صور التوراتية. وهنا نبدأ في اجراء التقاطع الأول للنتيجة مع البيانات التاريخية، فنأخذ في التفتيش عن صور في وثائق وادي الرافدين، فإذا تبين لنا أن صور، أينما وردت في تلك الوثائق، هي مدينة بحرية وأنها تتألف من قسمين واحد يقع على جزيرة قرب الشاطئ والآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الأول الذي يشير إلى «صور» المدينة الفينيقية على الساحل السوري لا إلى «زور» الصحراوية في غرب العربية. ثم نتقل بعد ذلك إلى اجراء التقاطع الأثاري، فإذا كانت الاكتشافات الأركيولوجية في موقع صور الفينيقية تؤكد أن المدينة القديمة كانت مؤلفة من قسمين واحد في البحر وآخر على البر المقابل، حصلنا على الدليل الثاني. أخيراً يبقى أن نجد في نصوص التوراة ما يؤكد هذا أوداك. فإذا قرأنا في سفر حزقيال: ٢٦ عن صور ما يلي: [كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانهم]، وفي سفر زكريا: ٩. . . وقد بنت صور لنفسها حصناً وكومت الفضّة كالتراب والذهب كطين الأسواق. هوذا الرب يملكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار]، ثم اتفقت معظم المواضع التي ورد فيها ذكر صور مع ما ورد في سفر حزقيال وزكريا من وصف لمدينة بحرية، نكون قد حصلنا على الدليل الثالث وتوصلنا إلى نتيجة مدعومة علمياً تناقض نتيجة كمال الصليبي، التي تبدو عقب ذلك معلقة في الفراغ وفي حاجة إلى دفوع جديدة يقدمها صاحب النظرية، خارج منهجه في مقارنة أسماء المواقع والأمكنة.

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى ثلاثة أبواب: واحد يعنى بتقديم البيئة التاريخية وآخر بتقديم البيئة الأثرية (الأركيولوجية) وثالث بتقديم البيئة النصية. ولغرض تعميم الفائدة على جميع شرائح القراء، فقد حاولنا أن

نصوغ حوارنا بطريقة نعرض من خلالها، بشكل سلس ومتتابع ، إلى المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم وبعضاً من أهم معضلاته واشكالاته .
وغامرنا بكل حذر علمي في ابداء وجهات نظر شخصية نبقيا مفتوحة للمناقشة والتعديل ، لما قد نتعلمه من الزملاء الباحثين السابقين في هذا الميدان

الباب الأول

البيئة التاريخية
وشائج الشرق القديم

قبل حملة نابليون على مصر، كانت معلوماتنا عن تاريخ الشرق القديم مستمدة من المصادر الاغريقية والرومانية (المصادر الكلاسيكية)، إضافة إلى ما تضمنه كتاب التوراة من أخبار متفرقة. ولم تكن هذه المصادر موثوقة بما فيه الكفاية، لأن تدوينها لم يعتمد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصي الحقائق، كما هو شأن علم التاريخ الحديث، بل اعتمد الأخبار المنقولة والقصص المتداولة والمشاهدات الشخصية العابرة، وتداخلت فيها الأهواء الشخصية للمؤلفين. ولكن التنقيبات الأركيولوجية في المنطقة التي افتتحتها حملة نابليون، وما نتج عنها من حل رموز الكتابات الشرقية وفهم لغاتها، قد وصلتنا بالحضارات القديمة مباشرة من دون وسيط، وأمدتنا بحقائق لا يمكن الشك بصحتها. وقد تكونت لدينا الآن وبعد أكثر من قرن ونصف من بذل الجهود المتضافرة لعلماء الآثار والتاريخ واللغات القديمة، صورة واضحة عن تاريخ وحضارات بلاد الشرق القديم. وبشكل خاص، لعبت الوثائق التاريخية التي دونتها تلك الشعوب عن أحداث زمنها دوراً أساسياً في معرفتنا بها وبحضاراتها ومجريات تاريخها وتاريخ الشعوب التي احتكت بها. لقد حُلّت منذ زمن، الكتابات الهيروغليفية المصرية والحثية، والمسمارية. السومرية والأكادية والآشورية والأوغاريتية، والأبجدية الكنعانية والآرامية، وفهمت لغاتها، وقرئت نصوصها وصححت قراءاتها مراراً وتكراراً

من قبل علماء كرسوا حياتهم لهذه الغاية ، وبنى أجيال من المختصين عملها على انجاز من سبقها وطورته وفق المستجدات والمستحدثات ، حتى صارت قراءتنا للنصوص الشرق القديم إلى حالة من الاستقرار لا يطاله نقض جذري ، رغم بقائها منفتحة على التعديل والتنقيح مما يطال الغوامض والاشكالات الطفيفة من دون الأساسيات . من هنا ، فنحن نرى أنه من التعميم الظالم أن تتهم كل هذه الجهود بالانطلاق من وجهة نظر توراتية والسير في ركاب علماء التوراة ، لأن الواقع في معظم جوانبه هو عكس ذلك تماماً . فلقد كان اكتشاف رقم سومر وبابل وآشور وماري وأوغاريت ، بداية لظهور اتجاه علمي جديد في نقد كتاب التوراة وتمحيصه بمنهج منفتح بعيد عن التعامل مع التوراة ككتاب مقدس يجسد كلمة الاله الموحدة ، وتمت إعادة النظر في مجمل معطياته التاريخية والادبية والدينية على ضوء النصوص المكتشفة .

من هنا فنحن ننظر إلى دعوة كمال الصليبي إلى إعادة النظر بقراءات وثائق الشرق القديم بكثير من التردد والحذر ، خصوصاً وأنه لم يبين ولوبمثال واحد موضع الخطأ في قراءة أي نص آشوري أو بابلي أو مصري ، ولم يبين لنا أي منهج جديد نستبدله بالمنهج القائمة في قراءة هذه النصوص . نستثني من ذلك نصاً فلسطينياً من بضعة أسطر مكتوباً بالكنعانية الفلسطينية (المدعوة خطأ بالعبرية المبكرة) ينقد فيه قراءة العالم التوراتي والأركيولوجي واختصاصي اللغات السامية المعروف وليم . ف . ألبرايت (انظر الصفحات من ٣١٣ إلى ٣١٤) ، وهو الشخصية البارزة في المدرسة التوراتية في مجال تاريخ وآثار ولغويات فلسطين . وفيما عدا ذلك فهو لا يني عن تكرار القول بأن علينا أن نعيد قراءة سجلات مصر وبلاد الرافدين بلغاتها الأصلية من دون الترجمات التي وضعت لها حتى الآن ، وذلك من غير أن يقدم نموذجاً نقدياً واحداً ، سواء أكان هذا النموذج من نتاجه أم من نتاج غيره من الباحثين .

ولما كانت سجلات الشرق القديم ، التي تعتبر إحدى ركائز علم التاريخ الحديث ، مجهولة لدى غالبية قراء كتاب كمال الصليبي ، وحبيسة

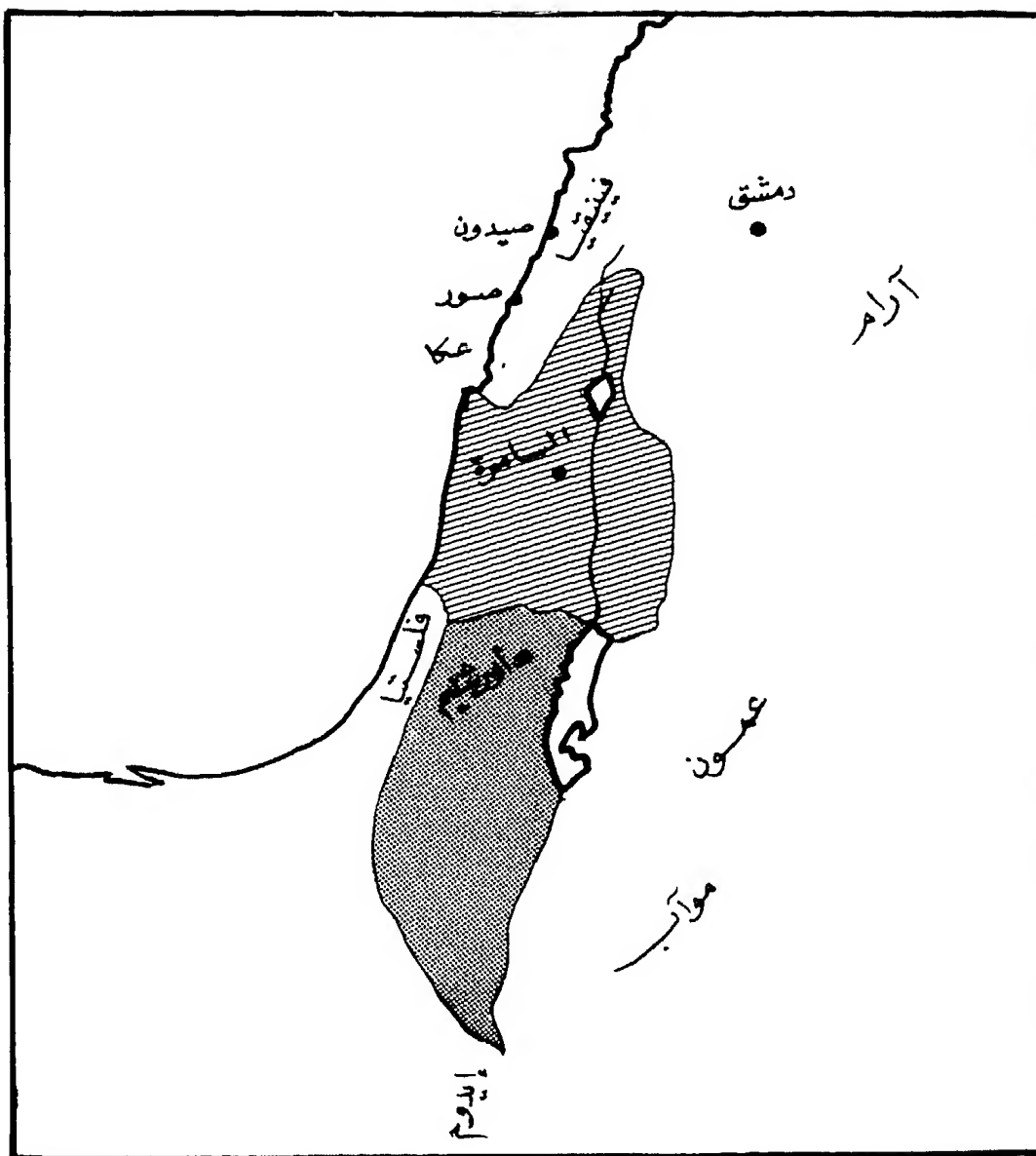
الكتب الاختصاصية جداً، فأننا سنعمد في هذا الباب من كتابنا إلى إيراد عدد كاف منها في حدود موضوعنا المطروح، ونختبر أطروحات المؤلف الرئيسية على محك المعلومات الثابتة التي تقدمها، مركزين بشكل خاص على سجلات الحملات المصرية والآشورية وما تضمنته من معلومات طبوغرافية وجغرافية، مع اجراء التقطعات بين هذه المعلومات وتنتاج التنقيب الأركيولوجي الحديث في المنطقة.

وكما أشرنا سابقاً، فإن جهدنا لن يكون منصباً على تاريخ بني اسرائيل، بل على تاريخ أرض كنعان، وبلاد الشام عموماً. ذلك أن الاسرائيليين ما شكلوا يوماً قوة سياسية يعتد بها، ولا قدموا اسهاماً حضارياً يمكن وصفه بالاسهام الاسرائيلي المتميز بخصائص واضحة، بل عاشوا طيلة تاريخهم القصير تحت مظلة كنعان الوارفة.

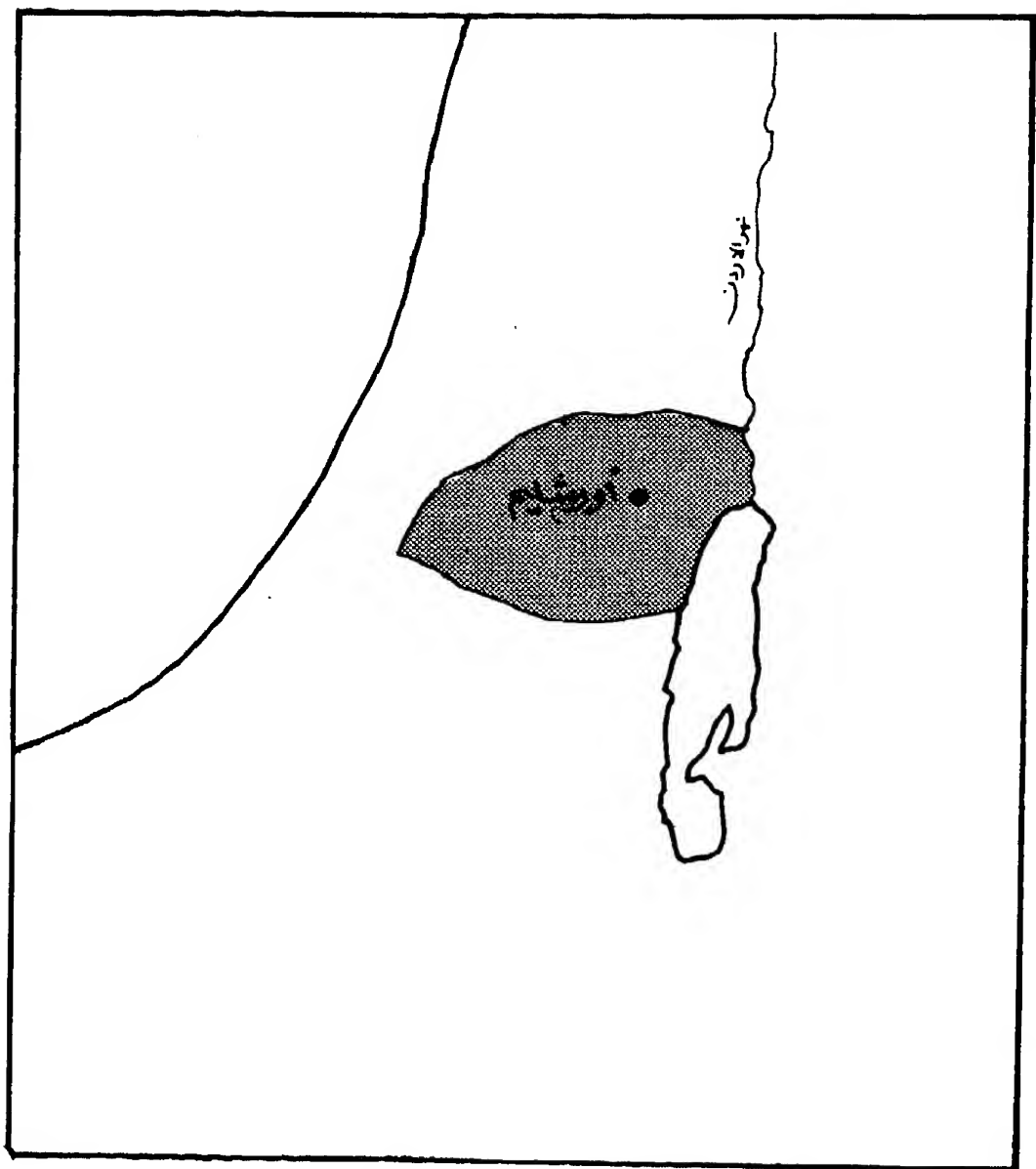
فبعد مملكة داود وسليمان الموحدة التي لم تدم أكثر من خمسين سنة إبان القرن العاشر قبل الميلاد، والتي بسطت سلطتها السياسية لفترة مؤقتة على كامل أرض كنعان الفلسطينية (انظر خريطتنا رقم ١) انقسمت السلطة السياسية إلى مملكتين، مملكة اسرائيل في الشمال تتبعها عشرة أسباط، ومملكة يهوذا في الجنوب وتبعها سبط واحد اضافة إلى سبط يهوذا (انظر خريطتنا رقم ٢). لم تدم حياة مملكة اسرائيل، التي عاشت كمملكة كنعانية في ديانتها وشتى مظاهرها حضارتها، أكثر من قرنين من الزمان، إذ تم محوها من الخارطة بشرياً وسياسياً على يد الآشوريين عام ٧٢٠ ق.م، وحملت أسباطها العشرة إلى المنفى حيث ضاعت إلى الأبد، ولم يعد أحد من المنفيين قط، على ما تؤكد الرواية التوراتية. وقد أحل الآشوريون في الأرض سكاناً جدداً من مناطق بلاد الشام المقهورة الأخرى، على ما تذكره الرواية التوراتية وتؤكد السجلات الآشورية التي تذكر بالتفصيل المناطق التي جرى ترحيل السكان منها إلى اسرائيل. أما مملكة يهوذا فاستمرت بعد دمار مملكة اسرائيل قرابة قرن من الزمان إلى أن دمرها «نبوخذ نصر» البابلي واقتاد جل أهلها إلى المنفى (عام

٥٨٧ ق.م). ولم يعد من هؤلاء المنفيين سوى قلة قليلة أيام «قورش» الفارسي الذي قضى على المملكة البابلية الجديدة عام ٥٣٩ ق.م ، وقد حاول العائدون تشكيل دولة صغيرة جداً في أورشليم وجوارها لم تتجاوز مساحتها سدس مساحة فلسطين الاجمالية (انظر خريطتنا رقم ٣). وبعد ذلك تدخل فلسطين تحت الحكم اليوناني فالروماني، ويتم الافناء النهائي للقلة اليهودية عام ٧٠ ميلادية عقب ثورة قامت بها على السلطة الرومانية .

فالوجود السياسي للاسرائيليين، إذن، لم يستمر أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن في أرض كنعان التي يضرب تاريخها الطويل في مطالع التاريخ ابان الألف الرابع قبل الميلاد. ومآثرتهم الثقافية الوحيدة كانت كتاب التوراة الذي بدأ أحبار اليهود بتحريره، نقلاً عن وثائق متفرقة وروايات متناقلة، إبان الأسر البابلي وأنهموا عملهم بعد العودة من السبي . وهذه المأثرة الوحيدة هي في الواقع ظاهرة ثقافية لا يمكن فهمها ودراستها إلا في السياق العام للحضارة الكنعانية اجمالاً، واعتبارها انجازاً من انجازاتها تم على يد فئة لم تزدد عن كونها فئة كنعانية في شتى مناحي حياتها وثقافتها.



الخارطة رقم (٢) - مملكة اسرائيل ومملكة يهوذا



الخارطة رقم (٣) - رقعة يهوذا بعد السبي

١- سجلات مصر الفرعونية

المملكة القديمة والمتوسطة :

رغم أن مصر كانت أقل تطلّعاً إلى الخارج وأقل رغبة في التوسع قبل طرد الهيكسوس (حوالي عام ١٥٧٠ ق.م) وإعادة توحيد البلاد، إلا أن علاقاتها مع جيرانها الشرقيين في بلاد الشام لم تنقطع قط منذ بدايات التاريخ المصري، يشهد على ذلك العديد من النصوص التاريخية المصرية والأعمال الفنية. فمن سجلات المملكة القديمة وصلتنا وثيقة للفرعون «سينفرو» الذي حكم حوالي ٢٦٥٠ ق.م، تتحدث عن وصول أربعين سفينة محملة بخشب الأرز لاستخدامها في صنع أبواب القصر الملكي^(١). ورغم أن مصدر الخشب غير مذكور في النص، إلا أن السفن التي صعدت به نهر النيل لا يمكن أن تكون قد أبحرت إلا من أحد الموانئ السورية على شاطئ المتوسط. ويبدو أن إبقاء خطوط التجارة مفتوحة مع سورية كان يتطلب، بين الحين والآخر القيام بحملات عسكرية. ولدينا نصوص ورسوم تصف مثل تلك الحملات منذ عصر الأسرة الخامسة، منها رسم يصور سفناً عائدة بأسرى آسيويين من عهد «سامو-رع» الذي حكم حوالي ٢٥٥٠ ق.م، ورسم آخر عثر عليه في أحد أصرحة الأسرة السادسة يصور هجوماً مصرياً على قلعة

1- John A. Wilson, Egyptian Historical Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) p 227

يدافع عنها آسيويون^(٣). وهناك نص من موقع «أبيدوس» تركه قائد عسكري عمل لدى الفرعون «بيبي الأول»، وهو أحد فراعنة الأسرة السادسة، وحكم حوالي عام ٢٣٧٠ ق.م، يتحدث فيه عن انتصارات المصريين على الآسيويين^(٤) دون أن يقدم معلومات كافية عن نوع الشعوب الآسيوية التي تعرضت للهجوم، أو تفاصيل جغرافية تعين على تحديد المناطق التي غطتها الحملات المصرية في ذلك الوقت.

تقدم نصوص المملكة المتوسطة معلومات أكثر تفصيلاً تساعدنا على معرفة الأماكن والشعوب الآسيوية التي كان المصريون على احتكاك بها. ففي نص تركه أحد أفراد حاشية الفرعون «سينوسرت الثالث» الذي حكم حوالي عام ١٨٨٠ ق.م، يتحدث كاتب النص عن حملة الفرعون جنوباً نحو بلاد النوبة، ثم انقلابه شمالاً لتأديب الآسيويين: [اتجه جلالته نحو الشمال لقهر الآسيويين، فوصل المنطقة الأجنبية المسماة «شكيم»، فسقطت بيده شكيم مع الـ «ريتينو» الأندال.].^(٥) ورغم قصر هذا النص واختزاله، فإنه يقدم لنا معلومات لا بأس بها عن مسرح حملة الفرعون. فبعد انتصاره في حملات النوبة جنوباً، يتوجه شمالاً للقاء الآسيويين في فلسطين، لا شرقاً نحو عسير عبر البحر الأحمر. وهو يصل إلى «شكيم» التي هي «شكيم» التوراتية، المدينة الكنعانية المزدهرة في فلسطين خلال عصر البرونز الوسيط، والتي تذكر الرواية التوراتية أن إبراهيم قد نصب خيامه بجوارها (التكوين ١٢ : ٦) وأن يعقوب قد ابتاع فيها قطعة نصب فيها خيمته (التكوين ٣٤ : ٢). ويبدو أن شكيم في هذا النص كانت على رأس حلف من الدويلات المجاورة، لأن الفرعون يهزمها ومعها الـ «ريتينو». وكلمة الريتينوتشير، باجماع علماء الهبروغليفية

2- Ibid p 227

3- Ibid, P228

4- Ibid, P 230

المصرية، إلى بلاد سورية وفلسطين^(٥)، ولا يوجد في النصوص المصرية ما يدل على علاقتها بجزيرة العرب.

وفي الحقيقة يقدم لنا هذا النص أقدم مثال عن أحلاف الدويلات السورية التي كانت تعقد لمواجهة الخطر الذي يأتي إما من وادي النيل أو وادي الرافدين، دون أن تتحول هذه الأحلاف إلى دولة مركزية واحدة. إلى جانب النصوص والمشاهد التصويرية الفنية المصرية، تساهم المكتشفات الأثرية في سورية في إعطاء صورة عن العلاقات المصرية السورية خلال عصر المملكة المتوسطة. فقد عُثر في العديد من المواقع السورية على مصنوعات يدوية مصرية عليها أسماء فراعنة من المملكة المتوسطة أو أسماء لمبعوثين مصريين، وذلك في «جبيل» (بيبلوس) و«بيروت» و«أوغاريت» على الساحل السوري، وفي «قطنا» (تل المشرقة) أواسط سورية، وفي «مجدو» بفلسطين^(٦). ويبدو أن هذه المصنوعات كانت هدايا ملكية للتعبير عن العلاقات الدبلوماسية بين الفراعنة وملوك الدويلات السورية. وقد أمدتنا حديثاً مكتشفات موقع «ايلا» بشمال سورية بمثال جديد عن العلاقات المصرية السورية في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. فقد عثرت بعثة التنقيب هناك خلال حملة ١٩٧٨ - ١٩٧٩ على صولجان ملكي عليه اسم الفرعون «حوتيب إبرا» من الأسرة الثالثة عشرة، والذي حكم بين عام ١٧٧٥ وعام ١٧٦٥ ق. م، وكانت الحملات التنقيبية في فلسطين قد اكتشفت في «أريحا» نحتين صغيرين يمثلان جُعللاً، عليهما اسم الفرعون نفسه. كما عثر في «جبيل» على نحت بارز للفرعون «نيفر حوتب الأول»، وفي «تل حزين» قرب «بعلبك» عثر على تمثال للفرعون «سوبيك حوتب الرابع» وكلاهما من الأسرة

5- Ibid, P 230

6- Ibid, P 228

الثالثة عشرة نفسها^(٧).

كان اجتياح الهكسوس القادمين من بلاد الشام، لمصر، بمثابة رد على محاولات التوسع لفراعنة المملكة المتوسطة. وقد احكم الهكسوس سيطرتهم على مصر قرابة مائتي عام من ١٧٣٠ إلى ١٥٧٠ ق.م، عندما تم طردهم على يد «أحمس الأول». ولدينا نص هيروغليفي من تلك الفترة يتحدث عن الحملة الأخيرة على مدينة «افاريس» عاصمة الهكسوس في منطقة الدلتا، ومطاردتهم من ثم إلى مواطنهم الأصلية في سورية. نقرأ في الجزء الأخير من النص على لسان أحد قادة الحملة: [. . . ثم سقطت أفاريس ونهبت، فغنمت رجالاً وثلاث نساء وهبهم لي جلالته عبيداً. بعد ذلك حوصرت «شاروحن» لمدة ثلاث سنوات سقطت بعدها ونهبت، فغنمت امرأتين ورجلاً جعلوا لي عبيداً وأعطيت ذهباً لشجاعتي. وبعد أن قضى جلالته على الآسيويين اتجه جنوباً لمحق النوبيين. بعد هذه الأمور أتى «تخوتمس الأول» فتوجه إلى بلاد «ريتينو» ليشفي غلة فؤاده في الأراضي الأجنبية، فوصل جلالته إلى «نهارين» حيث التقى بالاعداء بينما كان ينظم صفوف الجند، فأعمل فيهم مذبحه عظيمة. . .]^(٨).

يقدم لنا هذا النص معلومتين هامتين تتعلقان بموضوعنا، الأولى حول مدينة «شاروحن» والثانية حول منطقة «نهارين»، فبعد هدم عاصمة الهكسوس في الدلتا، يتابع الجيش المصري مطاردة الهكسوس الذين تحصنوا في مدينة شاروحن عند الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان في فلسطين، ويبدو أن المدينة كانت واقعة تحت سيطرتهم نظراً لقربها من الحدود. ومدينة شاروحن مذكورة في التوراة كاحدى المدن الكنعانية التي قسمت لسبط

7- Scandone And Matthiae, The Mace of Hotepibra (In: Studies In The History And Archaeology Of Palestine, Aleppo University 1987) PP 49-52

8- John A. Wilson, op. cit PP 233- 234.

شمعون ضمن أراضي سبط يهوذا في جنوب فلسطين . نقرأ في سفر يشوع ١٩ : ١ - ٥ . [وكان نصيبهم داخل نصيب بني يهوذا . فكان لهم في نصيبهم بئر سبع وشبع ومولادة وحصر شوعال وباله وعاصم والتولد . وتبول وحرمة وصقلع وبيت المركبوت وحصر سوسة وبيت لياوت وشاروحين] .

وهكذا يتحدد معنا المكان التقريبي لاحدى المدن الحدودية الجنوبية لأرض «يهوذا» . فالجيش المصري لم يطاردهم الهيكسوس ، بعد تدمير عاصمتهم في الدلتا ، قاطعاً صحراء سيناء ثم ملتفاً حول خليج العقبة هابطاً شواطئ البحر الأحمر إلى مناطق عسير حيث المكان المفترض لأرض يهوذا التوراتية في نظرية الصليبي (انظر الفصل ٨ من كتابه) ، وانما توجه مباشرة من أفارس إلى الطرف الجنوبي الغربي لأرض كنعان ، حيث داهم خط الدفاع الثاني الذي أقامه الهيكسوس في شاروحين اثناء تراجعهم نحو الأراضي التي أتوا منها أصلاً ، كموجة من موجات العموريين التي انساحت في منطقة الهلال الخصيب مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد .

كما أن تحديد موقع شاروحين في جنوب فلسطين يساعدنا على تحديد موقع توراتي هام استبعد الصليبي وجوده في أرض كنعان وهو «بئر السبع» (انظر الفصل ٤ من كتابه) . فبئر السبع ترد في النص التوراتي المذكور أعلاه بالتوافق مع شاروحين ومجموعة المدن التي أعطيت لسبط شمعون ضمن أراضي يهوذا . وبذلك يتحدد موقعها في جنوب فلسطين وفي مكان لا يبعد كثيراً عن موقع بئر السبع الحالية . وتحدد بئر السبع بدورها مكان صحراء النقب التوراتية (هـ - نجب) باعتبارها البادية الواقعة جنوبي فلسطين ، وهي التي نقلها الصليبي مع بئر السبع إلى أواسط منطقة عسير في غرب العربية .

المملكة الحديثة - تحوتمس الأول :

بعد آمحوس الأول ، يتابع الفرعون «تحوتمس الأول» ، في النص أعلاه ،

مطاردة الهيكسوس واستئصال شأفتهم، فيسير على خطى أحس إلى بلاد «ريتينو» حتى يصل «نهارين» فيقضي على العدو في معركة حاسمة. ويعود أدراجه. وبلاد ريتينو، كما ذكرنا منذ قليل، هي حصراً سورية، وفلسطين في النصوص المصرية. أما نهارين فهي مثنى «نهر» وتشير في النصوص المصرية، كما سنرى مراراً فيما بعد إلى حوض الرافدين وإلى حوض الفرات الشمالي بشكل خاص. وسوف نتحدث بالتفصيل عن علاقة «نهارين» النصوص المصرية بآرام النهرين التوراتية، لاحقاً.

تخوتمس الثالث:

تراخت قبضة مصر عن الدويلات السورية قليلاً إبان حكم «تخوتمس الثاني» والملكة «حتشبسوت». ولكن ما ان ارتقى العرش «تخوتمس الثالث» (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م)، حتى بدأ بسلسلة من الحملات على بلاد الشام دامت طيلة حياته. وكانت معركة «مجدو» بفلسطين، التي قادها ضد تحالف سوري، فاتحة معاركه الكبرى، والمؤسسة الحقيقية لسلطة الأسرة الثامنة عشرة في آسيا. ولدينا نص طويل منقوش على جدار معبد الكرنك يسرد الحوليات الحربية لتخوتمس الثالث ويتحدث بتفصيل وإفاضة عن حملة مجدو، مع ذكر الأماكن والتواريخ بدقة. وسنقدم فيما يلي ملخصاً لأهم فقراته:

في مطلع النص، يجتاز تخوتمس الثالث حصن «صايل» - Sile على الحدود المصرية قرب بلدة القنطرة الحالية في برزخ السويس، وذلك في اليوم الخامس والعشرين من الشهر الرابع من الفصل الثاني للسنة، ثم يتقدم نحو بلدة «شاروحين» التي كانت الحامية المصرية معسكرة فيها، ويجتازها إلى «غزه» التي يصلها في اليوم الرابع من الشهر الأول من الفصل الثالث للسنة. أي خلال مدة مقدارها تسعة أو عشرة أيام. وفي اليوم السادس عشر من الشهر نفسه يصل الجيش المصري إلى مدينة «ياهيم» - Yehem، التي حدد

الباحثون موقعها عند الطرف الجنوبي لجبل الكرمل، أي خلال مدة مقدارها احد عشر يوماً، هناك يعقد الفرعون اجتماعاً لقادة جيشه شارحاً لهم الوضع العسكري :

[لقد دخل جيش «قادش»، العدو اللثيم، إلى مدينة «مجدو». وهناك جمع اليه أمراء كل البلاد الأجنبية التي كانت موالية لمصر. وكذلك «نهارين» و «ميتاني» من حوريين - Hurru وكسوديين - Kode، باحصنتهم وجيوشهم ورجاهم. وكما نمي اليها، فقد قرر العدو أن ينتظر في مجدو ليقا تل صاحب الجلالة. فهلا أفضيتم إلي برأيكم في هذه المسألة؟]. بعد الاستماع إلى الفرعون، شرح له القادة الوضع التكتيكي للعدو. فجنّاح دفاعه الجنوبي في «تعنك» - Taanak، والشمال في «وادي قينا» Qina قرب مجدو. وهناك ثلاثة محاور تؤدي إلى العدو. الأول مباشر وقصير ولكنه ضيق لا يسمح بالتقدم إلا في رتل واحد، والآخران أطول ولكنها أسلم، واحد ينتهي في تعنك والآخر في «زفته» Djefiti. ورجوه ألا يأخذ الطريق القصير المباشر. ولكن الفرعون، خلافاً لنصيحة قواده، قرر التقدم على الطريق القصير الضيق مباغتاً العدو الذي لم يكن يتوقع ذلك فهزمه هزيمة منكرة، أتى بعدها الأمراء المتحالفون لتقبيل قدميه وطلب العفو⁹].

يعطينا هذا النص القيم معلومات جيدة حول عدة مواقع كنعانية قديمة ورد ذكرها في التوراة وهي : غزة وشارو حين وتعنك ومجدو. كما يذكر مدناً وشعوباً عرفنا بها علم الآثار وعلم التاريخ مثل قادش وميتاني وكود. ورغم أن كمال الصليبي لم يتعرض لحملات تحوّمس الثالث الشرقية بشكل خاص، إلا أنه حدد في مواضع متفرقة من كتابه أماكن بعض المواقع الواردة أعلاه في غرب العربية. فغزة هي «آل عزه» القرية الجبلية في أواسط سلسلة السراة جنوب النهاص (ص ١٠٠)، وميتاني هي «وادي متان» في منطقة الطائف، ونهارين

9- Ibid, P 235-238.

هي قرية «النهارين» في موقع غير بعيد عن وادي متان في منطقة الطائف (ص ٢١٩)، ومجدوهي «مقدي» في منطقة القنفذة (ص ١١٩)، وتعنك هي «الكنعه» في تهامة زهران - (انظر خريطة الصليبي رقم ٣).

فإلى أي حد ينطبق مسار حملة تحوّمس الثالث على هذه المواقع في غرب العربية؟

يتضح من النص أن حلف الدويلات السورية قد عقد هذه المرة تحت لواء مملكة «قادش»، التي كانت مملكة مزدهرة في تلك الأيام وتحكم منطقة واسعة في أواسط وجنوب بلاد الشام. وقد ورد ذكرها مراراً في السجلات الحثية والآشورية وغيرها من وثائق الشرق القديم، مما ساعد المؤرخين على تحديد موقعها التقريبي، إلى أن تمكن علم الآثار من اكتشاف مدينة قادش تحت تل النبي مند على الطرف الجنوبي الغربي لبحيرة قطينة إلى الجنوب من مدينة «حمص» الحالية^(١٠). ويبدو أن ملك قادش قد جمع إليه العديد من حكام الممالك الشمالية، يذكر النص منها الحوريين والميتانيين والكوديين. وكان الحوريون، وهم شعب يتكلم اللغة الهندوأوربية، قد بدأوا بالتسرب إلى مناطق بلاد الشام الشمالية والجزيرة العليا منذ أوائل الألف الثاني قبل الميلاد، واستغلوا فترة ضعف السلطة في وادي الرافدين لتشكيل ممالكهم هناك، وأهمها مملكة «ميتاني» التي ازدهرت أواسط الألف الثاني قبل الميلاد في حوض نهر الخابور. ومعظم معلوماتنا عن مملكة ميتاني مستمد مباشرة من وثائق مدينة «نوزي» الميتانية التي تم الكشف عن أطلالها قرب «كركوك» في الأراضي العراقية الآن^(١١). أما «كود» و«كوديون» فهي تسمية أطلقها المصريون على

١٠- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤١٢.

١١- المرجع نفسه ص. ص: ٤٠٣ - ٤٠٥.

مناطق وسكان كيليكييا وشمال غربي سورية^(١٢).

وقد انضمت الممالك الشمالية بقيادة قادش الى الممالك الجنوبية التي انضوت تحت لواء «مجدو» الكنعانية في فلسطين. وقد استطاع علم الآثار التعرف على مجدو القديمة تحت تل المتسلم على بعد عشرين ميلاً جنوب شرقي حيفا، وهو تل بيضوي الشكل يتحكم بالمر الاستراتيجي الذي يفصل جبل الكرمل الذي يندفع نحو البحر، عن سلسلة الجبال المركزية في فلسطين. وقد كانت مصر دائماً راغبة في ابقاء هذا المر الاستراتيجي تحت سيطرتها من أجل تأمين تحركاتها نحو فلسطين الداخلية. كما كشفت التنقيبات أيضاً عن بلدة «تعنك» على مسافة خمسة أميال جنوب غربي مجدو تحت التل المعروف اليوم بتل تعنك. وقد أثبتت نتائج التنقيب الأركيولوجي أن الموقعين قد هدموا وانقطع فيهما الاستيطان منذ مطلع القرن الخامس عشر، أي منذ حملة تحوتمس الثالث ومعركة مجدو، إلى أواخر القرن الرابع عشر حيث انتعشتا مجدداً واستمرت إلى فترة الحكم الاسرائيلي^(١٣).

ويرد في التوراة أن الاسرائيليين قد فتحوا مجدو أيام يشوع بن نون (راجع سفر يشوع ١٢ : ٢١ و ١٧ : ١١). وهناك انتصر «باراق» و«دبوره» على الكنعانيين المدافعين بقيادة «سيسرا» (راجع سفر القضاة ٤ : ١٦ - ١٧). وتذكر مجدو مع تعنك باعتبارهما جارتين في منطقة واحدة (راجع سفر القضاة ٥ : ١٩ و يشوع ١٧ : ١٩).

والآن لتتابع مسار حملة تحوتمس الثالث على ما تذكره الوثيقة المصرية، وفي ضوء ما تشكل لدينا من معلومات حديثة. فالجيش المصري يجتاز حصن صايل المعروف في السجلات المصرية بوقوعه على الحدود المصرية مع شبه

12- John A. Wilson, op.cit p 262

13- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Menthuen, London 1985, PP 181-202, 342,335

جزيرة سيناء قرب قرية القنطرة الحالية ، ويدعى أيضاً حصن «تجارو»^(١٤) . ثم يجتاز بلدة شارو حين التي حددنا موقعها سابقاً عند الطرف الجنوبي الغربي لفلسطين ، ليصل إلى مدينة غزة بعد عشرة أيام ، وهي المدة اللازمة لقطع المسافة بين القنطرة وغزة وطولها حوالي مائة وخمسين ميلاً ، ضمن أراضٍ مسالمة واقعة تحت تهديد الحاميات المصرية التي كانت معسكرة في شارو حين . وبعد قضاء ليلة في غزة يتابع الجيش مسيرته إلى سفح جبل الكرمل على مقربة من مجدو التي تعسكر حولها قوات التحالف السوري بقيادة ملك قادش ، فيقطع المسافة بين غزة وجبل الكرمل ، وطولها ثمانين ميلاً في أحد عشر يوماً ، وهي مدة طويلة نسبياً والسبب في ذلك عائد إلى كون القوات المصرية تتقدم على طول الساحل الفلسطيني عبر مناطق عاصية ومعادية ، وذلك على عكس تقدمها في المقطع الأول من الحملة عند بلدة ياهيم ، يتوقف تحوتمس الثالث ليضع خطة الهجوم ، فنعرف من حديث قادته العسكريين أن المتحالفين كانوا يدافعون على خطوط متتابعة ، حيث المؤخرة في تعنك والقلب حوالي مجدو والمقدمة الى الشمال منها . ولكن مفاجأة الفرعون تفشل خطة التحالف ويسقط المدافعون فريسة سهلة في يد تحوتمس الثالث .

وهكذا نجد أن مسار حملة تحوتمس الثالث ينطبق بكامل تفاصيله ومسافته على جغرافية فلسطين من دون غرب العربية . فإذا كانت غزة المقصودة في هذه الوثيقة المصرية هي «آل عزه» الواقعة في أواسط جبال السراة جنوب النماص ، لتوجب على الجيش المصري بعد اجتيازه حصن صايل عند برزخ السويس ان يقطع صحراء سيناء ، ثم يلتف حول خليج العقبة ويهبط سواحل البحر الأحمر إلى منطقة القنفذة حيث يلتف شرقاً نحو جبال السراة في طريق وعرة وشاقة لا تقل مسافتها عن ١٢٠٠ ميلاً ، وهي مسافة لا يمكن اجتيازها في عشرة أيام على ما ذكره النص المصري بوضوح ، بل تتطلب قرابة

14- John A Wilson, op cit P 235

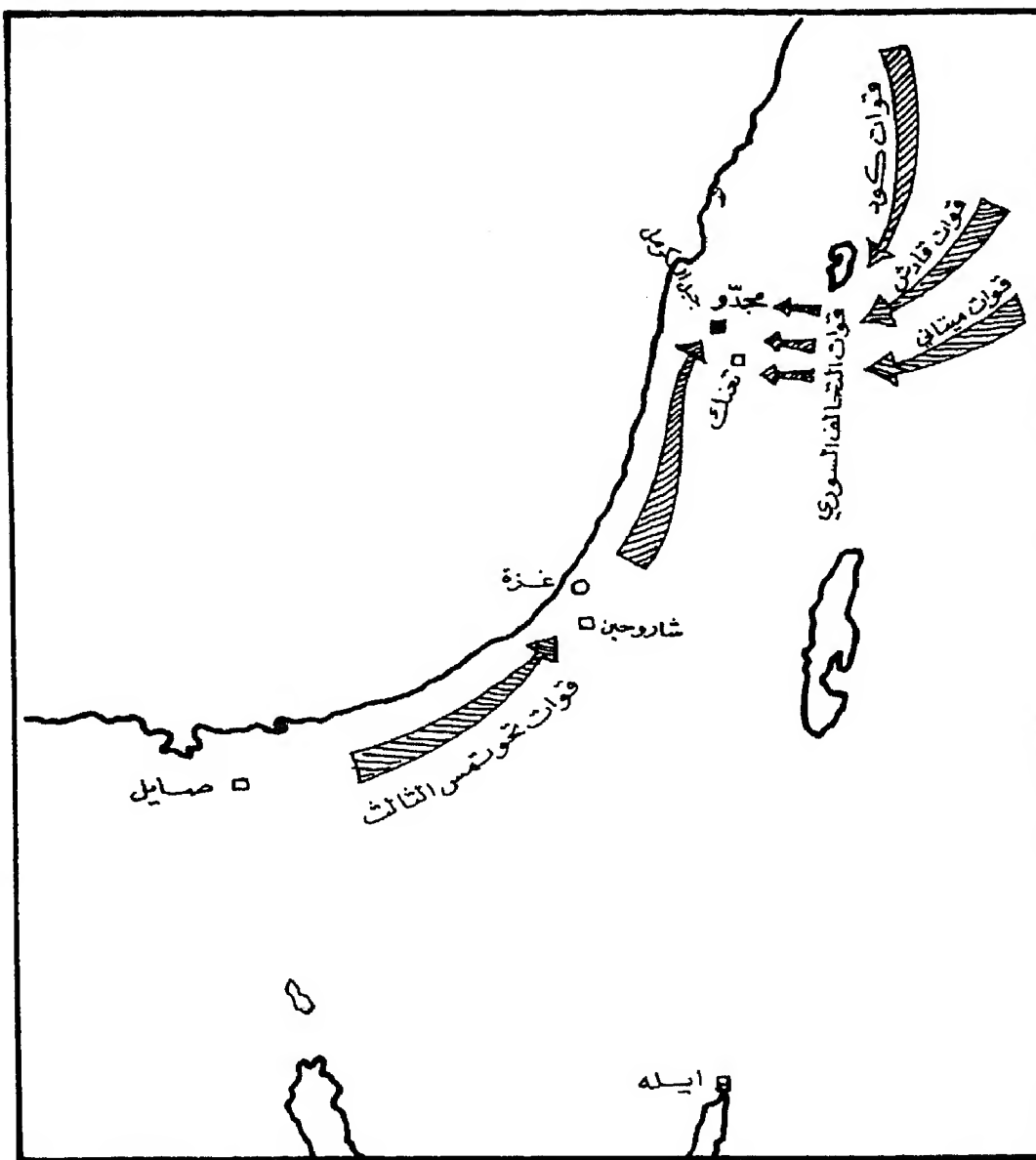
الشهر ونصف الشهر، إذا اخذنا المعدل المصري لمسيرة جندي المشاة في الساعة وهي ثلاثة أميال ونصف الميل . وإذا كانت «مجدو» التي نظمت حولها قوات التحالف السوري صفوفها هي «مقدي» غرب العربية، لوجب أن تكون «الكنعة» التي هي «تعنك» عند الصليبي على مقربة منها، ولكن نظرة إلى خريطة الصليبي رقم ٣ توضح أن المسافة بين «مقدي» في منطقة القنفذة و «الكنعة» في تهامة زهران لا تقل عن مائتي كيلومتراً، الأمر الذي يجعل من المستحيل تكتيكياً توزيع فرق المتحالفين على هذه المساحات الشاسعة، يضاف إلى ذلك أن النص المصري كان واضحاً كل الوضوح بخصوص تجمع قوات العدو في مجدو وجوارها (انظر خريطتنا رقم ٤) .

وفي نص آخر قصير وقليل التفاصيل منقوش على مسلة معروفة بمسلة «عمرات» نسبة إلى المكان الذي اكتشفت فيه بمصر، نجد إشارة أخرى إلى حملة تحوتمس الثالث على مجدو. فالفرعون يتوجه إلى بلاد «زاهي» Djahi ، وبلاد «ريتينو» لاختاد العصيان فيها، ونخوض معركة فاصلة ضد العدو الذي جمع قواته في مجدو^(١٥). وبلاد ريتينو كما رأينا هي فلسطين وسورية، أما بلاد زاهي، فهي كما يعرف كل دارس للنصوص المصرية، الساحل الفينيقي بشكل خاص، وقد تستعمل الكلمة بشكل مرن أحياناً للدلالة على الأجزاء القريبة من الساحل نحو سورية وفلسطين^(١٦).

بعد حملة مجدو، تتابعت حملات الفرعون تحوتمس الثالث على بلاد الشام حتى بلغت ست عشرة حملة خلال عشرين سنة . بعض هذه الحملات كان حروباً حقيقية صعبة، وبعضها الآخر كان استعراضاً للقوة وجمعاً للجزية . وستابع فيما يلي استعراض بعض النصوص ذات العلاقة بموضوعنا، لأن المجال لا يتسع لعرضها جميعاً .

15- John A. Wilson, op.cit P 234

16- Ibid P 234



الخارطة رقم (٤) - معركة مجدو

في حملته السادسة يتوجه نحو ثمس الثالث إلى قادش ، ثم ينقلب إلى مدن الساحل : [والآن كان جلالته في بلاد ريتينوابان حملته السادسة المظفرة . وصل إلى قادش وجعلها خراباً ، قطع أشجارها وحصد قمحها . بعد ذلك اجتاز جلالته «ريات» - Reyet متوجهاً إلى «سيميرا» ومنها إلى «أرداتا» ففعل بهذه المدن فعله بقادش ، وحصل منها على الجزيات التالية . . (تعداد لأصناف الجزية المقدمة) . وأخذ أولاد الأمراء أسرى إلى مصر ، حتى إذا ما مات أمير منهم أرسل بولده خلفاً له^(١٧) من المدن الواردة أعلاه ، نعرف على وجه التأكيد قادش التي تم اكتشافها ، كما ذكرنا ، تحت تل النبي مند قرب مدينة حمص الحالية في سورية . كما تم التعرف على «أرداتا» إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان^(١٨) ، وبشكل شبه مؤكد على «سيميرا» المدينة الكنعانية الساحلية الكبيرة ، وذلك تحت «تل الكزل» قرب ميناء طرطوس السوري ، على ما تفيد التقارير الأولية لبعثة التنقيب الأثرية العاملة في الموقع الآن برئاسة الدكتورة ليلي بدر من الجامعة الأميركية بيروت . وبذلك يتوضح مسار هذه الحملة التي ابتدأت من ضفاف نهر العاصي عند بحيرة قطينة ثم انعطفت شرقاً نحو الساحل القريب . وعن حملته الثامنة تذكر حوليات الكرنك ما يلي : [كان جلالته في بلاد ريتينو . وصل إلى «قطنا» - Qatna في حملته المظفرة الثامنة ، اجتاز بعد ذلك منعطف نهارين الكبير إلى شرق هذه المياه حيث نصب مسلة إلى جانب مسلة أبيه . ثم مضى شمالاً فاجتاح مدن نهارين وسلبها ودمر معسكرات الأعداء ، ثم طاردهم بالمراكب مسافةً ، فكانوا أمامه يقرون كقطيع حيوانات صحراوية لا يلتفتون إلى الوراء . بعد ذلك اتجه جلالته جنوباً فوصل بلاد «ني» Ni وقفل عائداً بعد أن وسع حدود مصر] . وفي نص آخر يعطي الفرعون

17- Ibid P.239

18- الدكتور علي أبو عساف ، المرجع السابق ص ٤١٤ .

تفصيلات عن كيفية عبوره مياه نهارين : [لقد صنعت سفني من خشب الأرز عند جبال «بلاد الآله» قرب «سيدة جبيل» وحملتها على عربات تجرها الماشية سارت أمامي من أجل عبور النهر الكبير الذي يفصل بين هذه البلاد الأجنبية ونهارين . . وفي كل عام كانت أخشاب الأرز تحتطب من لبنان ويؤتى بها إلى بلاطي] ^(١٩).

في نص الحملة الثامنة هذه، يرد ذكر مدينة سورية هامة جداً هي مدينة «قطنا» التي كانت عاصمة لمملكة قوية منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد. ويرد ذكر هذه المملكة في وثائق الدول المجاورة وخصوصاً وثائق مدينة «ماري» المعروفة على الفرات، فقد تزوج «يمسخ حدد» ملك ماري من ابنة ملك قطنا، على ما تذكره إحدى الوثائق العديدة المتعلقة بالصلات مع مملكة قطنا، كما عثر حديثاً على وثائق تذكر مملكة قطنا في أرشيف مدينة «اييلا» في الشمال السوري. وقد كشفت التنقيبات الأثرية موقع قطنا تحت «تل المشرفة» على مسافة ١٨ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حمص الحالية بوسط سورية. ورغم أن الموقع لم يكشف بكامله بسبب وجود قرية «المشرفة» فوقه، إلا أن ما تم اكتشافه كان كافياً للتعرف على عاصمة المملكة القديمة، وخصوصاً النصوص التي حصلنا عليها من معبد المدينة والتي تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ويأتي أحد هذه النصوص على ذكر أسماء الملوك الذين تتابعوا على حكم المدينة ^(٢٠). هذا وتعمل مديرية الآثار والمتاحف السورية حالياً على إخلاء القرية المذكورة تدريجياً من أجل متابعة عمليات التنقيب. كما ورد ذكر مدينة قطنا أيضاً في الوثائق الحثية بالأناضول. وفي إحدى

19- J. A Wilson, op. cit PP 239-240

20- P. Matthiae, Ebla, Hoder and Stoughton, London 1980, PP 23-24, 180

الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٣٢٥.

هذه الوثائق، يذكر الملك «شوبيلوماس» أخبار انتصاراته في الجزيرة العليا وسورية الداخلية. فبعد توجهه إلى آشور، يعود الملك فيقطع نهر الفرات متوجهاً إلى «حلبا» (حلب)، وبعد فتحها يتابع مسيرته شرقاً إلى مملكة «موكيش» (التي تم اكتشاف عاصمتها تحت تل عطشانة شرقي انطاكية)، ثم يتجه جنوباً إلى «قطنا» فيدمرها ويتابع إلى «دمشق» التي يهاجمها بالتعاون مع قوات قادش⁽²¹⁾.

من قطنا هذه تبدي، حملة تحوتمس الثالث، الثامنة، في الأرض التي يدعوها النص ببلاد الاله، وهي تسمية معروفة في الوثائق المصرية للدلالة على بلدان المشرق عموماً حيث يصدر له الشمس المصري كل صباح من أفقه الشرقي. وبعد القضاء على مقاومة المدينة يتوجه الفرعون نحو المنعطف الكبير لنهر الفرات، حاملاً معه السفن التي صنعت له خصيصاً في مدينة «جبيل» وقطعت لبنائها أخشاب الأرز من جبل لبنان. أما تعبير «سيدة جبيل» الوارد في النص فهو اسم تبادل للالهة «عستارت» إلهة الساحل الكنعاني عموماً ومدينة جبيل على وجه الخصوص، وكان المصريون يقدسونها ويقرنونها بالهتهم «هاتور». عند نهارين يجتاز الفرعون النهر الكبير إلى الضفة الشرقية فيقضي على مدن الأعداء ويطارد فلولهم بمراكبه.

فأين مسار هذه الحملة من مواقع كمال الصليبي المفترضة في غرب العربية؟ لم يتعرض الصليبي لمدينة قطنا القديمة، ولم يعط لها مقابل في غرب العربية، أما جبيل (بيبلوس عند الاغريق) المدينة البحرية المعروفة على الساحل اللبناني، والتي تدعوها النصوص المصرية «جبيل» Gebal⁽²²⁾، فقد

21- A. Goetze, Hittite Historical. Texts (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 318

22- John. A. Wilson, Egyptian Myths (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 27

وجد مقابلها في موقع «القابل» في إقليم نجران الداخلي، ونهارين في «وادي متان» قرب الطائف (انظر الصفحات ٢٣٥ و ٢٢٩)، أما «لبنان» نصوص التوراة ووثائق الشرق القديم فهو ليس لبنان الشام، بل «لبنان» في شمال اليمن، وهو مرتفع تكثرفيه أشجار العرعر. وليس هناك ما يمنع في رأيه ان يكون أرز لبنان هو عرعر لبنان، لأن القواميس العربية تفيد بأن الأرز قد يكون العرعر (انظر الصفحات ٧٨ و ١٥٢). وفي الحقيقة لا يمكن لمسرح الحملة الثامنة لتحوتس الثالث أن يكون في غرب العربية. فالهدف الأول للحملة كان مملكة قطنا التي عثر عليها المنقبون في سورية وقرأوا نصوصها المكتوبة، وبعد اخضاع قطنا جاءت إلى الفرعون سفن مبنية في مدينة جبيل التي لا يمكن أن تكون «القابل» في إقليم نجران الجبلي الداخلي في غرب العربية، لأن السفن تبنى على الشواطىء لا على قمم الجبال. والخشب الذي استخدم في بناء مراكب تحوتس الثالث، هو خشب الأرز المحتطب من جبل لبنان القريب من جبيل، لا خشب العرعر الآتي من لبنان نجران، لأنه إذا كانت كلمة الأرز في القواميس العربية قد تعني العرعر فإن المصريين كانوا قادرين على التمييز بين الأرز والعرعر دون الرجوع إلى القواميس العربية، وهم عندما يذكرون الأرز فإننا يعنون هذا الشجر تحديداً، وموطنه الوحيد في المنطقة هو مرتفعات سلسلة الجبال السورية الساحلية. وأخيراً أين مياه نهارين التي تقطعها المراكب إلى الجهة الشرقية وبيحرفيها المصريون لمطاردة الهاربين، من وادي متان قرب الطائف؟

وتعريف مياه نهارين على أنها نهر الفرات، يساعد على ازالة الشكوك التي أثارها كمال الصليبي في كون مدينة «كركميش» الواردة في النصوص المصرية هي كركميش السورية الواقعة على نهر الفرات إذ يقول: [. . . والدراسة الصحيحة لحملة مصرية أخرى تذكرها التوراة العبرية هي حملة نحو الثاني في السنوات الأخيرة من القرن السابع، تدل على أن هذه الحملة أيضاً كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية الذي كان يسيطر

عليه البابليون آنذاك . ومعركة كركميش الواردة في أخبار الأيام الثاني وأشعيا وarmi التي جرت بين المصريين والبابليين بهذه المناسبة ، انما جرت قرب الطائف في جنوب الحجاز ، حيث ما زالت هناك قرستان متجاورتان تسميان «القر» و«قماشه» . ولعل الحملات العسكرية الأبكروالتي تعود بتاريخها إلى الألف الثاني قبل الميلاد ، والتي يفترض عموماً أنها كانت موجهة ضد فلسطين والشام ، انما كانت موجهة بدورها ضد غرب شبه الجزيرة العربية . . [(ص ٣٧) . والحقيقة أن مدينة كركميش في سجلات حملات تحوتمس الثالث ترد كمدينة واقعة على مياه نهارين ، والآتي إليها يعبر مياه النهر من عندها . نقرأ في نص تركه أحد قادة تحوتمس الثالث في حملته على نهارين : [. . ومرة أخرى كسبت الغنائم في هذه الحملة بأرض كركميش فحصلت على عدد من الأسرى الأحياء ، ثم عبرت فوق مياه نهارين]^(٣٣) . فاضافة إلى ما أثبتناه من تطابق مياه نهارين مع نهر الفرات ، فان موقع كركميش الواضح في هذا النص يتطابق مع موقع كركميش السورية على الضفة اليمنى لنهر الفرات* ، (انظر خريطتنا رقم ٧) .

وكانت كركميش عاصمة لمملكة سورية هامة تتحكم في حوض الفرات الشمالي منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، وورد ذكرها مراراً في وثائق أرشيف مدينة ماري المجاورة لها والتي كانت على علاقات طيبة معها . وقد تم اكتشاف موقع المدينة قرب مدينة جرابلس الحالية على الضفة اليمنى للفرات عند الحدود التركية . خضعت المدينة للحثيين الأناضوليين في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، وبعد انهيار الامبراطورية الحثية على يد شعوب البحر حوالي

23- L. Oppenheim, Babylonian and Assyrian Historical Texts (in : James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts Princeton, 1969) P 241.

* - يحدد اتجاه مجرى النهر عادة ضفته اليمنى واليسرى ، فإذا جرى جنوباً كانت ضفته اليمنى شرقية .

١٢٠٠ ق.م، صارت كركميش من أقوى الدويلات السورية الشمالية التي دعيت بالدويلات الحثية الجديدة^(٢٤)، وهي تسمية خاطئة درج استعمالها بين المؤرخين، رغم دعوة بعضهم حديثاً إلى تغييرها. هذا وسيكون لنا عود على كركميش عندما نأتي إلى دراسة النصوص الآشورية التي ذكر فيها هذا الموقع مراراً.

قبل أن نترك سجلات تحوئس الثالث، سنتوقف عند حملته السادسة عشرة والأخيرة: [والآن كان جلالته على الطريق الساحلي في سبيله إلى تدمير «عرقاتا» - Irqata والمراكز الواقعة إلى جوارها. . تم الوصول إلى «تونيب» - Tunip التي أحرقت واجتثت مزروعاتها وقطعت أشجارها. ثم عاد الجيش مظفراً إلى منطقة قادش واستولى على ثلاث مدن هناك وأسر أعداداً كبيرة من المرتزقة الأجانب القادمين من نهارين للمعونة. .] ^(٢٥).

ومرة أخرى فإن مسرح هذه الحملة لا يخفي نفسه. فمدينة «عرقاتا» التي توجه إليها الفرعون على الطريق الساحلي، قد تم التعرف عليها في موقع «عرقا» اليوم وهي قرية تقع إلى الشمال الشرقي من مدينة طرابلس الحالية في لبنان^(٢٦). وقد وردت أيضاً في النصوص الآشورية مراراً كمدينة ساحلية، وباسمها الحالي عرقا دون تحوير^(٢٧) أما «تونيب» فرغم عدم تمكن علماء الآثار حتى الآن من تحديد موقعها بدقة، إلا أننا نعرف من تقاطعات أخبارها في وثائق بلاد الشام أنها كانت عاصمة لمملكة صغيرة سيطرت على المناطق

24- Paolo Mattheae, op Cit P 19

الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٣٢٢.

25- John A Wilson op cit p 241

26- الدكتور علي أبو عساف، المرجع أعلاه صفحة ٤١٤.

27- Leo Oppenheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (in: J. Pritchard's ٢٧ Ancient Near Eastern Texts) P 283

الممتدة غربي مدينة حمص . وهناك نص معاهدة مكتوبة بين أحد ملوكها واسمه «آري - تشوب» وملك أوغاريت «نقم - عفا» تم العثور عليه في أوغاريت⁽²⁸⁾ . كما تم العثور في أرشيف مدينة «ألاخ» عاصمة مملكة «موكيش» ، التي اكتشفت تحت «تل عطشانة» في سهل العمق في الشمال السوري غربي حلب ، على معاهدة مكتوبة بين ملك «ألاخ» «نقميا» وملك توتيب المدعو «ياريم» تنظم علاقات حسن الجوار بين البلدين تقتطف منها الفقرات التالية الموضوعة على لسان ملك ألاخ :

- إذا أراد تاجر من أحد البلدين أن يبيع بضاعته في البلد الآخر ، سواء أكانت قمحاً أم شعيراً أم زيتاً أم . . . فإنه يفعل ذلك دون الحصول على ترخيص مسبق بذلك .

- إذا تأمر في بلادك أفراد ضدي ، وكانوا من مواطني «موكيش» ، وسمعت بالأمر ، عليك أن تبحث عنهم ، ثم لا تقتلهم بل تقوم بتسليمهم إلي .

- إذا أبق عبد أو جارية في بلدي ولجأ إلى بلدك ، عليك أن تقبض عليه وتعيده إلي .

- إذا رحلت بعض الأسر من بلدي إلى بلدك سعياً وراء الرزق ، عليك باستقبالهم وتأمين معاشهم . فإذا أرادوا العودة عليك أن تعمل على تسفيرهم ، ولا يحق لك احتجاز أي أسرة في بلدك منهم⁽²⁹⁾ .

اخناتون وفترة تل العمارنة :

بعد وفاة تحوتمس الثالث ، تترأخى قبضة مصر تدريجاً عن مناطق نفوذها

28- الدكتور علي أبو عساف ، المرجع أعلاه ص ٤١٢ .

29- Erica Peiner, Akkadian Treaties From Syria .In James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 531-32

التقليدية في بلاد الشام . وقد بلغت مرحلة الانحسار أوجها ابان حكم
الفرعون امنحوتب الرابع (اخناتون) الذي حكم بين عامي ١٣٦٩ و ١٣٥٣ ق.
م ، حيث تركت الممالك السورية لصراعاتها الداخلية ولهجمات قبائل
«العابرو» التي استهدفت فلسطين بالدرجة الأولى ، بينما انشغل الفرعون
باصلاحه الديني الشامل وديانته التوحيدية المتمركزة حول الاله «آتون» القوة
الالهية الوحيدة المتمثلة في قرص الشمس الملهب . اتخذ اخناتون عاصمة
جديدة له في مدينة «أخيت آتون» أي افق آتون ، ليعتد عن مراكز القوى
الدينية القديمة . وقد تم اكتشاف هذه المدينة تحت «تل العمارنة» بمصر العليا
في نهاية القرن الماضي وكان أهم ما عثر عليه هناك أربعمئة وثيقة مكتوبة باللغة
الأكدية التي كانت لغة الدبلوماسية الدولية في ذلك العصر ، دعت برسائل
تل العمارنة لأن معظمها عبارة عن مراسلات تمت بين الفرعون وحكام آسيا
الغربية في بابل وآشور وميتاني وكنعان وحاتي (مملكة الحثيين) . وغطت
الرسائل فترة زمنية امتدت بين أواخر حكم «امنحوتب الثالث» والد اخناتون ،
وكامل سنوات حكم اخناتون ، مما اصطلح على تسميته بعصر تل العمارنة .
شغلت المراسلات المتبادلة مع ملوك الدويلات السورية حيزاً كبيراً من
رسائل تل العمارنة ، فهناك مراسلات مع ملوك «جبيل» و«عكا» و«مجدو» و
«شكيم» و«جازر» و«أورشليم» وغيرها . إلا أن كمال الصليبي يرى في وثائق
تل العمارنة رسائل متبادلة مع ملوك وحكام دويلات غرب شبه الجزيرة العربية
فيقول : [إن بعض أسماء الأماكن المفردة الواردة في رسائل تل العمارنة تطابق
فعلاً أسماء أماكن موجودة في فلسطين وفي غرب شبه الجزيرة العربية في آن
معاً . وأبرز هذه الحالات تلك المتعلقة بـ «عكا» و«يافا» . أما إذا أخذت أسماء
العمارنة جمعياً ، فإنها لا تندرج عملياً إلا في غرب شبه الجزيرة العربية] (ص
١١٧) . وقد توصل الصليبي إلى هذه النتيجة من غير أن يقدم لنا نموذجاً
واحداً من رسائل تل العمارنة ، بل اكتفى بعرض جدول بأسماء بعض المواقع
الواردة في الرسائل ومقابلاتها في غرب العربية .

وقد قمنا بدراسة جميع رسائل تل العمارنة المتعلقة بالدويلات السورية في بلاد الشام ، بكل عناية ، فتيين لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأنها مراسلات قد جرت مع ملوك سورية وفلسطين ، ولا يمكن بحال من الأحوال ان تنطبق المعلومات التاريخية والأركيولوجية الواردة فيها على غرب العربية وسنقدم الدليل على ذلك من خلال عرض بعض تلك الرسائل .

نقرأ في النص EA, No190 ، وهو عبارة عن إحدى رسائل ملك اورشليم الكنعانية في فلسطين إلى الفرعون ما يلي : [إلى الملك مولاي . هكذا يقول خادمك «عبدي هبة» . انظر إلى ما فعله «ملك - ايلو» - Milkilu و«شوارداتا» - Shuwardata بأراضي الملك ، مولاي . لقد دفعوا بقوات من «جازر» - Gezer ومن «جت» - Gath ومن «كيله» - Keilah . أخذوا أراضي «روبوتو» - Rubutu ، وأراضي الملك سلمت إلى شعب «العابيرو» . حتى بلدة في أراضي «أورشليم» من أملاك سيدي اسمها «بيت لحم» - Bit-Lahm قد أعطيت إلى «كيله» ، فليصغ مليكي إلى خادمه «عبدي هبة» ويرسل قوات تعيد الأراضي الملكية إلى الملك . وإذا لم تصل القوات ، فان أراضي الملك ستغدو للعابير و] (٣٠) .

في هذا النص ، كما في أي نص تاريخي آخر ، هناك مواقع لم يتم التعرف عليها ، وأخرى مرجحة ، وثالثة ثابتة بالدليل الأركيولوجي . فموقع «كيله» مشكوك بأمره ، و «روبوتو» يرجح أن تكون في مكان ما جنوب غربي موقع «مجدو» (٣١) . أما «جازر» فمدينة كنعانية هامة تقع على المنحدرات الغربية للسلسلة المركزية في فلسطين ، بدأ التنقيب في موقعها منذ مطلع القرن الحالي ، وتم التعرف عليها خلال الحملات المتتابعة باجماع كل علماء الآثار .

30- W. F. Albright, Akkadian Letters (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 489.

31- Ibid. P 489

وقد افادت التنقيبات الأخيرة أن المدينة ترجع بأصولها إلى الألف الرابع قبل الميلاد، وبقيت مسكونة مع بعض الانقطاعات إلى الفترة التوراتية^(٣٢). (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التالية: يشوع ١٠: ٣٣ و ١٦: ٣ و ١٠: ٢١ و ٢١: ٢١ والأيام الأول ٦: ٦٧ و ٢٠: ٤ والقضاة ١: ٢٩ وصموئيل الثاني ٥: ٢٥ والملوك الأول ٩: ١٥ - ١٧).

وأما «جت» فكانت إحدى مدن الفلسطينيين الرئيسية وحصناً من حصونهم. أمكن لعلم الآثار التعرف عليها في موقع «تل جت» في الشريط الساحلي الفلسطيني جنوباً^(٣٣) (ويمكن مراجعة أخبارها في التوراة في المواضع التالية (صموئيل الأول ٦: ١٧ و ٧: ١٤ و ١٧: ٤ وصموئيل الثاني ٢١: ١٥ - ٢٢ ويشوع ١١: ٢٢ والعدد ١٣: ٣٣ والثنية ٢: ١٠ - ١١ وغيرها...)). ويلفت نظرنا في النص أعلاه ورود ذكر بلدة «بيت لحم» لأول مرة في السجلات القديمة، وترد هنا مترافقة مع «أورشليم» باعتبارها تقع في منطقتها. فهاذا قال كمال الصليبي بشأن هذين الموقعين الواردين في رسائل تل العمارنة؟. فيما يتعلق بأورشليم، حدد مكانها جنوب مدينة النماص بعسير حيث توجد إلى الآن قريتين توأمين اسم الأولى «أروي» والثانية «آل سلام» قرب التنومة (ص ١٢٠) أما «بيت لحم» فلم يأت على ذكرها في جدولها لمواقع تل العمارنة، بل في الفصل الثامن الذي يرسم فيه حدود مملكة يهوذا القديمة في عسير، حيث حدد موقع بيت لحم بقرية «أم لحم» الحالية في وادي أضم (ص ١٧٢). وبها أننا سنفرد لاحقاً في باب «البيئة الأثرية» حيزاً كبيراً لأركيولوجية مدينة أورشليم، فأننا سنكتفي هنا بالإشارة إلى تناقض في طبوغرافية موقعي أورشليم وبيت لحم عند كمال الصليبي على ضوء رسالة تل العمارنة. فالرسالة تقول أن بلدة بيت لحم تقع في أراضي أورشليم وهو ما يتفق تماماً مع الوضع

32- Kathleen Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Mantheun, London 1985

33- Ibid, P. 80, 215

الطبوغرافي للموقعين في كنعان حيث لا تبعد بيت لحم عن اورشليم أكثر من عشرة كيلومترات، أما في خريطة الصليبي فان المسافة بين منطقة جنوب النماص حيث تقع القريتين التوأمين أروي وآل سلام، ومنطقة وادي أضم الشمالي حيث الموقع المفترض لبيت لحم، تبلغ الـ ٢٥ كم، وهو ما يتعارض مع نص رسالة تل العمارنة الواضح بهذا الشأن.

ولعل من أكثر رسائل تل العمارنة تمثيلاً للموضع السياسي في فلسطين والساحل الكنعاني، رسالة «رب عدي» ملك مدينة «جبيل» إلى الفرعون يشكو اليه فيها تعديات «عازيرو» ملك «أمورو» تقول الرسالة:

[من «رب عدي» - Rib-Addi إلى مولاه الملك، إله شمس البلاد. عند قدمي الملك أسجد سبع مرات وسبع. لقد كتبت مراراً في طلب قوات الحماية ولم أحصل عليها، فالملك لا يصغي لكلمات خادمه، ورسولي الذي بعثت به إلى البلاط عاد خالي الوفاض وبلا قوات. وعندما رأى أهل بيتي أن الفضة لم تعط إلى، هزئوا بي، وكذلك قوادي واخوتي واحتقروني. مضيت إلى «هامونيري» - Hamuniri وكان أخي يؤلب المدينة ضدي ليعطيها إلى أبناء «عبدو عشيرته» - Abdu Ashirta. وعندما عرف أخي ان رسولي عاد خالي الوفاض وبدون قوات لدعمي، ازدراي وطردني خارج المدينة. أرجو من الملك ألا يقف مكتوف اليدين أمام فعال ذلك الكلب. انظر إلى حالي، فأنا رجل مريض ومسن ولا أستطيع القدوم إلى مصر... ولكني ارسلت ابني، خادم الملك مولاي. فليستمع الملك الى كلمة خادمه ويرسل قوات من الرماة إلى جبيل، لكي لا يدخلها المتمردون وأبناء عبدة عشيرته... إن المتمردين لقلعة ومعظم أهل المدينة إلى جانبي، وعندما يسمعون بوصول القوات، ستعود المدينة إلى الملك مولاي... إن في مدينتنا جبيل ثروات كبيرة للملك مولاي، جاءت من أسلافنا، فان لم يتدخل الملك من أجل المدينة فانه سيفقد كل مدن كنعان] (٣١).

34- W.F. Albright, op. cit. p 483

ويبدو أن تعدييات «عازيرو» ابن «عبدو عشيرته» ملك آمورو قد شملت معظم مناطق الساحل الكنعاني. ولدينا رسالة من «أبي - ملك» - Abimilk ملك صور تكرر الشكوى نفسها، يقول في آخرها: [. . . إنني أحمي «صور» المدينة العظيمة من أجل مولاي الملك، إلى أن تصلني قواته فتُهنيّني ماء لأشرب وخطباً لأدفاً. ثم إن «زيمير يدا» ملك «صيدون» قد كتب مراراً إلى المجرم «عازيرو» - Aziru ابن «عبدو عشيرته» بخصوص كل ما سمعه من مصر. وها أنا قد كتبت إليك بكل ما يتوجب عليك معرفته»^(٣٥).

«عازيرو» ملك «آمورو»، الشخصية المركزية في هاتين الرسالتين، معروف لدينا من وثائق أخرى بعضها من بلاد الشام وبعضها الآخر من موطن الحثيين في الأناضول. ومملكته آمورو، كما نعرف من هذه الوثائق، كانت تسيطر على السهول الممتدة حول نهري الكبير والأبرش وعلى المنطقة الساحلية من طرطوس وحتى البترون. وقد أسس فيها «عبدو - عشيرته» سلالة تسلمت زمام الأمور منذ مطلع القرن الرابع عشر وحتى مطلع القرن الثاني عشر عندما قضت عليها موجات شعوب البحر^(٣٦). وكانت عاصمتها مدينة «سيميرا» التي أشرنا سابقاً إلى موقعها في تل الكزل قرب طرطوس، عند دراستنا لسجل الحملة السادسة لتحوتمس الثالث (انظر الصفحة ٤٩ سابقاً). ويبدو أن الملك عازيرو كان يلعب في هذه الأحداث الدامية، التي جرت في فلسطين والساحل الكنعاني أواسط القرن الرابع عشر، دوراً مرسوماً له من قبل الحثيين الذين استغلوا فرصة ضعف مصر ابان حكم اخناتون للمء الفراغ في سورية. ويؤكد لنا هذا الاستنتاج معاهدة عقدت بين الملك الحثي «شوبيلولياماس» وعازيرو ملك آمورو. وقد عثر على نص المعاهدة في «بوغازكوي» موقع عاصمة الامبراطورية الحثية بالأناضول منقوشاً على

35- Ibid P. 484

36- الدكتور علي أبو عساف المرجع السابق ص ٤١٢ .

نسختين واحدة حثية والأخرى أكادية ، يعود تاريخ هذه المعاهدة إلى فترة تل العمارنة ، ويرد فيها اسم عازيرو في النسخة الحثية «عازيراس» . وهذه فيما يلي مقدمتها الموضوعة على لسان الملك الحثي :

[أنا الملك الشمس جعلتك يا «عازيراس» تابعي . فان صنت أرض ملك «حاتي» سيدك ، فان سيدك ملك حاتي سيقدم لك الحماية بنفس الطريقة . عليك أن تحمي روح مليكك وشخصه وجسمه وأرضه كما تحمي روحك وشخصك وجسمك وأرضك ، وملك حاتي سيقدم لك بالمقابل نفس الحماية ، وكذلك أولاده وأحفاده . ويتوجب عليك دفع ٣٠٠ شيكل من الذهب الخالص لملك حاتي في كل سنة جزية ، يجري وزنها بموازين تجار بلاد حاتي . وعليك أن تأتي بلاد حاتي ، إلى الملك الشمس مرة في كل عام . لقد كان ملك «مصر» وملك «الحوريين» وملك . . وملك «كنزا» وملك «نوخاشا» - Nuhassa وملك «نييا» - Niya وملك . . وملك «موكيش» - Mukis ، وملك «حلب» - Halba وملك «كركميش» - Kargamis ، كانوا جميعاً يناصرون الملك الشمس عداوةً . غير أن عازيراس ملك آمورو قد ترك بوابة مصر وصار موالياً للملك الشمس] (٣٧) .

إن معظم المدن والممالك الواردة أسماؤها في هذا النص قد كشف علم الآثار عن مواقعها وقرئت نصوصها وقوطعت مع نصوص غيرها من ممالك الشرق القديم . فـ «حاتي» هو اسم مملكة الحثيين في الأناضول ، به دعوا أنفسهم وبه عرفهم جيرانهم ، والحوريون هم شعب مملكة «ميتاني» في الجزيرة العليا التي عرفنا الكثير عن أخبارها من وثائق موقع «نوزي» (انظر الصفحة ٤٤ سابقاً) .

و«كنزا» هي مملكة «قادش» على نهر العاصي قرب مدينة حمص الحالية

37- Albercht Goetze, Egyptian And Hittit Treaties (in: James pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P. 529

(انظر الصفحة ٤٤ سابقاً)، و«موكيش» هي مملكة آلالاخ في سهل العمق بين مدينتي حلب وانطاكية، وقد تم اكتشافها تحت «تل عطشانة» الذي امدنا بفيض من النصوص الهامة، و«حلبا» هي مملكة حلب أو «يمخاض» التي كان مركزها في مدينة حلب الحالية، أما «نوخاشا» (أونوخشي) فنعرف من تقاطعات أخبارها في نصوص الممالك الأخرى أنها شغلت مكاناً يقع بين مدينتي «حماة» و«حلب». وهكذا نجد أن مملكة آمورو التي شغلت أخبارها حيزاً لا بأس به من رسائل تل العمارنة قد قامت في بيئة سورية شأنها في ذلك شأن بقية ممالك عصر تل العمارنة. فأي حجة تبقى بعد ذلك لنقل مسرح هذا العصر الحافل إلى غرب شبه الجزيرة العربية؟.

سيقي الأول - وثائق من كنعان :

بعد سقوط أخناتون، لم تستطع مصر إعادة سيطرتها على مناطق نفوذها في سورية وفلسطين إلا في عهد «سيقي الأول» (١٣٠٢ - ١٢٩٠ ق.م)، وهو الفرعون الثاني من الأسرة التاسعة عشرة. وتكمن أهمية سجلات هذا الفرعون أن بعضها قد وجد في أرض فلسطين، وهذا ما يمدنا بمعلومات مباشرة من ساحة الحدث ذاتها، لا من أرشيفات مصر ومسلاتها ونصبها التذكارية. فلقد تم العثور في موقع «بيت شان»، المدينة الكنعانية الهامة في فلسطين، على نصب تذكاري نقش عليه سيقي الأول أخبار حملته على مدينة بيت شان التي تمركز فيها مناوئوه. نقرأ في النص، بعد المقدمة الفخرية المعهودة :

[هو الذي ينفذ إلى جحافل الآسيويين ويجبرهم على الرضوخ، الذي يحطم أمراء «ريتينو» وتطال يده كل الخارجين عليه. في هذا اليوم، جاء من يخبره بأن العدو اللثيم في بلدة «حمث» - Hamath قد جمع إليه العدد الغفير من الجنود واستولى على «بيت شان» - Bet-shan، ثم عقدوا حلفاً من «باهيل»

Pahel . وماهم قد حجزوا أمير «رحوب» - Rehob عن الخروج . عند ذلك قام جلالته بإرسال جيش إلى بلدة حمت وآخر إلى بيت شان وثالث إلى «ينوم» - Yanoam . وما ان انقضى النهار حتى هزموا جميعاً أمام عظمة جلالته ملك مصر العليا والسفلى . . [٣٨] .

لقد كشفت التنقيبات الأثرية عن بيت شان تحت «تل الحصن» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين التي حافظت على الاسم القديم للمدينة الكنعانية ، وتبين أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، وبقي مأهولاً بالسكان عبر العصر البرونزي وصولاً إلى العصر الحديدي في أواخر الألف الثاني والألف الأول قبل الميلاد^(٣٩) . أما بقية الأماكن الواردة في النص ، فقد أمكن تحديد مواقعها إما بشكل تقريبي أو مؤكد . ف «حمت» هي «تل الحامة» . على بعد عشرة أميال جنوبي بيسان ، و «رحوب» من المحتمل أن تكون «تل الصارم» على بعد ثلاثة أميال جنوب بيسان ، و «ينوم» من المحتمل أن تكون في موقع «تل النعامة» شمالي بحيرة الحولة^(٤٠) . هذا وإضافة إلى بيت شان ، المدينة التي شهدت أحداثاً هامة في التوراة ، فقد ورد في التوراة أيضاً ذكر رحوب (راجع سفر العدد ١٣ : ٢١ وصموئيل الثاني ١٠ : ٦ ، ٨ ، يشوع ١٩ : ٢٨ - ٣٠ و ٢١ : ٣١ وأخبار الأيام الأول ٦ : ٧٥) وينوم (راجع يشوع ١٥ : ٥٣) .

وبذلك يقدم لنا نص سبتي الأول دليلاً قاطعاً مزدوجاً . فمدينة بيت شان التوراتية قد تم العثور عليها في أرض كنعان ، والبينة عليها ليست أركيولوجية فحسب بل وكتابية أيضاً ، إذ يظهر بوضوح اسم المدينة في النص المكتشف بين أنقاضها . ومن ناحية أخرى يثبت هذا النص أن الحملات

38- John A. Wilson, op. cit P. 253

39- Bray and Trump. Penguin Dictionary of Archaeology, PP. 37-38

40- John A. Wilson, op. cit, P. 153

المصرية كانت موجهة نحو سورية وفلسطين لا نحو غرب شبه الجزيرة العربية ، وإلا كيف يترك فرعون مصر حجراً تذكاريّاً في فلسطين يخلد فيه انتصاراً حققه في عسير؟ ، إضافة إلى ذلك فقد تم العثور في موقع بيت شان على نصب تذكاري ثان تركه سيتي الأول أيضاً ، ورغم تحطم النصب وصعوبة قراءة الكتابة المنقوشة عليه ، فإننا نفهم منه أن الفرعون قد صد هناك هجمات العاييرو القادمين من الأردن . كما عثر على تمثال للفرعون «رمسيس الثالث» ، وعلى نص تركه أحد القادة العسكريين في حملة هذا الفرعون ضد شعوب البحر ، يحكي عن وصول الجيش المصري إلى شمال فلسطين سعيّاً وراء فلول القوات المتراجعة^(٤١) .

أمام كل هذه الحقائق التاريخية والأركيولوجية ، لا نستطيع الاتفاق مع كمال الصليبي في نقل «بيت شان» السجلات المصرية إلى غرب العربية ، حيث وجد مكانها في موقع «الشنية» في منطقة الطائف (ص ٢٠٩ - ٢١٠) ولا نستطيع مجاراته في القول بأن الباحثين من شتى المشارب قد أساءوا تفسير السجلات الطبوغرافية المصرية ، وهو قول ما انفك يردده عبر كتابه .

ترك لنا سيتي الأول أيضاً عدداً من الرسوم على جدران الكرنك تصور معاركه في آسيا وأفريقيا ، ومع كل رسم نص توضيحي قصير . وسنقدم فيما يلي ترجمة للنصوص المتعلقة بحملاته الآسيوية^(٤٢) .

[في السنة الأولى لحكم ملك مصر العليا والسفلى ، بطشت يد الملك الجبار بأعدائه من «الشاسو» من حصن «صايل» إلى «كنعان» ، حيث تغلب عليهم جلالته كأسد هصور فجعلهم أشلاء تسبح في دمائها بالأودية] . وقد كتب هذا النص تحت صورة تظهر حصار الجيش المصري لمكان محصن غير محدد الهوية . أما الشاسو المذكورون هنا فهم ، كما يقول خبراء النصوص

41- Kathleen Kenyon, op. cit pp. 201-204, 227

42- John A. Wilson, op. cit, PP. 254-255

المصرية، البدو المتجولون في جنوب فلسطين وشمال العربية^(٣٧)، ويبدو أن الفرعون قد طارد هؤلاء حتى وصل إلى بعض المدن الكنعانية التي كان حكامها يستأجرونهم أو يخرضونهم على العصيان.

وهناك مشهد يصور استيلاء الجيش المصري على بلدة «ينوم» الكنعانية وقد ذكر تحت المشهد اسم المدينة دون أي شرح. ويبدو أن هذه المعركة هي معركة ينوم نفسها الواردة في نصب بيت شان التذكاري. ومشهد آخر يصور مجموعة من الآسيويين تقطع الأشجار في بلدة أشار النص المرافق إلى حاكمها بأنه أمير لبنان العظيم. ومشهد يصور عودة الفرعون المظفرة من حملة له في سورية كتب تحته: [عودة جلالته من ريتينو العليا، بعد أن وسع حدود مصر. ومشهد يصور قيام الفرعون بتقديم القرابين للآلهة بعد عودته من قتال الحثيين نقرأ تحته: [تقديم القرابين من الآله الطيب - أي الفرعون - إلى أبيه آمون رع، لدى عودته من بلاد حاتي بعد سحق المتمردين ومحق الآسيويين وبلدانهم، وقد أتى معه بأمراء ريتينو الأندال ليضعهم في معبد أبيه آمون رع].

وهناك مشهد يصور حصار مدينة قادش السورية كتب تحته: [صعود الفرعون لتدمير قادش وبلاد آمورو]. وما يؤكد أن قادش المذكورة في هذا النص هي قادش بلاد الشام، العثور على بقايا حجر تذكاري للفرعون سيتي الأول في موقع المدينة السورية المكتشفة^(٣٨).

رسميس الثاني - الوفاق الدولي :

تابع «رسميس الثاني» (١٢٩٠ - ١٢٢٤ ق.م) ما بدأه سيتي الأول من

43- د. محمود عبد الحميد أحمد، الهجرات العربية القديمة، دار طلاس، دمشق ١٩٨٨،

44- John A. Wilson, op. cit P.254

اعادة النفوذ المصري الى مناطقه التقليدية في بلاد الشام ، بعد فترة الانحسار التي ابتدأت بحكم الفرعون اخناتون ، وهي الفترة التي نشط خلالها الحثيون وبسطوا نفوذهم تدريجاً على معظم مناطق بلاد الشام . وكما فعل سيتي الأول ، فقد ترك لنا رمسيس الثاني عدداً من النصب التذكارية في بلاد الشام ، أهمها النصب الذي تم العثور عليه في موقع بيت شان بفلسطين ، وقد نُقش عليه : [في السنة التاسعة ، الشهر الرابع من الفصل الثاني ، اليوم الأول . عند طلوع الفجر تمت هزيمة الآسيويين . جميعاً أتوا صاغرين ينحنون أمامه في قصره في «بير - رمسيس - ميري - آمون» اسم مدينة رمسيس في الدلتا]^(٤٥) . وهناك أيضاً ثلاثة نصب تذكارية أخرى تركها رمسيس الثاني عند مصب نهر الكلب بين بيروت وجبيل ، ولكنها أخرجت من الموقع في حالة مهشمة لا تسمح بالقراءة الواضحة لنصوصها^(٤٦) .

وكان لا بد لنشاطات هذا الفرعون الطموح من أن تصطدم بعناد الحثيين وتصميمهم على الاحتفاظ بمناطق نفوذهم ، وهم القوة العظمى الثانية في المنطقة إلى جانب مصر بعد أفول بابل ، فقامت بين الامبراطوريتين حروب شرسة أهمها معركة قادش على ضفة نهر العاصي عام ١٢٨٦ ق.م ، التي خلدها الفرعون في نص مفصل طويل ، نقتطف فيما يلي بعض فقراته ونلخص الأخرى^(٤٧) .

[السنة الخامسة ، الشهر الثالث من الفصل الثالث ، اليوم التاسع . .
توجه جلالته إلى بلاد «زاهي» في حملته المظفرة الثانية . نصب معسكره على التلال الواقعة إلى الجنوب من قادش . وعندما أخذ بالتحرك شمالاً ووصل إلى

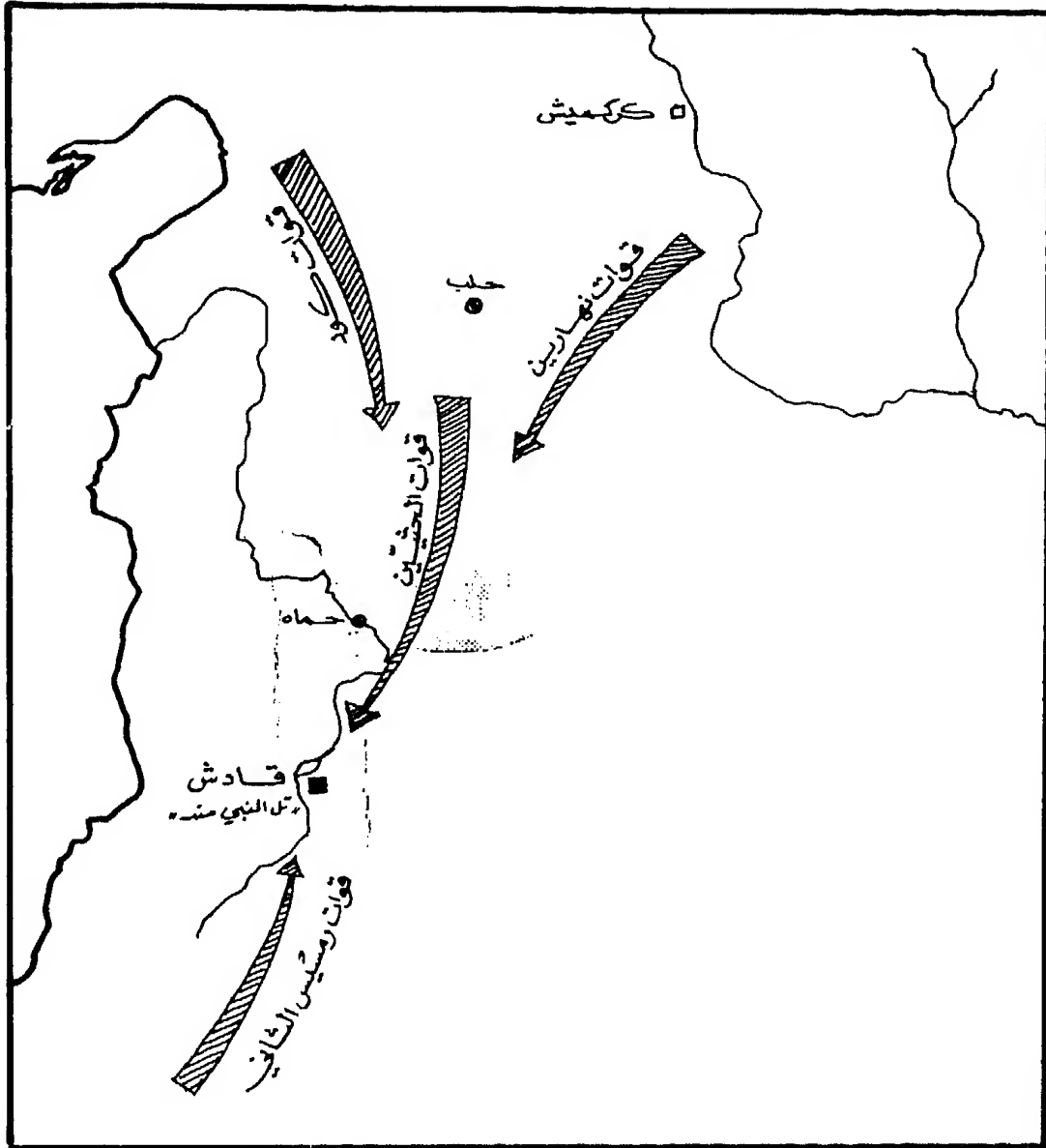
45- Ibid, P.255

46- Ibid, P.255

47- W. McNeill and J. Sendlar, the Ancient Near East, Oxford University, London 1968, PP. 16-19

بلدة «شاباتونا»، أتاه اثنان من «الساشو» وقالوا له أنهما ينتميان إلى أكبر الأسر العاملة إلى جانب ملك الحثيين المهزوم، وأنهما وأصحابهما سيتركون الحثيين وينضمون إلى الفرعون. كما أبلغاه بأن ملك الحثيين يعسكر في أراضي «حلب» إلى الشمال من «تونيب» ويخشى التقدم جنوباً فزعاً من جلالته [الفرعون]. وقد تبين فيما بعد أن هذين البدوين كانا جاسوسين لملك الحثيين، وأنهما أبلغا الفرعون نبأ كاذباً ليتقاعس عن المضي شمالاً لملاقاة العدو. وبينما كان المصريون آمنين في معسكرهم جنوبي مدينة قادش وصل الحثيون إلى تخومها وتهاووا للمفاجأة [فوصل ملك الحثيين ومعه ملوك بلدان عديدة بمشاتهم وعرباتهم، ساقهم إلى جانبه عنوة وقسراً، واصطفوا للقتال خلف قادش المدينة المراوغة. وعندما علم جلالتة بالأمرك حرك قواته شمالاً ونزل إلى الشمال الغربي من قادش]. وهناك قبض جنوده على جاسوس للعدو أخبر الفرعون بمعلومات هامة عن مواقع الحثيين وقواتهم التي رفدتها جيوش من «نهارين» و«كود» كاملة العدد والتجهيز. وبينما كان يعقد اجتماعاً لقادته على عجل، أطبق عليهم الحثيون فتضعضت قوات المصريين غير أن شجاعة الفرعون واقدامه قد رجحت كفة الميزان، حيث أعمل في الخصوم تقتيلاً بيده وسلاحه ورمى بجثثهم في نهر العاصي.

لا يمكن لمسرح هذه المعركة أن يكون في غرب شبه الجزيرة العربية (انظر خريطتنا رقم ٥) فجميع المواقع المذكورة في هذا النص قد حددنا أماكنها في بلاد الشام. فرميس الثاني يتحرك على الطريق الساحلي عبر بلاد «زاهي» وهي في النصوص المصرية المناطق الساحلية لفلسطين ولبنان (انظر الصفحة ٤٧ سابقاً) ثم يتابع مسيرته شمالاً ليعسكر إلى الجنوب من مدينة «قادش» (انظر الصفحة ٦١ سابقاً). أما قوات الحثيين فتتجمع في أراضي حلب شمال «تونيب» (انظر الصفحة ٥٤ سابقاً) ترفدها قوات من «نهارين» و«كود» (انظر الصفحة ٤٤ سابقاً) ويتقدم الحلفاء إلى شمالي موقع قادش حيث تقع المعركة على ضفاف نهر العاصي (ويدعى بالهير وغلغيفية المصرية Yarnet



الخارطة رقم (٥) - معركة قادش

التي يقابلها باليونانية (Orontes) .

لم تكن معركة قادش هي الفاصلة ، بين القوتين الأعظمين ، فقد استمرت المناوشات بينهما طيلة ستة عشر عاماً تلت ذلك ، انتهت بتوقيع معاهدة بين الطرفين تعتبر من أشهر معاهدات العالم القديم ، حيث أطلقت يد الحثيين في مناطق بلاد الشام الواقعة إلى الشمال من قادش واحتفظ المصريون بسيطرتهم على المناطق الواقعة إلى الجنوب منها . وقد تم اكتشاف نسختي المعاهدة في موقعين يبعدان عن بعضهما آلاف الأميال . فالنص الحثي للمعاهدة وجد في مدينة «حاتوسس» عاصمة الحثيين في الأناضول التي اكتشفت قرب «بوغاز كوي» ، وهو مكتوب باللغة الأكادية ، والنص المصري وجد على جدار معبد آمون في «طيه» بمصر وهو مكتوب بالهيروغليفية المصرية^(٤٨) . وقد أعقب المعاهدة زواج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي «حاتوشيلي» .

نصوص أدبية :

ترك المصريون القدماء نصوصاً أدبية كثيرة ، لا يقل بعضها عن الوثائق التاريخية أهمية نظراً لما تتضمنه من معلومات دقيقة ووصف مفصل للأحداث والأمكنة . مثل قصة «سنوحي» و«الأخوين» و«وينامون» ورسالة «أمين - رام أوبت» . وقد اخترنا النص الأخير لعلاقته الوثقى بموضوعنا ، وهو عبارة عن رسالة موجهة من كاتب القصر الملكي المدعو «أمين - رام - أوبت» إلى موظف رسمي تحت التدريب يتهياً للسفر إلى خارج أراضي المملكة ، ينقل له فيها معلومات جغرافية عن مواطن عمله المقبل . وسنقتطف من الرسالة المقاطع

48- Ibid, PP. 42-43

المتعلقة ببلاد الشام^(٤٩).

[. . أنت تقول أنك كاتب ماهر. فان كان ذلك صحيحاً، هلم إلى الاختبار. هذا حصان مسرج لأجلك، سريع كابن آوى، وكالزوبعة في انطلاقه. . أنت لم تذهب بعد إلى بلاد «حاتي»، ولم ترأرض «أوبه» - Upi، ولم تعرف شيئاً عن «خيديم» - Khedem، ولا عن طبيعة «يجدي» - Yegdy، كيف تبدو «سيميرا» رمسيس؟ وإلى أي جهة منها تقع مدينة «حلب» - Halba، وكيف هو مجراها. أنت لم تذهب إلى «قصادش». ولا إلى «تسويخي» - Tubikhi، أنت لم تذهب إلى أقاليم البدوم مع نبالة الجيش... دعني أخبرك عن مدينة أخرى هي «جيبل»، كيف منظرها وما ألفتها، فأنت أيضاً لا تعرفها، عن «صيدون» و«بيروت» و«ساريبتسا» - Sarepta، وأين يجري نهر «الليطاني». كيف تبدو «أوزو» - Uzu، ومدينة في البحر أخرى اسمها «صور» الميناء، التي يحمل إليها ماء الشرب بالقوارب، وفيها السمك أكثر عدداً من الرمال].

يبدأ كاتب الرسالة، في هذا المقطع، بوصف جغرافية بلاد الشام من الشمال ثم ينحدر نحو الجنوب. فالرحلة المتخيلة تبدأ من بلاد الحثين والمناطق السورية الشمالية الواقعة تحت سيطرتهم والتي كان المصريون يطلقون عليها أيضاً اسم «حاتي»، ثم تتجه جنوباً نحو منطقة دمشق التي كانت تتبع في ذلك الوقت مقاطعة «أوبه» وعاصمتها «كوميدو» في البقاع الجنوبي (كامد اللوز الآن) وذلك قبل أن تتحول إلى مملكة آرامية^(٥٠). ومنها تنعطف نحو المنطقة الساحلية مبتدئة بمدينة «سميرا» عاصمة مملكة «أمورو» (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً) في منطقة طرطوس الحالية. وهنا يطرح كاتب الرسالة سؤالاً على

49- John A. Wilson, Egyptian Letters (in: J. Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Princeton 1969), p. 476

50- الدكتور علي أبو عساف، الأراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨، ص ٥٩.

الموظف المدرب للإجابة عليه ، فمن أين يتجه المسافر من سيميرا إلى حلب وأي طريق يأخذ؟ من سيميرا تسير الرحلة بمحاذاة الساحل فتصل إلى «جبيل» الميناء الكنعاني الرئيسي الذي كان المصريون على احتكاك به منذ مطلع عصر الأسرات ، ومنها جنوباً إلى «بيروت» و«صيدون» و«ساريتا» المدينة الفينيقية الهامة التي تم اكتشافها مؤخراً بين صيدا وصور على الساحل اللبناني^(١). أما عن مدينة «صور» فيقدم النص وصفاً دقيقاً لموقعها ، فهي تتألف من قسمين قسم بحري يقع على جزيرة تبعد مسافة ميلين فقط عن الشاطئ واسمه صور ، وقسم بري يقع على البر المقابل تماماً واسمه «أوزو» . ومن المعروف تاريخياً أن هذه المدينة بقيت موزعة بين البر والبحر حتى حملة الاسكندر الأكبر الذي وصل بين المدينتين لأغراض عسكرية . بعد ذلك تتابع الرحلة مسيرتها إلى شواطئ فلسطين ثم تنعطف نحو أراضيها الداخلية .

[. . . تعال ضعنا على الطريق جنوباً نحو اقليم «عكا» ، إلى أين ينتهي الطريق الآتي من «أكشف» إلى أي مدينة؟ . أخبرني عن جبل «أوزير» - Oser ، كيف تبدو قمته؟ وعن جبل «شكيم» . من أين يبدأ الكاتب رحلته إلى «حاصور» وكيف هو مجراها؟ ضعني على الطريق إلى «حمث» و«دجر» و«دجر إيل» - Deger El . تعال دعني أخبرك عن مدن تقع فوقها (يلي ذلك عدد من المواقع التي لم يمكن التعرف على معظمها ، ثم يعود كاتب الرسالة إلى حيث انطلق) . أخبرني عن «رحوب» و«بيت شان» و«ترقا ايل» ، عن نهر الأردن وكيفية عبوره ، وكيف الوصول إلى «مجدو» . .] .

في المقطع أعلاه ، تحتاز الرحلة المتخيلة رأس الناقورة نحو «عكا» ثم تتجه غرباً إلى الأراضي الداخلية لفلسطين فتجتاز «أكشف» التي يعتقد أنها «تل كيسان» في وادي عكا جنوب الجليل وتصل إلى «شكيم» التي اكتشف موقعها قرب مدينة «نابلس» الحديثة ، وجبلها الذي يدعى اليوم بجبل

51- Harvey Weiss, Ebla To Damascus, Smithoniu Institution 1985, P.264

نابلس، ثم تتحرك جنوباً مسافة ليست بالبعيدة إلى «حاصور» التي اكتشف موقعها تحت «تل القدح» في وادي الاردن. وهنا ينعطف خط الرحلة نحو الشمال إلى «رحوب»، وهي «تل الصارم» على بعد ثلاثة أميال جنوب «بيت شان» (بيسان)، فبيت شان، وهناك يتوقف المسافر ليلقي نظرة على نهر الاردن القريب ويتساءل عن كيفية عبوره، ثم يتجه غرباً نحو «مجدو» وفي نهاية الرحلة يتم الوصول إلى قرب الحدود المصرية:

[إيه أيها الكاتب، أين كل تلك المدن؟ و«رفح» - Raphia كيف تبدو أسوارها، وما المسافة بينها وبين «غزة»؟].

وهكذا يقدم لنا هذا النص الفريد صورة واضحة متكاملة لجغرافية بلاد الشام بمدنها وأسماؤها القديمة، وخصوصاً مدن الساحل الكنعاني، وفلسطين الداخلية التي حافظت على اسمائها الى فترة السيطرة السياسية للإسرائيليين، دون أن يكون هؤلاء الاسرائيليين يد في تسميتها بأسماء مواقع كانت معروفة في غرب شبه الجزيرة العربية، وهو المبرر الأساسي لتشابه أسماء المواقع في رأي كمال الصليبي.

وإذا كان من المستحيل، كما هو واضح لأي قارئ لهذا النص، مطابقة مضمون رسالة كاتب القصر الملكي الفرعوني، الذي كان بمثابة سكرتير للخارجية في قصر الفرعون، على المواقع التي يفترضها الصليبي في غرب العربية، فإن ذلك يستتبع نتيجة هامة مفادها أنه إضافة إلى الحملات المصرية التي كانت موجهة نحو بلاد الشام، فإن هذه المنطقة أيضاً كانت محور الدبلوماسية المصرية في المشرق، وأن غرب العربية لم يكن له وجود؛ لا في الاعتبار العسكرية ولا في الاعتبار السياسية المصرية.

نتائج وتساؤلات:

إن النصوص التي قدمناها في هذا الفصل ليست إلا غيضاً من فيض

السجلات المصرية القديمة التي قمنا بدراستها، والتي لا يمكن لهذا العمل المحدد المهدف أن يستوعبها أو يفهمها حقها. ونستطيع القول بكل ثقة، أننا لم نعر على نص واحد يمكن أن تنطبق معطياته على الخريطة القديمة التي يفترضها كمال الصليبي لغرب شبه الجزيرة العربية. إلا أنه يتوجب علينا، توخياً للدقة والحذر العلمي، أن نعترف بوجود نص واحد غامض، هو سجل حملة الفرعون «شيشانق الأول» (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م)، فالنص مليء بأسماء المدن والمواقع التي قهرها شيشانق في حملته الآسيوية، ومعظمها لم يمكن التعرف عليه إلا بشكل تقريبي في فلسطين وسورية. يضاف إلى ذلك تناقض معلومات النص مع بعض الحقائق التاريخية، فمملكة «ميتاني» التي يتباهى الفرعون باخضاعها لم تكن قائمة في زمنه. وقد ركز السيد كمال الصليبي على سجل حملة شيشانق وأفرد له فصلاً كاملاً في كتابه، فتتبع مسار حملة شيشانق في غرب العربية وطابق الكثير من أسماء الأماكن الواردة فيها على أسماء مواقع قائمة اليوم في غرب العربية، إلا أن مطابقتها لم تكن بأحسن حالاً من المطابقات التي جرت على المواقع الفلسطينية. وبقى هذا السجل، في رأينا، محاطاً بالغموض وإشارات الاستفهام. إلا أن ما يرجع أن مسرح حملة شيشانق كان في فلسطين وسورية، العثور على نصب تذكاري في موقع «مجدو» بفلسطين يحمل اسم ذلك الفرعون، وعلى قاعدة تمثال في مدينة «جبيل» على الساحل اللبناني تحمل اسمه أيضاً. وإذا كان من المؤكد أن النصب التذكاري في فلسطين قد أقيم تخليداً لانتصارات عسكرية، فإن تمثال جبيل كان عربون علاقات ودية بين البلدين ودلالة نفوذ سياسي مصري^(٢١).

وقد وردت أخبار حملة شيشانق على مملكة يهوذا في التوراة، ونعلم أنها تمت في عهد «رحبعام» ابن الملك سليمان، أي خلال السنوات الأخيرة لحكم شيشانق الأول. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٤ : ٣٥ - ٣٧ [وفي السنة الخامسة

52- John A. Wilson, Egyptian Historical Texts, op. cit, p 264

للملك رجبعم صعد شيشق ملك مصر إلى اورشليم وأخذ خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك، وأخذ كل شيء وأخذ أتراس الذهب التي عملها سليمان. فعمل الملك رجبعم عوضاً عنها أتراس نحاس. [١٠].

وفي الحقيقة، يمكن لعلم الآثار أن يلقي ضوءاً على ما ورد في السجلات المصرية وفي كتاب التوراة حول حملة شيشانق. ففي العديد من المواقع الكنعانية في فلسطين استطاع المنقبون تمييز طبقات تعود إلى مطلع فترة المملكة المنقسمة التي اعقبت موت الملك سليمان عام ٩٣٠ ق. م، وهذه الطبقات قد تم تدميرها بشكل عنيف في تاريخ يتقارب وتاريخ حملة الفرعون شيشانق الأول. فموقع «تل أبو حوام» على سبيل المثال قد دمر تماماً وبقي مهجوراً لعدة قرون تلت ذلك. وفي «تل بيت مرسيم» تم تدمير المدينة القديمة بكاملها ثم أعيد بناؤها مجدداً. وتركت آثار الحرائق في «بيت شمش» طبقة كثيفة من الرماد غطت المستوى السابق تماماً^(١٣).

إن هناك أكثر من مفتاح لحل غوامض بعض الأحداث والنصوص التاريخية، وليس منهج مقابلة أسماء المواقع بأجداها.

وإذا كانت دراستنا للسجلات المصرية قد أوضحت بما لا يدع مجالاً للشك في أن هذه السجلات إنما تروي أحداثاً وقعت في بلاد الشام لا في غرب العربية، وأن علاقات مصر السياسية والديبلوماسية كانت قائمة مع هذه المنطقة منذ بدايات التاريخ المكتوب لا مع غرب العربية، وإن أسماء الأماكن الكنعانية الواردة في التوراة، هي لمواقع قديمة موجودة في بلاد الشام قبل الظهور السياسي للإسرائيليين، فإن في ذلك كله مقدمة للبرهان على أن مسرح الحدث التوراتي كان في الشام لا في غرب العربية. وهو البرهان الذي سوف نتابع حلقاته عبر الفصول المقبلة.

وأخيراً يحق لنا أن نتساءل: إذا كانت المعلومات الواردة في كل

53- Kathleen kenyon, op. cit PP. 174-275

السجلات المصرية تتعلق بأماكن وأحداث جرت في غرب العربية ، فأين
السجلات المتعلقة ببلاد الشام؟

٢- سجلات وادي الرافدين

كان السومريون أول من أسس لمجتمع المدينة في تاريخ الحضارة، إلا أنهم لم يعنوا بتشكيل دولة قومية تجمع شتات دويلات المدن التي عاشت في شقاق دائم وحروب دامية فيما بينها. وعندما تنبه المجتمع السومري إلى ضرورة التوحيد، كانت حضارته تقطع أشواطها الأخيرة في نهايات الألف الثالث قبل الميلاد، وكان الأكاديون الساميون الذين بدأوا بتنظيم مجتمعاتهم في شمال سومر يتحفزون لقطع ثمار الحضارة السومرية التعب. لقد جاءت الوحدة السومرية في وقت متأخر جداً وضمن شروط لم تسمح لها بالحفاظ على مكتسباتها، فعندما قام ملك «أوروك» «لوغال زاغيزي» بتوحيد دويلات سومر وكامل بلاد الرافدين (٢٣٧١ - ٢٣٤٧ ق. م) والاتجاه بأنظاره نحو بلاد الشام، انتزع الامبراطورية الغضة من يده ضابط أكادي اسمه «صارغون» الذي يبدو أنه بدأ حياته حاكماً لمدينة «كيش» السومرية ثم أنشأ لنفسه سلطة في «أكاد» قرب الموقع المقابل لبابل^(١).

وقد بدأت المحاولات التوسعية باتجاه بلاد الشام مع تكوين الدولة المركزية الموحدة في بلاد الرافدين. فمن سجلات «لوغال زغيزي» نعرف أن

١- ارنولد توينبي، تاريخ البشرية، ترجمة د. نقولا زيادة، الأهلية بيروت ١٩٨١، ص ٧٤ - ٧٦.

سلطته قد امتدت من البحر الأدنى إلى البحر الأعلى الذي أتى من جباله
بخشب الأرز. وهاتان التسميتان تشيران، كما هو معروف في كل سجلات
وادي الرافدين، إلى الخليج العربي وهو البحر الأدنى، والبحر المتوسط وهو
البحر الأعلى. ولكن يبدو أن حملات هذا الملك السومري ضد بلاد الشام لم
تكن بهدف توسيع حدود امبراطوريته، بل لتزويد سومر بالمواد الأولية المفقودة
في البلاد مثل الأخشاب. أما الاجتياح المنظم لبلدان شرق الرافدين فقد بدأ
منذ عهد خليفته «صارغون الأول» (٢٣٧١ - ٢٣١٦ ق. م)، نقرأ في أول
وثيقة أكادية عن الحروب في بلاد الشام ما يلي:

[صارغون، ملك أكاد، ناظر الالهة عشتار، ملك «كيش». كاهن
الاله أنوالمسوح، ملك البلاد، «إنسي»^{*} الاله أنليل. هزم «أوروك» وهدم
أسوارها وانتصر في معاركه على أهلها. قبض على «لوغال زغيزي» ملك
أوروك، في القتال، وجره من طوق إلى رقبة حتى بوابة أنليل. صارغون ملك
أكاد انتصر في معاركه على أهل «أور» وهدم أسوار مدينتهم. هزم مدينة «انمار»
وهدم أسوارها، وهزم المناطق التابعة لها من «لجش» وحتى البحر. انتصر في
معاركه على أهل «أوما» وهدم أسوارها. الاله أنليل جعل الكل يخضعون
لحكم صارغون ملك البلاد، وأعطاه السلطان من البحر الأدنى إلى البحر
الأعلى. فبدءاً من البحر الأدنى يمسك الأكاديون بزمام الحكم، وقد وقفت
«عيلام» و«ماري» طائعة أمام صارغون ملك البلاد. استعاد «كيش» وأمر
أهلها بتولي مقاليدها.

صارغون، ملك «كيش» أحرز نصراً في أربع وثلاثين حملة، وغنم كل
البلدان حتى شاطيء البحر. عند رصيف أكاد صنع سفناً أكثر من سفن
«ملوحه» - Meluha و«ماجان» - Magan و«تيلمون» - Telmun. صارغون
سجد في صلواته أمام الاله «داجان» في «توتول» - Tutul فأعطاه حكم الأقاليم

* - «اسي» هو لقب ملوك الدويلات السومرية. ويعني الملك - الكاهن.

العليا: «ماري» و «لارموتي» - Larmuti و «إيبلا» إلى غابة الأرز والجبل
الفضي . . [٣].

تحدد هذه الوثيقة التاريخية منذ البداية ، المجال الحيوي للامبراطورية
الناشئة في بلاد الرافدين ، التي أسسها الأكاديون ثم ورثها البابليون
فالآشوريون ، فنحو الشرق كان توسعها باتجاه «عيلام» والهضبة الإيرانية ،
ونحو الغرب باتجاه الجزيرة العليا والأناضول وبلاد الشام . في النص أعلاه
نجد صارغون يستولي على المدن السومرية واحدة تلو الأخرى : أوروك وأور
وانسار ولجش وأوما وكيش . بعد ذلك يتوجه شرقاً فيستولي على عيلام العدو
التقليدي للمالك السومرية ، وينقلب غرباً نحو الفرات حيث يسجد أمام الإله
«داجان» أحد الآلهة الرئيسية للساميين الغربيين ، وذلك في مدينة توتول
الواقعة على رافد «البليخ»^(٣) ، فيعطيه حكم الأقاليم العليا بحاضرتها
الرئيسيتين ماري وإيبلا .

وكانت مدينة ماري في ذلك الوقت عاصمة لدولة سورية قوية مزدهرة
شملت حوض الفرات الأوسط والأعلى . وقد تم اكتشافها على الضفة
اليمنى لنهر الفرات تحت تل الحريري قرب مدينة «أبو كمال» عام ١٩٣٣ من
قبل بعثة فرنسية . وكان أهم ما عثر عليه المنقبون بين أنقاضها أرشيفات القصر
الملكي التي ضمت خمسة وعشرين ألف لوحاً مكتوباً ، معظمها سجلات
تجارية وسياسية ساعدت على فهم وتعديل الكثير من معلوماتنا التاريخية^(٤) .
أما مدينة إيبلا التي تقع في قلب السهول السورية الشالية ، فكانت عاصمة

2- Leo Openheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts (In: J. Pritchard's A-
ncient Near Eastern Texts, Princeton 1969) P 267

3- اندرية بارو، ماري، ترجمة رباح النفاخ، منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٧٩ ، ص
١٧٤ .

4- المرجع نفسه ص ١٦٩ - ١٧٥ .

لدولة مترامية الأطراف امتدت من حوض الفرات شرقاً إلى حوض العاصي غرباً، ومن جبال طوروس شمالاً إلى حدود مملكة «حماة» في أواسط سورية جنوباً. وقد تم اكتشافها تحت «تل مردوخ» الواقع إلى الجنوب من مدينة حلب بحوالي ٥٠ كم، خلال التنقيبات التي ابتدأت في الموقع منذ عام ١٩٦٤. وقد عثر المنقبون في انقاض قصرها الملكي/الواحد السبعينيات على أرشيف ملكي يضم حوالي ١٦٠٠٠ لوحاً مكتوباً أحدثت انقلاباً في معلوماتنا عن تاريخ سورية خلال الألف الثالث قبل الميلاد. وترجع القراءات الأولى لوثائق إيبلا ورود اسم صارغون وأكاد، حيث يرد اسم صارغون بالتهجئة الإيبلائية «شارغينو» - Sharginu ، وأكاد «أينكادو» - A. En Ga-Du^(٥).

بعد ماري وإيبلا يتابع صارغون الأكادي في حملته المؤثرة أعلاه، مسيرته شرقاً إلى غابة الأرز في جبل «الأمانوس» على الساحل السوري الشمالي، وهو جبل ما زال إلى يومنا هذا ممتلئاً بشجر الأرز.

ثم يعقب صارغون الأول «نارام سن» الذي وطد أركان الإمبراطورية بحملاته الشرسة. ولدينا نص يتحدث عن إعادة فتح المناطق الغربية التي اجتاحتها صارغون من قبله: [. . . منذ عهد البشرية الأول، لم يتسن للملك أن يدمر مدينتي «إيبلا» و«عرمان» - Arman ، ولكن الإله «نرجال» قد فتح الطريق أمام نارام سن العظيم وأعطاه إيبلا وعرمان وأهداه جبل الأرز والبحر الأعلى^(٦)]. وهكذا نجد أن أبكر الحملات التي قام بها حكام وادي الرافدين، غرباً، كانت موجهة ضد بلاد الشام. ولسوف نثبت بالدليل القاطع فيما يلي من هذا الفصل أن كل الحملات التي تلت كانت في الاتجاه نفسه، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية.

لم تكمل الأسرة الصارغونية قرنها الثاني في الحكم عندما هاجمها البرابرة

5- Paolo Matthiae, Ebla, Haddar And Stoughton, London 1980, PP. 47, 169, 167, 176

6- Leo Oppenheim, Op. Cit, P. 268

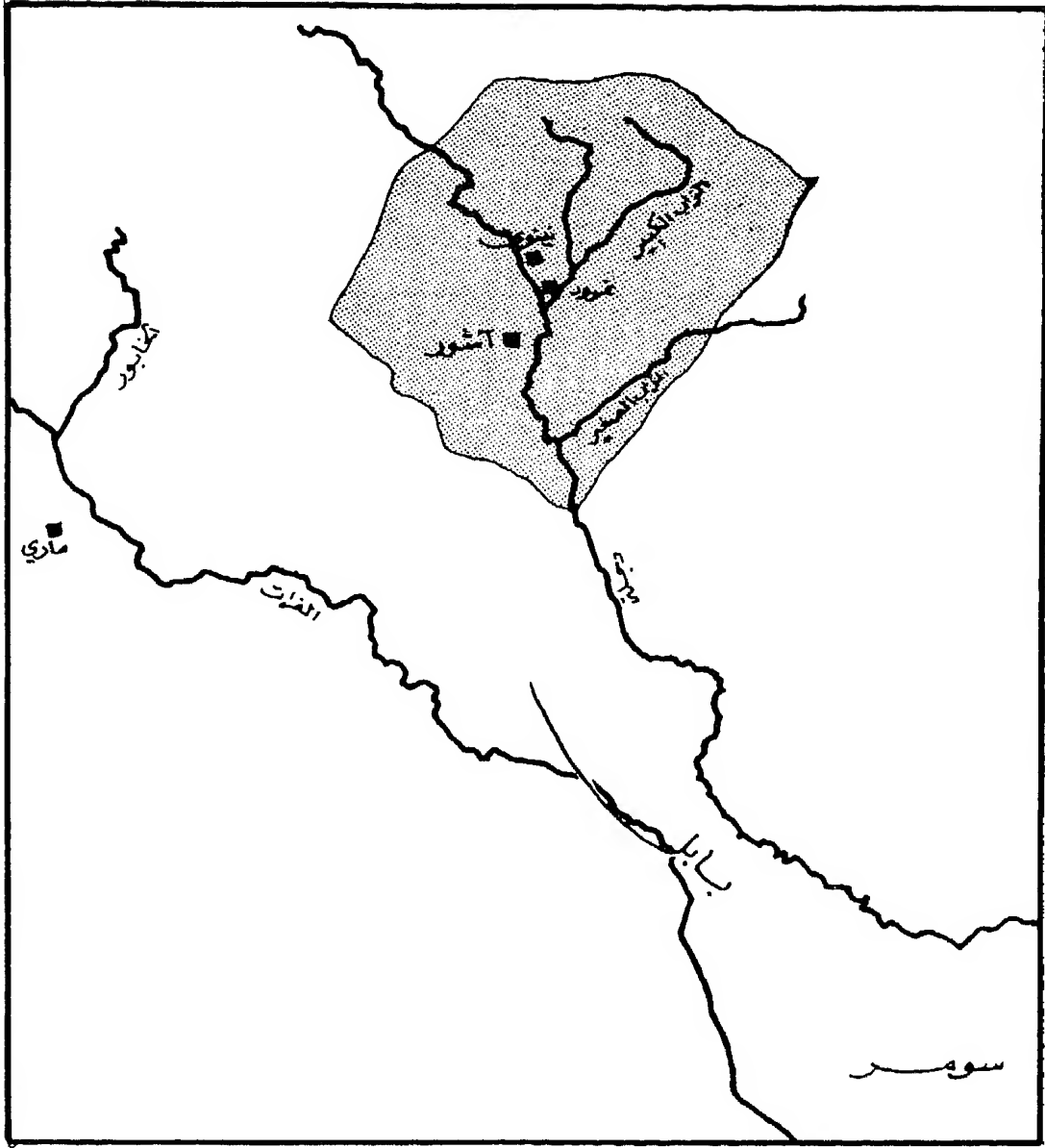
«الجوتيون» - Gutian القادمون من المناطق الجبلية الشمالية الشرقية حوالي عام ٢٢٣٠ ق.م ، واستولوا على سومر وأكاد قرابة قرن من الزمان . وخلال هذه الفترة تسلل العموريون الساميون إلى أكاد وأخذوا يتركزون بشكل رئيسي في منطقة «بابل» . وعندما قاد السومريون الجنوبيون حملات التحرير ضد الجوتيين وطردوهم من وادي الرافدين ، كانت مدينة بابل هي وريثة أكاد كعاصمة للدولة الموحدة الجديدة التي أقامتها الأسرة العمورية الأولى . وقد قام «حمورابي» (١٧٩٢ - ١٧٥٠ ق.م) ، أقوى ملوك هذه الأسرة بتوحيد كل وادي الرافدين واستعادة ما فقدته الأكاديون في الشرق وفي الغرب . ولكن دور بابل في بلاد الشام قد أخذ بالتراجع أمام القوة الصاعدة لمملكة ميتاني ومملكة الحثيين من بعدها . وعندما هاجم الحثيون بابل نفسها ونهبوها عام ١٥٩٥ ق.م فتحوا المجال أمام البرابرة الشرقيين المتربصين بها ، فهاجمها «الكاشيون» الذين حكموا سومر وأكاد حتى عام ١١٦٩ ق.م^(٣) .

وفي هذه الأثناء ، كانت الحملات المنظمة التي شنها فراعنة الأسرة الثامنة عشر بعد طرد الهكسوس قد بدأت ، مما أدى إلى اصطدامهم بالميتانيين أولاً ثم بالحثيين ، مما رأيناه في الفصل السابق . وعندما انهارت الدولة الحثية أمام ضربات شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق.م ، ودخلت مصر مرحلة كمونها الطويل بعد رمسيس الثالث المعروف بحروبه ضد شعوب البحر ، أصبح الطريق ممهداً أمام الدولة الآشورية لاستعادة وحدة وادي الرافدين والتطلع نحو المناطق السابقة للنفوذ البابلي في بلاد الشام (من أجل أرض آشور انظر الخريطة رقم ٦) .

سجلات آشور - تغلات فلاصر الأول :

تقدم لنا السجلات الآشورية أكثر النصوص غزارة وأهمية بالنسبة إلى

7-أرنولد توينبي ، المرجع أعلاه ص ص ٩٣ - ٩٤ .



الخريطة رقم (٦) - أرض آشور

موضوعنا، وتأتي مدونات الملك «تغلات فلاصر الأول» (١١١٤ - ١٠٧٦ ق. م) فاتحة لوثائق حروب آشور في بلاد الشام. نقرأ في نص وجد في معبد الإلهين «حدد» و«آنو» بمدينة آشور ما يلي:

[تنفيذاً لأوامر الهي «آشور» فقد قهرت البلدان الواقعة بين الزاب الأدنى والبحر الأعلى الذي في الغرب ... مضيت إلى «لبنان» - Lab-na-a-ni حيث قطعت أخشاب الأرز لبناء معبد آنو وحدد، ثم تابعت التحرك نحو «آمورو» وأخذت كل بلاد آمورو. تلقيت الجزية من «جيبيل» - Gu-bal و«صيدون» - Si-Du-ni و«أرواد» - Ar-ma-da. عبرت بسفن أرواد عند شاطيء البحر إلى مدينة «سيميرا» - Samuri التي في بلاد آمورو على مسافة ثلاثة أميال مضاعفة داخل البر ... وفي طريق عودتي اخضعت جميع بلاد حاتي وفرضت على ملكها «ايلى تيشوب» جزية ...] ^(٨).

يقدم لنا هذا النص صورة جغرافية وطبوغرافية مطابقة للصورة التي قدمتها لنا السجلات المصرية. فالملك الآشوري يتجه نحو الغرب إلى البحر الأعلى، البحر المتوسط، حيث جبال لبنان (بالأكادية كما ورد في النص «لبناني») فيقتطع من هناك خشب الأرز، وتأتيه من الموانئ الكنعانية القريبة جزيرة مدينة «جيبيل» (بالأكادية جُبَل) وصيدون (بالأكادية صيدوني) وأرواد (بالأكادية أرمادا) بعد ذلك يبحر على السفن الأروادية إلى سيميرا (بالأكادية سَمُوري) عاصمة مملكة آمورو مسافة ثلاثة أميال مضاعفة، وهي المسافة الحقيقية بين أرواد و«تل الكزل»^(٩) حيث تجري التنقيبات الآن عن مدينة سيميرا القديمة (انظر الصفحة ٦٠ سابقاً). وفي طريق عودته يخضع بلاد حاتي التي

8- Leo Oppenheim, op. cit, P.275

* - يقع تل الكزل في سهل صافيتا الساحلي على بعد ٢٨ كم إلى الجنوب من طرطوس على الضفة اليمنى لنهر الأبرش. وقد بقي اسم الموقع القديم «سيميرا» محفوظاً في مسميات

←

يقصد بها في النصوص الآشورية دويلات الشمال السوري مثل «كركميش» و «حداتو» (أرسلان خاش) و «شمال» (تل زنجري على السفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري)، وغيرها مما سيمر ذكره معنا لاحقاً، وقد كانت هذه الدويلات واقعة تحت النفوذ الحثي قبل انهيار الامبراطورية الحثية أواخر الألف الثاني قبل الميلاد واستمرت تسمية «حاتي» تطلق عليها بعد ذلك، وقد انساق المؤرخون الحديثون في إطلاق اسم الدويلات الحثية الجديدة على هذه المناطق وهي تسمية خاطئة (كما ألمحنا سابقاً) مستمرة بحكم التعود، ذلك أن اكتشاف معظم المواقع القديمة لهذه الدويلات وقراءة سجلاتها ودراسة فنونها، قد أثبتت بطلان التسمية، فالمنطقة سورية بشتى مناحي ثقافتها رغم استيعابها لعدد لا بأس به من القادمين من بلاد حاتي الأصلية بعد دمار مراكزهم الحضرية على يد شعوب البحر.

هذه الحملة الآشورية المبكرة، لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون موجهة ضد غرب شبه الجزيرة العربية. فالملك الآشوري يتوجه غرباً نحو البحر الأعلى، البحر المتوسط، لا جنوباً نحو جزيرة العرب. و«لبنان» الذي يحتطب منه خشب الأرز هو لبنان الشام القريب من الموانئ البحرية، لا «لبنان» شمال اليمن في المناطق الداخلية (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). و«أرواد» التي يركب الآشوريون على سفنها هي أرواد الشام وليست «رواد» مرتفعات عسير (انظر ص ٣٥) لأن النص صريح في الإشارة إلى الموقع البحري للمدينة، ولأن السفن تبنى على السواحل لا على المرتفعات الجبلية.

→

منطقة الكزل. فهذه المنطقة تسمى أرض سيمريان، يحدها من الشمال نهر سيمريان وقرية صغيرة في سفح المرتفعات تسمى سيمريان.

انظر: دراسة «جوزيت الأبي» عن تل الكزل، تعريب الدكتور عدنان البني في مجلة الحوليات الاثرية السورية المجلد السادس والثلاثون ١٩٨٦ - ١٩٨٧ ص ١٠١.

آشور ناصر بال الثاني :

بعد تغلات فلاصر الأول، مرت حركة التوسع الآشوري بفترة كمون، لتبدأ من جديد على يد «آشور ناصر بال الثاني» (٨٨٣ - ٨٥٩ ق.م). نقرأ في نص لهذا الملك عثر عليه في معبد الاله «نورتا» في موقع «نمرود» الآشورية :

[غادرت بلاد «بيت عديني»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على قوارب مصنوعة من الجلود (المنفوخة بالهواء) إلى «كركميش»، حيث تلقيت جزية ملك الحثيين (تعداد للوزنات الذهبية والفضية والمواد الثمينة الأخرى). ملوك البلاد المجاورة جميعاً أتوا إلي فأمسكوا قدمي . أخذت منهم رهائن مشوا معي إلى «لبنان» - Lab-na-ni مشكلين طليعة جيشي . غادرت كركميش متحركاً على الطريق الذي يقع بين جبال «منزيغاني» - Manzigani و «هامرجا» - Hamurga ، تاركاً بلاد «أهانو» - Ahanu على يساري ، وتقدمت نحو مدينة «حزازو» - Hazazu التي تخص «لوبيارنا» ملك حطينة - Hattina ، حيث تلقيت الذهب وعباءات الكتان . ثم تابعت فعبرت نهر «عبري» حيث قضيت الليل ، ثم غادرت شاطيء نهر عبري نحو مدينة «كونولو» - Kunulua المقر الملكي للوبيارنا ملك حطينة ، الذي لحوفه من أسلحة جيشي الفتاة ، وقع على قدمي طالباً حياته (تعداد لأصناف الجزية المقدمة) في ذلك الوقت وصلتني جزية «جوشي» - Gusi من بلاد «ياهاني» - Iahani (تعداد لأصناف الجزية) .

غادرت «كونولو» المقر الملكي للوبيارنا وعبرت نهر «العاصي» - Arantu حيث قضيت الليل ، ثم تحركت آخذاً الطريق بين جبل «يراكي» - Iraki وجبل «يعتوري» - la'turi ، ثم عبرت جبل ... لقضاء الليل عند نهر «سجارا» - Sangara . من هناك تابعت المسير آخذاً الطريق بين جبل «ساراتيني» - Saratini وجبل «دوباني» - Duppani حيث قضيت الليل على ضفة

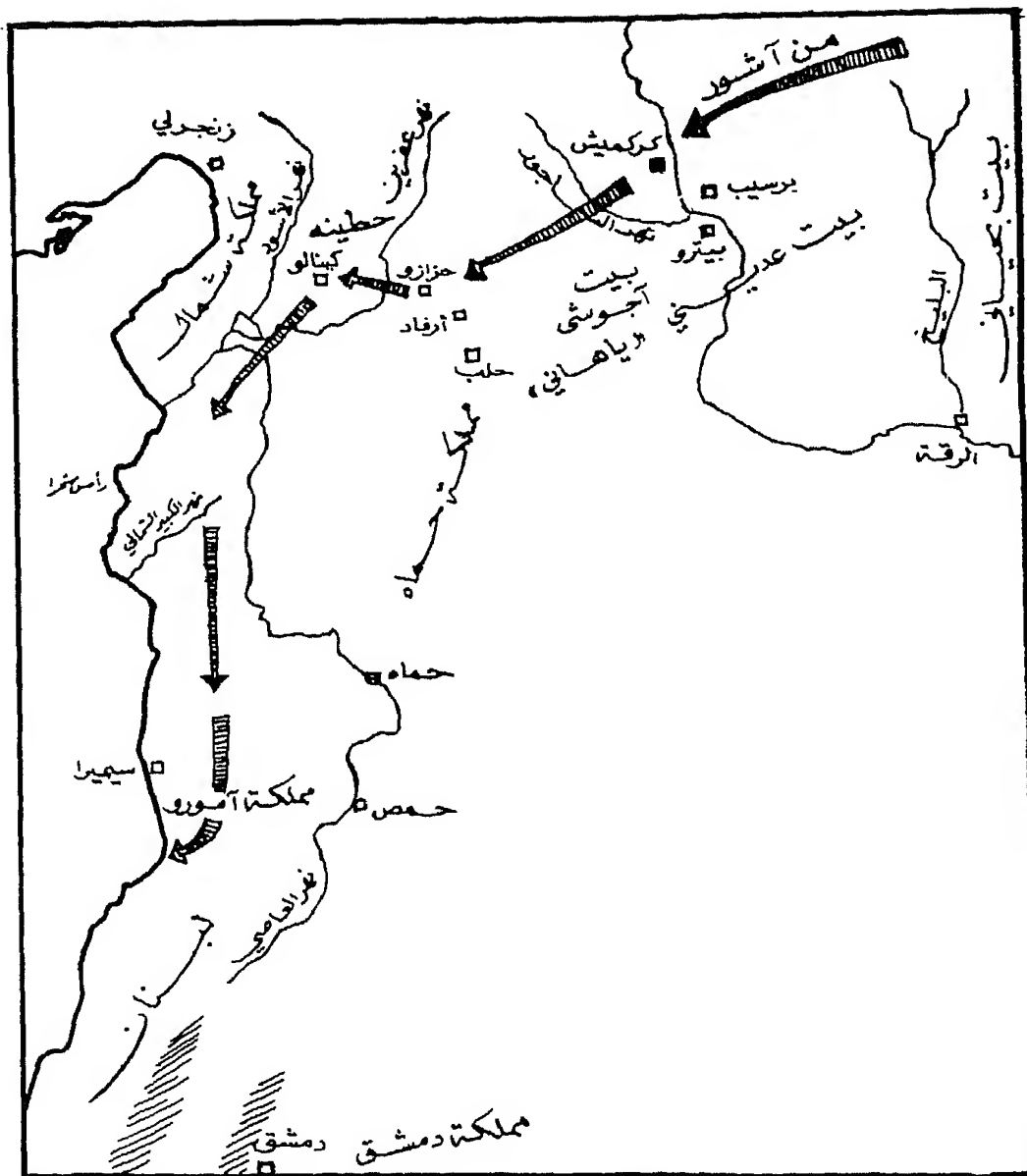
بحيرة ... ، دخلت «أريبو» - Aribu حصن لوبارنا ملك حطينة وضممتها إلي .
حصدت قمح وقش منطقة «لوحاتي» - Luhati وخزنت ما حصدت هناك
وتركت في المكان مواطنين آشوريين للإقامة . وخلال اقامتي في أريبو فتحت
مدن لوحاتي الأخرى وهزمت أهلها وهدمت أسوارها وأحرقتها بالنار . أما
الناجون فقد رفعتهم على الخوازيق أمام مدنها . بعدها أخذت كل جبل
لبنان ووصلت إلى بحر آمورو العظيم حيث غسلت أسلحتي في المياه
العميقة ، وقدمت ذبائح إلى الآلهة . هناك جاءتني الجزية من ساحل البحر من
سكان «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«محللاتا» - Mahallata و«ميزا» - Maiza
و«كيزا» - Kaiza و«آمورو» و«أرواد» التي في البحر (تعداد لما حصل
عليه) .^(٩) .

يرسم هذا النص الفريد خريطة مفصلة لممالك بلاد الشام الشمالية
والغربية ، استطاع علم الآثار وعلم التاريخ اثبات صحتها وصدقها . ولسوف
نتابع فيما يلي مسار حملة آشور ناصر الثاني خطوة خطوة (انظر خريطتنا
رقم ٧) .

في هذا النص ، يبدأ الجيش الآشوري حملته على بلاد الشام ، التي
تدعوها النصوص الآشورية عادة ببلاد ما وراء النهر «عبر ناري»^(١٠) ، بعبور نهر
الفرات . وهذا الفرّات لا يمكن بحال من الأحوال أن يكون «فرات» كمال
الصلبي في غرب العربية ، الذي وجده في وادي أضرم أحد أكبر الوديان في
غرب شبه الجزيرة العربية الذي تصدر مياهه من مرتفعات الطائف ثم يجري
نحو البحر الأحمر ، والذي ما زال اسمه القديم قائماً ، في رأيه ، في قرية «فرت»
الواقعة على مقربة منه (الصفحات ٣٨ ، ٢٦٠ ، ١٩٩ ، ٣٠٢ . انظر أيضاً

9- Ibid, PP. 275-76

10- James Muhly, End of Bronze Age (In: Form Ebla To Damascus Edited by H. Weiss
Smithsonian Ins 1985, P. 265



الخارطة رقم (٧) - حملة آشور ناصر بال الثاني

خريطة الصليبي رقم ٣). فعبور نهر الفرات يتم من «بيت عديني» إلى كركديش. وبيت عديني هي إحدى الممالك الآرامية التي ازدهرت في مطلع الألف الأول ق. م. وقد امتدت أراضيها بين الفرات ورافد البليخ، ووصل نفوذها في أوج قوتها إلى المناطق الغربية من الفرات. تم اكتشاف عاصمتها «تل برسيب» في موقع «تل الأحمر» على الضفة اليسرى (الشرقية) للفرات، على مسافة ٢٠ كم إلى الجنوب من كركميش (جرابلس الحالية) وقد عثر في الموقع على كتابات بالهيروغليفية اللوفية* تذكر اسم ملكها «آخوني» المعروف في السجلات الآشورية، وخصوصاً في سجلات «شلمنصر الثالث». كما عثر في بوابة قصر برسيب على أسود بازلتية عليها نقوش تذكر الحاكم الآشوري «شمسي إيلو» الذي ولي المدينة بعد أن الحقها شلمنصر الثالث بآشور وأسماها «كار شلمنصر» أي حصن شلمنصر^(١).

وقد ورد ذكر بيت عديني في كتاب التوراة كمملكة آرامية تحت اسم «بيت عدن»، نقرأ في سفر عاموس ١: ٣-٥ [هكذا قال الرب، من أجل ذنوب دمشق الثلاثة والأربعة، لا أرجع عنهم... فأرسل ناراً على بيت «حزائيل» فتأكل قصور «بنهدد»، وأكسر مغلاق دمشق وأقطع الساكن من بقعة «آون» وماسك القضيبي من «بيت عدن»]. ودمشق الواردة في هذا النص هي دمشق الشام لا دمشق عسير التي وجدها الصليبي في موقع «ذا مسك» في منطقة جيزان بعسير (ص ٣٠)، لأن «حزائيل» و«بن حدد» المذكورين هنا كانا ملكين تعاقبا على حكم دمشق كما نعرف من الوثائق الآرامية التي

* - اللوفية هي لغة هندوأوروبية تكتب بالطريقة الهيروغليفية المصورة وكانت شائعة في بلاد الحثيين بالأناضول ومناطق نفوذهم.

11- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، سورية ١٩٨٨ ص ٣٤-٣٩. وانظر أيضاً:

Eva Strommenger, Til Barsip (in: From Ebla To Damascus, op. cit, P. 330

اكتشفت في بلاد الشام (انظر الصفحة ١٠٠ لاحقاً). وفي مواضع أخرى في التوراة تذكير بيت عدن بالترافق مع عدد من الدويلات الآرامية المعروفة وخصوصاً «جوزان» التي تم اكتشافها في أقصى الشمال السوري بموقع تل حلف الحالي، كما سنفصل لاحقاً (انظر سفر الملوك الثاني ١٩ : ١٢ وأشعيا ٣٧ : ١٢).

يتم عبور الفرات اذن من بيت عديني على الجهة الشرقية للفرات إلى كركميش الواقعة على الجهة الغربية، مما يستتبع أن تكون كركميش هذه هي كركميش الشام لا «قر- قماش» غرب العربية التي وجدها الصليبي في جنوب «الطائف» بالحجاز (ص ٣٧ و ١١٤)، ذلك أن موقع قريني «القر» و«القماش» المتجاورتين لا يمكن العبور اليه من أي جهة من «وادي أضم» الذي يرى فيه الصليبي فرات التوراة وسجلات الشرق القديم (انظر خريطة الصليبي رقم ٣). ويستتبع ذلك أيضاً أن المواجهة بين الفرعون «نخو» والبابليين الواردة في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٥ : ٢٠ وأشعيا ١٠ : ٩ وارميا ٤٦ : ٢ قد جرت عند فرات وكركميش الشام لا قرب الطائف في جنوب الحجاز (ص ٣٧). نقرأ في ارميا ٤٦ : ١ - ٢ [كلمة الرب صارت إلى ارميا النبي عن الأمم. عن مصر عن جيش فرعون، نخو ملك مصر الذي كان على نهر الفرات في كركميش، الذي ضربه نبوخذ راصر ملك بابل...].

في كركميش، يتلقى آشور ناصر بال الجزية من ملكها ويتابع مسيرته غرباً وهدفه الأخير لبنان، دون أن يتعرض لمملكة «بيت أجوشي» (أوياهاني) (انظر الخريطة ٧) التي وافقت على ما يبدو على دفع الجزية التي تصله لاحقاً. فيصل إلى مدينة «حزازو» وهي «إعزاز» الحالية عند السفوح الشرقية لجبل «سمعان»^(١٢)، حيث يتلقى الجزية ثم يتابع فيجتاز نهر «عبري» الذي هو

12- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٤٦

نهر «عفرين» اليوم^(١٣)، إلى مدينة «كونولو» عاصمة مملكة «حطينة»، وهي مملكة آرامية شغلت منطقة سهل العمق وحوض عفرين^(١٤). ويعتقد بعض البعثة، ان كونولو هي موقع «عين دارا» الحديث حيث تقوم بالتنقيب منذ عدة سنوات بعثة المديرية العامة للآثار بسورية^(١٥). إلا أن الدكتور علي أبو عساف رئيس البعثة التنقيبية إلى عين دارا لا يستطيع عند هذه المرحلة تأكيد الاسم القديم للمدينة بسبب عدم توفر النصوص الكتابية في الموقع حتى الآن^(١٦). في كونولو يستسلم ملك حطينة للملك الآشوري، كما تأتي إلى هناك أيضاً جزية «جوشي» ملك «ياهاني».

ومملكة ياهاني هي مملكة آرامية امتدت من حدود الفرات شرقاً إلى أطراف سهل العمق غرباً (انظر الخريطة رقم ٧)، وجاورتها من الجنوب أراضي مملكة حماة، ومن الشمال أراضي مملكة كركميش. وقد دعت بمملكة ياهاني نسبة إلى مؤسسها الأول «ياهان» ثم صار اسمها مملكة «بيت جوشي» أو «بيت أجوشي» نسبة إلى أشهر ملوكها جوشي المذكور في هذا النص. وقد تم اكتشاف عاصمتها «أرفاد» تحت «تل رفعت» على مسافة ٣٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة حلب. ورغم أن الموقع نفسه لم يعط الكثير من الآثار الهامة، إلا أن مواقع أخرى في المملكة قد أعطتنا أثراً فنية وكتابية على جانب كبير من الأهمية، ففي قرية «السفيرة» إلى الجنوب الشرقي من حلب، تم العثور على ثلاثة أنصاب حجرية نقش عليها معاهدة بين ملك أرفاد المدعو متع ايل و«برجاية» ملك «كتك». وهي الآن موزعة بين متحف دمشق

13- Leo Oppenheim , op. cit P. 276

14- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق ص ٤٠.

15- Eva Stromminger, Assyrian Domination (in: From Ebla To Damascus , op. cit, P.325

16- الدكتور علي أبو عساف، محاضرة القيت في «معهد غوته» بدمشق شتاء ١٩٨٨.

ومتحف بيروت^(١٧).

وقد ورد في التوراة ذكر أفراد مراراً. ففي سفر الملوك الثاني ١٨ : ٣٣ - ٣٥ يتفاخر قائد شلمنصر الثالث عند أسوار اورشليم المحاصرة باختضاع الآشوريين لأفراد وغيرها : [هل أنقذ آلهة الأمم كل واحد أرضه من يد ملك آشور؟ أين آلهة أفراد وحماة، أين آلهة سفروايم وهينع وعوآ؟]. وفي نبوءة ارميا عن دمشق : [عن دمشق خربت حماة وأرفساد، قد ذابوا ... ارتخت دمشق والتفتت للهرب]. ارميا ٤٩ : ٢٣ - ٢٤.

يترك الملك الآشوري كونولولو ويتجه جنوباً فيعبر نهر العاصي (أرانتوفي النصوص الآشورية ويرت في النصوص المصرية وأورونتس عند الاغريق) إلى منطقة انطاكية. ومنها يأخذ الطريق بين جبل «يراكي» وجبل «يعتوري» وهما على الأغلب جبل «حارم» وجبل «الأقرع» فيقضي الليل على نهر «سنغارا» وهو على الأغلب «نهر الكبير الشمالي». ثم يأخذ الطريق بين جبل «ساراتيني» وجبل «دوباني» وهما جبل «الزاوية» و«جبال العلويين»، وصولاً إلى جبل لبنان حيث يغسل أسلحته في «بحر آمورو» أي بحر الغرب، وهو البحر المتوسط. وهناك تأتيه الجزية من مدن ساحل البحر (حسب تعبير النص). من «صور» و«صيدون» و«جبيل» و«أرواد» (التي في البحر حسب تعبير النص). ومن «محللاتا» و«كيزا» ومن «ميزا» التي يعتقد أنها حمص (اميسا).

وهكذا تنتهي حملة آشور ناصر بال الثاني، كما انتهت سابقتها حملة تغلات فلاصر الأول، عند مدن الساحل الفينيقي بمدنه القديمة المعروفة أرواد وجبيل وصيدون وصور، لا عند المناطق الداخلية والجبلية من غرب شبه

17- الدكتور علي أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق ص ٣٩ - ٤٥، ٩٤.
- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٨٨، ص ٤٧٣.

الجزيرة العربية . وتتقاطع أخبار العديد من الممالك والمدن الواردة في هذا النص مع أخبارها التوراتية .

شلمنصر الثالث وفترة المد الآشوري :

أن مسرح الحدث الذي ترسمه السجلات الآشورية في بلاد الشام منذ بداية الألف الأول قبل الميلاد، يختلف في ترتيبه الديمغرافي والسياسي عن مسرح الحدث الذي عرفناه من السجلات المصرية . فالممالك الكنعانية القديمة مثل مملكة قطنا وقادش وموكيش (ألاخ) وتونيب وصوبة وغيرها قد غابت لتحل محلها في سورية الداخلية الممالك الآرامية الحديثة العهد مثل مملكة بيت عديني وبيت أجوش وحطينة وشمال وحماة ودمشق . ولم يبق في منأى عن المد الآرامي سوى دويلات الساحل الكنعاني المحصورة بين جبل لبنان والبحر المتوسط، من جزيرة أرواد إلى صيدون . وقد حافظت هذه المنطقة على طابعها الكنعاني لغة وثقافة، ووطورت بشكل مشترك نمطاً حضارياً ذا طابع خاص ضمن الوحدة الحضارية العامة لبلاد الشام، ودعي أهلها بالفينيقين من قبل الاغريق الذين كانوا على احتكاك بهم . كما حافظت منطقة فلسطين الداخلية وشرقي الاردن على ثقافتها الكنعانية القديمة دون أن يترك الحكم السياسي الاسرائيلي القصير الأمد بصمته على أي منحى من مناحي حياتها . وقد انقسمت السلطة السياسية على نفسها في فلسطين الداخلية بعد موت الملك سليمان عام ٩٢٥ ق . م إلى مركزين واحد في الشمال استقر أخيراً في « السامرة » وآخر في الجنوب في اورشليم وما تلاها . أما الفلسطينيون الذين وفدوا مع شعوب البحر وتركزوا في الساحل الفلسطيني منذ مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد فقد ذابوا في خضم الثقافة الكنعانية الراسخة بعد أن أظهرت آثارهم الأولى التي تم الكشف عنها في المنطقة عناصر متميزة من ثقافة بحر ايجه (انظر الفصل ٧ لاحقاً) .

ومع مطلع الألف الأول قبل الميلاد كانت القوى العظمى التقليدية في المنطقة قد غابت. فبابل قد التزمت حدودها ضمن وادي الرافدين، ومملكة الحثيين التي أنهت إلى الأبد مملكة ميتاني، جاء دورها لتشرب الكأس نفسها على يد شعوب البحر، ومصر الفرعونية قد عرّتها أمراض الشيخوخة الطويلة التي عاشتها حتى الفتح الروماني. وقد أعطى هذا الوضع الفريد فرصة لانتعاش الدويلات الآرامية والكنعانية فيما بين القرن الثاني عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. غير أن الحملات الآشورية التي بدأت بشكل متفرق وغير منظم بهدف جمع الجزية واستعراض القوة، قد تحولت إلى حروب منظمة منذ عهد «شلمنصر الثالث» خليفة آشور ناصربال الثاني، وهدفت إلى توطيد أركان امبراطورية مترامية الأطراف، الأمر الذي أدخل عنصراً جديداً إلى الصورة، استمر خلال كامل النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد.

وكما لم يدفع التهديد المصري القديم دويلات بلاد الشام إلى أي نوع من أنواع الوحدة فيما بينها، كذلك كان شأن التهديد الآشوري الجديد الذي واجهته كل دويلة على انفراد، أو من خلال أحلاف مؤقتة ما تلبث أن تنحل عشية المعركة. ولعل أكثر الأحلاف التي واجهها الآشوريون خطراً، كان حلف معركة «قرقرة» الذي انعقد في مواجهة «شلمنصر الثالث» عام ٨٥٣ ق.م.

أمضى «شلمنصر الثالث» فترة حكمه الطويلة (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) في حملات متواصلة على بلاد الشام، كان أهمها الحملة التي شنها في السنة السادسة من حكمه ضد متحلفي «قرقرة» في منطقة حماة على نهر العاصي*. نقرأ في أخبار هذه الحملة:

[غادرت نينوى فعبرت نهر «دجلة» وتقدمت إلى مدن الملك «غيامو» على نهر «بليخ» فتملكهم الخوف من هيبتي ومن أسلحتي الفتاكة، فقتلوا

* - يقع الموقع القديم لقرقرة إلى الجنوب من بلدة جسر الشغور الحالية.

سيدهم غياموبأسلحتهم (يلي ذلك تعداد للمدن التي أخذها وللجزية التي حصل عليها). من «سحللا» - Sahlala توجهت إلى «كار - شلمنصر»، وعبرت الفرات في ذروة فيضانه على أطواف من جلد الماعز. وفي المدينة التي يدعوها أهل حطينة بـ «بيتر» - Pitrú على الجهة الأخرى للفرات عند نهر «ساجور» - Sagur تلقيت الجزية من ملوك الجهة الأخرى للفرات، من «سنغار» ملك «كركميش» ومن «كونداسبي» ملك «كوماجين» ومن «آرام» ملك «جوشي» . . . (تعداد لبقية المدن وأصناف الجزية). ثم غادرت الفرات نحو حلب - Halman، التي خاف أهلها وخرجوا عند قدمي. فتلقيت منهم فضة وذهباً جزية، وقدمت قرباناً إلى «حدد» (اله) حلب. من حلب توجهت إلى مدن «إرخوليني» - Irhuleni ملك «حماة» - Amat، فتحت مدن «آدينو» - Adinu و«برغا» - Barga، ومقره الملكي في «أرغانا» - Argana، وحررتها من سلطته وأضرمت النار في قصره. غادرت أرغانا وأتيت إلى «قرقرة» فدمرتها وأحرقتها.

هب إلى ساح المعركة «حدد - عدرى» - Adad-idri ملك «أميريشو» (دمشق) - imerisu، ومعه ١٢٠٠٠ عربية و ١٢٠٠ فارس و ٢٠٠٠٠ جندي و «إرخوليني» - Irhuleni ملك «حماة» - Amat ومعه ٧٠٠ عربية و ٧٠٠ فارس و ١٠,٠٠٠ جندي. و «آخاب الاسرائيلي» - Sir-i-La-a Aha-ab-bu ومعه ٢٠٠ عربية و ١٠,٠٠٠ جندي. ومن «موصري» - Musri جاء ١٠,٠٠٠ جندي، ومن «قوية» - Que ٥٠٠ جندي، ومن «عرقاتا» - Arqanata ١٠٠ عربية و ١٠,٠٠٠ جندي. وجاء «ماتينوبعل» من «أرواد» ومعه ٢٠٠ جندي، وأمير «اشناتو» - Usanata ومعه ٢٠٠ جندي، و «ادنوبعل» من «سيانو» - Shian ومعه ٣٠ عربية و ١٠٠٠ جندي، و «جنديبو» العربي ومعه ١٠٠٠ رجل، و «بعشا» أمير «رحوبي» ومعه . . . ومن «عمون» . . . فكانوا اثني عشر ملكاً هبوا في وجهي للمعركة الحاسمة، فحاربتهم بما وهبني الاله «آشور» من قوة، وبما وهبني الاله «نرجال» من سلاح فتاك، وهزمتهم بين مدينتي «قرقرة» و

«جيلزو» - Gilzu . . . وملأت نهر العاصي بجشهم . . . [١٨].

يقول كمال الصليبي عن معركة قرقرة ما يلي (ص ٣٧) : [وكما هو الأمر بالنسبة لمعركة كركميش، فإن معركة قرقرة التي حاربها الآشوريون ضد ملوك «أمت» و«إمرشو» وحلفائهم «جنديبو العربي» و«آخبوسرثلا» في أواسط القرن التاسع قبل الميلاد، كانت قد جرت فعلاً في غرب شبه الجزيرة العربية وليس على امتداد نهر العاصي في بلاد الشام كما يعتقد عادة. و«أمت» التي اعتبرت حتى الآن إشارة إلى «حماة» في وادي العاصي، هي عملياً قرية «أمت» الحالية في منطقة الطائف. و«إمرشو» ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن، ودون أي أساس لهذا الاعتبار، بل ربما كانت «المراشا» في جنوب مرتفعات عسير. و«جنديبو اربي» يفترض عادة كونه زعيماً عربياً من بادية الشام، وعملياً هناك قبيلة تدعى بنو جندب ما زالت تعيش في وسط مرتفعات عسير، و«أربي» قد تكون اليوم «عربة» أو «عرابة» من قرى بلاد عسير. و«كركرة» نفسها في هذه الحالة يمكن أن تكون حالياً «قرقرا» في منطقة القنفذة في تهامة الحجاز المحاذية لعسير وليس أي مكان في وادي العاصي من الشام]. فإلى أي حد ينطبق مسار حملة شلمنصر الثالث على هذا الكلام؟ (تابع مسار حملة قرقرة على الخريطة رقم ٨).

يفادر الملك الآشوري مدينة «نينوى» في آشور فيجتاز نهر الدجلة، ويصل إلى نهر بليخ الذي يرفد الفرات وهناك يقضي على عدد من المدن ثم يأخذ طريقة إلى «كار شلمنصر» وهي مدينة «برسيب» عاصمة مملكة بيت عديني على الضفة الشرقية للفرات. (انظر الصفحة ٨٨ سابقاً). ومن هناك يعبر نهر الفرات إلى ضفته الغربية ويسير إلى مدينة «بيتر و» عند نهر «الساجور» إلى

18- Leo Oppenheim, op. cit. pp 278- 279

من أجل تهجئة ولفظ الأسماء الواردة في المقطع الخاص بمعركة قرقرة، راجع الدكتور علي أبو عساف في: الآراميون، المرجع أعلاه ص ٥٥.

الجنوب من كركميش . وهذه المدينة معروفة في النصوص الآشورية الأقدم بأنها من المراكز الأولى لاستقرار الآراميين في شمال بلاد الشام^(١٩) . أما نهر «الساجور» فما زال إلى اليوم يصب في نهر الفرات إلى الجنوب من جرابلس الحالية (كركميش القديمة) . في بيترو يتلقى شلمنصر الثالث جزية عدد من الدويلات القريبة ، منها كركميش ، وجوشي الواردة الذكر أعلاه (انظر الصفحة ٩٠ سابقاً) ، ثم يتابع سيره إلى حلب حيث يتلقى الفضة والذهب من أهلها الذين استسلموا دون قتال ، وبعد تقديمه قربانا للإله حدد اله مدينة حلب ، يهبط جنوباً نحو سهول مملكة حماة للقاء ملكها «ارخوليبي» . وكانت حماة في ذلك الوقت أقوى مملكة آرامية في بلاد الشام بعد مملكة دمشق . جاورتها في الشمال مملكة «بيت أجتوشي» و«حطينة» ، وفي الجنوب مملكة دمشق . أما في الغرب فقد وصلت حدودها إلى سلسلة الجبال الساحلية ، بينما امتدت حدودها الشرقية عبر البادية . وقد هاجرت إليها من بلاد الأناضول جماعات هندو أوروبية وامتزجت بالآراميين الذين حلوا فيها قبلهم وأسسوا جميعاً مملكة قوية كان لها شأن في الأحداث التي تتابعت على بلاد الشام خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد^(٢٠) . وكان «ارخوليبي» الوارد ذكره في نص معركة قرقرة أحد ملوكها الأقوياء المعروفين ، وقد أخبرتنا عنه نصوص مملكة حماة المكتشفة في عدد من مواقعها القديمة . فقد تم العثور حديثاً على عدد من النقوش المكتوبة بالخط الهير وغليني اللوي في حماة نفسها ، وفي أماكن قريبة منها كانت تابعة للمملكة القديمة مثل «محرده» و«قلعة المضيق» و«الرسن» تذكر اسم الملك «أرخوليبي» ، وفيها يقول أنه ابن الملك «بارتاس» ، وأنه بنى معبداً للربة «بعلاتي»^(٢١) .

19- الدكتور علي أبو عساف ، الآراميون ، المرجع السابق ص ٣٥ .

20- المرجع نفسه ص ٥٣ - ٥٤ .

21- H. Sader, Les Etats Araméens de Syrie Depuis Leur Fondation jusqu'à leur Transformation en provinces Assyriennes (1984) Dissertation, P 223

في منطقة حماة يقضي شلمنصر الثالث على العديد من المدن ثم يأتي إلى قرقرة حيث يلتقي بجيوش المتحالفين وعلى رأسهم ملك دمشق «حدد عدري» يعاضده ملوك وأمراء الدويلات السورية : قوية وهي مملكة صغيرة على شاطئ المتوسط الشمالي في الأراضي التركية الآن بين نهري سيحان وجيحان ، موصري وهي مملكة مجهولة حتى الآن ، أشتانوا إلى الجنوب من مدينة جبلة الحالية في سورية ، سيانوا إلى الشرق من مدينة جبلة الحالية^(٣) ، أرواد على الساحل السوري ، بيت رحوب (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٦٣ سابقاً) ، وعرقاتا (ورد ذكرها سابقاً في السجلات المصرية انظر الصفحة ٥٤ سابقاً) ، عمون وهي موطن العمونيين الخصوم التقليديين للإسرائيليين في شرقي الأردن ، القبائل العربية في شمال الجزيرة العربية وبلاد الشام بقيادة جنديبو العربي ، مملكة اسرائيل الشمالية بقيادة ملكها «آخاب» المعاصر لشلمنصر الثالث . وآخاب الاسرائيلي الوارد في نص معركة قرقرة هو ابن عمري ، الملك السابع في سلسلة ملوك مملكة اسرائيل الشمالية التي اسسها «ياربعام» عقب موت الملك سليمان حوالي عام ٩٢٥ ق.م . وكان أشهر ملوكها «عمري» الذي بنى العاصمة الجديدة في السامرة . ويبدو أن معركة قرقرة قد جرت في بداية حكم الملك آخاب ، لأننا إذا جمعنا سنوات حكم ملوك اسرائيل السابقين ، كما وردت في كتاب التوراة لوجدناها ٦٢ سنة وذلك وفق ما يلي : ١ - ياربعام ٢٢ سنة ٢ - ناداب سنتان ٣ . بعشا ٢٤ سنة ٤ - ايله سنتان ٥ - زمري سبعة أيام ٦ - عمري ١٢ سنة . فإذا طرحنا هذه الفترة من ٩٢٥ وهو عام موت سليمان لحصلنا على ٨٥٣ وهو العام المقرر وفق علم التاريخ لمعركة قرقرة .

أما قرقرة نفسها فتقع على مسافة احد عشر كيلومتراً الى الجنوب من مدينة جسر الشغور الحالية على الضفة الغربية لنهر العاصي . وما زال اسم

22- علي أبو عساف ، الأراميون ، المرجع السابق ص ٥٥ .

الموقع القديم حياً في تل يقع في المنطقة نفسها يدعى اليوم «تل قرقور» .
أما عن زعيم التحالف «حدد عدري» ملك «إمير يشو» (ملكة دمشق)
التي قال عنها الصليبي أنها ليست دمشق الشام كما تعتبر حتى الآن ، ودون أي
أساس لهذا الاعتبار ، ووجد مكانها في المراسا في جنوب مرتفعات عسير ، فأننا
نعرف من نصوص أخرى لشلمنصر الثالث أن عاصمته هي «دمشقي»
بالأشورية - Di-ma-as-qi . وبذلك تقدم لنا السجلات الآشورية ، التي
يدعوننا الصليبي إلى إعادة دراستها ، الأساس الذي اعتبرت بموجبه
«إمير يشو» على أنها «دمشق» الشام . نقرأ في نص عثر عليه في آشور منقوش
على تمثال من البازلت للملك شلمنصر الثالث . [لقد هزمت حدد عدري
ملك إمير يشومع اثني عشر أميراً من حلفائه ، وجندلت ٩٠٠ , ٢٠ من محاربيه
الأقوياء ، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي - Arantu ، فتفرقوا في
كل اتجاه يطلبون أرواحهم . أما حدد عدري نفسه قد انتهى ، واغتصب
العرش مكانه «حزائيل» ابن لا أحد ، الذي دعا إليه الجيوش الكثيرة وثار في
وجهي . فقاتلته وهزمته وغنمت كل مركبات معسكره . أما هو ، فقد هرب
طالباً حياته ، فتغلبته إلى «دمشق» - Di-ma-as-qi ، مقره الملكي حيث قطعت
أشجار بساتينه] (٢٣) .

وتتقاطع نصوص بلاد الشام مع النصوص الآشورية لتقدم لنا اثباتاً
على أن دمشق النصوص الآشورية هي دمشق الشام وليست «ذومسك» في
غرب العربية . فلدينا نقوش على قطع فنية عاجية من «حداتو» (ارسلان
طاش عند الحدود السورية التركية الحالية على بعد ٣٠ كم شرقي الفرات)
نقش عليها اسم حزائيل ملك دمشق الذي تصفه الكتابة بلقب سيدنا ومولانا
حزائيل (٢٤) . ولدينا حجر تذكاري يرجع تاريخه إلى السنوات الأولى من القرن

23- Leo Oppenheim, op. cit, p. 280

24- Harvey Weiss, From Ebla To Damascus, Smithonian Inst. Washington D.C, 1985,
PP. 263,345

الثامن قبل الميلاد، عثر عليه في موقع قرية «أفس» قرب بلدة «سراقب» الحالية على بعد ٤٠ كم إلى الجنوب الغربي من مدينة حلب. وقد نقش عليه «زاكير» ملك حماة أخبار اعتداءات «بن حدد» ابن حزائيل ملك دمشق على مملكة حماة بمعونة عدد من الدويلات الأخرى. نقرأ في مطلع النص: [هذا الحجر التذكاري، وضعه زاكير ملك «حماة» و«لوعاش» - Lu'ath من أجل «إيلو-ور» إلهه. أنا زاكير ملك حماة ولوعاش، كنت رجلاً من العامة ولكن الإله «بعل شمين» وقف إلى جانبي وجعلني ملكاً على «حاتريكا» - Hatarika «بن حدد» ابن «حزائيل» ملك آرام، جمع ضدي سبعة ملوك: بن حدد وجيشه، ملك «غوروم» وجيشه، ملك «شمال» وجيشه، ملك كيليكيا وجيشه، «بن جوش» وجيشه، ملك «العمق» وجيشه، ملك «ميليز» وجيشه. كل هؤلاء الملوك الذين جمعهم بن حدد وجيوشهم قد حاصروا حاتريكا... ولكن بعل شمين كلمني عبر العرافين والمتنبئين قائلاً: لا تخف فلقد جعلتك ملكاً ولسوف أفق إلى جانبك وانقذك من كل هؤلاء الملوك الذين ضربوا حصاراً حولك] (٢٥).

إلى جانب دمشق الواردة في النصوص الآشورية والتوراتية، يطلعنا نص زاكير ملك حماة على أخبار عدد من الممالك الأخرى المعاصرة لها. ف «بن جرش» الوارد ذكره بين حلفاء مملكة دمشق هو ابن الملك «جوش» أو «جوشي» ملك ياهاني أو بيت أجوشي، الوارد ذكره في سجلات آشور ناصر بال الثاني (انظر الصفحة ٩٠ سابقاً). ومملكة «لوعاش» التي يبدو أن زاكير قد ضمها إليه كانت تمتد إلى الشمال والشمال الشرقي من حماة وعاصمتها «حاتريكا» التي هي على الأرجح «أفس» الحالية حيث وجد النصب التذكاري، وكانت هذه

* - بالآرامية برحدد حيث «بر» تعني ابن.

25- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramaic Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts) op. cit PP. 655-56

المملكة تعرف في الألف الثاني قبل الميلاد باسم مملكة «نوخشي» (انظر صفحة ٦٢ سابقاً)^(٢٦). أما مملكة «شمال» فكانت تسيطر على أقصى المناطق السورية الواقعة إلى الشمال الغربي من البلاد، (انظر خريطتنا رقم ٨) وسميت أيضاً بمملكة «يادي» نسبة إلى مؤسسها الأول، كما سماها الآشوريون في بعض نصوصهم «بيت جبر» نسبة إلى أحد ملوكها. وقد تم اكتشاف عاصمتها «شمال» في موقع «زنجرلي» الحديث على السفح الشرقي لجبال الأمانوس، وعثر فيها على عدد من النصوص الهامة^(٢٧).

ورغم هزيمة حلف قرقرة فإن بلاد الشام لم تسلم القياد بسهولة للآشوريين وكان على شلمنصر الثالث أن يعود مراراً إلى المنطقة لإعادة فرض السيطرة الآشورية. نقرأ في نص حملة أخرى لشلمنصر الثالث: [في السنة الثامنة عشرة من بدء ملكي، عبرت الفرات للمرة السادسة عشر. حزائيل ملك دمشق وضع ثقته بجيشه العرم، وجمع قواته بأعداد كبيرة جاعلاً من جبل «سنير» - Sa-ni-ru المقابل لجبل لبنان قاعدة له، قاتلته وهزمته وجندلت ستة عشر ألفاً من جنوده المدربين، وغنمت ١١٢١ عربة و ٤٧٠ جواداً وكل معسكره. أما هو فقد هرب طالباً حياته، فتبعته إلى دمشق، مقره الملكي، وحاصرته هناك وقطعت بساتينه (المحيطة بالمدينة ومضيت). سرت إلى جبال «حوران» - Ha-u-ra-ni، فهدمت واحرقته عدداً لا يحصى من المدن وأخذت منهم جزية لا حصر لها. كما سرت إلى جبل «بعل راسي» الذي يقع إلى جانب البحر، وأقامت هناك نصباً تذكاريّاً عليه صورتي. في ذلك الوقت تلقيت الجزية من صور وصيدون ومن «ياهو» ابن عمري - la-u-a mar - Hu-um-ri-i^(٢٨).

26- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٥٧ - ٥٨ انظر أيضاً:
- Paolo Matthiae, Ebla, op. cit, P. 40.

27- الدكتور علي أبو عساف، آثار الممالك القديمة في سورية، المرجع السابق، ص ٤٧٨.
28- Leo Oppenheim, op. cit, P. 280

«ياهو» المذكور في هذا النص، هو ملك اسرائيل الذي قضى على بيت آخاب ابن عمري، وأحل نفسه ملكاً في السامرة. أما تسمية كاتب النص الآشوري له بابن عمري، فهي إما خطأ من الكاتب الذي اعتقد أن الملك الجديد هو من سلالة عمري، أو أن يكون المقصود بابن عمري هنا، النسبة إلى «أرض عمري» وهي التسمية التي أطلقها الآشوريون على اسرائيل، إذ نسبوها، على عاداتهم، إلى أشهر ملوكها الذي بنى مدينة السامرة فكانت عاصمة له ولكل من تسلسلوا بعده من الملوك إلى دمارها الأخير، وكان ياهو معاصراً لحزائيل ملك دمشق، وكلاهما كان يدفع خطر الآشورين على طريقته الخاصة. فبينما تابع حزائيل سياسة التمرد والمجاهة، لجأ ياهو إلى الدبلوماسية واتقاء شر الملك الآشوري بدفع الجزية والأتاوات له. فإضافة إلى النص الآشوري الأنف الذكر، لدينا كتابة على مسلة سوداء محفوظة الآن في المتحف البريطاني نقش تحت صورة تمثل رجلاً يقدم فروض الطاعة والولاء للملك شلمنصر الثالث، وترجمتها كما يلي: [جزية ياهو ابن عمري. تلقيت منه فضة وذهباً، طاسة ذهبية ومزهرية ذهبية مدببة القاعدة (تعداد لبقية الأصناف المقدمة)]^(٢٩). ورغم أن جزية ياهو المدفوعة لشلمنصر غير مذكورة في التوراة بشكل صريح، ربما حفاظاً على سمعة هذا الملك الذي تبجله أسفار التوراة لأنه أعاد عبادة يهوه إلى السامرة وأزال المعابد الكنعانية منها، فإن هناك اشارات واضحة إلى العطايا التي كانت تقدم إلى آشور في ذلك الوقت. ويمكن بهذا الخصوص مراجعة سفر هوشع ٥ : ١٧ و ١٢ : ١.

غير أن دمشق والسامرة لم توفرا فرصة للاقتتال فيما بينهما كلياً تراخت قبضة الآشوريين. نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٣ : ٣ - ١٣ و ٢٢ - ٢٥ : [ملك «يهو آحاز» بن «ياهو» على اسرائيل في السامرة سبع عشرة سنة، وعمل الشر في عيني الرب ... فحمي غضب الرب على اسرائيل ودفعهم ليد حزائيل ملك

آرام وليد بنهدد بن حزائيل كل الأيام]. . [ثم مات حزائيل ملك آرام وملك بنهدد ابنه عوضاً عنه . فعاد «يهوآش» بن «يهوآحاز» وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهوآحاز أبيه بالحرب].

وهكذا تتقاطع نصوص التوراة مع النصوص الآشورية والنصوص الآرامية لتثبت أن مسرح الحدث التوراتي ومسرح السجلات الآشورية كان في بلاد الشام ولا علاقة له من قريب أو بعيد بغرب العربية.

حدد نيراري الثالث :

بعد شلمنصر الثالث، تترأخى قبضة آشور عن بلاد الشام مدة عشرين سنة بسبب النزاعات الداخلية بين ورثة العرش والانشغال بالحروب ضد المناطق الشرقية . وفي عام ٨١٠ ق-م يرتقي العرش «حدد نيراري الثالث» (٨١٠ - ٧٨٣ ق.م) تحت وصاية أمه «شامورامات» (سميراميس عند الاغريق) نظراً لصغر سنة . وما أن يشتد عوده حتى يسير في درب أسلافه نحو سورية .

نقرأ على قاعدة تمثال مكسورة، عثر عليها في «نمرود» بآشور النص التالي:

[. . ومن شاطيء الفرات اخضعت بلاد حاتي ، وكل أراضي «آمورو»، وصور، وصيدا، وأرض عمري ، وايدوم ، وبلاد الفلسطينيين - Pa-la-as-tu ، إلى البحر الكبير حيث تغرب الشمس . جميعهم أخضعت تحت قدمي وفرضت عليهم الجزية . سرت نحو بلاد دمشق ، وحبست ملكها «ماري» في «دمشقي» مقر ملكه ، فغمره الخوف من بهاء مولاي الاله آشور وأمسك قدمي خضوعاً لي . فتلقيت منه الجزية في قصره الملكي : ٢٣٠٠ وزنه من الفضة و ٢٠ وزنه من الذهب و ٥٠٠٠ وزنه من الحديد (تعداد لبقية أصناف الجزية . . .) (*) .

* - Ibid, PP 281- 282.

إلا أن من أعاد هيبة الحكم الآشوري، فعلاً، إلى مناطق نفوذه السابقة شرقاً وغرباً كان الملك «تغلات فلاصر الثالث».

تغلات فلاصر الثالث:

في سجلات «تغلات فلاصر الثالث» (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م)، تأخذ أخبار التوراة بالتقاطع مع النصوص التاريخية الآشورية بشكل أكثر دقة. نقرأ في نص قصير يسرد أسماء الملوك الذين أرسلوا جزياتهم إلى ملك آشور: [تلقيت الجزية من «رصين» - Ra-hi-a-nu ملك دمشق و«منحيم» - Me-ni-hi-im-me ملك «السامرة» - Sa-me-ri-na و«حيرام» - Hi-ru-um-mu ملك «صور» و«سبييتي بعل» ملك «جبيل» و«اوريكى» ملك «قوية»، و«بيسيريس» ملك «كركميش»، و«انليل» ملك «حماة»، و«بنامو» ملك «شمال» . . ومن «زبييه» - Za-bi-be ملكة العرب]^(٣٠).

إن جميع أسماء ممالك بلاد الشام الواردة في هذا النص، قد صار معروفاً لدينا عند هذه المرحلة من دراسة النصوص القديمة. ولكننا نود التوقف قليلاً عند «بنامو» ملك شمال، لنورد بعض النصوص الآرامية التي تأتي على ذكر هذا الملك والتي تتقاطع مع السجلات الآشورية. فلقد أمدتنا التنقيبات الأثرية في «زنجرلي» على السفح الشرقي لجبل الأمانوس في أقصى الشمال السوري، وهي موقع عاصمة مملكة شمال (أويادي). انظر الصفحة ١٠١ سابقاً، بالعديد من النصوص التي كشفت لنا عن أحوال المملكة الاجتماعية والسياسية خلال النصف الأول من الألف الأول قبل الميلاد. و«بنامو» المذكور في النص الآشوري هو «بنامو الثاني» الذي تذكره النصوص بكل اكبار واجلال على أنه المصلح الذي أحل العدل في البلاد واهتم باعادة بنائها بعد فترة من الفوضى والاضطرابات. وكان هذا الملك، على ما ترويه النصوص صديقاً

30- Ibid, P. 283

للآشوريين يدفع لهم الجزية بانتظام . وعندما هاجم تغلات فلاصر الثالث دمشق، شارك بنامو في حملته وقاتل إلى جانبه، ولكنه أصيب في المعركة ومات، على ما يذكره النص : [على رجلي سيده تغلات فلاصر ملك آشور في المعركة، فبكاه أقرباؤه الملوك وبكته قوات سيده ملك آشور كلها . وأخذه سيده ملك آشور وأقام له نصباً على الطريق ونقل من دمشق إلى أرض آشور]^(٣١) . وقد ترك حفيد بنامو المدعو «برراكب» (ابن راكب، نصاً على تمثال له محفوظ الآن بمتحف استانبول يذكر فيه جده بنامو.

[أنا «بن راكب» بن «بنامو»، ملك شمال وعبد تغلات فلاصر ملك جهات الأرض (الأربعة) . بسبب صلاحي وصلاح أبي، أحلني سيدي «راكب ايل» وسيدي تغلات فلاصر على عرش أبي، وبيت أبي قد غنم أكثر من الجميع، لقد سرت في ركاب سيدي ملك آشور بين ملوك عظام يملكون الفضة ويملكون الذهب، وأخذت بيت أبي وجدته (فصار) أفضل من بيوت الملوك العظام . . .]^(٣٢) .

أما «منحيم» ملك السامرة المذكور في نص تغلات فلاصر أعلاه، إلى جانب ملوك دويلات بلاد الشام الذين دفعوا الجزية لآشور، فقد عاصر السنوات الأولى لحكم تغلات فلاصر، واتقى شره بالجزية . وكان خلفه «فقيح» هو الذي منع الجزية عن آشور وتمرد على تغلات فلاصر على ما تذكره السجلات الآشورية وأخبار التوراة . نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٦ : ٥ [حينئذ صعد رصين ملك آرام وفقيح بن رمليا ملك اسرائيل إلى اورشليم للمحاربة، فحاصروا آحاز ولم يقدر أن يغلبوه ... وأرسل آحاز رسلاً إلى تغلات فلاصر ملك آشور قائلاً : أنا عبدك وابنك، اصعد خلصني من يد ملك آرام ومن يد

31- الدكتور علي أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق، ص ١٢٥ .

32- Franz Rosenthal, op. cit, P. 655

للمقارنة راجع أبو عساف، الأراميون، المرجع السابق، ص ١٢٧ .

ملك اسرائيل القائمين علي . حذ آحاز الفضة والذهب الموجودة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك وأرسلها إلى ملك آشور هدية . فسمع ملك آشور وصعد إلى دمشق وأخذها وسبها إلى قير وقتل رصين وسار الملك آحاز للقاء تغلت فلاسر ملك آشور إلى دمشق].

وهدية آحاز المرسله في هذا النص إلى ملك آشور مذكورة في عداد الجزيات التي يذكر نص آخر لتغلات فلاصر وصولها إلى آشور: [تلقيت جزية «خاشاشي» ملك «كوماجين» و«أوريك» ملك «قوية» و«سبيتي بعل» ملك «جبيل» و«انليل» ملك «حماة» و«بنامو» ملك «شمأل» . . و«متان بعل» ملك «أرواد» و«سابينوبعل» ملك «بيت عمون» ، و«سلمانو» ملك «موآب» ، «ميتيني» ملك «عسقلان» و«آحاز» - la-u-hazi ملك «يهوذا» - la-uda-aa ، و«كوش ماليكو» ملك «ايدوم» ، وهانو» ملك «غزة» - Ha-za-at-aa (تعداد لأصناف الجزية)]^(٣٣).

لقد كانت حملة تغلات فلاصر على مملكة اسرائيل بداية لنهايتها، وقد جاءت حملته هذه في نطاق حملة واسعة على بلاد الشام وخصوصاً دمشق التي عاضدت السامرة ضد أورشليم، حيث دمر المئات من مدنها وقراها. وبعد دمشق انقلب إلى الساحل السوري (البحر الأعلى) هبوطاً إلى غزة التي فر ملكها إلى مصر ناجياً بحياته. أما عن ملك السامرة، فيتابع النص: [أما منحيم، فقد هبطت عليه كما العاصفة الثلجية، ففر وحيداً ثم عاد فانحنى عند قدمي. أعدته إلى مكانه وفرضت عليه جزية (تعداد للأصناف المقدمة). وسقت الكثيرين من «بيت عمري» (مملكة اسرائيل) وممتلكاتهم إلى آشور. ثم انقلبوا بعد ذلك على ملكهم «فقح» - Pa-qa-ha، فاحللت بدلاً عنه «هوشع» - A-u-si ملكاً عليهم، وتلقيت منه جزية (تعداد للأصناف المقدمة)]^(٣٤).

33- Leo Oppenheim, op. Cit, P. 281-282

34- Ibid, PP. 283-284

وتتطابق هذه الرواية الآشورية في خطوطها العامة مع رواية سفر الملوك الثاني ١٥ : ٢٩ - ٣٠ حيث نقرأ: [في أيام فقح ملك اسرائيل، جاء تغلت فلاسر ملك آشور وأخذ عيون وأبل معكه ويانوح وقادش وحاصور وجلعاد والجليل وكل أرض نفتالي وسباهم إلى آشور، وفتن هوشع بن إيله على فقح بن رمليا وضربه فقتله وملك عوضاً عنه]. وفي عهد هوشع تحل النكبة الأخيرة بمملكة اسرائيل ويختفي ذكرها إلى الأبد.

صارغون الثاني :

بعد تغلات فلاصر الثالث، يعتلي العرش ابنه «شلمنصر الخامس» (٧٢٦ - ٧٢٢ ق.م) الذي يعزو اليه كتاب التوراة فتح السامرة واجلاء أهلها إلى آشور، بينما تتحدث نصوص خليفته «صارغون الثاني» (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) عن قيامه بفتح السامرة. ويبدو أن صارغون الثاني كان قائداً للعمليات العسكرية في فلسطين، وهو الذي أكمل ما بدأه شلمنصر الخامس وعزاه جميعاً إلى نفسه. نقرأ في نص مبكر لصارغون الثاني ما يلي: [. . . صارغون ملك آشور فاتح السامرة - Sa-mir-i-na وكل بيت عمري (اسرائيل) - Bet-Hu-um-ri-a ، الذي غنم «أشدود» و«شينوختي» - Shihuhti ، وأمسك الـ «ياماني» la-ma-ni في البحر كالسمك، الذي قضى على «كاسكو» و«طابالي» و«خيلاكو» الذي طارد «ميتا» ملك «موشكو»، الذي قهر «مصر» في «رفع» - Rapihu الذي أخذ «هانو» ملك «غزة» غنيمة، الذي أخضع الملوك السبعة في «يا» - la بأراضي يدنانا - la-ad-na-na على مسافة سبعة أيام في البحر^(٣٥).

35- Ibid, P. 284

إضافة إلى السامرة وبيت عمري ، التي اثبتنا حتى الآن أنها مملكة اسرائيل ، فاننا نعرف من جدول صارغون أعلاه الأسماء التالية : أشدود وهي مدينة الفلسطينيين المعروفة على ساحل فلسطين ، خيلاكو وهي كيليكيا على ساحل المتوسط الشمالي ، موشكو ويغلب أن تكون فرجيا بآسيا الصغرى ، غزة وهي مدينة الفلسطينيين المعروفة في جنوب الساحل الفلسطيني ، تليها رفع عند الحدود المصرية . أما «الياماني» الذين أمسكهم صارغون في البحر كالمسك فهم الأيونيون الأغريق ، و«يدنانا» التي تقع على مسافة سبعة أيام في البحر انطلاقاً من غزة فهي قبرص^(٣٦) . وتعريف هذه الأماكن متفق عليه بين جميع المؤرخين ودارسي النصوص الآشورية . إلا أن لكهام الصليبي رأياً مختلفاً بخصوصها .

يقول الصليبي : [ان الجداول الطبوغرافية الآشورية مثل آشور بانيبال الثاني وشلمنصر الثالث وصارغون الثاني تقدم سجلات للفتوحات في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في الشام . ولا عطاء مثال واحد لا أكثر فانه في الأسطر الأولى من جدول صارغون الثاني ، يصف هذا الملك نفسه بأنه فاتح «سامي - ري - نا» (سيمرن) و«بيت خو - م - ري يا» (خري) . وقد ساد الاعتقاد حتى الآن أن الإشارة في هذين الاسمين هي إلى «السامرة» (شمرون) و«بيت عمري» ملك اسرائيل . وقد كانت مملكة عمري الاسرائيلية بالتأكيد في جنوب الحجاز ، أي في عسير الجغرافية ، والسامرة ما زالت هناك وتدعى «شمران» باسمها في صيغته الأصلية التوراتية بلا تغيير . لكن الإشارة في جدول صارغون الثاني ليست إلى السامرة وبيت عمري بل إلى منطقة جيزان حيث ما زالت هناك قرية في جبل هروب اسمها «الصُرمين» ، وقرية أخرى اسمها «الحمراية» في وادي عقاب بناحية أبي عريش] (انظر ص ١١٦ - ١١٧)

36- Ibid, P. 284

ثم يتابع الصليبي العثور على أماكن بقية الأسماء الواردة في جدول صارغون الثاني أعلاه، في عسير وغرب العربية، مما لا يتسع مجالنا هنا لإبراده. غير أننا سوف نتوقف عند حالتين مما ذكر، الأولى تتعلق «بالياماني» وهم الأيونيون الأغريق، والثانية تتعلق بـ «يا» - Ia الواقعة في «يدنانا» التي هي قبرص، فبخصوص الياماني يقول الصليبي أنه [في النهاية الشرقية لوادي نجران اقتنص الملك الآشوري الـ «يا - ما - نو» كالسمك. والاشارة هنا هي إلى «اليمنيين» أي شعب الجنوب وهم «البنيامينيون التوراتيون»، الذين لم يعيشوا في البحر «يم»، بل في بلاد «يام» بين وادي نجران ورمال الربع الخالي]. وفي الحقيقة، لو أن الصليبي قد أورد ذكر نص آخر لصارغون الثاني الذي يتعرض فيه للياماني (هكذا وردت في النص الآشوري) لعرفنا منه أن هؤلاء الأغريق إنما يعيشون في جزر قائمة في البحر المتوسط. فالنص يقول: [لقد فتحت السامرة وكل بيت عمري وأمسكت الياماني الذين يعيشون في وسط بحر الغرب، كالسمك]^(٣٧). فكلمة «يامو» في هذا النص وتعني بحر بالآشورية (يم)، ويرى فيها الصليبي بلاد «يام» الصحراوية، لم تبق مغفلة بل اضيفت إلى كلمة الغرب «أمورو» بالآشورية، لتصبح «بحر الغرب» وهي التسمية المعروفة في نصوص بلاد الرافدين للبحر المتوسط. ثم أننا بصرف النظر عن الإيضاح الذي يقدمه النص الثاني، نسأل: كيف شبه النص الآشوري امساك الياماني بصيد السمك إذا كان هؤلاء يعيشون في الصحراء، وإذا كان مطاردة الآشوريين لهم تتم في الفياقي والقفار؟؟

أما فيما يتعلق بـ «يا» - Ia، فيقول الصليبي أنها وادي «عياء» على بعد حوالي ٢٠٠ كم إلى الجنوب من «خزاعة» (وهي «غزة» المقصودة في جدول صارغون) أي على مسافة سبعة أيام كما جاء في منقوشة صارغون، دون أن يتطرق إلى أن الجدول قد قال بنصه الصريح أن «يا» هذه هي مقاطعة في

«يدنانا» الواقعة في البحر على مسافة سبعة أيام في البحر (انظر النص أعلاه) ودون أن يتطرق إلى نص آخر لصارغون يزيد على ذلك بأن «يدنانا» تقع على مسافة سبعة أيام في البحر وسط بحر الغرب : [والمملك السبعة في «يا» - la بأراضي «يدنانا» - la-ad-na-na التي في وسط بحر الغرب على مسافة سبعة أيام ، والتي لم يسمع بها أحد من أجدادي الملوك لبعدها ، قد عرفوا في بقعتهم النائية عما فعلت ببلاد «حاتي» وبلاد «الكلدان» ، فارتجفوا فرحاً وأرسلوا إلي في بابل ذهباً وفضة . . .] (٣٨) .

وفي نهاية تحليله لأسماء المواقع الواردة في جدول (صارغون الثاني) يتساءل الصليبي : [. . . وبوجود جميع هذه الأسماء الواردة في جدول صارغون في غرب العربية ، أي سبب يبقى للاصرار على الاعتقاد بأن هذا الجدول يشير إلى فتوحات آشورية في الشام وفلسطين؟] . ونحن نقول ان قراءة كمال الصليبي المجتزأة والانتقائية للنصوص القديمة ، وعدم تقديمه نصاً كاملاً واحداً منها ، هو أحد أسباب الاصرار على هذا الاعتقاد .

كرر صارغون الثاني خبر فتح السامرة في عدة نصوص . وهو في نص أكثر تفصيلاً يقول : [لقد حاصرت وفتحت السامرة ، وجلوت ٢٧٢٩٠ من سكانها ، وجهزت من بينهم فصيلة بخمسين عربية ضممتها إلى فيلقي الملكي . أما المدينة ، فقد أعدت بناءها بأفضل مما كانت ، وأسكنت فيها فيها شعوباً من المناطق الأخرى التي قهرتها . ثم أقمت عليهم ضابطاً من لدني حاكماً عليهم ، وفرضت عليه جزية الأشوريين] (٣٩) .

وتتطابق الرواية التوراتية مع النص الآشوري ، وتختلفان فقط في اسم الملك الآشوري ، مما المحنا اليه أعلاه وقدمنا له تفسيراً ، نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٨ : ٩ - ١١ [في السنة السابعة لهوشع ملك اسرائيل ، صعد شلمناسر ملك آشور على السامرة وحاصرها ، وأخذوها في نهاية ثلاث سنين ... وسبي

38- Ibid, P. 284

39- Ibid, P

ملك آشور اسرائيل إلى آشور ووضعهم في حلج وخابور نهر جوزان وفي مدن مادي]. ونقرأ أيضاً في الملوك الثاني ١٧ : ٢٤ [وأتى ملك آشور بقوم من مدن بابل وكوث وعوا وحماة وسفروايم وأسكنهم في مدن السامرة عوضاً عن بني اسرائيل ، فامتلكوا السامرة وسكنوا في مدنها].

لقد حاول الآشوريون أحداث تغييرات ديمغرافية جذرية في مناطق نفوذهم لاحكام سيطرتهم على سكانها ، فعمدوا إلى تهجير شعوب باكملها وزرعها في مواطن غريبة عنها ، وحلوا أهل هذه المواطن فأعطوهم مناطق المهجرين . ولم تطبق سياسة التهجير هذه على أهل السامرة فحسب بل شملت شعوباً عديدة ، منها شعب مملكة حماة ومملكة كركميش . نقرأ في سجلات صارغون عن ذلك ما يلي :

[«ياوبيدي» من عامة مدينة حماة - A-ma-at-tu ، حثي ملعون ، جعل نفسه ملكاً على المدينة ، وحرّض ضدي مدن «ارواد» و«سيميرا» و«دمشق» و«السامرة» ، فتعاونوا وجهزوا جيشاً مشتركاً . دعوت جمع جند آشور وأطبقت عليه في «قرقرة» مدينته الأثيرة ، ففتحتها وأحرقتها . أما هو فقد أمسكت به وسلخت جلده وقتلت المتمردين في مدنها وأحللت النظام والسلام بها] (١٠) .

ويبدو أن قتل ملك حماة لم يتم عقب المعركة في قرقرة ، بل في آشور التي سيق إليها مكبلاً بالأصفاد ، لأننا نقرأ في نص آخر : [لقد خربت بلاد «حماة» كعاصفة الطوفان ، وسقت ملكها ياوبيدي وعائلته ، وكل محاربيه إلى آشور مكبلين بالأصفاد فشككت منهم فرقة مؤلفة من ٣٠٠ عربية و ٦٠٠ مقاتل مجهزين بالتروس والرماح ، وضممتهم إلى فرقي الملكية . ثم اسكنت ٦٣٠٠ فرداً من الآشوريين في بلاد حماة ، وجعلت عليها حاكماً من لدني] (١١) .

أما عن كركميش فنقرأ : [في السنة الخامسة لحكمي ، ملك كركميش المدعو «بيصيري» حنث بالعهد ، والقسم أمام الآلهة العظام ، ويعث برسالة

40- Ibid, P 285

41- Ibid, P 284

إلى «ميتا» ملك «موشكي» مليئة بالمخططات العدوانية ضد آشور. فرفعت يدي إلى الهي آشور بالصلاة، وجعلته يستسلم عاجلاً مع عائلته، فخرجوا جميعاً من كركميش، ومعهم ذهبهم وفضتهم وممتلكاتهم الشخصية، تقدموا لي، فرميتهم بالأصفاد. أما أهل المدينة ممن ثاروا معه، فقد سقتهم أسرى إلى آشور... ثم احللت في كركميش سكاناً من آشور^[١٢].

سنحاريب :

تأتي حوليات الملك سنحاريب (٧٠٤ - ٦٨١ ق.م) على جانب كبير من التفصيل، يثالث حوليات شلمنصر الثالث. نقرأ في أخبار حملته الثالثة على بلاد الشام: [في حملتي الثالثة، توجهت إلى حاتي. «لولي» ملك صيدون، الذي أخذه الخوف من هبة جلالتي فربعيداً عبر البحار واختفى ذكره. أما مدنه فقد تملكها الهلع من عظمة آشور: «صيدون الكبرى» و«صيدون الصغرى» و«بيت زيتي» - Bet-Zitti و«زاريبتو» - Zaribtu ، و«محاليبا» - Mahaliba ، و«أوشو» و«أكزيب» - Akzib ، و«عكا» - Akko. مدنه المحصنة المزودة بالماء والطعام لحاميته قد خضعت تحت قدمي. أقمت على عرش صيدون المدعو «توبعلو» وفرضت عليه جزية يؤديها لي، أنا سيده، كل سنة دون انقطاع^[١٣].

إن حملة سنحاريب الثالثة هذه موجهة بشكل خاص نحو الساحل الفينيقي وساحل فلسطين وبلاد فلسطين الداخلية. . فبعد عبور سورية الشمالية يهبط نحو البحر الفينيقي لتكون مدينة صيدون أول هدف له، وكانت صيدون في ذلك الوقت تسيطر على عدد كبير من مدن فينيقيا. بعد سقوط المدينة يهرب ملكها عبر البحار، وتسقط بقية المدن الواقعة تحت سيطرتها على

42- Ibid, P, 285

43- Ibid, P. 287

الساحل، نعرف منها على وجه التأكيد «أوشو» التي هي مدينة صور البرية (انظر ص ٧١ سابقاً) و«زاريتو» أو «ساريتا» التي كشفت عنها التنقيبات حديثاً على الساحل اللبناني في منتصف الطريق بين صيدا وصور (انظر ص ٧٠ سابقاً)، و«عكا» التي تلي صور كأول ميناء على ساحل فلسطين. وطبعاً، لا يمكن أن تكون صيدون وجاراتها الواردة في جدول سنحاريب أعلاه، هي «آل زيدان» غرب العربية في مرتفعات جبل شهدان بأراضي جيزان الداخلية، لأن ملك صيدون يغادر مدينته بحراً. ونعرف من نص آخر لسنحاريب أن وجهة ملك صيدون كانت قبرص حيث نقرأ: [لولوي ملك صيدون خاف من مواجهتي وفر إلى «يدنانا» - la-ad-na-na في وسط البحر يطلب نجباً، ولكن حتى هناك في تلك البلاد طالته أسلحتي وصرعته] (١١).

بعد ذلك يتابع سجل حملة سنحاريب الثالثة سرد أخبارها. فبعد سقوط صيدون ومدينها المحصنة: [كل ملوك أمورو جاءوا بهداياهم السخية أمامي وقبلوا قدمي: «مناحيم» ملك «شمسي مورونا» - Samsi-Muruna «توبعلو» ملك صيدون، «أبيليتي» ملك «أرواد»، «أورو ملكي» ملك «جبيل»، «ميتيني» ملك «أشدود»، «بوديولي» ملك «بيت عمون»، «كاموسون» ملك «موآب»، «ايرامو» ملك «ايدوم». أما «صدقيا» ملك «أشقلون» الذي لم يخضع لي، فقد قبضت عليه وجلوته إلى آشور مع زوجته وأولاده وأخوته وكل ذكور عائلته، وأقمت بدلاً عنه «شارولوداري» وفرضت عليه الجزية والخنوع].

اضافة إلى ملوك الساحل الفينيقي، يأتي إلى سنحاريب ملوك دويلات الساحل الفلسطيني ومنها «أشقلون» وهي عسقلان الحالية ويمكن الاطلاع على أخبارها في التوراة في يشوع ١٣: ٣ وصموئيل الأول ٦: ١٧ والقضاة ١٤: ١٩ وغيرها من المواضع، وكذلك «أشدود» ويمكن الاطلاع

على بعض أخبارها في سفر يشوع ١٣: ٣ وصموئيل الأول ٥: ١ - ٢ و ٣ - ٨ وقد كان للفلسطينيين على طول المنطقة الساحلية الفلسطينية خمس مدن رئيسية عرفنا أخبارها من أسفار التوراة ومن سجلات آشور وهي : غزة وأشدود وعسقلان وعقرون وجت . كما يأتي إلى سنحاريب ملوك من الجهة الأخرى للأردن ، من «بيت عمون» وهي موطن العمونيين ، و«موآب» موطن الموآبيين ، و«إيدوم» موطن الإيدوميين . وهذه الشعوب الثلاثة مذكورة في السجلات الآشورية السابقة واللاحقة لسنحاريب ، وفي أسفار التوراة عبر الكتاب ، فهي من الأعداء التقليديين لمملكتي يهوذا واسرائيل .

ثم يتابع سنحاريب إخضاع مناطق الفلسطينيين متغلباً نحو فلسطين الداخلية : [تابعت حملي فحاصرت «بت داجون» و«يافا» - Joppa و«بني برقة» - Banai-Barqa و«أزورو» - Azuru ، وهي مدن تابعة لصدقيا (ملك أشقلون) ، ففتحها وحملت الأسلاب منها . أما مدينة «عقرون» فقد قام مسؤولوها ووجهائها وعامتها بوضع مليكهم «بادي» في الأغلال لأنه كان على العهد الذي قطعه مع آشور ، وسلموه إلى «حزقيا اليهودي» - Ha-za-qi-ia-u la-u-da-ai الذي رماه في السجن وعامله معاملة الأعداء . ثم خاف (من فعلته) فدعا لمساعدته قوات ملكي مصر واثيوبيا التي لاتعد . فجاؤا لمساعدته . وفي سهل «التقو» - Al-ta-qu-u انتظمت صفوفهم ضدي وشحذوا أسلحتهم . بعد استخارة نبوءة الإله آشور ، مولاي ، هاجتهم وهزمتهم . وفي غمرة القتال قمت بنفسي بأسر فرسان العربات وأمراثهم من مصريين واثيوبيين . حاصرت مدينة «التقو» و«تمنه» - Ta-am-na-a وأخذتهم ، وحملت معي أسلابهما . ثم استبحت مدينة «عقرون» وقتلت مسؤوليها ووجهاءها الذين أجزموا ، وعلقت جثثهم على الأعمدة حول المدينة . أما عامتها ، فمن وجدت منهم مذنباً أخذته أسير حرب ومن وجدت بريئاً أطلقته . وأعدت ملكهم «بادي» من «أورشليم» - Ur-sa-li-im-mu وأقامته على العرش سيداً لهم ، وفرضت عليه الجزية يدفعها لي أنا مولاه] .

من المدن التابعة لأشقلون الفلسطينية الواردة أعلاه، تعرف «بيت داجون» الواردة في التوراة بالاسم نفسه (راجع سفر يشوع ١٥ : ٤١ و ١٩ : ٤٧)، كما نعرف «يافا» التي وردت في السجلات المصرية بالاسم نفسه كمدينة على الساحل الفلسطيني (انظر الصفحة ٥٦ سابقاً)، و«بني برقة» الواردة في التوراة تحت اسم «بني برق» (راجع يشوع ١٩ : ٤٥) وهي «بني براق» اليوم على مسافة ٧ كم من يافا. أما «عقرون» مدينة الفلسطينيين الشهيرة فمعروفة جيداً في أسفار التوراة، وفيها جرت أحداث مهمة (راجع سفر صموئيل الأول ٥ : ١٠ - ١١ و ٧ : ١٤ و ١٧ : ٥٢. والملوك الثاني ١ : ٢، واربيا ٢٥ : ١٥ - ٢٠) والأرجح أنها «عاقرة» اليوم على مسافة ١٦ كم من يافا جنوباً. وفي أرض يهوذا التي توجه إليها سنحاريب للانتقام من «حزقيا» ملك اليهود الذي ارتقى العرش قبل حكم سنحاريب وعاصره، فنعرف «التقى» التي هي «التقى» التوراتية (يشوع ١٩ : ٤٠، ٤٤. ٢١ : ٢٠، ٢٣) وأيضاً «ثمنة» (راجع يشوع ١٥ : ١٠ والقضاة ١٤ : ٢) والأرجح أنها «تبنة» اليوم جنوب مدينة الخليل. وبالطبع «أورشليم» التي حبس فيها حزقيا ملك عقرون. بعد معركة سهل «التقى» التي هزم فيها سنحاريب حزقيا ملك أورشليم وقوات المعونة التي جاءت من مصر، يتابع النص أخبار الحملة على مدن يهوذا وصولاً إلى أورشليم: [أما حزقيا اليهودي الذي أبى الخضوع لي، فقد القيت الحصار على ٤٦ من مدنه الحصينة وقلاع المسورة، وعدد لا يحصى من القرى حولها وأخذتها، مستعملاً المدكات والمناجيق التي قربها المشاة إلى مقدمة الهجوم فأحدثوا أنفاقاً وثغرات*]. سقت أمامي منهم الغنائم: ٢٠٠١٥٠ من الذكور ومن الإناث شبية وشباناً، وأحصنة وبعلاً وحميراً وجمالاً،

* - أدوات الحصار التي يوردها النص وطريقة استخدامها هامة. وقد حذفت ما أضافه صاحب النص السيد اوبنهايم بين أقواس ليستقيم له المعنى، لأنه بدون هذه الإضافات يفتقد تركيب الجملة الأشورية أقرب إلى العربية.

ماشية كبيرة وصغيرة لا حصر لها. أما حزقيا نفسه، فقد صار حبساً في مقره الملكي «أورشليم»، كعصفور في قفص. فأحطته بالمتاريس والخنادق لحجز الفارين عند البوابات. والمدن التي أخذتها منه أعطيتها لـ «ميتيني» ملك أشدود «وبادي» ملك عقرون و«سيلييل» ملك غزة، فأنقصت بذلك مساحة أراضيه، ورفعت فوق ذلك عليه الجزية التي تؤدي لي، أنا سيده، بما يفوق الجزية السابقة، تسلم سنوياً. لقد غمره الخوف من رهبة جلالتي، والقوات التي أتت بها إلى اورشليم لمعاونته قد اختلت صفوفها وتركته. فأرسل إلي في نينوى عاصمة ملكي ثلاثين وزنة من الذهب و ٨٠٠ وزنة من الفضة، وأحجاراً كريمة، وكميات من الياقوت وقطع الصخر الأحمر، ومقاعد وكراسي مزينة بالعاج، وجلود الفيلة، وخشب الأبانوس، وصناديق خشبية، وكل أنواع النفائس. كما أرسل إلي بناته ومحظياته وموسيقيه من بنات وشبان].

وهكذا تنتهي حملة سنحاريب على مملكة يهوذا، بعد أن أخذ جميع مدنها وقراها عدا اورشليم التي صمدت أمام الحصار، فتركها بعد أن مل من حصارها مكتفياً بالجزية التي فرضها على حزقيا وبالهدايا التي وعد بارسالها إلى نينوى. غير أن الرواية التوراتية تعز وتراجع سنحاريب إلى تدخل من إله اليهود الذي أرسل على الآشوريين وباءً صرع منهم عشرات الألوف. وتتطابق الرواية في خطوطها العامة مع الرواية الآشورية: [وفي السنة الرابعة عشر للملك حزقيا، صعد سنحاريب ملك آشور على جميع مدن يهوذا الحصينة وأخذها. وأرسل حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور يقول قد أخطأت. أرجع عني ومهما جعلت علي حملته. فوضع ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ٣٠٠ وزنة من الفضة وثلاثين وزنة من الذهب] الملوك الثاني: ١٨: ١٢ - ١٥. كما نعرف عن استعانة حزقيا بالقوات المصرية من كلام رسول سنحاريب عند أسوار اورشليم الذي يهزأ بمصر وفرعونها والذي أرسل نجداته إلى حزقيا: [فقال لهم «ربشاقى» قولوا لحزقيا، هكذا يقول الملك العظيم ملك آشور... والآن على من اتكلت حتى عصيت علي. فالآن هوذا، قد

اتكلت على عكاز هذه القصة المرضوضة ، على مصر التي إذا توكلأ عليها أحد دخلت في كفه وثقبتها هكذا هو فرعون مصر لجميع المتكلين عليه [الملوك الثاني ١٨ : ١٩ - ٢١ .

أسر حادون :

بعد فترة الاضطرابات والصراع على العرش ، مما تلى مقتل سنحاريب على يد أحد أبنائه ، صعد إلى العرش «أسر حادون» ابن سنحاريب (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م) ، وعمل فوراً على اخضاع الثورات التي اندلعت في بلاد الشام . نقرأ في نص حملته على فينيقيا ما يلي : [أنا اسرحادون فاتح صيدون التي عند البحر . لقد سويت بالتراب أبنيتها المشيدة ورميت بأنقاض سورها وأساساتها إلى البحر ، ومحوت المكان الذي قامت عليه . أما ملكها «عبدى ملكوتي» فقد أمسكت به كالسمكة عندما هرب إلى عرض البحر أمام هجومي وقطعت رأسه . ثم حملت معي الكثير من ممتلكاته المقدسة : ذهباً وفضة وعاجاً وأبانوساً وجلود فيلة . . . وسقت حشوداً من شعبه أمامي إلى نينوى ، وسقت المواشي كبيرها وصغيرها والحمير . ثم دعوت كل ملوك «حاتي» وبلاد شاطئ البحر ، وجعلتهم على أعمال السخرة من أجل بناء مقر جديد لي (مدينة) أسميتها «كار أسرحادون» ، أحللت بها سكاناً من المناطق الجبلية ومن شاطئ البحر»^(١٠) .

وهكذا ، فنحن مرة أخرى مع الجيش الآشوري في «حاتي» (سورية) وعلى الشاطئ الكنعاني ، وليس في غرب العربية . وهاهنا يأتي بملوك دويلات بلاد الشام ليسخرهم كالعبيد في بناء قصر له :
[دعوت إلى ملوك بلاد «حاتي» على الجهة الأخرى للنهر : «بعلو» ملك

45- Ibid, P 290

«صور و» منسي» - Me-na-si-i ملك «يهوذا» - la-u-di و«قوش غابري» ملك «إيدوم» و«موصوري» ملك «موآب» و«سلبيل» ملك «غزة» و«ميتيني» ملك «أشقلون» و«إيكوسنو» ملك «عقرون» و«ملكي آشابا» ملك «جبيل» و«ميتان بعل» ملك «أرواد» و«آبي بعل» ملك «شامسي موروننا» و«بودويل» ملك «بيت عمون» و«أهي مكى» ملك «أشدود» . . . كل هؤلاء أرسلتهم إلى نينوى مقر حكمي، وجعلتهم ينقلون إليها تحت أقصى الظروف مواد بناء لقصري: جذوعاً ودعائم وألواحاً من خشب الأرز والصنوبر، مما تفيض به جبال «لبنان» و«سرارا» (و. . . تعداد لمواد أخرى) [١٦]. وبذلك نال ملوك دويلات الطوائف في بلاد الشام أقصى جزاء لهم ولشعوبهم التي لم تعرف قط الدولة المركزية الواحدة. و«منسي» ملك يهوذا الوارد في النص أعلاه هو ابن الملك حزقيا الذي حاصره سنحاريب في اورشليم. وقد أوردت الرواية التوراتية خبر نفيه من قبل ملك آشور في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٣: ٩ - ١٢ حيث نقرأ: [. . . ولكن منسي أضل يهوذا وسكان اورشليم ليعملوا أشراً من الأمم الذين طردهم الرب من أمام بني اسرائيل، وكلم الرب منسي وشعبه فلم يصغوا، فجلب عليهم رؤساء الجنند الذين لملك آشور، فأخذوا منسي بحزمة وقيده بسلاسل من نحاس وذهبوا به إلى بابل].

ولدينا من عصر أسرحدون عدة نصوص تتعلق بمعاهدات أبرمها مع بعض ملوك الدويلات التابعة، أهمها معاهدته مع ملك صور الفينيقية ولعلنا، عند هذه المرحلة من بحثنا، لن نضيف جديداً إذا قلنا أن نص المعاهدة هذه، شأنه في ذلك شأن بقية النصوص الآشورية، لا ينطبق من قريب أو بعيد على مواقع كمال الصليبي في غرب العربية، وأن «صور» الوارده فيه ليست «زور الوادعة» في منطقة نجران المجاورة للصحراء العربية الداخلية، بل هي صور الكنعانية الواقعة على البحر المتوسط. ونظراً لتعدد بنود المعاهدة وتشوه كثير

من سطورها، فأننا سنكتفي بإيراد ما يلي منها:

هذه معاهدة «اسرحادون» ملك آشور، الابن الأكبر لـ . . . مع «بعل» ملك «صور» . . . (كسر في اللوح . . .

٦ - إذا تحطمت سفينة تخص «بعل» أو أحد أهالي «صور» على شاطئ بلاد الفلسطينيين، أو في أي مكان على حدود المناطق الآشورية، فإن كل ما فيها يغدو ملكاً لأسرحادون ملك آشور، لا يمس أحد بأذى أياً من ملاحها، بل يتوجب عليهم إرسال قائمة باسمائهم إلى ملك آشور.

١٨ - هذه هي موانئ التجارة، وطرق التجارة التي يمنحها اسرحادون ملك آشور لخدمته بعل: في اتجاه «عكا» و«دور» عبر كل أراضي الفلسطينيين. في جميع مدن المناطق الآشورية على ساحل البحر وفي «جبيل» عبر «لبنان»، وكل المدن الجبلية (بقية الفقرة مليئة بالشغرات الناجمة عن تشوه اللوح)^(٧٤).

وفي عهد أسرحادون، قامت آشور لأول مرة باخضاع مصر، واجتاحت الجيوش الآشورية كامل الأراضي المصرية وما يليها من بلاد النوبة، وعينت حكاماً محليين في المدن والأقاليم تابعين مباشرة للملك الآشوري. ولقد كتبت آشور بذلك السطور الأولى في قصة نهايتها، وأمضت ما تبقى لها من وقت قصير في محاولات مستحيلة للسيطرة على رقعة واسعة من أراضي الشعوب المغلوبة، لم يقيض لها ضبطها وتنظيمها ضمن امبراطورية شائخة تسير نحو نهايتها المحتومة.

آشور بانيبال ونهاية الامبراطورية الآشورية:

ورث آشور بانيبال (٦٦٨ - ٦٣٣ ق.م) عن أبيه سنحاريب عالماً يمج

47- E. Reiner, Akkadian Treaties (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Text op. cit) P 533-534

بالفتن والثورات . فقد اضطر لاختضاع مصر مرة أخرى بعد أن عم التمرد جميع أرجائها ، وعاد إليها أكثر من مرة بسبب نكوص الأمراء المحليين عن عهودهم معه . وفي اثناء ذلك ، كان يؤدب في طريقه المتمردين من ملوك بلاد الشام . نقرأ في اخبار حملته الثالثة :

[في حملتي الثالثة ، وجهت قواتي ضد «بعل» ملك صور الذي يعيش على جزيرة في البحر ، لأنه لم يعبأ بأوامري . أحبطته بالمتاريس وقطعت عليه الطرق في البر والبحر ، فأنضبت مواردهم الغذائية وأجبرته على الخضوع . جلب إلي ابنته وبنات اخوته ليؤدين الخدمة الوضيعة لي ، كما جلب إلي ابنه الذي لم يركب البحر بعد ليكون لي عبداً . فتلقيت منه ابنته وبنات اخوته ورددت اليه ابنه شفقة عليه . (وعندها) «ياكينلو» ملك «أرواد» الذي يعيش أيضاً في جزيرة والذي تمرد على ملوك اسرتي ، خضع إلي ، وأرسل ابنته إلي نينوى ومعها دودة ثمينة لتؤدي الخدمات الوضيعة في قصري ، وقبل قدمي] ^(١٨) .

نبوخذ نصر والدولة البابلية الجديدة :

بعد آشور بانينال ، بدأت بالتوضيح عوامل انحلال المجتمع العسكري الآشوري التي كانت تعمل في الخفاء خلال أكثر من قرن . ذلك أن المظهر البراق للقوة التي لا تهزد يخفي وراءه عملية انتحار بطيء تقدم عليه المجتمعات العسكرية وهي منساقه وراء نشوة انتصاراتها المتواصلة . ولم يكن اجهاز الكلدانيين الذين اقاموا الدولة البابلية الجديدة . غنى آشور ، سوى ضربة أخيرة إلى جثة داخل درع سميك ، على حد تعبير المؤرخ ارنولد توينبي ، المصيب . فبعد وفاة آشور بانينال ، وقعت بابل تحت سلطان «نابو

48- Leo Oppenheim, op cit, P. 295-296

بولاصر» الكلداني الذي رد عن بابل آخر عدوان آشوري عام ٦١٥ ق. م. وفي تلك الأثناء كان حلفاؤه الميديون قد توجهوا لنصرته من إيران فدمروا مدينة آشور عام ٦١٤ ق. م ثم تعاون الحلفاء معاً فزحفوا إلى نينوى ودمروها وتقاسموا ممتلكاتها.

نبوخذ نصر ودمار أورشليم :

حافظ «نبوخذ نصر» الملك الثاني للمملكة البابلية الجديدة على المقاطعات التي ورثها أبوه نابوبولاصر من الآشوريين غربي الفرات، واصطدم مع «نحو الثاني» فرعون المصّر الموالي للآشوريين عند الفرات، والحق به هزيمة ساحقة عام ٦٠٥ ق. م وطارد المصريين إلى حدودهم دون أن يفكر باجتياح مصر نفسها، ففضى بذلك على آمال المصريين في الحصول على جزء من تركة آشور.

لم تترك لنا الدولة البابلية الجديدة سجلات تفصيلية عن حملاتها في بلاد الشام. ولعل سجل حملة نبوخذ نصر على اورشليم ومملكة يهوذا مثال على ذلك :

[في السنة السابعة، الشهر. . قاد ملك أكاد جيوشه نحو بلاد حاتي، فحاصر مدينة «يهوذا» la-a-hu-du وفتحها في شهر آذار وأقام عليها ملكاً جديداً اختاره، وأخذ منها جزية كبيرة حملها إلى بابل] ^(١١). وكانت هذه الحملة التي تمت عام ٥٨٧ ق. م النهاية الأخيرة لمملكة يهوذا. فاضافة إلى مدينة اورشليم نفسها، فقد تبعت التوقييات الأركيولوجية الخراب الذي حل ببقية مدن يهوذا التي تهدمت في أوائل القرن السادس قبل الميلاد وانقطع فيها الاستيطان

البشري قرابة قرن من الزمان^(٥٠).

ويدعو من أخبار التوراة أن نبوخذ نصر قد اجتاحت مملكة يهوذا على مرحلتين تفصل بينهما قرابة عشر سنوات في حملته الأولى اكتفى بتغيير الملك وقبض الجزية وسبي الكثيرين من أهلها، وفي حملته الثانية قام بتدمير المدينة وسبي كل أهلها عدا أفقر الناس والمشردين ممن لا نفع فيهم نقرأ عن حملته الأولى في سفر الملوك الثاني ٢٤ :

[كان «يهواكين» ابن ثماني عشرة سنة حين ملك، وملك ثلاثة أشهر في أورشليم. . . وعمل الشر في عيني الرب حسب كل ما عمل أبوه. في ذلك الزمان صعد نبوخذ ناصر ملك بابل إلى أورشليم، فدخلت المدينة تحت الحصار، وجاء نبوخذ ناصر ملك بابل على المدينة وكان عبيده يحاصرونها، فخرج يهواكين ملك يهوذا إلى ملك بابل هو وأمه وعبيده ورؤساؤه وخصيائه، وأخذ ملك بابل في السنة الثانية من ملكه. وأخرج من هناك جميع خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك وكسر كل آنية الذهب التي عملها سليمان ملك إسرائيل في هيكل الرب كما تكلم الرب. وسبى كل أورشليم وكل الرؤساء وجميع جبابرة البأس، عشرة آلاف مسبي وجميع الصناع والأقيان. لم يبق أحد إلا مساكين شعب الأرض، وسبى يهواكين إلى بابل. . . وملك ملك بابل «متنيا» عمه عوضاً عنه وغير اسمه إلى «صدقيا»].

ولكن صدقيا ما لبث أن تمرد على بابل، وفي السنة التاسعة لحكمه :
[جاء نبوخذ ناصر ملك بابل، هو وكل جيشه على أورشليم ونزل عليها وبنوا أبراجاً حولها، ودخلت المدينة تحت الحصار إلى السنة الحادية عشر للملك صدقيا في تاسع الشهر اشتد الجوع في المدينة ولم يكن خبز لشعب الأرض،

50- Katheen Kenyon, Digging Up Jerusalem, E benn LTD, London 1974, PP 166-

فُتُخِرَتِ المدينة وهرب جميع رجال القتال ليلاً من طريق الباب بين السورين اللذين نحو جنة الملك . وكان الكلدانيون حول المدينة مستديرين فذهبوا في طريق البرية ، فتتبعت جيوش الكلدانيين الملك فأدركوه في بركة أريحا وتفرقت جميع جيوشه عنه ، فأخذوا الملك وأصعدوه إلى ملك بابل إلى «ربلة» وكلموه بالقضاء عليه . وقتلوا بني صدقيا أمام عينيه وقلعوا عيني صدقيا وقيدوه بسلسلتين من نحاس وجاءوا به إلى بابل . . . (ثم جاء «نبوزرادن» رئيس الشرط عبد ملك بابل إلى اورشليم وأحرق بيت الرب وبيت الملك وكل بيوت اورشليم وكل بيوت العظماء أحرقها بالنار وجميع أسوار اورشليم هدمها كل جيوش الكلدانيين الذين مع رئيس الشرط . وبقية الشعب الذين بقوا في المدينة والحاربون الذين هربوا إلى ملك بابل وبقية الجمهور سباهم نبوزرادن رئيس الشرط . ولكن رئيس الشرط أبقى من مساكين الأرض كرامين وفلاحين... فسُبي يهوذا من أرضه]. سفر الملوك الثاني : ٢٥ .

وهكذا انتهت مملكة يهوذا بعد أن عاشت قرابة قرن وربع بعد دمار مملكة اسرائيل .

غير أن المملكة البابلية الجديدة لم تعمر طويلاً . وقبل انقضاء القرن السادس قبل الميلاد كانت خارطة توزع القوى في الشرق القديم قد تبدلت بسبب ظهور قوة جديدة لم يحسب لها حساب هي قوة الفرس اقرباء الميديين الذين ساهموا في تحطيم آشور . ففي سنة ٥٤٧ ق.م أكمل «قورش الثاني» ضم كامل بلاد ايران إلى مملكته ، وفي سنة ٥٣٩ ق.م انتصر على الامبراطورية البابلية الجديدة (الكلدانية) وضمها إلى ملكه بما في ذلك البلاد الواقعة الى الغرب من نهر الفرات . ثم استعاد ابنه «قمبيز» من بعده كامل تركة آشور وذلك باحتلال مصر . وفي عهد «داريوس الأول» خليفة قمبيز بدأت حركة المد والجزر بين الحضارة الشرقية والحضارة الغربية المتمثلة باليونان الفتية ، حيث شن حملة بحرية غير حاسمة على بلاد اليونان . وعندما توفي ، كانت الامبراطورية الشرقية تمتد من وادي نهر السند شرقاً إلى حدود اليونان

غرباً، ومن سفوح جبال القوقاز شمالاً إلى شمالي الشلال الأول على نهر النيل في أعماق افريقيا.

نتائج وتساؤلات :

لقد اثبتت دراستنا العلمية للسجلات الآشورية، بما لا يدع مجالاً للشك، أن هذه السجلات معنية بمناطق بلاد الشام حصراً، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بمناطق غرب شبه الجزيرة العربية، وأن ممالك دمشق وحماة الآرامية، وصيدون وجبيل وصور وارواد الفينيقية، والسامرة واورشليم الكنعانية، الوارد ذكرها في التوراة وفي سجلات آشور هي ممالك بلاد الشام وليست ممالك عسير وغرب العربية.

ولقد كان للآشوريين غزوات موجهة نحو جزيرة العرب كما هو واضح من سجلاتهم. ولكن أخبار حملاتهم تلك توضح وبصريح العبارة أنها كانت موجهة ضد القبائل التي أطلقوا عليها اسم «أريبو» Aribu أي العرب. ولا نستطيع، في كل سجلات بابل وآشور، أن نجد تلميحاً واحداً إلى حملة موجهة ضد «يهوذا» و«اسرائيل» قائمتين في غرب العربية. فإذا كان لمثل هاتين المملكتين وجود هناك، لتوجب أن تكون الحملة عليهما استمراراً لحملة ما على بلاد العرب، مما لا نستشفه تلميحاً أو تصريحاً في تلك السجلات.

ولقد ورد أول ذكر للعرب في سجلات شلمنصر الثالث، عندما شارك «جنديسو» العربي متحالف في «قرقرة» تصديهم للآشوريين، مما فصلناه في الحديث عن معركة قرقرة، ويبدو أن القبائل العربية المتجولة بين بادية الشام وشمال العربية والمتحكمة بطرق التجارة البرية مع بلاد الشام، قد هبت في ذلك الوقت برعامة جنديسو للدفاع عن مصالحها التي ضلها التوسع الآشوري، ووجدت في حلف قرقرة سبيلها إلى ذلك. ومنذ ذلك الوقت تتواتر أخبار العرب وبلادهم في السجلات الآشورية. ففي نص لتغلاب فلاصر الثالث

أوردناه سابقاً (انظر الصفحة ١٠٤) هناك ذكر للملكة عربية اسمها «زبيبة» قدمت له الجزية. وقد تكون هذه الملكة هي الأصل التاريخي للروايات العربية المتواترة عن ملكة اسمها «الزباء»^{٥١}. وفي نص آخر لتغللات فلاصر الثالث يقوم بالالتفات إلى بلاد العرب بعد انتهاء حملة له في بلاد الشام أخضع فيها عدداً من الممالك بينها «سميرا» و«عرقا» و«غزة» و«أرض عمري»:

[أما «شمسة» ملكة العرب، فقد قتلت من أتباعها ١١٠٠ رجل وأخذت ٣٠,٠٠٠ جمل، و٢٠,٠٠٠ رأس ماشية و٥٠٠٠ صندوق من التوابل و١١ طاسة مكرسة لألهتها. أما هي فقد هربت بحياتها إلى مدينة «بازو» في إقليم العطش كحمار وحش برية. وأهل معسكرها لما أضناهم الجوع قد... ولكنها عادت بعد أن أدركت مدى جبروتي وقوتي، وجلبت إلي جمالاً ذكوراً وإناثاً... أما أهل «مسعاي» و«تيا» - Tema و«حطيا» - Hattia، وأهل «ايدي بعل» - Idiba'leans، و«السبنيون» وأهل «حيابا» - Haipaa و«بادانا» - Badana من أقاليم الغرب التي لم يسمع بها أو يعرف بلادها أحد، فقد سمعوا أخبار سلطتي وخضعوا لحكمي، وجلبوا إلي جميعاً الجزية...]^{٥٢}.

من هذا النص ومن أشباهه، نستطيع التأكيد على أن الحملات الآشورية كانت موجهة ضد القبائل العربية المقيمة أو المتجولة بين بادية الشام والمناطق الشمالية من شبه الجزيرة العربية، وبين ضفاف الفرات الأدنى وصحراء النقب، وأنها لم تتوغل كثيراً إلى أعماق بلاد العرب. وعلى سبيل المثال نقرأ في سجل حملة نبوخذ نصر على بلاد العرب ما يلي: [في السنة السادسة عشر، شهر... قاد ملك أكاد جيشه إلى بلاد حاتي، ومن هناك وجه قواته فأغارت على الصحراء. أخذ جزيرة كبيرة من بلاد العرب، وأخذ قطعانهم وتمائيل أهتهم بأعداد كبيرة. وفي شهر آذار عاد الملك إلى بلاده]^{٥٣}.

• - والروايات العربية لا تربط بتاتاً بين الزباء وملكة تدمر في بلاد الشام.

51- Leo Oppenheim, op. cit, P. 284

52- Ibid, P. 564

لقد حمل الآشوريون على بلاد العرب ، وأخبار حملاتهم تلك متوفرة لدينا في حوليات الملوك وفي رسوم نابضة تمثل الأسرى من العرب وقد سيقوا إلى آشور مع جماهم بشياهم المميزة . أما القول بأن الحوليات الآشورية انها تؤرخ لحملات في غرب شبه الجزيرة العربية ، فباطل في رأينا بطلاناً مطلقاً . وأخيراً ، هناك مشكلة تاريخية كبيرة تنتظر من كمال الصليبي ومن يبشر بنظريته ، حلّها ، وهي ليست أبداً بالمشكلة السهلة . فاذا كانت كل السجلات التاريخية المصرية والآشورية معنية بغرب العربية وأنها قد فهمت خطأ على انها معنية ببلاد الشام ، فأين إذن السجلات المتعلقة ببلاد الشام التي شكلت في الألف الثاني قبل الميلاد مسرح تنازع بين مصر والحثيين ، وكانت خلال الألف الأول قبل الميلاد معبراً لبابل وآشور نحو مصر والجزيرة العربية ؟ ألم تقم مملكة آشور ، التي بنت امبراطورية واسعة مترامية الأرجاء مؤسسة على الحرب ، بأية حملة على بلاد الشام ؟ إذا كان الجواب نعم ، فأين سجلات تلك الحملات الآشورية ؟ لقد قام ملوك آشور بتسجيل أخبار حملاتهم بدرجة لا بأس بها من الدقة والتفصيل ، فكيف تسنى لهم أن يغفلوا تدوين أخبار حملاتهم في بلاد الشام وهي المجال الحيوي الحقيقي لبلاد الرافدين ؟ لقد كان على كل حملة آشورية أن تحتاز بلاد الشام وتضطدم بالممالك الآرامية والكنعانية القائمة آنذاك ، قبل وصولها إلى غرب العربية ، فلماذا اختار الآشوريون تسجيل أخبار حملاتهم في مراحلها الأخيرة عند غرب العربية ؟ كيف تم اخضاع مصر منذ عهد اسرحادون دون المرور بسورية ؟ ومصر الفرعونية ، هل كانت تتنازع مع حثيي الاناضول على مناطق عسير وتترك لهم الجبل على غاربه في المقاطعات السورية ، قبل ظهور القوة الآشورية على المسرح الدولي ؟ وأخيراً كيف اتفقت السجلات المصرية والآشورية والبابلية على الصمت المطبق عن علاقات مصر وبلاد الرافدين مع الحضارة الثالثة الواقعة بينهما ؟

الباب الثاني
البسّنة الآثارية
أركيولوجيا فلسطين

مثلاً يعتقد الصليبي أن سجلات مصر والعراق القديمة قد قرئت على ضوء النصوص التوراتية، وأخذت تلميحاتها الطبوغرافية على أنها تتعلق بفلسطين ومصر والعراق، كذلك يعتقد أن نتائج التنقيبات في فلسطين خلال المائة سنة الأخيرة، قد أجبرت على التلاؤم مع المفهوم التقليدي الذي يأخذ فلسطين، كأمر مسلم به، على أنها بؤرة الحدث التوراتي . ولعله من المستحسن هنا أن نورد المقطع الذي بسط فيه السيد كمال الصليبي فرضيته تلك مستخدمين كلماته ذاتها :

[ان استعراض الدراسات والأبحاث الضخمة التي انتجها علماء الآثار والباحثون التوراتيون خلال السنوات المئة الأخيرة، يلفت النظر إلى أمر في غاية الغرابة . ففي حين أن تاريخية عدد من الروايات التوراتية بقيت عرضة للنقاش الحاد، فإن جغرافية هذه الروايات استمرت معتبرة من المسلمات . والحقيقة الساطعة هي أن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى قد مسحت وحفرت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، دون أن يعثر في أي مكان على أثر واحد يمكنه أن يصنف جدياً على أنه يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي . وأكثر من ذلك فإن التوراة العبرية تذكر الآلاف من أسماء الأماكن، وليس بين هذه الأسماء أكثر من قلة قليلة تماثلت لغوياً مع أسماء أماكن في فلسطين ... وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية، فإن

الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء، في اطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية، لا تنطبق على المواقع الفلسطينية [(ص ٥٠ - ٥١) .

هذا المقطع المقتضب، هو المقدمة النظرية الوحيدة التي بسط من خلالها كمال الصليبي المشكلة الأركيولوجية للتوراة. وهو رغم الطروحات الخطيرة التي يتقدم بها هنا، والتي تقوض عمل أجيال من علماء الآثار خلال أكثر من قرن، فإنه لا يعمد إلى تدعيم فرضيته وفق منهج علم الآثار، إلا من خلال مثالين بسيطين. الأول يتعلق بمدينة «بئر السبع» والثاني بمدينة «جرار»، تاركاً بقية الركام الأركيولوجي إلى منهجه في مقارنة أسماء الأماكن، وهو أبعد المناهج قدرة على التعامل مع أبسط المسائل الأثرية.

هناك أمر يجب الإشارة إليه قبل استعراض بيناتنا الأثرية، وهو أمر نتفق فيه مع كمال الصليبي، ذلك أن معظم المواقع الأثرية التي كشفت عنها التنقيبات في فلسطين، وجرت مطابقتها مع مواقع معروفة سواء في النص التوراتي أم في سجلات الشرق القديم، لم يعثر بين أنقاضها المدفونة على نصوص مكتوبة، وبالتالي لم يكن أمام المنقذين ما يثبت هوية المدينة سوى احداثياتها وحصيلتها الأثرية. وقد استنفذ العلماء في هذا المجال، كل الامكانيات المتاحة لعلم الآثار بطرائقه ومناهجه وتقنياته الحديثة، التي وصلت درجة عالية خلال الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. لذلك فإن قول الصليبي بأنه في الحالات القليلة التي تماثلت فيها أسماء المواقع التوراتية المكتشفة مع أسماء مواقع توراتية فقد اختلفت احداثياتها مع الاحداثيات المعطاة في التوراة، هو قول يخالف للحقيقة ويحمل الكثير من التجني على علم بكامله، كما أنه قول غير مدعم بالأمثلة والاثباتات. فالصليبي لم يأت بحالة واحدة تحمل تناقضاً بين احداثيات الموقع المكتشف واحداثياته التوراتية.

أما قوله بأن الأراضي الشمالية للشرق الأدنى (ويقصد بلاد الشام) قد مسحت من قبل أجيال متوالية من علماء الآثار، دون العثور على أثر واحد

يتعلق مباشرة بالتاريخ التوراتي ، ففيه الكثير من المبالغة والتفاصي عن حقائق تاريخية وآثارية ثابتة . وإلا كيف يفسر الصليبي العثور على نصب تذكاري محفوظ الآن في متحف حلب تركه «بن حدد الأول» وفيه يقول : [هذا النصب أقامه بن حدد بن ط . . . ملك آرام لسيدته ملقارت الذي نذر له فاستجاب]^(١) ، علماً أن بن حدد هذا معروف في أسفار التوراة بحروبه الكثيرة مع مملكة اسرائيل. نقرأ على سبيل المثال ما ورد في سفر الملوك الأول ١٥ : ١٨ [وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليد عبده وأرسلهم آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حزبون ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً... تعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عني . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل]. وكيف يفسر نقش زاكير ملك حماة الذي ذكر فيه «بن حدد الثالث» ملك دمشق وأبيه حزائيل (انظر الصفحة ١٠٠ سابقاً) وكلاهما معروف في التوراة كملكين لأرام دمشق معاصرين ليهو آخاز وابنه يهوآش من ملوك السامرة؟

نحن مع كمال الصليبي في نقد علم الآثار التوراتي ، ولنا الكثير من التحفظات على العديد من التفسيرات التي بناها التوراتيون على الحقائق الأركيولوجية . إلا أن ذلك لا يعني أن نرفض نتائج علم الآثار في فلسطين جملة وتفصيلاً ، فالحقائق العلمية شيء والتفسيرات غير العلمية شيء آخر ، يضاف إلى ذلك أن من عملوا في حقل الآثار في فلسطين ليسوا جميعاً من المدرسة التوراتية ، فهناك الكثيرون ممن قدموا مساهمات جلى في حقل أركيولوجيا فلسطين بعيداً عن التوجهات التوراتية المسبقة .

1- Franze Rosenthal, Canaanite And Aramic Inscription, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, Op. Cit) P. 655.

انظر أيضاً علي أبو عساف ، الآراميون ، المرجع السابق ص ١٣٣ .

انطلاقاً من هذا الموقع الحذر، الذي يعرف صاحبه كيف يبحث عن المعلومة الموضوعية الصحيحة وأين، سنعرض فيما يلي إلى نقد النتائج القليلة التي توصل اليها الصليبي في مجال علم الآثار، ونزيد على ذلك بتقديم بيناتنا الأثرية التي تظهر الجانب الآخر للمسألة.

٣- بئر السبع والبحث عن جرار

لقد اختار كمال الصليبي ، كما المحنا سابقاً ، لدعم وجهة نظره في علم آثار فلسطين موقعين ثانويين جداً ، سواء من منظور الحدث التوراتي ، أم من منظور علم الآثار ، الأول «بئر السبع» والثاني «جرار» .

فيما يتعلق ببئر السبع يقول الصليبي : [. . . وفي حالة بارزة هي حالة بئر السبع الفلسطينية ، فان بلدة يظهر اسمها ببروز في الروايات الأبائية لسفر التكوين ، وبالتالي يفترض أن تعود أصولها إلى أواخر العصر البرونزي على الأقل ، لم يعثر فيها إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد . وقد اضطر علماء الآثار في السنين الأخيرة إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات تقريباً عن بئر السبع للعثور على مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة ، دون أن يعثروا على أي برهان قاطع بأن لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بني اسرائيل] (ص ٥١) .

وفي الحقيقة ، فان بئر السبع لم يكن أبداً من المواقع التوراتية البارزة ، ولم يرتبط بأي حدث توراتي هام . ففي عصر الآباء ، لم يكن الموقع سوى بئر حفرها ابراهيم ، ثم جدد اسحاق حفرها بعد أن ردمت (راجع سفر التكوين ٢١ : ١٤ - ٣١ ، ٢٦ : ١٨ - ٣٥) . وقد مر بالموقع بعد ذلك يعقوب في طريقه إلى مصر (التكوين ٤٦ : ١ - ٥) . وفي سفر يشوع الذي يصف الاستيلاء

على أرض كنعان، يأتي ذكر الموقع عرضاً في جملة ما أعطي لسبط يهوذا (يشوع ١٥ : ٢٨). وفي سفر القضاة وصموئيل الأول والثاني، يذكر الموقع باعتباره الحد الجنوبي لأرض الاسرائيليين، دون أي تفصيلات أخرى حوله (القضاة ١ : ٢٠، صموئيل الأول ٣ : ٣٠، صموئيل الثاني ٣ : ١٠). وكذلك الأمر في بقية الأسفار التي تذكر الموقع دون أن تربطه بأي حدث ذي قيمة (راجع الملوك الأول ٤ : ٣٥ و ١٩ : ٣. الملوك الثاني ١٢ : ١٠ و ٢٣ : ٨. أخبار الأيام الأول ٤ : ٢٨ و ٢ : ٢١ أخبار الأيام الثاني ١٩ : ٤ و ٢٤ : ١ نحemia ١١ : ٢٧ و ٣٠). فالمكان لم يكن أكثر من تجمع سكاني بسيط حول بئر قديمة تقف عندها القوافل في طريقها إلى مصر. ثم تحولت إلى مدينة صغيرة مع تكون المملكة الموحدة ابان القرن العاشر.

أما عن قول الصليبي [بأن المنقبين لم يعثروا في الموقع إلا على مواد أثرية تعود بتاريخها إلى المرحلة الرومانية على أبعد حد، مما اضطرهم إلى التنقيب على بعد خمسة كيلومترات من الموقع للعثور على مواد ترجع في تاريخها إلى زمن التوراة]، فإن ما يعرفه أي مطلع على علم الآثار، هو أن المواقع القديمة كثيراً ما تغير مكانها بمرور الأيام نتيجة هجرانها وإعادة بنائها بعد فترة انقطاع قد تدوم بضعة عقود أو بضعة قرون، أو نتيجة لعوامل أخرى متعددة. وموقع بئر السبع في صحراء النقب ليس الوحيد الذي غير موضعه على مر الأزمان. فموقع «جراבלس» اليوم، الذي كان يعرف باسم «جيرابيس» في الفترات السابقة^(*) قد انزلق مسافة لا تقل عن خمسة كيلومترات عن الموقع الأصلي لمدينة «كركميش» القديمة على الفرات في أقصى الشمال السوري. وتل بلاطة الذي عثر تحته على مدينة «شكيم» الكنعانية في فلسطين، يقع على بعد ثلاثة كيلو

* - عرفت جراבלس في الفترتين الهلنستية والرومانية باسم «أورويس» *Europos* ودعتها النصوص السريانية «آجرويس»، ثم نجدها في بعض النصوص العربية باسم «جيرابيس».

مترات من مدينة «نابلس» الحديثة. ومدينة «أورشليم» الكنعانية اليبوسية البالغة القدم، لم يعثر عليها المتقبون إلا بعد أن تحولوا عن الموقع الحديث لمدينة القدس، وبدأوا بالتنقيب خارج الأسوار نحو المنطقة الجنوبية. فأي خير في أن يبعد موقع بئر السبع القديمة مسافة خمسة كيلومترات عن موقع بئر السبع الرومانية وعن موقعها القائم اليوم؟

وأما عن قوله بأن التنقيب على بعد خمسة كيلومترات عن بئر السبع قد أظهر مواد أثرية يعود عهدها إلى زمن التوراة، دون أن يكون لهذه المواد أقل علاقة بالتوراة أو بتاريخ بين إسرائيل، فإننا نريد أن نوضح أمراً على غاية من الأهمية فيما يتعلق بتاريخ وآثار منطقة فلسطين. ذلك أنه سواء في بئر السبع أو غيرها من المواقع القديمة في فلسطين، لا يمكن التمييز بين ما هو إسرائيلي وما هو كنعاني إلا اعتماداً على تاريخ المادة المكتشفة. ذلك أن الإسرائيليين القدماء خلال فترة حكمهم السياسي القصير في السامرة وأورشليم لم يتركوا بصمة مميزة على أي منحى من مناحي حضارة كنعان التي تضرب في جذورها إلى مطالع التاريخ، بل أنهم تشربوا تلك الحضارة وعاشوا كنفثة كنعانية طورت تدريجياً مذهباً دينياً خاصاً انطلاقاً من الديانة الكنعانية ذاتها، فتنبؤ الإله «إيل» رئيس مجمع آلهة كنعان وقرنوه بالاله «يهوه» فرفعه الهاً واحداً لهم، ودفعوا بالاله «بعل» اله الخصب الكنعاني القديم إلى مرتبة الشياطين، فصار «ابليس» الديانة اليهودية التي لم تأخذ ملاحظتها الثابتة في التوضيح إلا بعد تحرير أسفار التوراة بدءاً من القرن السادس قبل الميلاد. ومنذ بناء هيكل الرب في اورشليم كانت الالهة «عشيرة» زوجة «إيل» تعبد في الهيكل وكان تمثلها المصنوع من جذع شجرة تدعى «السارية» منصوباً في قدس أقداس المعبد*.

* - وأغلب الظن أن من قدم تمثال عشيرة إلى المعبد كان الملك رجبعام ابن سليمان حوالي عام ٩٣٨ ق.م، لأننا نعرف من أخبار «آسا» الذي قام باصلاحه الديني بعد ذلك بحوالي ←

وفي الواقع ، فإن المادة الأثرية التي عثر عليها في بئر السبع تتطابق مع أخبارها التوراتية . فقبل القرن العاشر قبل الميلاد عندما بدأت المملكة الموحدة بالتشكل ؛ كان الموقع عبارة عن تجمع سكني بسيط ، لم يأخذ شكل المدينة المسورة إلا بدءاً من القرن العاشر قبل الميلاد . وقد أظهرت الأجزاء التي تم كشفها من السور والطرق والبيوت ، تماثلاً في تخطيط المدينة وفي طريقة بناء البيوت وتوضعها ، مع مواقع فلسطينية أخرى تعود إلى نفس الفترة مثل موقع «تل بيت مرسيم» و«مجدو» و«حاصور» وغيرها^(٣) .

الموقع الثانوي الآخر الذي اعتمدت عليه البيئة الأركيولوجية لكمال الصليبي هو موقع «جرار» الذي خصص له فصلاً كاملاً بعنوان «البحث عن جرار» يقول في بدايته : [قبل بداية البرهان على مدى الدقة في مطابقة جغرافيا التوراة العبرية لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربية ، لا بد من إيراد الدليل على مدى الضعف في مطابقة تلك الجغرافيا لجغرافيا فلسطين . وهذا يتضح تماماً من النظر في الطريقة التي عالج فيها علماء التوراة حتى الآن مسألة «جرار» ، وهي بلدة توراتية يفترض أنها ازدهرت في القدم في جوار غزة بساحل فلسطين ، في موقع غير بعيد عن بئر السبع ، والتي انجلت عن عدم وجود أي مكان هناك يحمل هذا الاسم] (ص ٨٥) . بعد ذلك يتابع الصليبي إظهار تحبط العلماء التوراتيين في محاولة العثور على جرار ، ليجدها لهم أخيراً في أحد مواقع أربعة في مرتفعات عسير بين «آل زيدان» (صيدون) و«آل عزة» (غزة)

←
٣٥ سنة أن الأصنام كانت قائمة في الهيكل وعلى رأسها تمثال عشيرة (الملوك الأول ١٥ : ٩ - ١٨) ويبدو أن تمثال عشيرة قد أعيد مع الأصنام في عهد «يوآش» (انظر أخبار الأيام الأول ٢٤ : ١٥ - ١٨) . ورغم أنها قد أخرجت بعد ذلك أكثر من مرة ، إلا أنها كانت قائمة في آخر أيام مملكة يهوذا عندما كانت على أبواب الاجتياح البابلي (الملوك الثاني ٢٣ : ٤ - ٦) .

2- Kathleen Kenyon, Archaeology In the Holy Land, Menthuen, London 1985, PP.279-80, 297.

وهي «غُرار» و«الجرار» و«غُرار» و«القرارة» (انظر خريطة الصليبي رقم ٦) .
وفي الحقيقة، لم تكن جرار موقعاً هاماً في أخبار التوراة، ولم يرد لها ذكر في
سجلات مصر ووادي الرافدين . وقد اوردت أسفار التوراة أخباراً قليلة عنها .
ففي سفر التكوين وردت باعتبارها الحد الجنوبي لأرض كنعان قرب مدينة
غزة، كما أتى اليها كل من ابراهيم واسحاق بسبب الجوع، وهناك كذب
كلاهما على ملكها «أبيمالك» بشأن امرأتهما . وفي سفر أخبار الأيام الثاني،
ساق اليها الملك «آسا» الكوشيين المتقهقرين بعد فشل حملتهم على يهوذا
فنهبا جنوده . فأين هذا الموقع الثانوي جداً من مواقع مثل «مجدو» و«حاصور» و
«لخيش» و«ترصة» و«السامرة» و«شكيم» و«بيت شان» وغيرها من المواقع
الفلسطينية الهامة التي تم اكتشافها والتعرف بدقة على هويتها؟ ولماذا التمسك
بمسألة جرار التي لم تكن هماً من هموم علماء الآثار، ولا نعثر لها على ذكر في
أمهات الأبحاث التي تستعرض نتائج التنقيب في فلسطين؟ . علماً بأن كمال
الصليبي لم يستشهد في بحثه عن جرار أو غيرها بأي عالم مرموق في مجال علم
الآثار، بل اكتفى بالاشارات الغامضة إلى العلماء التوراتيين الذين نعرف،
ويعرف، كم أسأؤا إلى مسألة آثار فلسطين وجعلوا من علم الأركيولوجيا
استمراراً لعلم اللاهوت، وكان جل اقتباساته في المسائل الأثرية مأخوذاً عن
«سايمنز» و«كريلنغ» وكلاهما لم يضرب معولاً واحداً في أرض فلسطين .
ومن ناحية أخرى، فإن عدم العثور على موقع قديم حدد الآثاريون
والمؤرخون مكانه التقريبي اعتماداً على النصوص القديمة، لا يعني سوى
مسألة مؤجلة . فمدينة «إيبلا» الوارد ذكرها في أقدم سجلات أكاد، لم
تكتشف إلا في سبعينيات هذا القرن، ومدينة «شباط انليل» عاصمة الملك
الآشوري «شمسي حدد» التي تكرر ذكرها في سجلات «ماري» وغيرها، لم
يمكن التأكد من هويتها إلا في عام ١٩٨٧ في «تل ليلان» بالجزيرة السورية .
ومدينة «أكاد» عاصمة صارغون الأول مؤسس الدولة الأكادية، لم يعثر عليها
حتى الآن، ومثلها في ذلك مدينة «أشوكان» عاصمة مملكة «ميتاني» . فأين

ضير في ألا يتم العثور حتى الآن على موقع صئيل اسمه «جرار». وأي دليل يقدمه ذلك لمسألة الجغرافيا التوراتية؟

والحقيقة ان مسألة جرار لم تعالج من قبل كمال الصليبي باعتبارها مسألة أركيولوجية بالدرجة الأولى، وكذلك فيما يتعلق ببئر السبع، بل لقد اتخذ من الاشكالات الاركيولوجية لهذين الموقعين مدخلاً للولوج إلى مسألة «أخطر وهي مسألة «أرض كنعان» التوراتية التي نقلها بكاملها إلى بلاد عسير وجاورها هناك مع اسرائيل. وبما أن علم الآثار يعتبر اليوم من أهم العلوم التي تمد علم التاريخ بمادته، فاننا سنعمد فيما تبقى من هذا الباب إلى بسط المسألة الاركيولوجية لفلسطين بالقدر الذي يسمح به حيز هذا الكتاب ومقصده، مقدمين نبذة سريعة عن خلاصة التنقيبات الأثرية في عدد من المواقع الهامة، والنتائج المتفق عليها بين علماء الآثار، ومقاطعة هذه النتائج مع السجلات القديمة بما فيها كتاب التوراة. وسيكون اعتمادنا في هذا الموضوع بشكل رئيسي على عالمة الآثار البريطانية «كاثلين كينيون» التي نقبت في عدد من المواقع الفلسطينية من أهمها موقع «أريحا» وموقع «أورشليم»، والتي خلقت أعمالها التنقيبية ومؤلفاتها العديدة تياراً موضوعياً مقابلاً لتيار المدرسة التوراتية. إضافة إلى التقارير المتفرقة للسيدة كينيون فقد اعتمدت مادتنا هنا على مؤلفاتها المنشورة التالية:

1- Archaeology In the Holy Land, Menthuen, London 1985.

2- Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London 1974

3- Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London, 1971

4- The Bible and Recent Archaeology, Colonnade Books, London, 1978.

٤- أورشليم حاضرة كنعان

ورد اسم اورشليم لأول مرة في نصوص مصرية ترجع إلى القرن التاسع عشر قبل الميلاد، وخصوصاً فيما يدعى «بنصوص اللعنات» وهي نصوص منقوشة على جرار فخارية تذكر أسماء البلاد والحكام من أعداء الفراعنة. وكانت هذه الجرار تحطم في طقس سحري خاص لجلب الأذى على المذكورة أسماؤهم عليها. نقرأ في أحد تلك النصوص^(٣):

- ١ - ايروم، حاكم أي - عناق، وجميع بطانته.
- ٢ - ايايوم، حاكم شوتو، وجميع بطانته.
- ٣ - خالوكيم، حاكم عسقانو، وجميع بطانته.
- ٤ - يقرب - أمو، حاكم اورشليم، وجميع بطانته.
- ٥ - أبيش - حدد، حاكم شكيم، وجميع بطانته.
- ٦ - يابانو، حاكم أكشف، وجميع بطانته.
- ٧ - جتجي، حاكم حاصور، وجميع بطانته.
- ٨ - . . . ، حاكم عشتاروت، وجميع بطانته.
- ٩ - أخو كالكول، حاكم أوبي، وجميع بطانته.

3- John A. Wilson, Egyptian Rituals, (in: James Pritchard's Ancient Near Eastern Texts, op. cit) p. 228.

- ١٠ - . . . ، حاكم صور، وجميع بطانته .
١ - توري أمو، حاكم عكا، وجميع بطانته .
١٢ - ياتيبي ايل ، حاكم بيت شمش، وجميع بطانته .
١٣ - قبيلة عرقاتا .
١٤ - قبيلة جيبيل .

إلى جانب اورشليم، نتعرف في هذا النص على عدد من المدن الكنعانية القديمة في فلسطين مما ورد في سجلات الشرق القديم، وفي التوراة لاحقاً، مثل شكيم، واكشف وحاصور وعكا وبيت شمش. وعلى عدد من المدن الكنعانية الساحلية مثل صور وعرقاتلوجيبيل، وعلى مقاطعات داخلية مثل أوبيي. أما الإشارة إلى قبيلة عرقاتا وقبيلة جيبيل، فهي إشارة إلى القبائل العمورية التي استوطنت أطراف المدن الكبرى في مطلع الألف الثاني بعد أن خربتها. وهذا النص القديم وأمثاله، يثبت أن اسم مدينة اورشليم قديم قدم وجودها، ولا علاقة للاسرائيليين النازحين بتسميتها وتسمية غيرها من مدن كنعان بأسماء مواقع عرفوها في غرب العربية كما يرى كمال الصليبي (ص ٣٥). كما ورد ذكر اورشليم بعد ذلك بخمسمائة سنة في رسائل تل العمارنة، مما ذكرناه سابقاً (الصفحة ٥٧ سابقاً). وقد بقي اسمها قائماً إلى ما بعد دمارها على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية، دون أن يطفئ عليه اسم «إيليا كابيتولينا» التي بناها الرومان على أنقاضها فيما بعد، في أيام الامبراطور «هدريان» حوالي عام ١٣٥ ميلادية^(٥).

فيما عدا اسم المدينة وموقعها في فلسطين، لا تسعفنا نصوص الشرق القديم بكثير عن المعلومات عن اورشليم ولا عن الكنعانيين اليبوسيين من سكانها ممن كانوا يقيمون فيها قبل وبعد التسرب الاسرائيلي، على ما نخبرنا به

* - والاسم «إيليا» مأخوذ من الاسم الأوسط للامبراطور «هدريان» وهو Publius Aelius Hadrianus

كتاب التوراة . فرغم أن سفر يشوع وسفر القضاة يتحدثان عن احتلال المدينة واحراقها ، إلا أننا نرى بعد ذلك أن المهاجمين لم يقدرُوا على طرد السكان بل حلوا بين ظهرانيهم : [وأما اليبوسيون الساكنون في اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم ، فسكن اليبوسيون مع بني يهوذا في اورشليم إلى يومنا هذا] يشوع ١٥ : ٦٣ . [وبنو بنيامين لم يطردوا اليبوسيين سكان اورشليم ، فسكن اليبوسيون مع بني بنيامين في اورشليم إلى هذا اليوم] القضاة ١ : ٢١ . والشئ نفسه ينطبق على معظم المدن الكنعانية الأخرى ، حيث يتحدث سفر القضاة ١ : ١٦ - ٣٦ عن عجز الاسرائيليين عن طرد بني كنعان فسكنوا بينهم . وعندما نُصب داود ملكاً عمل على احتلال اورشليم ، مما يشير إلى أن المدينة بقيت تحت الحكم الكنعاني بعد مائتي عام من التاريخ المفترض لاحتلالها واحراقها على يد يشوع . ومرة أخرى نجد أن داود لم يقدر على طرد اليبوسيين الذين بقوا في اورشليم مشكلين سواد أهلها (راجع صموئيل الثاني ٥ : ٦ ، ٨ ، ٩ وأخبار الأيام الأول ١١ : ٤ - ٨) وقد بقي اليبوسيون في الأرض إلى ما بعد السبي البابلي (راجع عزرا ٩ : ١ - ٢) ومن أسماء المدينة أو القباها في التوراة نجد «يبوس» (القضاة ١٩ : ١٠ - ١١) و «أريئيل» (أشعيا ٢٩ : ١) و «المدينة» (مزامير ٧٢ : ١٦) و «القدس» (أشعيا ٤٨ : ٢) .

عندما بدأت التنقيبات الأثرية في اورشليم ، توجه المنقبون إلى مدينة القدس بموقعها الحالي يبحثون عن حدود اورشليم القديمة . ثم تبين بعد ذلك أن المدينة اليبوسية تقع بكاملها إلى الجنوب من المدينة الحالية على سلسلة تلال القدس الشرقية . وقد تطابقت جغرافية وطبوغرافية المدينة المكتشفة مع وصوفاتها الواردة في التوراة . فالمدينة اليبوسية قد بنيت على الجزء الجنوبي من السلسلة الشرقية . وبني الهيكل على الجزء الأوسط منها أما الجزء الشمالي فلم يكن ضمن المدينة القديمة ، وهو يقع حالياً ضمن مدينة القدس . وتحيط التلال بأورشليم من ثلاثة جوانب (مزامير ١٢٥ : ٢) ، فإلى الشمال

الشرقي منها جبل «سكوبس» (ويدعى أيضاً جبل المشهد وجبل المشارف)، وإلى الشرق «جبل الزيتون» وإلى الجنوب «جبل المكبر». أما عن الوديان، فالى المشرق منها وادي «قدرون» وهو يقع بين المدينة وجبل الزيتون، ويسمى أيضاً وادي «يهوشافاط» (سفر يوشع ٣: ١٢) ويدعى بالعربية «وادي الست مريم»، وإلى الغرب منها بين سلسلة التلال الشرقية والغربية هناك وادي «تير وبيون» ويسمى بالعربية بالوادي، وإلى الغرب من سلسلة التلال الغربية هناك وادي «هنوم» ويسمى بالعربية «وادي الربابة».

اثبتت التنقيبات الأثرية أن المدينة ترجع بعهدا إلى عصر البرونز المبكر منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، وهي فترة نشوء دويلات المدن في فلسطين. ولكنها كانت في ذلك الحين صغيرة ودون أسوار، ومع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، تظهر في الموقع دلالات انقطاع سكني وحضاري، حصل على الأغلب نتيجة لاجتياح القبائل العمورية منطقة مصر والهلل الخصب، وقضائها على معظم المراكز الحضرية فيها. ثم انتعشت اورشليم مجدداً في مطلع عصر البرونز الوسيط، وظهرت المدينة اليوسية التي تم الكشف عن سورها الذي يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ١٨٠٠ ق. م^(١)، وهي الفترة التي ظهر فيها اسم اورشليم لأول مرة في النصوص المصرية.

وقد استطاعت التنقيبات الأثرية الأخيرة (حملة السيدة كاثلين كينيون بين عامي ١٩٦١ - ١٩٦٧) رسم حدود المدينة اليوسية على السلسلة الشرقية لتلال القدس (انظر الخريطة رقم ٩). أما المدينة نفسها فلم يبق منها شيء يذكر، وذلك بسبب استخدام حجارتها في بناء الطبقات السكنية التالية لها. ويبدو أن موضع السور الشرقي للمدينة كان محكوماً بنبع جيحون في وادي قدرون، الذي كان المصدر الأساسي لماء الشرب. فالسور يجب أن يكون قريباً من النبع لحمايته أثناء الحصار، ولكن يجب ألا يهبط كثيراً إلى الوادي كي

4- Kathleen Kenyon, Digging up Jerusalem, Ernest Ben, London, 1974, PP 76,83

لا يكشف المدينة والمدافعين عنها. وكان الوصول إلى النبع يتم عن طريق نفق حُفَر تحت الأرض يمر أسفل السور، تم الكشف عنه خلال التنقيبات^(٥)، وهذا النفق هو القناة المذكورة في الرواية التوراتية، والتي نفذت منها إلى داخل المدينة مجموعة اقتحام الملك داود (راجع سفر صموئيل الثاني ٥: ٨ وأخبار الأيام الأول ١١: ٦ - ٧).

وفي عصر البرونز الأخير، وفيما بين القرنين الرابع عشر والثالث عشر، تم تحديث المدينة الكنعانية باستعمال تقنية انشائية جديدة، حيث اقيمت على المنحدر الشرقي للتل مصاطب متدرجة بنيت من أحجار ضخمة، استخدمت كمساحات مستقرة لبناء البيوت الجديدة، فتم بذلك الافادة من المنحدر بطريقة مجدية، وتعمير بيوت كبيرة خلفت البيوت الوضيعة المبعثرة دون نظام. وهذه التقنية الهندسية كانت بحاجة دائمة إلى الصيانة والا انهيارت مع الزمن، ولذلك لم يأل كنعانيو اورشليم جهداً في اصلاحها، وأثار تلك الاصلاحات بادية في تلك البنية الجبارة، وكذلك أثار الانهيارات المتلاحقة غير أن البيوت التي شيدت فوق تلك المصاطب قد زالت تماماً، ولم يعثر المنقبون إلا على انقاض بيت واحد يعود بتاريخه إلى القرن السابع قبل الميلاد^(٦).

وفي الحقيقة، فإن اكتشاف هذه التقنية الانشائية في اورشليم، قد ساعد على فهم كلمة وردت في التوراة واختلف الدارسون والمترجمون في فهمها، وهي كلمة «ملو» العبرية التي تعني الملء أو التكميل. فبعد أن سيطر الملك داود على اورشليم، كان من أعماله الأولى اصلاح المدينة ابتداء من «الملو» إلى ما حولها (أخبار الأيام الأول ١١: ٨). ومن بين أعمال الملك سليمان الانشائية بناؤه الملو وسور اورشليم (الملوك الأول ٩: ١٥ و ١١: ٢٧)، وكذلك فعل حزقيا عندما كان يهيء المدينة للحصار الآشوري (أخبار الأيام

5- Ibid, PP. 84,93.

6- Ibid, PP. ٩4-97, 98-103.

الثاني ٣٢ : ٥). وقد اختلفت ترجمات التوراة إلى العربية في أمر كلمة الملو، فبينما ترك الآباء اليسوعيون الكلمة على حالها فقالوا «ملو»، قامت ترجمات أخرى باستعمال كلمة «القلعة» لاعتقادهم أن المكان كان حصيناً كقلعة، كما ظن البعض أن الملو هو ساحة الهيكل، والبعض الآخر أنه عبارة عن الأحجار التي ردمت لملء الفراغ بين المدينة اليبوسية على التل الجنوبي والهيكل على التل الأوسط واقامة البيوت هناك. أما الآن فمن الواضح أن الملو هو تلك المصاطب الهائلة التي بناها الكنعانيون على المنحدر الشرقي على هيئة سلسلة متتابعة من امتلاءات الحجارة الضخمة تتدرج من أسفل السور صعوداً نحو ذروة التل، وأن في تعبير «إصلاح الملو» أو «بناء الملو» الوارد في التوراة إشارة إلى هذه البنية التي ورثتها المملكة الموحدة عن الكنعانيين. فلقد كشفت التنقيبات^(٧) عن آثار واضحة لمصاطب إضافية بنيت في القرن العاشر (فترة داود وسليمان)، وعن اصلاحات وازافات فيما بين القرن العاشر والثامن.

وهنا نود التوقف قليلاً لعرض ما جاء به الصليبي حول كلمة الملو. فرغم وضوح النص التوراتي الذي يجعل من الملو منشأة تقع داخل اورشليم، فإن الصليبي، في حديثه عن اورشليم ومدينة داود، يجعل من الملو اسماً لموقع في عسير هو «الهامل»* في مرتفعات «رجال الملح» قرب «قعوة الصيان» التي هي «حصن صهيون» المختلف عن اورشليم (ص ١٨٠ - ١٨٢). وفي هذا مثال واضح عن مدى خسارة دارس التاريخ للإضاءات التي يلقيها على موضوعه علم الآثار، عندما يسقطه من حسابه.

كان الاستيلاء على اورشليم، وفق الرواية التوراتية، البداية الحقيقية للمملكة الموحدة ابان القرن العاشر قبل الميلاد، لأنها كانت تشكل مع

7- Ibid, P 103.

* - ان قرن كلمة «الملو» هنا بموقع «الهامل» هو مثال واضح على مدى مرونة منهج كمال الصليبي في مقابلة أسماء الأماكن.

«جازر» و«عجلون» خطأ كنعانياً يفصل بين القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية. ورغم ذكر التوراة للعديد من الأعمال الانشائية الدفاعية التي قام بها داود (راجع صموئيل الثاني ٥ : ٩ وأخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٥)، إلا أن أياً من هذه الأعمال لم تقم عليه البينة الأثرية. ويبدو أن كل ما فعله داود كان إصلاحات جزئية على السور اليبوسي الذي بقي على حاله حتى القرن الثامن قبل الميلاد^(٨).

وعندما خلف الملك سليمان أباه داود، كانت الأمور قد استقرت نسبياً للمملكة الموحدة، داخلياً وخارجياً، فالتفت سليمان إلى أعمال التشييد والبناء ونشاطات الديبلوماسية. فإضافة إلى إعادة بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي «حاصور» و«مجدو» و«جازر»، فقد التفت إلى أورشليم فبنى هيكل الرب خارج أسوار المدينة الكنعانية، وبنى قصوراً لسكنه وإدارته وزوجاته (الملوك الأول ٥ - ٦ وأخبار الأيام الثاني ٢ - ٤).

وبما أن المدينة السليمانية قد زالت مع المدينة اليبوسية بسبب اقتلاع الحجارة لاستعمالها في إعادة البناء، كما أسلفنا، فإن علم الآثار لا يستطيع إعطاء فكرة عن أبنية سليمان وقصوره الفارهة التي أطنب كتاب التوراة في وصفها*. أما معبد سليمان فموقعه مؤكد، وقد بني خارج المدينة اليبوسية على التل الأوسط، ثم تم وصل سور المعبد بسور المدينة، وبذلك اكتسبت أورشليم مساحة جديدة إلى الشمال في المنطقة الواقعة بين الهيكل والمدينة (انظر خريطتنا رقم ١٠). ويعتقد المنقبون أن أبنية سليمان قد أقيمت على هذه المساحة الجديدة، وذلك لاستحالة إضافتها إلى المدينة الكنعانية بسبب ضيقها وازدحامها. وقد استطاعت التنقيبات الأثرية تحديد خط السور الإضافي، وأمكن أرجاع تاريخ بنائه إلى النصف الثاني من القرن العاشر قبل

8- Ibid, P.100

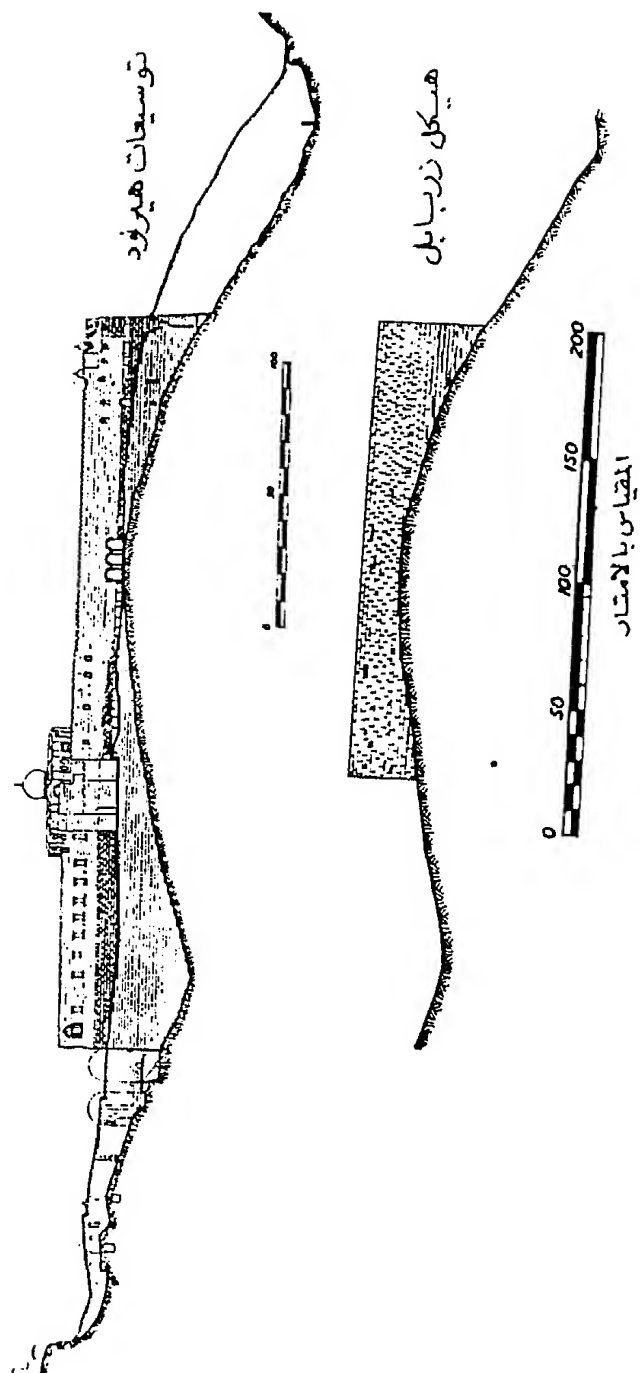
* - هذا إذا كانت هذه الأبنية قد وجدت أصلاً.

الميلاد، أي إلى فترة حكم داود وسليمان^(٩).

وتتطابق الرواية التوراتية حول موقع المعبد مع نتائج التنقيب الأثري، فالموقع قد تم اختياره وتحديدته خارج المدينة من قبل الملك داود. فبعد أن أرسل الرب ملاكه بالأويشة الفتاكة على إسرائيل فقتلت منهم سبعين ألفاً، ندم على أتباعه الشر، وأمر الملاك بالتوقف بعد أن وصل تخوم مدينة أورشليم عند بيدريملكه رجل كنعاني اسمه «أرنان اليبوسي». ورفع داود عينيه ورأى عند الأفق ملاك الرب واقفاً بين السماء والأرض وسيفه مسلول بيده ومحدودة على أورشليم، فسقط هو والشيخ على وجوههم، واسترحم داود الرب من أجل خلاص المدينة، فأمره الرب أن يقيم مذبحاً في المكان الذي وقف الملاك عنده. فصعد داود إلى أرنان اليبوسي وكان يدرس حنطة في بيده، واشترى منه المكان وأقام مذبحاً هناك وقال هذا هو بيت الرب الإله، وهذا هو مذبح المحرقة. ثم بدأ بتحضير ما يلزم لبناء الهيكل على أن يكمله من بعده ابنه سليمان (راجع أخبار الأيام الأول ٢١: ٩ - ٣٠ و٢٢: ١ - ٥).

لم يبق من هيكل سليمان ولا من أسواره شيء عقب التدمير البابلي للمدينة عام ٥٨٧. ولكن هناك قسم لا بأس به من أساسات سور الهيكل الثاني الذي بناه «زبابل» الذي عينه الفرس والياً على أورشليم، بعد سماحهم بعودة من يرغب إلى أورشليم، وانتهى من بنائه عام ٥١٥ ق.م. وقد استمر الهيكل الثاني قائماً إلى عهد «هيرود الكبير» ملك منطقة «اليهودية» الذي حكم بمعونة الرومان في أواخر القرن الأول قبل الميلاد، بعد أن صارت سورية اليهم، ثم قام هيرود بتوسيع الهيكل والإضافة إليه حتى بلغت مساحته ضعف المساحة الأصلية تقريباً (انظر المخطط رقم ١). ولكن معبد هيرود قد لقي مصير هيكل سليمان القديم إذ تم تدميره على يد الرومان خلال حملتهم على أورشليم عام ٧٠ ميلادية، ولم يبق منه سوى قسم من

9- Ibid, PP. 110-116



المخطط رقم (١) - توسيعات هيرود على هيكل زربابل

أساسات سوره ما زالت واضحة اليوم بعد ازالة الأتربة عنها، وأرضيته التي أقيم عليها المسجد الحرام وقبة الصخرة. والجزء الباقي من أساسات سور هيرود مؤلف من قسمين، قسم يعود إلى أواخر القرن السادس قبل الميلاد وهو ما تبقى من سور هيكل «زربابل» وقسم يعود إلى القرن الأول الميلادي وهو أساس سور هيرود نفسه. ويلتقي الأساسان بشكل واضح عند نقطة تقع على مسافة ٣٣ متراً تقريباً إلى الشمال من الزاوية الجنوبية الشرقية لسور الحرم الحالي^(١٠).

في الفترة التي تلت انهيار المملكة الموحدة وتحول اورشليم إلى عاصمة لمملكة يهوذا الجنوبية، كشفت التنقيبات عن عدة اصلاحات في سور المدينة واضافات إليه، أهمها تلك التي تمت حوالي عام ٧٠٠ ق.م، والتي لاحظ المنقبون أن بعضها قد تم على عجل، إلى درجة أن أحد الأسوار قد رفع دون أساسات راسخة مما يدل على أنه قد بني في حالة الاستعداد للحرب واقترب الحصار^(١١). هذه الاصلاحات العاجلة وتاريخها تنطبق على الاصلاحات التي قام بها الملك حزقيا عندما كان يستعد لمواجهة قوات الملك الآشوري سنحاريب الذي حمل على يهوذا حوالي عام ٧٠٠ ق.م، وحاصرت قواته اورشليم حصاراً طويلاً (انظر الصفحة ١١٦ سابقاً). نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢: ٥ [وتشدد - حزقيا - وبني كل السور المنهدم وأعلاه إلى الأبراج، وسوراً آخر خارجاً، وحصن القلعة مدينة داود، وعمل سلاحاً بكثرة وأتراساً...].

على أن أهم أعمال حزقيا الباقية إلى الآن من تلك الفترة، هو جرمياه نبع «جيحون» في قناة تمر تحت مدينة اورشليم إلى الوادي المركزي (تبريون) على الميل الغربي للتل لتصب في بركة «سلوام»، في موقع محمي يمكن الدفاع

10- Ibid, PP. 107-112

11- Ibid, P 151

عنه ، وذلك لمنع الآشوريين من السيطرة على مصدر المياه الوحيد الذي يغذي المدينة نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣٠ [وحزقيا هذا ، سد مخرج مياه جيحون الأعلى وأجراها تحت الأرض إلى الجهة الغربية من مدينة داود . وأفلح حزقيا في كل عمله . .] .

وبركة «سلوام» لا تزال قائمة اليوم في نهاية السفح الغربي للتل الجنوبي الذي كانت اورشليم قائمة عليه ، واسمها اليوم بركة «سلوان» . أما القناة الواصلة بين نبع جيحون على السفح الشرقي (واسمه اليوم نبع العذراء) وبركة سلوان على السفح الغربي ، فقد تم اكتشافها عام ١٨٦٧ من قبل المنقب «وارن» Warren ، ونظفت من قبل المنقب «باركر» Parker عام ١٩١١ . ثم اعادت حملة السيدة كاثلين كينيون ١٩٦١ - ١٩٦٧ تنظيفها واعادتها إلى ما كانت عليه منذ ٢٧٠٠ عاماً . هذا ويتطابق مجرى هذه القناة المكتشفة مع الوصف الذي أعطاه سفر أخبار الأيام الثاني (انظر خريطتنا رقم ١١) . ويستطيع أي زائر اليوم أن يسير خلالها متصبب القامة أو منحنيّاً مستعملاً الأنوار الكشاف^(١٢) .

وقد عثر في نفق القناة على نقش حجري يصف لحظة انتهاء حفر القناة بالتقاء فريقَي الحفر الذين انطلقا كل من اتجاه . تقول ترجمة النقش : [بينما النحاتون يرفعون فأس الحفر ، كل تجاه رفيقه ، وبينما بقي ثلاثة أذرع للنحت ، سُمع صوت رجل ينادي أخاه لأنه وجد ثقباً في الصخر من ناحية اليمين . وفي يوم انثقاله ، ضرب النحاتون رجل أمام رجل ، فأس على فأس . وسالت المياه من النبع إلى البركة مسافة مائتين وألف ذراع ومائة ذراع . وكانت قمة الجبل فوق رأس النحاتين]^(١٣) .

وهنا سنتوقف قليلاً لعرض وجهة نظر الصليبي في موضوع قناة سلوام

12- Ibid, PP.151-158

13- إ. ولفنسون ، تاريخ اللغات السامية ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٠ . ص ٨٣ .

حيث يقول في الصفحة ١٠٧ من كتابه : [عثر على نقش صخري في سلوان ، قرب القدس ، يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معاً . ولوقال النقش ان هذا النفق حفر في عهد حزقيا الملك ، لكان فيه تأكيد واضح لنصي سفر الملوك الثاني ٢٠ : ٢٠ وأخبار الأيام الثاني ٣٢ : ٣٠ اللذين يتحدثان عن بركة وقناة أنشأهما الملك حزقيا ، ملك يهوذا . لكن الواقع هو أن النقش المذكور لا يشير إلى أية أسماء ، سواء كانت أسماء أشخاص أم أسماء أمكنة ، ولذلك لا تجوز نسبته إلى عهد حزقيا ، كما فعل الباحثون التوراتيون زيفاً . ويبدو أن هؤلاء الباحثين لم يأخذوا في اعتبارهم أن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة ، أينما كان ، ومتى ظهرت الحاجة إليها . والواقع أن نقش السلوان لا يشير حتى إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية ، لأنه لا يذكر اسم الموقع] .

في المقطع أعلاه ، مثال على طريقة الصليبي في تقديم نصف المعلومات اللازمة للقاريء غير المتخصص من أجل الحكم على قضية باللغة التخصص . فهو يركز على (النقش الذي يشرح كيف جرى حفر قناة مائية هناك عن طريق التنقيب من نهايتي النفق في آن معاً) . ولا يذكر أن القناة المائية التي يتحدث عنها النقش قد تم اكتشافها ، وأنها تجري تحت مدينة أورشليم القديمة من نبع جيحون في الوادي الغربي إلى طرف المدينة في الوادي الشرقي تماماً كما هو مذكور في النص التوراتي ، وهو يقول إن النقش قد عثر عليه (في «سلوان» قرب القدس) ، ولا يقول إن النقش قد عثر عليه داخل قناة السلوان التي تتسع بكاملها ضمن مدينة القدس اليوم . ثم يلصق التهم بالباحثين التوراتيين ممن لا ناقة لهم ولا جمل في هذه القضية التاريخية الأثرية ، ويتغاضى عن جهد المنقبين الأوائل الذين استكشفوا القناة من أولها إلى آخرها زحفاً على البطون ، لأنها كانت مليئة بالأتربة والنفائيات التي تراكمت عبر العصور ، دون أن يكونوا متأكدين من خروجهم سالمين من الجهة الأخرى . ثم يقول (بأن الأقنية المائية كانت تحفر في كل الأزمنة أينما كان ومتى دعت الحاجة

إلى ذلك)، وهذا صحيح تماماً ولكن قناة السلوان متفردة في تقنياتها وطريقة حفرها ولا نظير لها في مدن الشرق القديم طراً، وإن وصف قناة أورشليم الوارد في النص التوراتي لا ينطبق إلا على القناة المكتشفة تحت موقع أورشليم القديمة. وهو يقول أخيراً بأن (نقش السلوان لا يشير إلى أن القدس الحالية هي فعلاً أورشليم التوراتية لأنه لا يذكر اسم الموقع). ونحن مستعدون للموافقة جدلاً على هذه النقطة، لو أن نقش السلوان لم يعثر عليه داخل القناة، ولو أن البيئة الأركيولوجية لم تقم على وجود هكذا قناة.

بعد نجاة أورشليم من الحصار الآشوري عام ٧٠٠ ق.م. قبض لها أن تستمر قرابة قرن آخر من الزمان كعاصمة لمملكة صغيرة شبه مستقلة، خصوصاً بعد زوال آشور وصعود المملكة البابلية الجديدة. غير أن نبوخذ نصر حمل على مملكة يهوذا عام ٥٨٨ ق.م. وأخذ أورشليم، ثم حمل عليها مرة أخرى وهدم أورشليم والهيكل عام ٥٨٧ ق.م. (انظر الصفحة ١٢١ سابقاً). وهنا تأتي البيئة الأركيولوجية لتثبت ما ورد من تفاصيل عن دمار أورشليم. فقد أظهرت التنقيبات الأثرية الأخيرة خراب سور أورشليم في أوائل القرن السادس قبل الميلاد، وانهار المصاطب (الملق) التي لم تستعمل بعد ذلك قط. وفي بقية مدن يهوذا ظهرت آثار واضحة على الانقطاع الحضاري دامت قرابة قرن ونصف من الزمان^(١٤).

أما فيما يتعلق بإعادة بناء الهيكل والمدينة بعد العودة من السبي البابلي، فقد تم العثور على سور المدينة الجديد الذي بناه «نحميا» والذي يرجع بتاريخه إلى أواسط القرن الخامس قبل الميلاد، وكذلك على جزء لا بأس به من سور الهيكل الذي بناه زربابل، وكذلك على أسوار وتحصينات المكابيين وفيها

14- Katheen Kenyon, Digging up Jerusalem op cit. PP. 166-172

البرج الذي يدعى اليوم خطأ ببرج داود، وعلى جدران معبد هيرود الموسع^(١٥).

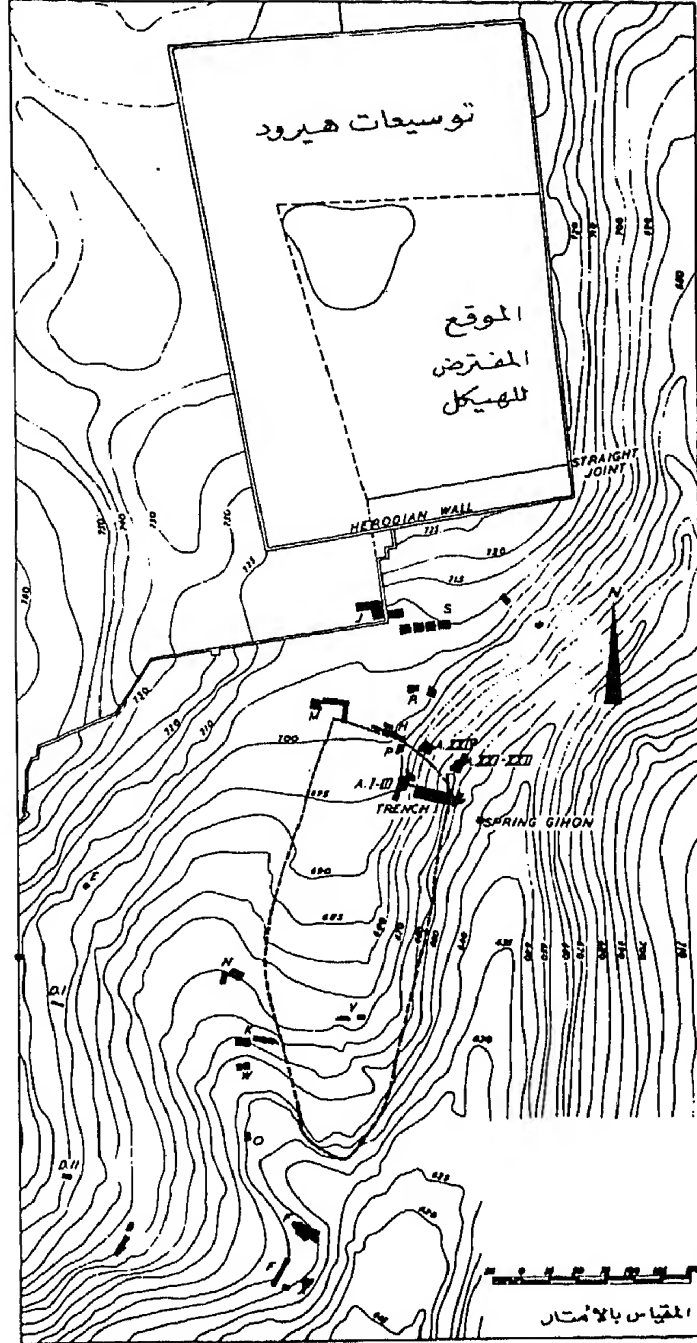
في عهد هيرود الذي عينه الرومان ملكاً على «اليهودية» اكتمل تقريباً انزياح أورشليم نحو مدينة القدس الحالية. وقد أظهرت التنقيبات آثار أسوار هيرود الجديدة، واستطاعت رسم صورة أقرب إلى الدقة لأورشليم في نهاية القرن الأول قبل الميلاد. كما تم العثور على العديد من البيوت والأبنية التي ترجع إلى تلك الفترة، ومن بينها جزء من قصر هيرود نفسه. مدينة هيرود هذه هي مدينة الأناجيل، وهي المدينة التي تعرضت للدمار الأخير على يد القائد الروماني «تيتوس» الذي هدم الهيكل وسوى أبنية أورشليم بالتراب. وقد كشفت التنقيبات عن آثار الدمار الكبير الذي حل بالمدينة أواخر القرن الأول الميلادي، واستعمال حجارتها لبناء المدينة الرومانية «إيليا كابيتولينا» فوق الخرائب عام ١٣٥ ميلادية. وأسوار هذه الأخيرة تتطابق إلى حد كبير مع الأسوار التي بناها للقدس السلطان سليمان القانوني، وهي الأسوار التي ما تزال قائمة إلى اليوم^(١٦).

وبعد، هذه لمحة عن اركيولوجيا أورشليم لا يتسع كتابنا لأطول منها، وهي تختصر ألوف الصفحات ومئات التقارير الأثرية وجهود أجيال متعاقبة من علماء الآثار، ولعلنا نشعر الآن أن نقل موقع أورشليم إلى موقع «آل شريم» في سراة عسيرة أو موقع القريتين التوأمين «أروي» و«آل سلام» في غرب العربية يتطلب أكثر مما يستطيع منهج مقارنة أسماء المواقع تقديمه.

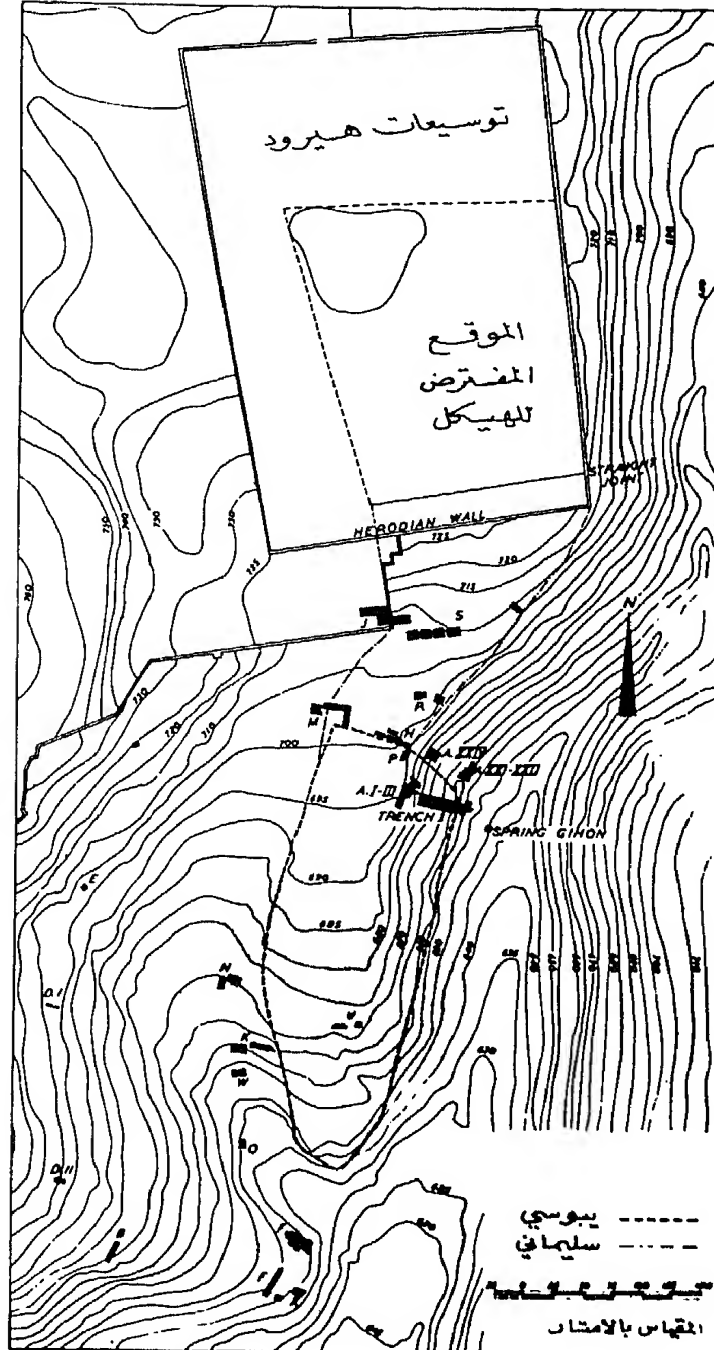
15- Ibid, PP 172-204

16- Ibid PP 236-255

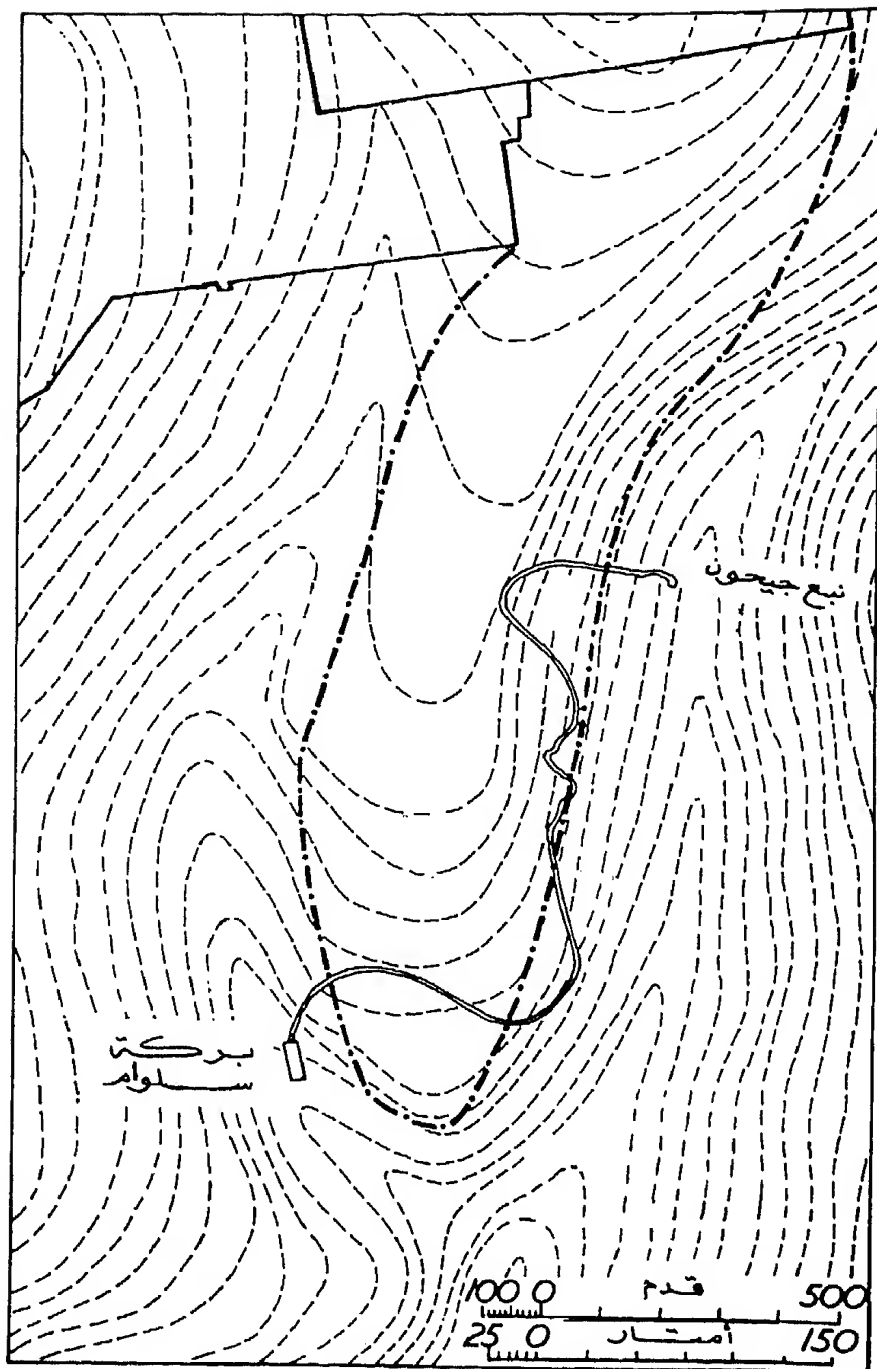
- K. Kenyon, the Bible And Recent Archaeology, Colonnade Books, London 1978, ch.6



الخارطة رقم (٩) - أورشليم اليوميه



الخارطة رقم (١٠) - إضافات سليمان



الخارطة رقم (١١) - قناة سلواام

٥ - السامرة كوزموبوليتانية كنعان

السامرة، هي المدينة الوحيدة التي يعزو كتاب التوراة بناءها للاسرائيليين. أما المدن الأخرى فجميعها مدن كنعانية مفرقة في القدم سكن فيها الاسرائيليون إلى جانب أهلها القدماء دون أن يقدرُوا على طردهم منها. ورغم فتوحات يشوع المزعومة، ورغم قوة دولة داود وسليمان التي لا نملك عنها معلومات تاريخية مؤكدة، فإن مدناً كنعانية مثل مدينة «جازر» قد بقيت خارج نطاق المملكة الموحدة حتى صعد إليها فرعون مصر فأخذها وقدمها هدية إلى سليمان. نقرأ في سفر الملوك الأول ١٦: ٩ [صعد فرعون ملك مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاهها مهراً لابنته امرأة سليمان].

وقد بنيت السامرة لتكون عاصمة لمملكة اسرائيل بعد أن تنقل ملوك المملكة الشمالية بين عدد من العواصم المؤقتة. فعقب موت الملك سليمان واستقلال الأسباط العشرة عن اورشليم والهيكل، استقر الملك «يربعام» أول ملوك اسرائيل في مدينة «شكيم». ولكنه بعد عدة سنوات تركها إلى مدينة «فنونيل»، ثم عاد واستقر في مدينة «ترصه» التي بقيت عاصمة لمملكة اسرائيل مدة أربعين سنة. وفي ترصه بدأ الملك «عمري» حكمه عام ٨٧٨ ق. م، بعد أن اغتصب السلطة من «زمرى». ويعتبر عمري بمثابة المؤسس الثاني لمملكة اسرائيل، فهو الذي أمن لها الاستقرار والازدهار وكرس ارتباطها حضارياً

بالعالمين الآرامي والفينقي ، وبنى لها عاصمة جديدة على تل اشتره من رجل يدعى «شامر» وأسماها «السامرة» (الملوك الأول ١٦ : ٢٤).

ورغم أن بناء مدينة جديدة هو، من حيث المبدأ، فرصة من أجل اظهار الطابع الحضاري الخاص لمن بنوها، إلا أننا نفاجأ في موقع السامرة بمدينة لا ترتبط فقط بأرضيتها الكنعانية الفلسطينية فحسب، بل وبالعالم الكنعاني الأوسع وبالعالم الآرامي الزاخر، مما يجعلها بحق «كوزوموليتانية» كنعان (Cosmopolitan) * . ذلك أن الخيار الديني للأسباط العشرة التي شكلت مملكة اسرائيل الشمالية، كان يحمل في الوقت نفسه خياراً حضارياً متكاملًا . ومنذ أن انفصلت مملكة اسرائيل عن هيكل اورشليم، حيث كانت الديانة اليهودية آخذة بالتشكل، وتبنت بشكل كامل ديانة كنعان، فقد تبنت أيضاً جميع مظاهر الحضارة الكنعانية العميقة الجذور، وعاشت في إطارها طيلة حياتها القصيرة حتى دمارها الأخير وسبي الأسباط العشرة دون رجعة عام ٧٢٠ ق.م.

ولقد تم تكريس الانفصال الديني عن اورشليم منذ الأيام الأولى لتشكيل مملكة اسرائيل، عندما قام «يربعام» أول ملوكها ببناء معبدين كنعانيين لشعبه وضع فيهما تمثالاً على هيئة العجل، وهو رمز الاله بعل، وصرف من خدمته كهنة اللاويين الذين كانوا مكرسين للخدمة الدينية في اورشليم . نقرأ في سفر الملوك الأول ١٢ : ٢٨ - ٣١ [فاستشار الملك وعمل عجلي ذهب وقال لهم . كثير عليكم أن تصعدوا إلى اورشليم . هوذا آلهتك يا اسرائيل الذين أصعدوك من مصر . ووضع واحداً في بيت إيل وجعل الآخر في دان . . وبنى بيت المرتفعات وصير كهنة من أطراف الشعب لم يكونوا من بني لاوي] . وبعد يربعام سار جميع ملوك بني اسرائيل في طريقه خلا واحداً هو

* - الكوزوموليتاني، هو العالمي غير المحلي الذي يحمل خصائص شمولية .

الملك «ياهو» الذي قضى على بيت آخاب وقام باصلاح ديني لم يقبض له الاستمرار. ولم يكن موقف عامة الناس في الدولة مغايراً لموقف ملوكهم، مما استجر عليهم وعلى حكامهم اللعنات التي امتلأت بها أسفار التوراة. ولم يكن الدمار الأخير لدولتهم إلا عقاباً: [وسلك بنو اسرائيل في جميع خطايا يربعام التي عمل. لم يحيدوا عنها. حتى نحى الرب اسرائيل من امامه كما تكلم عن يد جميع عبيده الأنبياء، فسبى اسرائيل من أرضه إلى آشور إلى اليوم] الملوك الثاني ١٧ : ٢٢ .

وقد جاءت نتائج التنقيب الأثري في موقع السامرة في اتفاق مع الرواية التوراتية. فمدينة السامرة، هي الموقع الوحيد في فلسطين الذي بني على التربة العذراء دون طبقات آثارية سابقة عليه. كما أثبتت أساليب التأريخ الحديثة في علم الأركيولوجية أن المدينة قد بنيت في النصف الأول من القرن التاسع قبل الميلاد، وهو تاريخ بناء الفعلي من قبل الملك عمري الذي حكم اثنتي عشر سنة منذ عام ٨٨٠ ق.م. ومن ناحية أخرى، فقد أمكن التعرف على عاصمة عمري السابقة ترصه في موقع «تل الفرع» على مسافة ستة أميال شمال شرقي شكيم (نابلس). واتضح من التنقيبات أن مدينة ترصه قد هجرت في نفس الوقت تقريباً الذي بنيت فيه مدينة السامرة، وأن العديد من أبنيتها التي كانت قيد التشييد قد أوقف العمل بها وتركزت على حالها. ويبدو أن الملك عمري قد بدأ بتحضير ترصه لتكون عاصمته، ثم تحول عنها إلى موقع السامرة الذي يقدم فرصاً أوفر للاتصال مع فينيقيا وآرام^(١٧).

يقع تل السامرة قرب الممر الرئيسي الذي يصل شمال فلسطين بجنوبها، على مسافة عشرة أميال شمال غرب الممر الفاصل بين جبل جرزيم وجبل عيبال، ويشرف على واد عريض يتجه نحو البحر مما يؤمن للموقع اتصالاً

17- Katheen kenyon, Royal Cities Of The Old Testament, Barrie And Jenkins, London 1971 PP. 71- 89.

سهلاً مع فينقيا، بينما يؤمن مرج ابن عامر في الشمال الاتصال مع آرام، وقد بدأت أولى التنقيبات في التل من قبل البر وفور G.R.Reisner لحساب جامعة هارفارد بين عامي ١٩٠٨ و ١٩١٠، ثم تابع التنقيب السيد J. W. Crowfoot لحساب هارفارد وصندوق التنقيب في فلسطين والأكاديمية البريطانية ومدرسة علم الآثار البريطانية في القدس، وذلك بين عامي ١٩٣١ و ١٩٣٥. وأخيراً الدكتور J.B.Hennessy عام ١٩٦٧^(١٨).

ولقد تم الكشف في المنطقة المتوضعة على قمة التل، عن القطاع الملكي الذي يضم القصور والأبنية الادارية، وكلها ذات طابع كنعاني واضح سواء في المخطط أم في طريقة البناء والحجارة المنحوتة المستخدمة فيه. وتكاد طريقة نحت الحجارة المستعملة في سور القطاع الملكي أن تكون نسخة مطابقة للحجارة المستخدمة في مدن كنعانية أخرى، وخصوصاً أوغاريت القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد تمكن النقبون في المنطقة من الكشف عن مرحلتين في البناء، الأولى تعود إلى الملك عمري مؤسس المدينة، والثانية إلى ابنه آخاب الذي تابع عمل أبيه^(١٩). وآخاب هذا معروف في التوراة بعلاقاته الوثيقة مع فينقيا التي أدت أخيراً إلى زواجه من «إيزابيل» ابنة ملك صور، التي كرست بشكل نهائي عبادة الآلهة الكنعانية في اسرائيل (انظر سفر الملوك الأول ١٦ : ٣١ - ٣٣ و ١٨ : ٤ و ١٩).

ولعل أهم ما عثر عليه في خرائب القصر المعزول آخاب، كمية كبيرة من المنحوتات العاجية البارزة، مما تزين به قطع الأثاث والجدران. وبذلك توضح المقصود «بقصر العاج» الذي يورد سفر الملوك الأول ٢٢ : ٣٩ أن الملك آخاب قد بناه في السامرة، فالبناء المقصود ليس بيتاً حجارته من عاج، وهو أمر

18- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, PP 340-41

19- K Kenyon, Royal Cities , op. cit, ch. 7

مستحيل من الناحية العملية، بل هو قصر رصعت كل مفروشات الخشبية وأجزاء لا بأس بها من جدرانه بمنحوتات عاجية. وقد عثر على الجزء الأعظم من هذه المنحوتات العاجية في طبقة الحرائق التي يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثامن، أي إلى التدمير الآشوري لمدينة السامرة عام ٧٢١ ق. م ومعظمها قد نالت منه النيران وتركت قطعاً متشظية وفي حالة هشة. وقد تبين من الدراسة الفنية لعاجيات السامرة أنها تنتمي إلى المدرسة الفينيقية وتربطها صلات قريى واضحة مع منحوتات مماثلة عثر عليها في أنحاء متفرقة من سورية، وخصوصاً في موقع «ارسلان طاش»، أي «حداتو» القديمة في الشمال السوري^(٣٠).

وعاجيات السامرة، تستحق أن نتوقف عندها وقفة قصيرة، لأنها تنتمي إلى تقليد فني سوري مغرق في القدم كان شائعاً في كل المراكز الحضرية في بلاد الشام، وأقدم أمثلة عليه جاءتنا من مطلع الألف الثاني قبل الميلاد من «جيبيل» ومن «ايلا» ومن «الالاخ». وفيما بعد أفاضت تنقيبات «أوغاريت» بمجموعة ضخمة من هذه العاجيات التي تنتمي إلى القرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، كما نعرف من نص أوغاريتي أن دوطه الملكة «أخات ميلكو» كانت تضم أسرة وكراسي ومساند قدمين مطعمة بالأشكال العاجية. ومن الألف الأول قبل الميلاد وصلتنا عدة مجموعات من المنحوتات العاجية، أهمها مجموعة «ارسلان طاش»، كما توفر من الأدلة ما يشير إلى وجود مراكز متعددة في بلاد الشام لانتاج هذه المنحوتات أهمها «كركميش» و«شمال» و«تل حلف» و«أرفاد» و«حماة» و«دمشق». ورغم أن هذه العاجيات تحمل تأثيرات واضحة من مصر وبلاد الأناضول، حيث تأثرت المناطق الساحلية بالفن المصري والشمالية بالفن الحثي، إلا أنها جميعاً تنتمي إلى مدرسة سورية واضحة ذات اتجاهات ثلاثة، فمدرسة شمالية وأخرى جنوبية وثالثة ساحلية.

وقد تم العثور على قطع من هذه المنحوتات العاجية السورية في مناطق بعيدة عن منشئها مثل إيران والأناضول والبر اليوناني ، مما يشير إلى مدى تأثير الفن السوري في الثقافات المجاورة ، ومدى نشاط التجارة السورية في ذلك الوقت أما مجموعة المنحوتات الكبيرة التي عثر عليها في موقع «نمرود» عاصمة آشور، فقد تبين أنها تنتمي جميعها إلى المدرسة السورية وأن معظمها قد جاء إلى آشور كأسلاف حرب، وهو ما تؤكد النصوص الآشورية التي تتحدث عن أسلاف العاجيات التي أتت بها الحملات الآشورية من بلاد الشام⁽²¹⁾ .

لم تدم حياة السامرة، وفق الرواية التوراتية، أكثر من قرنين من الزمان . فبعد الهجوم الواسع الذي شنه تغلات فلاصر الثالث على مملكة إسرائيل ، تلبية لاستغاثة «آحاز» ملك يهوذا الذي كان يتعرض لحملة مشتركة من دمشق والسامرة ، جاء شلمنصر الخامس فحاصر السامرة عام ٧٢٤ ق. م ، ولكنها لم تسقط إلا في عهد خليفته صارغون الثاني عام ٧٢١ ق. م ، وتأتي نتائج التنقيبات الأثرية في اتفاق مع الرواية التوراتية ، إذ تم العثور على طبقة سميكة من الانقاض والحرائق تعود إلى أواخر القرن الثامن قبل الميلاد حجبت مدينة آخاب التي لم يبق منها جدار واحد فوق الأرض . ويبدو أن الذين استولوا في الموقع ، من الشعوب التي أحلها الآشوريون محل المسييين ، لم يُسمح لهم بالتوطن في الموقع المدمر، بل في أسفل التل ، لأن الموقع قد بقي خالياً من آثار الاستيطان البشري مدة طويلة بعد ذلك⁽²²⁾ .

وبعد ، إن التعرف على مدينة السامرة والكشف عن قصورها وأبنيتها الرسمية وأعمالها الفنية ، هو فصل من أمتع فصول علم الآثار في فلسطين ، غير أن مقاصد كتابنا هذا لا تسمح بتقديم أكثر مما قدمناه من لمحة موجزة ووافية .

21- Irene Winter, Ivory Carving, (in: From Ebla To Damascus Smisthonian Ins, Washington, 1985) PP 339-346

22- K Kenyon, Royal Cities, Op Cit, ch. 10

وفي الحقيقة فإن موقع السامرة هو مثال ميداني واضح عما يمكن لعلم الآثار الحديث تقديمه في مجال التعرف على موقع قديم بثقة مطلقة . ومع ذلك فإن كمال الصليبي لم يتوقف أبداً عند المسألة الأثرية لموقع السامرة، بل ترك التعرف عليه كلياً لمنهجه في مقارنة أسماء الأماكن، إذ يقول: [وقد أقام ملوك اسرائيل الذين خلفوا يربعام عواصم لأنفسهم أولاً في ترصة ثم في يزريعل ثم في السامرة. وكانت هذه الأخيرة مدينة قام ملوك اسرائيل أنفسهم ببنائها على هضبة قريبة من يزريعل اشتروها من «شمر». ومن هنا جاء الاسم الذي أعطوها، وهو بالعبرية «شمرون»... والأكثر احتمالاً هو أن «شمر» المالك الأصلي للهضبة التي بنيت فوقها السامرة (شمرون) لم يكن شخصاً بل قبيلة «شمران». وقد استمر وجود اسمها في غرب شبه الجزيرة العربية إلى يومنا هذا. والأرض الحالية لشمرون تضم الأراضي الداخلية من منطق القنفذة وما يليها شرقاً، وتمتد بلاد شمرون هذه عبر الجرف والشق المثالي إلى وادي بيشه. وكانت السامرة بلا شك، ما هو اليوم قرية شمرون في منطقة القنفذة، على مسافة ما صعوداً من «آل الزرعي» أو «يزريعل». وللحقيقة فإن شمرون الحالية تقوم بميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة، وقد عانيتهما بنفسني] (ص ٢٠٠ - ٢٠١).

وهكذا، ومقابل كل نتائج التنقيب الأثري في تل السامرة، فإن ما يقدمه لنا الصليبي من وصف اركيولوجي لموقع «شمران» في منطقة عسير هو أنها «تقوم بميزة على هضبة وحدها، تماماً كما هي موصوفة في التوراة».

٦- مجدو والمُدن الملكيّة

بعد عاصمتي الشمال والجنوب، نأتي إلى ثلاث مدن ملكية أخرى أخبر عنها كتاب التوراة، وهي مدن «مجدو» و«حاصور» و«جازر»، وهذه تشترك في كونها مدناً كنعانية قديمة أعاد الملك سليمان بناءها بعد أن كانت مهجورة، وحولها إلى مراكز إدارية تابعة له مباشرة، بعيداً عن الولاءات القبلية (سفر الملوك الأول ٩: ١٥).

مجدو:

تم التعرف على مجدو في «تل المتسلم» الذي يقع على مسافة عشرين ميلاً إلى الجنوب الشرقي من مدينة «حيفا» الساحلية، في الطرف الجنوبي من سلسلة الجبال التي تنتهي بجبل الكرمل. وقد بدأت التنقيبات في الموقع من قبل المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو بإشراف عالم الآثار الكبير جيمس بريستد، وذلك فيما بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٣٩، واستمرت من بعده إلى خمسينيات هذا القرن^(٣). وقد دلت التنقيبات في الطبقات السفلى لموقع تل المتسلم على أن استيطان الموقع قد بدأ مع عصر البرونز الأول حوالي ٣٠٠٠

23- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P. 335

ق. م، ثم توسعت مجدوت تدريجياً لتغدو إحدى مدن فلسطين الكبرى خلال عصر البرونز الثاني والثالث⁽²⁴⁾. وقد ورد أول ذكر تاريخي لها في مراسلات مدينة «ماري» ابان القرن الثامن عشر قبل الميلاد، ثم تواتر ذكرها بعد ذلك في سجلات الشرق القديم، مما قدمناه في الباب السابق.

في طبقات الموقع العائدة لنهاية عصر البرونز وبداية عصر الحديد، تتطابق نتائج التنقيب الأثري مع الرواية التوراتية. فمدينة مجدوت قد تهدمت وهجرت في القرن الثاني عشر قبل الميلاد، وحدث في الموقع فراغ استمر إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أي إلى الفترة السليمانية، حيث أعيد بناء المدينة. وقد أمكن أرجاع سور المدينة الجديد وتحصيناتها وبواباتها وعدد من قصورها إلى تلك الفترة. وفيما يتعلق بالبوابة والأبراج الدفاعية المتصلة بها، وجد المنقبون تماثلاً تاماً بينها وبين بوابات وأبراج المدينتين الملكيتين الآخرين حاصور وجازر، وتطابقاً في تاريخ بنائها، مما يشير إلى أن المدن الثلاث قد بنيت من قبل سلطة مركزية واحدة ولغرض واحد. أما أسلوب البناء فكنعاني واضح، يتماثل مع ما نراه بشكل خاص في مدن فينيقيا الساحلية. وتظهر القصور الجديدة التي بنيت في القرن العاشر تماثلاً واضحاً في التصميم وأسلوب البناء مع القصور التي كشف عنها في مناطق متفرقة من سورية الداخلية⁽²⁵⁾.

وقد بنيت المدينة لتكون مركزاً إدارياً ملكياً، ذلك أن الأبنية التي تم الكشف عنها داخل السور كانت عبارة عن قصور ذات طابع رسمي إداري لا سكني. ورغم أن بعض الأبنية السكنية القليلة كانت قائمة داخل السور خلال الفترة السليمانية، إلا أنها اختفت خلال القرن التاسع بعد أن صارت

24- Ibid, pp. 66-76

25- K. Kenyon, Royal Cities, op cit, PP 53-66

مجدو إلى المملكة الشمالية عقب الانقسام ، وتم تشييد قصور جديدة تحمل نفس الطابع ابان فترة حكم الملك آخاب^(٢٦) .

خلال النصف الأول من القرن الثامن قبل الميلاد، تم بناء سور جديد للمدينة، وذلك خلال فترة تزايد النشاط العسكري الآشوري في بلاد الشام والحملات المتوالية على المنطقة التي أدت إلى دمار مجدو عام ٧٣٢ ق.م، على ما تخبرنا به السجلات الآشورية. وهنا تتطابق تماماً في موقع مجدو البيئة التاريخية مع البيئة الأركيولوجية، فالطبقة الأثرية الرابعة تدمر تماماً وتغطيها طبقة من ركام الانهيارات ترجع إلى تاريخ دمار المدينة في السجلات التاريخية، ثم يعقب ذلك فترة فراغ في الموقع تستمر قرابة ثلاثة عقود ينقطع خلالها الاستيطان ويخلو التل من مكانه. وعندما يعاد بناء المدينة في الطبقة الأثرية الثالثة، نجد أن المنطقة الملكية قد زالت نهائياً وحلت محلها الأبنية السكنية العادية، كما نجد تغيراً جذرياً في تخطيط المدينة ونظمها المعمارية، مما يخالف ما كان معمولاً به في فلسطين خلال العصر الحديدي، ويقترب إلى حد كبير من تخطيط ونظم العمارة الآشورية، مما يشير إلى إلحاقها بآشور. إلا أن بقايا الفخار واللقى الأخرى العائدة للطبقة نفسها تشير إلى استمرار الثقافة الكنعانية التي كانت سائدة في فلسطين^(٢٧)، فالأقوام التي أحلها الآشوريون محل الأسباط العشرة التي لم تعد قط إلى فلسطين، لم تفرض على المدينة نمطاً ثقافياً جديداً، بل استوعبت بسرعة معطيات الثقافة الكنعانية وعملت على تطويرها في الاتجاه نفسه.

مجدو، هذه المدينة الكنعانية المغرقة في القدم، والتي وقع عندها الكثير من الأحداث التوراتية، لم يشر إليها الصليبي إلا في مقطعين اثنين مقتضيين لا أثر فيهما لأية معلومات اركيولوجية، ناهيك عن المعلومات التاريخية، يقول في

26- Ibid, PP 93-101

27- Ibid, PP. 126-27, 130-32

أولهما: [مجدو هذه بالذات، الواردة في رسائل تل العمارنة، هي «مقدي»، (مقد بدون تصويت) الحالية في منطقة القنفذة]. وفي الثاني يأتي ذكر مجدو عرضاً من خلال التعرض لموقع لخيش: [لخيش ليست بالتأكيد تل الدوير الفلسطينية. وترابط المكان مع جبعون ومجدو وحبرون وعجلون التي هي اليوم آل جبعان و: قدي والخربان وعجلان في منطقة القنفذة وجوارها العام، يشير بشكل مميز إلى أن لخيش هي آل قياس، أوقياسة، أوبني قياس في الجوار ذاته] (ص ١١٩ و٢٠٣).

حاصور:

تقع حاصور، ثاني المدن الملكية، في وادي الأردن بين بحيرة الحولة وبحيرة طبرية. وقد كشفت حملة التنقيب الأخيرة التي جرت بين عامي ١٩٥٥ و ١٩٥٨ عن الجزء الأكبر من المدينة (تحت تل القدح)، وتبين أنها تعود إلى عصر البرونز المبكر حوالي مطلع الألف الثالث قبل الميلاد، واستمرت قائمة مع بعض الفجوات والانقطاعات حتى العصر الهلنستي^(٢٨)، وقد ورد اسم المدينة في سجلات مدينة ماري منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، وبعد ذلك في رسائل تل العمارنة والسجلات المصرية اللاحقة مما بيناه في الباب الأول آنفاً.

وقد دلت نتائج التنقيب في الموقع على أن المدينة قد دمرت خلال القرن الثالث عشر، وبقيت مهجورة حتى القرن العاشر قبل الميلاد. ولكنها انتعشت بشكل فجائي أواسط القرن العاشر حيث أعيد بناؤها وتحصينها بطريقة مشابهة لمدينة مجدو. ولم تكن تضم سوى منطقة ملكية ذات أبنية إدارية كبيرة. وعندما انتقلت المدينة إلى المملكة الشمالية، حافظت على طابعها العام كمقر

28- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, P 329

اداري ملكي ، وأضاف إليها حكام السامرة أبنية إدارية فخمة ومعظمها يعود إلى فترة حكم آخاب ، ابن عمري . غير أن الطابع الملكي الإداري قد أخذ بالاختفاء في أواسط القرن الثامن ، حيث حلت البيوت السكنية والخوانيت محل عدد من الأبنية الإدارية السابقة . الأمر الذي يشير إلى ضعف السلطة المركزية القائمة في السامرة^(٢٩) .

وكما هو الحال في مجدو ، فقد بني في حاصور سور جديد أواسط القرن الثامن قبل الميلاد ، يشابه في تصميمه وطريقة بنائه سور مجدو الذي أقيم في حوالي التاريخ نفسه تقريباً للدفاع ضد الاجتياحات الآشورية . وقد كانت حاصور من أوائل المدن الساقطة حيث دمرت عام ٧٣٣ . وقد كشفت التنقيبات في الطبقة الأثرية الثامنة عن دمار شبه كامل للمدينة يرجع إلى التاريخ نفسه ، تلتها فترة تراجع سكني وعمراني طويلة^(٣٠) . ومن الجدير بالذكر ، أن كمال الصليبي لم يأت على ذكر هذا الموقع الفلسطيني الهام في كتابه ، ولم يعثر له على مقابل في غرب العربية .

جازر:

تم التعرف على جازر في تل أبوشوشة الذي يقع على مسافة ١٨ ميلاً إلى الشمال الغربي من القدس . وقد بدأ التنقيب في الموقع ، لحساب « صندوق اكتشاف فلسطين » ببريطانيا ، البروفيسور Macalister عام ١٩٠٢ ، فقام بحملتين تنقيبيتين الأولى من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٥ ، والثانية من عام ١٩٠٧ إلى ١٩٠٩ . تلى ذلك حملة ثالثة عام ١٩٣٤ بإشراف السيد Alan Rowe ، ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٦٤ حيث قاد الدكتور

29- K. Konyon, The Royal Cites, op. cit, PP. 53-58, 69, 105-10, 127

30- Ibid, PP 128, 132

W.G. Dever الحملة الأخيرة بين عامي ١٩٦٤ و ١٩٧٣ . وقد دلت نتائج التنقيب على وجود تجمع سكني بسيط منذ العصر النحاسي ، استمر إلى عصر البرونز المبكر، ثم تحول الموقع مع مطلع عصر البرونز الوسيط إلى مدينة كبيرة محصنة أواسط القرن السابع عشر قبل الميلاد . غير أن هذه المدينة قد دمرت وهجرت قرابة نصف قرن ، ويتوافق تاريخ التدمير مع حملة تحوتمس الثالث على فلسطين عام ١٤٨١ ، مما يرجح مسؤولية هذه الحملة عن تدمير جازر . ثم بنيت المدينة مجدداً خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، واستمرت مزدهرة إلى القرن العاشر حيث دمرت مجدداً^(٣١) .

يتطابق دمار القرن العاشر في جازر مع التاريخ التوراتي لتدمير المدينة على يد فرعون مصر الذي صعد إلى فلسطين ودمر جازر وقدمها مهراً لابنته التي زوجها إلى الملك سليمان . وقد أعاد سليمان بناء المدينة وضمها إلى مملكته ، على ما نقرأ في سفر الملوك الأول ٩ : ١٦ - ١٧ [صعد فرعون مصر وأخذ جازر وأحرقها بالنار وقتل الكنعانيين الساكنين في المدينة وأعطاهها مهراً لابنته امرأة سليمان] وتدل نتائج التنقيب الأثري على أن المدينة المدمرة قد أعيد بناؤها عقب خرابها ، وأقيمت لها بوابات وتحصينات مشابهة في التصميم وأسلوب العمارة لما هو موجود في المدينتين الملكيتين الآخرين مجدو وحاصور . وقد استمرت المدينة في حالة ازدهار حتى الاجتياح الآشوري في آخر القرن الثامن الذي ترك أثراً تدميرية واضحة في المدينة . وهناك آثار تدمير أخرى تعود إلى مطلع القرن السادس تتطابق مع اجتياح نبوخذ نصر لمملكة يهوذا^(٣٢) .

هذا الموقع الكنعاني الهام الذي يضرب بجذوره إلى ما وراء بدايات التاريخ المكتوب ، لم يشر إليه الصليبي إلا عرضاً وفي موضع واحد من كتابه ،

31 - K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op.cit, PP. 326-27

32 - Ibid p 327

- K. Kenyon, Royal Cities, op. cit, p. 69.

حيث وجد له ثلاثة أمكنة محتملة في غرب العربية ، فهو إما «الغَزْر» في وادي أضَم ، أو «الغَزْرَه» في منطقة جيزان ، أو «غزير» في مرتفعات غامد (ص ١١٨) . وبذلك ينتقل الصليبي من وادي أضَم ومرتفعات غامد في أقصى شمال عسير إلى جيزان في أقصى الجنوب عند حدود اليمن ، بحثاً عن جازر التوراتية ، وهو الذي قال في مقدمته النظرية المقتضية عن المسألة الأركيولوجية للتوراة : [وحتى في الحالات القليلة التي تحمل فيها مواقع فلسطينية أسماء توراتية ، فإن الاحداثيات المعطاة في النصوص التوراتية للأماكن التي تحمل هذه الأسماء ، في إطار الموقع أو المسافة المطلقة أو النسبية لا تنطبق على المواقع الفلسطينية] (ص ٥٠ - ٥١) .

قبل أن نغادر مدينة جازر ، نود أن نلفت النظر إلى مسألة هامة تتعلق بمنهجنا في اعتماد الرواية التوراتية . فلقد انطلقنا منذ البداية من موقف شكوك بالخبر التوراتي ، إلى أن يتقاطع مع الحدث التاريخي الثابت أو مع نتائج علم الآثار الحديث . وحتى في حال حدوث مثل هذا التقاطع ، فإنه يتوجب على الباحث أن يفرز المعلومة التاريخية التي يحملها الخبر التوراتي عن أرضيتها الملحمية والأسطورية ، وعن شبكة المعلومات المتضاربة التي قد تقدم ضمنها هذه المعلومة التاريخية . ولنا في خبر تدمير فرعون مصر لجازر وتقديمها مهراً لابنته زوجة سليمان خير مثال على ذلك .

ففي هذه الرواية التوراتية هناك معلومة أمكن لعلم الآثار التثبت منها ، وهي تدمير جازر في القرن العاشر وإعادة بنائها بأسلوب مشابه لمدين سليمان الملكية الأخرى . ولما كان من غير المعقول أن يقوم سليمان بتدمير مدينة تابعة له ويعيد بناءها بعد ذلك ، فإن من الممكن جداً أن يكون فرعون مصر قد أخذها وتنازل عنها لسليمان الذي لم يكن قادراً حتى ذلك الوقت على اكتساب أطراف أرض كنعان بقواه الذاتية . ومن الممكن أكثر أن يكون سليمان هو الذي أعاد بناءها ، لأن تاريخ خراب المدينة وتاريخ إعادة بنائها يقعان حوالي النصف الثاني من القرن العاشر أي إبان حكم الملك سليمان . إلا أن هذه الرواية

تحتوي على عنصر ملحمي وعلى تناقض إخباري . أما العنصر الملحمي فهو زواج الملك سليمان من ابنة فرعون مصر . وتجشم هذا الفرعون مشاق الصعود إلى كنعان وتدمير مدينة من أجل مهر ابنته . فمن المعروف تاريخياً أن فراعنة مصر لم يزوجوا أبداً أميرة مصرية إلى أحد من ملوك الدول الكبرى التي عاصرتهم ، وذلك انطلاقاً من تقليد راسخ وموقف متعال على بقية الشعوب التي ينعتونها بالبربرية ، فكيف يخرجون على هذا التقليد من أجل ملك يحكم بقعة صغيرة واقعة تحت النفوذ المصري . وهناك قصة ذات دلالة كبيرة في هذا المجال يرويها المؤرخ الاغريقي «هير ودوتس» عن سبب اجتياح «قمبيز» خليفة «قورش» الفارسي مصر في القرن السادس قبل الميلاد، أي إبان فترة انحلال الحضارة المصرية وتقلص نفوذ المملكة السياسي إلى حده الأدنى ، فيقول ان قمبيز طلب الزواج من ابنة فرعون مصر، ولكن الفرعون ارسل اليه من بنات البلاط أكثرهن جمالاً مدعياً أنها ابنته . وعندما عرف قمبيز الحقيقة شن حملته الشهيرة على مصر واحتلها من أقصاها إلى أقصاها⁽³²⁾.

وأما التناقض الإخباري في مسألة جازر وفرعون مصر، فيمكن في أن الروايات التوراتية السابقة قد قدمت معلومات متضاربة حول هذه المدينة . ففي سفر يشوع ٢١: ٢٢ وأخبار الأيام الأول ٦: ٦٧، يرد أن مدينة جازر قد أعطيت لبني قهات من اللاويين . وفي يشوع ١٦: ١٠ يرد أن الاسرائيليين لم يقدرُوا على طرد الكنعانيين منها فسكنوا معهم . وفي القضاة ١: ٢٩، نجد أن الكنعانيين كانوا فيها عبيداً تحت الجزية . وأخيراً نجدها مدينة كنعانية مستقلة لم تقدر قوة المملكة الموحدة المزعومة وضعها تحت سيطر السلطة المركزية في أورشليم إلا بمعونة جيش أجنبي ، وهو الخبر الأصح عن جازر، لأنه لو كان

32- تاريخ هير ودوتس، ترجمة حبيب أفندي بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس بيروت ١٨٨٦، ص ص ١٩٤ - ١٩٥ .

فيها اسرايليون يعيشون إلى جانب الكنعانيين لما سمح سليمان بتدميرها ، ولما تجشم الفرعون مشقة الصعود اليها ومساعدة الملك سليمان على أهلها .
من هنا فان الخبر التاريخي المؤكد الذي تقدمه الرواية التوراتية بعد اختبارها على محك البيئة الأركيولوجية ، هو أن فرعون مصر ، في فترة انحسار النفوذ المصري عن بلاد الشام وصعود قوة آشور ، قد حاول تقوية دولة صغيرة قامت على حدوده ، لتكون خطاً دفاعياً متقدماً له في وجه القوات الآشورية التي كانت قد بدأت حملاتها المتفرقة على بلاد الشام . وبما يؤكد نجاح هذه الاستراتيجية المصرية ، هو ما رأيناه من استنجداء ملوك يهوذا الذين خلفوا سليمان ، بمصر ، كلما حاق بهم الخطر الآشوري ، واستعداد مصر الدائم لقتال الآشوريين في أرض فلسطين . وقد دمر الفرعون مدينة جازر وجوارها وأعطاه لسليمان الذي أعاد بناءها وضمها إلى مملكته .
هذا وسيكون لنا وقفة أطول في فصل قادم مستقل يعالج مسألة تاريخية الرواية التوراتية .



بعد السامرة وأورشليم والمدن الملكية الثلاث ، نتابع بسط البيئة الأركيولوجية من خلال عدد آخر من المواقع الكنعانية .

بيت شان :

تم التعرف على «بيت شان» قرب مدينة «بيسان» الحالية في فلسطين ، وذلك في الحملة التنقيبية التي نظمتها جامعة بنسلفانيا في ثلاثينيات هذا القرن بإشراف السيد A. Rowe . وقد بينت التنقيبات أن الموقع كان مسكوناً منذ الألف الرابع قبل الميلاد ، ثم ظهرت المدينة المسورة التي بلغت أوج ازدهارها إبان القرن الرابع عشر قبل الميلاد . ولعل أكثر مكتشفات بيت شان إثارة

للاهتمام، سلسلة من المعابد الكنعانية المتوضعة فوق بعضها في طبقات آثارية متتالية. يرجع المعبد الأول في تاريخه إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، يليه آخر يرجع إلى الفترة ما بين ١٣٠٠ و ١١٥٠ ق.م ويظهر في تصميمه وعماره تأثراً بالمعابد المصرية الصغيرة من فترة تل العمارنة. وقد عثر في حرم المعبد على تماثيل لآلهة كنعانية ومصرية، مما يشير إلى عبادة مختلطة مصرية كنعانية وإلى نفوذ مصري واضح، ولربما إلى وجود حاميات مصرية كانت تقيم بشكل دائم هناك منذ عهد سيتي الأول. يلي هذا معبد ثالث يرجع إلى الفترة الاسرائيلية، ورابع إلى الفترة الهلنستية، وأخيراً كنيسة بيزنطية^(٣٣).

ويؤكد قوة النفوذ المصري في بيت شان (كما فصلنا أثناء دراستنا للسجلات المصرية) العثور على نصب تذكاري تركه الفرعون سيتي الأول (١٣٠٢ - ١٢٩٠ ق.م) في الموقع، يذكر فيه أنه قد صد عن بيت شان جحافل الأعداء وأجبرهم على التراجع، وتمثال لرمسيس الثالث (١١٩٨ - ١١٦٦ ق.م) مع نص تركه أحد قادة هذا الفرعون، يذكر أنه قد وصل بقواته إلى شمال فلسطين وهويطارد فلول شعوب البحر. يضاف إلى ذلك عدد من النقوش الهيروغليفية الأبركر ترجع إلى عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م).

في الطبقة الأثرية الخامسة التي ترجع إلى القرن العاشر قبل الميلاد تظهر مجموعة من الأبنية الجديدة بعضها ذو طابع رسمي، تشابه في أسلوب البناء ونوع الحجارة المنحوتة المستخدمة أبنية المدن الملكية الثلاث، مما يشير إلى أن السلطة المركزية قد أولت هذه المدينة عناية خاصة. وفي عهد المملكة المنقسمة تتبع بيت شان إلى المملكة الشمالية، ويتزايد فيها عدد الأبنية ذات الطابع الإداري^(٣٤). ويبدو أن بيت شان قد نجت بطريقة ما من التدمير

33- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op. cit, PP. 197,320-21

34- Ibid, PP. 227-229, 251-252,273

الآشوري الذي نال من معظم المراكز الحضرية للمملكة الشمالية، إذ لا تظهر التنقيبات في الموقع آثار دمار يرجع إلى تاريخ الاجتياح الآشوري . وهكذا تجتمع في موقع بيت شان كل البيانات المعاكسة لنظرية كمال الصليبي . فاسم الموقع قديم قدم سكناه، وقد وجد مكتوباً في الوثائق التي عثر عليها بين انقاض المدينة، ولا علاقة لليهود النازحين إلى فلسطين بتسميته تيمناً بموقع قديم في غرب العربية كما يرى الصليبي ، واللقى المصرية التي وجدت في الموقع من نصب وتمائيل ونقوش تثبت أن مسرح السجلات التاريخية المصرية هو بلاد الشام لا غرب العربية، ونتائج التنقيب الأركيولوجي تتفق مع الروايات المصرية والآشورية . ومع ذلك ودون توقف عند هذه الحقائق، ينقل الصليبي بيت شان إلى منطقة الطائف فيجدها في قرية «الشنية» ، وذلك في حاشية صغيرة مقتضبة (ص ٢٠٩ الحاشية ٣) .

بيت شمس :

تم التعرف على «بيت شمس» في تل «عين شمس» إلى الغرب من مدينة القدس ، وفي منتصف المسافة بينها وبين البحر المتوسط . وقد تم التنقيب في الموقع لأول مرة من قبل «صندوق اكتشاف فلسطين» بريتانيا وذلك بين عامي ١٩١١ و ١٩١٢ . ثم قامت المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس بالحملة التنقيبية الثانية وذلك بين عامي ١٩٢٨ و ١٩٣١ . وقد تبين أن المدينة قد تأسست في عصر البرونز الوسيط ، أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، واستمرت إلى عصر الحديد الثاني أواسط الألف الأول قبل الميلاد^(٣٥) . ورغم أن النص التوراتي قد اعتبرها الحد الغربي لبني اسرائيل في مواجهة الفلسطينيين مع سكان الساحل ، فإن الطبقة الأثرية العائدة إلى القرن

الثاني عشر قبل الميلاد تظهر أن المدينة كانت تحت سيطرة الفلسطينيين، وذلك لشيوع الخزف الفلسطيني فيها. وقد دمرت المدينة في أواخر القرن الحادي عشر، وهي الفترة التي عرفت الحروب الطاحنة بين الفلسطينيين وشاول أول ملوك بني إسرائيل، وبعد إعادة بناء المدينة تم تدميرها مجدداً حوالي عام ١٠٠٠ ق.م، وهي فترة الصراع بين الملك داود الذي خلف شاول والفلسطينيين. وعندما أعيد بناء المدينة، غاب عنها الطابع الفلسطيني وساد الطابع الكنعاني المميز لمدن فلسطين في تلك الفترة، وبعد انقسام السلطة السياسية في اورشليم على نفسها، استمرت بيت شمس كجزء من مملكة يهوذا الجنوبية^(٣٦).

بعد الاجتياح الآشوري الكبير لفلسطين وسقوط مملكة اسرائيل بكاملها في يد الآشوريين فيما بين ٧٣٤ و ٧٢٠ ق.م، بقيت مملكة يهوذا، التي حرضت الآشوريين على جيرانها الشماليين، في حالة استقلال شكلي حتى عام ٧٠٥ ق.م عندما توجه اليها سنحاريب لتأديب ملكها حزقيا الذي توقف عن دفع الجزية بوعود وتحريض من مصر. فاجتاح سنحاريب كل مدن يهوذا ودمر وأحرق معظمها وحاصر اورشليم طويلاً ثم ارتد عنها قانعاً بالأتاوة الباهظة التي قدمها حزقيا. وكانت بيت شمس من المدن التي تلقت ضربات سنحاريب الأليمة، حيث أظهرت التنقيبات في الطبقة العائدة إلى ذلك التاريخ دماراً كاملاً للمدينة وحرائق شاملة. ثم أعيد بناء المدينة مجدداً ولكنها لم تكمل قرناً آخر من حياتها حيث دمرت مجدداً في مطلع القرن السادس قبل الميلاد، في تاريخ يتطابق وحملة نبوخذ نصر الذي قضى على اورشليم ومملكة يهوذا عام ٥٨٧ ق.م^(٣٧).

لم ترد مدينة بيت شمس في كتاب الصليبي، ولم يقترح موقعاً لها في غرب العربية.

36- Ibid, PP. 231-32, 252

37- Ibid, PP. 289-299

شكيم :

تم التعرف على شكيم في «تل بلاطة» قرب نابلس الحديثة ، وذلك في الحملة التنقيبية الاولى التي جرت بين عامي ١٩١٣ و ١٩٣٤ باشراف الدكتور E. Sellin والدكتور G.Waiter . وبعد فترة من التوقف ، تابع التنقيب الدكتور G.E.Wright بين عامي ١٩٥٦ و ١٩٦٤ . وقد بينت النتائج أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر الحجري الحديث ، إلا أن المدينة المسورة لم تظهر إلا في عصر البرونز الوسيط ، في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد.وقد دمرت المدينة في نهاية عصر البرونز الوسيط أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد، ثم أعيد بناؤها في عصر البرونز الأخير ، وكانت ذات شأن في فترة تل العمارنة ، حيث ظهر اسمها واسم ملكها «لابايو» في المراسلات بين حكام فلسطين وفينيقيها من جهة ، وفرعون مصر من جهة أخرى . وقد دمرت المدينة مجدداً في أواخر القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، ولم يعد بناؤها إلا في القرن العاشر قبل الميلاد . وقد استمرت جزءاً من مملكة اسرائيل الشمالية إلى حين الاجتياح الآشوري ، حيث دمرت هذه الطبقة الأثرية تماماً حوالي عام ٧٢٠ ق.م ، أي حوالي التاريخ الذي دمرت فيه مدينة السامرة عاصمة المملكة . وقد أعقب ذلك فترة فراغ في الاستيطان استمر إلى عام ٣٣١ حيث نهضت المدينة مجدداً وصارت مركزاً للفتنة الدينية اليهودية المنشقة المعروفة بالسامريين^(٣٨) وعندما أعاد الرومان بناء المدينة بعد خرابها أثناء القضاء على الفتن اليهودية ، أسموها «فلافيا نيبوليس»^(٣٩) أي المدينة الجديدة ، ومنه جاء اسم نابلس .

38- Ibid, PP. 341-42

• - «فلافيا نيبوليس» . Flavia Neupolis ، أي المدينة الفلافية الجديدة ، نسبة الى الامبراطور ، «فسباسيان» مؤسس السلالة الفلافية التي ضمت ثلاثة أباطرة هم فسباسيان ، تيتوس ، دوميتان ، وحكمت من عام ٧١ الى عام ٩٦ ميلادية .

ويقترح الصليبي مكانين محتملين لشكيم . فهي إما «سقامة» الحالية في وادي سقامة على المنحدرات الجنوبية الغربية من بلاد زهران ، أو «القاسم» الحالية في منطقة القنفذة ، ويبعد الموقعين عن بعضهما حوالي ٢٠٠ كم .

الخيش :

تم التعرف على «الخيش» في «تل الدوير» غرب مدينة «الخليل» في منتصف المسافة تقريباً بينها وبين البحر . بدأت الحملة التنقيبية الأولى بين عامي ١٩٣٢ و ١٩٣٧ بإشراف السير H.Wellcome والسير Ch. Marston . ثم توقف التنقيب حتى عام ١٩٧٣ حيث بدأ مجدداً بإشراف الدكتور D.ussishkin . وقد بينت نتائج التنقيب أن الاستيطان في الموقع قد ابتدأ في العصر النحاسي ، واستمر بشكله البسيط إلى عصر البرونز الوسيط حيث ظهرت المدينة المسورة مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد . وقد تم تدمير هذه المدينة في أواخر القرن الثالث عشر أو أوائل الثاني عشر . وربما كان المسؤول عن ذلك شعوب البحر أثناء تقدمهم نحو مصر ، أو الفرعون رمسيس الثالث الذي صد هجومهم وطاردهم إلى أرض فلسطين . وقد بنيت المدينة مجدداً بعد ذلك ، وهناك آثار سور جديد يعود إلى أواخر القرن العاشر . وربما كان هو السور الذي بناه رجب عام أثناء تحصينه للمدينة في وجه حملة شيشانق الأول (انظر أخبار الأيام الثاني ١١ : ٥ - ١١) . وقد بقي هذا السور قائماً حتى دمار المدينة على يد الآشوريين^(٣٩) .

في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، تظهر في الطبقة الأثرية العائدة إلى هذا التاريخ آثار حرائق ودمار شامل ، وقد كان هذا من فعل سنحاريب الذي غزا مدن يهوذا عام ٧٠٥ . فالنصوص الآشورية تتحدث عن حصار لخيش

39- Ibid, PP. 331-32, 206-227, 281

والقضاء عليها من قبل سنحاريب، كما تصور إحدى المنحوتات البارزة التي
عشر عليها في مدينة نمرود بأشور حصار مدينة لخيش. وتتقاطع الأخبار
الآشورية مع الروايات التوراتية حول حصار المدينة مما يمكن مراجعته في سفر
الملوك الثاني ١٨: ١٤ و ١٧. وأخبار الأيام الثاني ٣٢: ٩. وأشعيا ٣٦: ٢ و
٣٧: ٨. وقد عثر المتقبن بين أنقاض هذه الطبقة الأثرية على أسلحة
آشورية كانت مستخدمة في تلك الفترة، وعلى خوذات حربية مماثلة
للخوذات التي يضعها الجنود في نحت النمرود الذي يصور حصار لخيش^(٤٠).
ثم بنيت المدينة مجدداً واستمرت جزءاً من مملكة يهوذا، بعد تراجع
سنحاريب. ولكنها دمرت بعد قرابة قرن من الزمان إبان حملتي نبوخذ نصر
على يهوذا بين عامي ٥٩٨ و ٥٨٧ ق. م (انظر سفر الملوك الثاني ٢٤ و ٢٥ و
٣٤، والنص البابلي في الصفحة ١٢١ سابقاً). وتظهر التنقيبات في الطبقة
العائدة لهذه الفترة، آثار دمار كبير وحرائق هائلة، وجثث نالت منها النيران قد
دفنت بالآلاف في مقابر جماعية وفي الكثير منها آثار الإصابات الحربية. وتشابه
هذه البينات الأثرية في لخيش مع ما تم اكتشافه في مدن يهوذا الأخرى التي
دمر معظمها وأكثرها لم يعد سيرته الأولى^(٤١).

وقد عثر المتقبن في غرفة الحراسة المتصلة ببوابة سور لخيش على
مجموعة من الرسائل موجهة من قائد قوة عسكرية إلى سيده. والنصوص في
حالة سيئة جداً بسبب الانهيارات والحرائق التي حلت ببوابة السور حيث
حفظت إلى قرننا هذا، مما جعل قراءتها وتفسيرها موضع خلاف بين العلماء.
وقد ورد في الرسالة الرابعة ذكر لمدينة لخيش ومدينة عزيقة وهما المدينتان
الحصيتان اللتان صمدتا حتى النهاية أمام جيوش نبوخذ نصر وكانتا آخر ما

40- Ibid, P.290

41- Ibid, PP. 299-231, 305-06

W.F. Albright, Palistenian Inscriptions (in: Ancient Near Eastern Texts, op. cit)

P.322

سقط . فنقرأ في إرميا ٣٤: ٦ - ٧ [فكلم إرميا النبي ، صدقيا ملك يهوذا بكل هذا الكلام في اورشليم ، إذ كان جيش ملك بابل يحارب اورشليم وكل مدن يهوذا الباقية : لخيش وعزيقة ، لأن هاتين بقيتا في مدن يهوذا مدينتين محصنتين] .

وقد ورد في نهاية الرسالة الرابعة المنوه عنها أعلاه ما يلي : [. . . وليعلم سيدي أننا نترقب إشارات لخيش ، وفق كل المؤشرات التي أعطاها سيدي ، لأننا لا نرى عزيقة]^{١١٢} . والجو العام لهذا النص يوحي بأن قائد القوة العسكرية ينتظر إشارات من جهة مدينة لخيش لأن مدينة عزيقة قد سقطت . غير أن لكهال الصليبي وجهة نظر أخرى في هذا النص الواضح إلى درجة معقولة ، فهو يرى أن كلمة «لخيش» يجب أن تجزأ إلى «ل» باعتبارها حرف جر و«كيش» كاسم مشتق من «كشه» أي امتلاً أو شبع بالطعام . وأن كلمة إشارات - التي هي بالكنعانية «مس ء ت» وتعني في الأصل «ارتفاعات أو صعودات» وفسرها مترجمو النص على أنها إشارات ناجمة عن صعود الدخان - يجب أن تفسر على أنها حولات لأن الفعل «نس ء» يعني أيضاً «حمل» وعليه فالأقرب أن تكون كلمة «مس ء ت» هي اسم الفعل من «نس ء» وتعني «حمله» وليس صعوداً أو ارتفاعاً . أما كلمة «مؤشرات» بالكنعانية «ء تت» من الفعل «ء ته» الذي يجب أن يقارن برأيه بالفعل العربي «أتا» ومنه أتت الشجرة أي طلع ثمرها وكثر حملها ، لتغدو الكلمة «أتاوات» بدل «المؤشرات» أو «الدلالات» . أما كلمة «عزيقة» التي لم يستطع شطرها إلى قسمين كما فعل في «ل - كيش» فيرى فيها اسم رجل لا اسم مدينة . وعليه تصبح ترجمة النص بعد كل هذه الاجتهادات المتطرفة وتشطير الكلمات والاستعانة باللغة العربية كما يلي : [ليعرف مولاي أننا ننتظر حولات الطعام وكذلك كل الأتاوات التي

42- W. F. Albright, *Palestinian Inscriptions* (In: *Ancient Near Eastern Texts*, op. cit) p.

أعطاهما مولاي، لأننا لا نستطيع رؤية (السيد) عزيزة]. (ص ١٠٩ - ١١٠). بعد ذلك يغفل عن إعطائنا مكاناً للخيش في غرب العربية.



نكتفي بهذا القدر من المسح الأركيولوجي للمواقع الكنعانية، فقائمة المواقع طويلة، وغرض هذا الكتاب لا يسمح بأكثر مما جرى عرضه من بيانات. وسنتقل في الفصل التالي إلى ساحل فلسطين الذي استقبل موجة من شعوب البحر استوطنته وعاصرت الفترة المؤقتة والعبارة للسيطرة السياسية الاسرائيلية على أرض كنعان، ثم ذابت تدريجياً في بحر كنعان، عرقياً وحضارياً.

٧- ماذا عن الفلستينيين

في أواخر القرن الثالث عشر قبل الميلاد، تعرضت الحضارة المِيسينية^(٥) على البر اليوناني إلى سلسلة من الهجمات البربرية دمرت كل مراكزها الحضارية الهامة، وأدت إلى تشتت أهلها في الأصقاع المجاورة، وكمون المد الحضاري في اليونان وفي جزر بحر إيجه التي تعرضت للخطر ذاته. وبدو أن ضغط البرابرة على اليونان وحضارة بحر إيجه، قد أدى إلى سلسلة من تحركات الشعوب الغالبة منها والمغلوبة، بحثاً عن مواطن جديدة للاستقرار بعيداً عن عالم قد تم تهديمه تماماً، وعمته الفوضى والاضطراب والفقر المدقع. وقد وصلت طلائع هذه الفئات الهائمة إلى شمالي أفريقيا وتعاونت مع الليبيين الذين كانوا يتربصون منذ زمن للانتقضاء على مصر، فتقدموا جميعاً نحو الدلتا في محاولة للاستقرار فيها. ولكن الفرعون «مرنفتاح» استطاع القضاء عليهم وردهم عن حدود مصر البرية والبحرية عام ١٢٢٠ ق.م.

وفي الوقت نفسه تقدمت حملة أخرى من نقطة ما من الأرخبيل الإيجي فحطت على شواطئ آسيا الصغرى ودمرت المملكة الحثية التي لم يبق لها قائمة بعد ذلك، ثم توجهت نحو بلاد الشام فسقطت أمامها ممالك سورية

* - نستعمل هنا كلمة «مِيسيني»، و«مِيسينية» كترجمة لكلمة «Mycenaen» المنسوبة إلى مدينة «Mycenae»، وذلك جريباً على المصطلح الشائع في المراجع العربية إلى وقت قريب. إلا أننا نود التنبيه إلى أن مصطلح «موكيني» و«موكينييه» قد بدأ يحل في العربية محل الأول، وهو الأصح.

الشمالية من أوغاريت إلى كركميش . بعد ذلك تقدمت هذه الشعوب نحو أواسط سورية حيث أقامت لها محطة مستقرة في مملكة «آمورو» تحفزاً للانقضاض مرة أخرى على مصر، أسمن الطرائد في ذلك العصر . وفي طريقها إلى مصر اشاعت الدمار في ممالك الدويلات الفلسطينية، ولكن المصريين استطاعوا ردهم للمرة الثانية عن حدودهم، إذ قام الفرعون رمسيس الثالث بتشتيتهم والنقضاء عليهم نهائياً كقوة ضاربة قادرة على التحرك العسكري، وذلك حوالي عام ١١٩١ ق.م . ومنذ ذلك الوقت اختفى ذكرهم من التاريخ .

وقد دعيت هذه الموجات التي غزت بلاد الشرق الأدنى القديم بشعوب البحر، لأن مصدر انطلاقها كان من جزر بحر إيجه على ما تذكره السجلات المصرية . فمن سجل حملة رمسيس الثالث، نعرف أن خمسة شعوب انطلقت من جزرها الشمالية هي : «التجاكر» و«الوشوش» و«الشيكلش» و«البيلست» و«الدينيان»، فقضت على «حاتي» و«كود» و«كركميش» ثم تقدمت إلى مصر من أمورو . ولكن الفرعون بادرها بالتحرك نحو بلاد «زاهي» حيث شتتهم واستأصل شأفتهم إلى الأبد^(١) . وقد أمكن لعلم الآثار تتبع تحركات شعوب البحر، من خرائب الحضارة الميسينية في اليونان إلى الدمار الفاجع للمملكة الحثية في آسيا الصغرى إلى أوغاريت وكركميش وبقية دويلات ممالك بلاد الشام . ونظراً لعدم اهتمام مصر بمناطق نفوذها السابقة في بلاد الشام، فقد قامت بعض الفئات التي شتتها رمسيس الثالث بالتوطن في مناطق الساحل السوري، ومنهم البيلست الذين أسسوا لهم خمس مدن على

42- J.A. Wilson, Egyptian Historical Texts (In Ancient Near Eastern Texts , Op. cit PP 262-263

ساحل فلسطين. وهم المعروفون في التوراة باسم «الفيلست» أو «الفلسطينين»^٥.

هذه باختصار أخبار شعوب البحر التي أتت بالفلسطينيين التوراتيين إلى بلاد كنعان. فماذا قال كمال الصليبي في أمر الفلسطينيين؟ أفرد الصليبي لهذه المسألة فصلاً خاصاً بعنوان: ماذا عن الفلسطينيين، يقول في مقدمته، وقبل الدخول في مقارناته اللغوية، ما يلي:

[الفلسطينيون، بين شعوب العهد القديم، هم الأكثر وضوحاً والأكثر إثارة للحيرة في آن معاً. وإثارتهم للحيرة لا تبدو مبعث دهشة، إذ أن الباحثين دأبوا على البحث عن موطنهم التوراتي في المكان الخطأ. ولأنه أشير إلى الفلسطينيين في بعض الفقرات على أنهم «كريتيون» (كرتي، نسبة إلى كرت)، فقد ساد الاعتقاد بأنهم كانوا في الأصل «شعب بحر» من أصل عرقي غامض توطن أصلاً في جزيرة كريت في البحر المتوسط، ثم انتقل إلى هناك واستقر في ساحل فلسطين. والأمر المؤكد هو أن الفلسطينيين الذين تحدث عنهم التوراة العبرية لم يكونوا فلسطينيو فلسطين، ولا هم أتوا على كل حال من جزيرة كريت. ولا بد أن كرت التوراتية (صموئيل الأول ١٤: ٣٠، صفنيا ٢: ٤ - ٥، حزقيا ٢٥: ١٥ - ١٦) كانت وادي «كرت» (كرث)، وهو رافد لوادي «تيه» في مرتفعات رجال ألمع، وهناك واحة تسمى «الكراث» (كرث) في وادي بيشه، حيث هناك أيضاً قرية تسمى «الفلسة» (قارن مع العبرية فلشت التي يكون جمع النسبة إليها فلشتيم أي فلسطين) (ص ٢٤٥ - ٢٤٦).

وبعد أن يجد لكل مدينة من مدن الفلسطينيين الخمس مكانها في غرب العربية، ينتهي إلى القول: [ومهما كانت الأماكن الأخرى التي وجد فيها الفلسطينيون التوراتيون، فقد كانت لهم مدنها الرئيسية في الجانب البحري من

* - الفلسطينيون في الترجمات العربية للتوراة، كلمة غير دقيقة الترجمة ومثارة بالاسم الحالي لفلسطين باللغة العربية.

عسير وجنوب الحجاز. . . وذلك حتى زمن ملوك اسرائيل الأوائل الذين قضوا عليهم أو على وجودهم المستقل في تلك المناطق . (وربما كان في ذلك ما يفسر هجرة الفلسطينيين إلى الشام حيث أعطوا اسمهم لأرض فلسطين)، وقد كانت أراضيهم هناك متداخلة مع أراضي بني اسرائيل والشعوب المحلية الأخرى . وليس في التوراة العبرية ما يفيد بأنهم كانوا في الأصل مستوطنين غرباء في البلاد، وصلوا إليها كأهل بحر من الخارج . وهذا الرأي ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسندُه إطلاقاً . [(ص ٢٥٣ - ٢٥٤) .

والحقيقة، فإن السند الذي لا يتصور الصليبي وجوده إطلاقاً، يأتي من النصوص التوراتية ذاتها، ومن مقاطع أغفل الصليبي الإشارة إليها تماماً . فاضافة إلى وصف التوراة للفلسطينيين بأنهم كريتيون كما هو الأمر في سفر صفنيا ٢: ٤ - ٥ وحزقيا ٢٥: ١٥ - ١٦، فإنه ينسبهم إلى جزيرة «كفتور» وهو الاسم التبادلي، في التوراة، لجزيرة كريت المعروفة في البحر المتوسط . نقرأ في سفر إرميا ٤٧: ٤ [بسبب اليوم الآتي لهلاك كل الفلسطينيين، لينقرض من صور وصيدون كل بقية تُعين، لأن الرب يهلك الفلسطينيين، بقية جزيرة كفتور]، فهم إذن أهل بحر أتوا من جزيرة . وكذلك هم غرباء عن كنعان أتوا إليها من الخارج شأنهم في ذلك شأن الاسرائيليين، نقرأ في سفر عاموس ٩: ٧ [ألم أصعد اسرائيل من أرض مصر؟ والفلسطينيين من كفتور؟] . وفي سفر التثنية ٢: ٢٣ [. . . والعويون الساكنون في القرى إلى غزة، أبادهم الكفتوريون الذين خرجوا من كفتور وسكنوا مكانهم] .

وكفتور هذه، لم ترد في التوراة فقط بل في العديد من نصوص الشرق القديم . ففي اسطورة بعل وعناة الأوغاريتية تبعث الإلهة «عشيرة» برسوها إلى كفتور، التي هي كريت في نصوص أوغاريت، لاحتضار اله الحرف والصناعة من هناك ليبنى بيتاً للإله بعل^(٣) . كما ترد كفتور في النصوص المصرية

43- H.L. Ginsberg, Ugaritic Myths (in, Ancient Near Eastern Texts, op.cit, P.138

بصيغة «كيفتو» للدلالة على كريت وجزر بحر إيجه، وحذف الراء من الاسم في الهيروغليفية وارد، لأن الراء في كفتور هي لاحقة وليست من أصل الكلمة⁽⁴⁴⁾.

أما السند الآخر الذي لا يتصور الصليبي وجوده، فيأتينا من علم الآثار. فلقد أعطت نتائج التنقيب الأركيولوجي على الساحل الفلسطيني معلومات وافرة عن بدايات الاستيطان الفلسطي ونشوء مدن الفلسطين الخمسة: غزة وجت وأشقلون وأشدود وعقرن، التي تم التعرف عليها جميعاً. فمع بداية القرن الثاني عشر قبل الميلاد، يظهر بشكل مفاجيء في المنطقة الساحلية الفلسطينية، نمط من الخزف غير معروف في كنعان قبل ذلك. وهذه الخزفيات التي اكتشفت على وجه الخصوص في المواقع الخمسة المذكورة أعلاه، تشبه الخزفيات السائدة في بحر إيجه في تلك الفترة، دون أن تكون نسخاً مطابقة لها، مما يدل على أنها قد صنعت محلياً من قبل مهاجرين أتوا من تلك المنطقة، ولم تجلب معهم من موطنهم الأصلي. وبعد فترة قصيرة تغدو هذه الخزفيات النمط السائد في مواقع الفلسطين التاريخية، مع تواجد عرضي في بعض المناطق المتاخمة لهم، ولكنها تنعدم كلياً في المناطق الداخلية من فلسطين. ومن الملفت للنظر أن الخزف الفلسطي يظهر في معظم المواقع الفلسطية بعد طبقة من الخرائب والحرائق التي تحجب طبقات كنعانية أسبق، مما يدل على أن شعوب البحر قد عادت إلى سكن المواقع التي دمرتها إبان اجتياحها الأول⁽⁴⁵⁾. وسنعمد فيما يلي إلى تقديم مثالين يفيان بالغرض، الأول من موقع «أشقلون» والثاني من موقع «أشدود».

أشقلون، مدينة كنعانية قديمة على ساحل فلسطين، ورد ذكرها في سجلات الفرعون رمسيس الثاني الذي حكم منذ عام ١٢٩٠ ق.م، أي قبل

44- C.H. Gordon, The Ancient Near East, Norton, New York, 1965, P.293

45- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op .cit, PP. 214-15, 224-25

فترة لا بأس بها من توطن الفلسطينيين في فلسطين، كما ورد ذكرها في سجلات الملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث في القرن الثامن قبل الميلاد^(٤٦). وق تم التعرف عليها في موقع عسقلان الحديثة، منذ الحملة التنقيبية الأولى من قبل صندوق اكتشاف فلسطين ببريطانيا، وذلك بين عامي ١٩٢٠ - ١٩٢١. وقد بينت التنقيبات أن الطبقة الأثرية العائدة لعصر البرونز الأخير، وقد دمرت تماماً وتغطت بطبقة من الرماد سمكها ٥٠ سم، تحجب تحتها مدينة نموذجية كنعانية. وفي الطبقة الأثرية التي تلتها مباشرة، تظهر الخزفيات الفلسطينية الغربية عن أرض كنعان^(٤٧).

وعلى مسافة ١٥ كم تقريباً إلى الشمال الغربي من عسقلان، تم التعرف على مدينة «أشدود» قرب بلدة «أسدود» الحالية، حيث جرت الحملة التنقيبية الرئيسية بين عامي ١٩٦٢ و ١٩٧٢ بإشراف البروفيسور M. Dothan. وقد تبين أن الموقع كان مسكوناً منذ العصر النحاسي، إلا أن المدينة المسورة تعود إلى عصر البرونز الوسيط حوالي عام ١٧٠٠ ق. م، واستمرت مزدهرة إلى عصر البرونز الأخير، حيث ورد ذكرها في سجلات أوغاريت كمدينة مشهورة بتصنيع النسيج. وقد دمرت هذه المدينة في نهاية القرن الثالث عشر واختفت تحت طبقة سميكة من الرماد. وعندما أعيد بناؤها في الطبقة التالية، تأخر ظهور الخزفيات الفلسطينية قليلاً ثم سادت الموقع بشكل كامل. وظهر إلى جانب الفخاريات الفلسطينية أختام أسطوانية عليها كتابات تنتمي إلى الزمرة القبرصية الإيجية، كما عثر على تماثيل للإلهة الأم، مصنوعة وفق الأسلوب الكريتي المعروف. إلا أنه في أشدود بشكل خاص، يظهر بشكل تدريجي وواضح كيفية ذوبان الشخصية الحضارية الفلسطينية في الشخصية الكنعانية. فمنذ القرن العاشر، يبدأ النمط الخزفي الفلسطي في الاختفاء ليحل

46- James Pritchard, Ancient Near Eastern Texts, op. cit, PP.214-15-224-25

47- K. Kenyon, op. cit, P.215

عمله النمط الكنعاني المعروف في عصر الحديد، وتختفي تماثيل الإلهة الكريتية ليتحول الفلسطينيون إلى الآلهة المحلية^(٤٨) التي نجد أسماءها في التوراة، مثل الآله «داجون» الآله السوري القديم المعروف في نصوص اوغاريت وإيبلا. وفي الحقيقة، لم يكن هذا التحول صعباً بسبب قرب العبادة الكريتية من العبادة الكنعانية وتماثل آلهتها، ولربما قام الفلسطينيون منذ البداية بمطابقة أسماء آلهتهم الايجية على أسماء الآلهة الكنعانية وعبدوها تحت أسمائها الجديدة، وهو أمر معروف في التاريخ والأمثلة عليه كثيرة.

نكتفي بهذا القدر من البيانات النصية والأركيولوجية التي أشاح عنها كمال الصليبي، لتتابعه في بحثه عن مدن الفلسطينيين الخمس في غرب العربية، ونجده يعثر على «غزة» في موقع «العزة» الحالي في وادي أضمر، و«أشدود» في «السدود» في منطقة رجال ألمع، و«أشقلون» في «شقلة» بجوار مدينة «القنفذة»، و«جت» في «الغاط» بمنطقة جيزان، و«عقرون» في «عرقين» بوادي عتود الفاصل بين رجال ألمع ومنطقة جيزان (ص ٢٥٢ - ٢٥٣). ولكن نظرة سريعة على خارطة الصليبي رقم ٣، تظهر أمراً غاية في الغرابة، فالمدن الخمس التي عثر عليها في غرب العربية، تتوزع على مسافات شاسعة جداً عبر بلاد عسير من أقصاها إلى أقصاها، وتتباعد عن بعضها مئات الكيلومترات عبر مساحات مليئة بمدن الشعوب الأخرى التي تعرف عليها الصليبي هناك، مثل أهل يهوذا وأهل إسرائيل والكنعانيين والآراميين. فالعزة (غزة) الواقعة في منطقة الليث، والغاط (جت) الواقعة في منطقة جيزان، تبعدان عن بعضهما حوالي ٧٠٠ كم. والسدود (أشدود) تبعد عن شقلة (أشقلون) أكثر من ٢٠٠ كم. وعرقين (عقرون) تبعد عن شقلة حوالي ٥٠٠ كم. فكيف تسنى لشعب واحد، كان عبر أسفار التوراة عدواً تقليدياً للإسرائيليين، أن يبني مدنه الخمس على هذه الأرض الواسعة، وفي مواقع

48- Ibid, PP. 215-217

متبعثرة عبر أراضي الأعداء؟ حقاً، لقد ذكر الصليبي مسألة التداخل بين أراضي الفلسطينيين والاسرائيليين، عندما عرج مطولاً على قصة شمشون في التوراة (ص ٢٥٤ - ٢٥٥). ولكن التداخل شيء والتبعثر شيء آخر. ولقد كانت أراضي الفلسطينيين عند حدودهم الشرقية متداخلة مع أراضي غيرهم، مما أثبتته توزيع الفخاريات الفلسطينية، إلا أن الأرض التي شغلوها على الساحل الفلسطيني كانت أرضاً متصلة، بمدنها التي يسهل التواصل بينها والانتقال والتنسيق وتجهيز الجيوش التي كانت تواجه الاسرائيليين تحت راية فلسطية موحدة.

وإذا عدنا إلى البيئة النصية مرة أخرى وجدنا كل الشواهد المؤيدة لوجود أرض واحدة متصلة للفلسطينيين، قائمة على وجه التحديد في المنطقة الساحلية، لا في المناطق الداخلية حيث عثر كمال الصليبي على معظم مدن الفلسطينيين، والتي تتوزع بعيداً عن ساحل البحر بمئات الأميال. نقرأ في حزقيال ٢٥: ١٦ [فلذلك هكذا قال السيد الرب. هاأنذا أمد يدي على الفلسطينيين، وأستأصل الكريتيين وأهلك بقية ساحل البحر] وفي صفنيا ٢: ٤ - ٥ [لأن غزة تكون متروكة، وأشقلون للخراب. أشدود عند الظهيرة يطردونها، وعقرون تستأصل. ويل لسكان ساحل البحر أمة الكريتيين].

هذه أسانيد الرأي الذي يقول عنه الصليبي [ما هو إلا من تصور الباحثين التوراتيين، وليس هناك ما يسندة إطلاقاً] (ص ٢٥٤).

٨- علم الآثار وتاريخية التوراة

يقوم المحور الرئيسي في نظرية الصليبي ونهجه، على القبول بالرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً مسلماً بصحته، والشك في جغرافيتها. فهو يقول في فصله الأول: [في الدراسة الراهنة، ستقلب الأمور رأساً على عقب. وبدلاً من أخذ جغرافية التوراة العبرية كمسلمة، ومناقشة صحتها التاريخية، سأأخذ تاريخيتها كمسلمة وأناقش جغرافيتها. وبين شعوب الشرق الأدنى القديم، يبدو أن بني اسرائيل كانوا وحدهم المالكين لاحساس مرهف بالتاريخ. أوهم على الأقل الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخياً وعبروا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة مكتملة. وتقدم كتبهم المقدسة رسماً ذاتياً حياً ومفصلاً، وهو رسم فريد من نوعه بالنسبة إلى عصره] (ص ٥٣).

وفي الحقيقة، فانه منذ ظهور النقد المنهجي للتوراة اعتباراً من مطلع القرن الثامن عشر، لم تقم مدرسة واحدة على القبول المطلق للرواية التاريخية باعتبارها تاريخاً حقيقياً غير خاضع للمناقشة أو النقد، نستثني من ذلك الاتجاه اللاهوتي الذي يؤمن بأن الكتاب في صيغته الحالية، هو كلمة الإله الموحاة إلى الأنبياء. ثم جاء عصر الاكتشافات الأركيولوجية الكبرى في آشور وبابل عند منقلب القرن التاسع عشر، وفي سورية مع مطلع القرن العشرين، ليضع بين أيدي الباحثين التوراتيين معلومات تاريخية ونصية وأركيولوجية، لم يسقطها من حسابه أحد قبل كمال الصليبي، قط.

والتسليم بتاريخية التوراة عند كمال الصليبي، هو نتيجة منطقية لنقله جغرافيتها ومسرح أحداثها إلى غرب العربية، حيث نفتقد إلى أي محك

موضوعي يمكن اختبار روايات التوراة إزاءه، فالمنطقة لم تستكشف آثارياً حتى الآن. ولم يأتنا عنها نبأ واضح أي شعب من شعوب الشرق القديم. وهو بعد أن شككنا بكثير من معلوماتنا حول تاريخ بلاد الرافدين والشام ومصر، ورفض السجلات التاريخية كوثيقة يمكن الاعتماد عليها (إلا إذا قرئت على طريقته)، فإنه لم يترك أمامنا من معيار آثاري ونصي وتاريخي يمكن الاعتماد عليه في نقد التوراة، لتبقى وحدها الوثيقة المعتمدة، شاهدة على نفسها وشاهدة على أحداث عصرها. وهذه نتيجة لم يضعها في حساباته قطعاً عندما [شعر بأن من الواجب عليه أن لا يبقى ما توصلت إليه معرفته بشأن التوراة سرّاً] (ص ١٩).

أما بعد أن أوقفنا على قدميها الأمور التي قلبها الصليبي، على حد قوله، رأساً على عقب، وأوضحنا المسلمات التاريخية والأركيولوجية التي لم توضع قبل ذلك في متناول جمهرة القراء من غير المتخصصين، فإننا نستطيع الآن أن ندلف إلى امتحان تاريخية التوراة استناداً إلى البيئة الأركيولوجية المدعومة بالبيئة التاريخية. وسوف نقسم الفترة التي تغطيها أحداث التوراة إلى المراحل التالية، باحثين عن تاريخية الأحداث في كل منها: ١ - عصر الآباء ٢ - الخروج من مصر ودخول بلاد كنعان ٣ - عصر القضاة ٤ - المملكة الموحدة ٥ - المملكة المنقسمة والانحيار.

١ - عصر الآباء :

هناك اتفاق بين المؤرخين على أن تحركات الآباء الواردة في سفر التكوين، قد جاءت في فترة الاضطرابات التي أحدثها ظهور العموريين في الهلال الخصيب بين نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد. تلك الفترة التي تميزت بتعطل تام للمراكز الحضرية في المنطقة، وتدمير للمدن

ونزوح وهجرات . وقد توسطت هذه الفترة بين عصر البرونز المبكر وعصر البرونز الوسيط .

ففي مصر، انتهت المملكة القديمة حوالي عام ٢١٨٥ ق.م، إثر غزوات بربرية، شكّل الآسيويون جزءاً لا بأس به من عناصرها البشرية . وأعقب ذلك فترة من الفوضى لم تنته إلا في عام ١٩٩٠ ق.م مع ابتداء حكم الأسرة الثانية عشر . وفي بلاد الرافدين، اجتاح العموريون القادمون من السهوب السورية كلاً من سومر وأكاد وأسسوا الأسرة العمورية التي اشتهر من ملوكها حمابي . وتلقت فلسطين موجة من هؤلاء العموريين قضت بشكل كامل على مدن عصر البرونز المبكر، أعقبها فترة فراغ طويلة في الاستيطان الحضري، لأن العموريين في فلسطين لم يعبأوا بسكن الحواضر، ولم يعمدوا إلى إعادة بناء المدن التي دمرها، بل سكنوا على أطرافها فتابعوا حياتهم شبه البدوية ذات التنظيم القبلي . وقد استطاعت التنقيبات الأثرية اقتفاء أثر هؤلاء العموريين في فلسطين، بتتبع أنماطهم الخزفية المتميزة عن خزفيات عصر البرونز المبكر وعصر البرونز الوسيط، وأيضاً عن طريق دراسة شواهدهم الأثرية التي جاءت بشكل خاص من القبور . وعندما بدأت المدن الكنعانية تعيد بناء مواقعها القديمة، خلال الربع الأول من الألف الثاني قبل الميلاد، أخذ العموريون بالذوبان في المجتمعات الناهضة، وبدأت شواهدهم الأثرية بالاضمحلال حتى زالت تماماً^(١) .

غير أن الفصل الأخير في تاريخ العموريين قد كتبه الهكيسوس في مصر، عندما دخلوها أواسط القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأنها المملكة المتوسطة . فلقد غدا من النبات اليوم، واعتياداً على نصوص «ماري» و «اوغاريت» أن أسماء ملوك الهيكسوس الذين حكموا مصر خلال فترتها الانتقالية الثانية، هي أسماء إما كنعانية أو عمورية، وذلك مثل «يعقوب -

49- K Kenyon, op cit, PP 119-147

هار» و«سَموقينا» و«باليما» . . . الخ. وصار من الواضح الآن، لماذا قال المؤرخ المصري «مانيشو» من القرن الثالث قبل الميلاد، بأن الهيكسوس كانوا قوماً من الفينيقيين، وتراجعت نظريات الأصل الحثي أو الحوري أو الهندو أوريي للهيكسوس، رغم أنه من السابق لأوانه إنكار وجود مجموعات غريبة عن العموريين رافقتهم في حملتهم على مصر^(٥٠).

والرأي الشائع بين الباحثين اليوم، هو أن شخصيات روايات سفر التكوين في التوراة (وهم من يطلق عليهم الباحثون التوراتيون اسم الآباء) تنتسب إلى الأقوام العمورية، وذلك اعتماداً على الأصون اللغوية لأسماؤها، كاسحاق ويعقوب وعيسو، وأن تحركاتهم التي ابتدأت مع نزوح إبراهيم من بلاد الرافدين، ترجع إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر. وفي الحقيقة، لم يمكن حتى الآن العثور على أدلة آثرية تثبت رواية سفر التكوين، لأن تحركات الآباء كانت في حقيقتها تحركات قبلية قامت بها مجموعات متنقلة لم تعرف الاستقرار ولا سكنى الحواضر. أما النصوص التاريخية، فصامتة تماماً عن هذا الموضوع، سواء في بلاد الرافدين وبلاد الشام أم في مصر التي رحل إليها يوسف بن يعقوب وصار هناك الوزير الأول للفرعون - حسب الرواية التوراتية - . من هنا، فإن كل ما كتب، ويكتب اليوم، حول روايات الآباء في التوراة، هو محض تخيل وفرض، ومحاولة لاستقراء نصوص التوراة وتفسيرها، على ضوء الأوضاع السائدة في الشرق القديم إبان تلك الفترة. لذا فنحن واجدون من الاجتهادات حول هذا الموضوع قدر ما لدينا من باحثين تصدوا له. أما التاريخ وعلم الآثار فلا يستطيعان البت في مسألة الآباء، في المرحلة الراهنة. فقصص الآباء في سفر التكوين، رغم ترجيح وجود أساس واقعي لها،

50- W F Albright, The Role of The Ceraanite In History (In The Bible and Ancient Near East, Edited by Ernist Wright, Eisenbrauns, Indiana 1979) P 335

ليست إلا نوعاً من الملحمة البطولية، مما تعودت الشعوب تديججة عن البدايات الأولى . ولنا في «الشاهنامة» ملحمة الفرس الشهيرة، خير مثال على ذلك . فالنفس الملحمي يسود في سفر التكوين، سواء في الأسلوب أم في المضمون . فبعد المقدمة الميثولوجية المتعلقة بخلق العالم، ندخل في سلسلة أحداث مليئة بالتهويلات والمبالغات . فنرى مجموعة ابراهيم القليلة تهزم تجمع ملوك بلاد الرافدين السبعة بقيادة «أميرافل» الذي قرنه بعض الباحثين بحمورابي (التكوين ١٤: ١ - ١٦)، ومدن بكاملها تختفي من الوجود بنار وكبريت من السماء تنسكب عليها (التكوين ١٩: ٢٢ - ٢٦)، وتوهب الذرية لرجال ونساء في المائة من عمرهم (التكوين ١٧: ١٨ - ٢٤)، ويأتي الآلهة إلى بيوت البشر ويأكلون على موائدهم (التكوين: ١٨: ١ - ٢٣)، وتلتحم بعض شخصيات الآباء في صراع جسدي مع الآلهة (التكوين ٣٢: ٢٢ - ٢٩).

٢ - الخروج من مصر، ودخول كنعان :

ترك الرواية التوراتية فجوة زمنية تمتد قرابة أربعمئة سنة في تسلسل أحداثها . فالنص ينتقل مباشرة من موت يوسف في مصر واستعباد بني اسرائيل هناك من بعده، إلى ولادة موسى، ويصمت صمتاً تاماً عن حياة الأسباط الاثني عشر في مصر بين هذين الحدثين . الأمر الذي دعا كثير من الباحثين إلى القول بأن الخارجين من مصر لا علاقة لهم بالآباء الأولين، وأن الربط بين التقليدين الشفويين، قد تم على يد محرري التوراة المتأخرين* .

* - نود أن ننبه هنا، إلى أن القرآن الكريم لم يربط بين شخصية يعقوب حفيد إبراهيم، وإسرائيل، الجذ الأعلى لبني اسرائيل . ولم يورد كلمة اسرائيل كاسم علم إلا مرة واحدة: «كل الطعام كان حلاً لبني اسرائيل، إلا ما حرم اسرائيل على نفسه» - البقرة: ٣ .

أما عن زمن الخروج، فهناك اتفاق على وضعه قرابة عام ١٢٦٠ ق.م، إبان حكم الفرعون رمسيس الثاني الذي اشتهر بتشييد المباني العامة والصروح الضخمة، اعتماداً على اليد العاملة المسخرة، والذي اتخذ عاصمة له في منطقة الدلتا، حيث يسهل الفرار إلى بلاد الشام القريبة. وقد ورد في سفر الخروج، أن خروج بني اسرائيل قد تم من مدينة «رعمسيس» باتجاه «سكوت». (الخروج ١٢: ٣٧). ومدينة رعمسيس معروفة في التاريخ المصري، فهي التي بناها الفرعون رعمسيس الثاني في الدلتا قرب الحدود المصرية الشرقية وأطلق اسمه عليها. إلا أنه رغم الجهود الكبيرة التي بذلها المؤرخون حتى الآن، فقد فشلوا في إيجاد أساس تاريخي لقصة الخروج من مصر، وبقيت النصوص المصرية صامتة صمتاً مطبقاً عن هذا الحدث المركزي في كتاب التوراة. مما يرجح أن الخروج قد قامت به مجموعة صغيرة من الأجراء المسخرين فرت بشكل سلمي، أو سمح لها بالخروج والعودة من حيث أتت. فمن غير المعقول أن يغادر مصر ستمائة ألف مسخر من أشباه العبيد، وينسحبون من الدلتا في قتال تراجعي نحو برزخ السويس حيث يهزمون الفرعون ويتسببون في مقتله، دون أن تأتي سجلات ذلك العصر، الذي يعتبر من أكثر فترات التاريخ المصري توثيقاً، على ذكرهم.

كل هذا يجعلنا نلحق سفر الخروج بسفر التكوين، باعتباره استمراراً للقصص الملحمي التي لا تعتمد إلا القليل من الأحداث التاريخية الواقعية، فالسفر، كسابقه، مليء بالتهويلات الملحمية، كقصة ولادة موسى وحياته، والأوبئة العشرة التي حلت بفرعون وأهل بيته وكل شعبه، وعبور البحر، وقتال العماليق، وبقاء ثياب الهاريين جديدة لا تبلى، وغير ذلك من الأحداث.

أما عن دخول بلاد الشام وعبور نهر الأردن إلى أرض كنعان، فإن نتائج التنقيب الأثري تشير إلى بطلان الرواية التوراتية في كثير من أحداثها. فالمقاومة المسلحة التي واجهها الاسرائيليون من قبل ملوك شرقي الأردن لا أساس لها من الصحة، لأن منطقة شرقي الأردن كانت خالية من المراكز

الحضرية بين القرن السابع عشر والقرن العاشر قبل الميلاد^(٥١)، أما الاقتحام الصاعق للأراضي الكنعانية عبر الأردن، وتدمير واحراق مذهبها الرئيسية، فلم تقم عليه بيئة تاريخية حتى الآن، أما البيئة الأثرية فتؤكد عدم صحة جزء لا بأس به من الفتوحات المعزوة إلى يشوع بن نون، قائد قوات الغزو الاسرائيلي وسوف نعود فيما يلي إلى بسط نتائج التنقيب الأثري في أهم ثلاثة مواقع كنعانية، وصف سفر يشوع عملية اقتحامها واحراقها وتدميرها، وهي: أريحا وعاي وحاصور.

فيما يتعلق بأريحا، يعطي سفر يشوع وصفاً درامياً حياً عن اقتحام المدينة وتدميرها. فبعد الدوران حول المدينة ست مرات، حاملين تابوت العهد نافخين بالأبواق، تسقط أسوار المدينة من تلقاء ذاتها أمام الاسرائيليين الذين يدخلون المدينة ويقتلون من فيها من رجل وامرأة وطفل وشيخ وبقر وحمير وغنم. وقد فسّر بعد الباحثين سقوط سور أريحا على أنه نتيجة زلزال نسبته المهاجمون إلى معجزة من الرب. إلا أن لعلم الأثار رأي مختلف في هذا الموضوع. فرغم أن الزلازل كانت شائعة في فلسطين، إلا أن آثار الدمار الزلزالية في أريحا تعود إلى أزمنة سابقة بكثير للتاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين، خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وقد ثبت أن آخر الزلازل المدمرة التي تصدع بسببها سور أريحا، قد وقع حوالي عام ٢٣٠٠ ق.م، وأن المدينة قد بنيت مجدداً حوالي عام ١٩٠٠ ق.م، حيث استمرت الحياة فيها إلى عام ١٥٦٠ ثم هجرت تماماً. وعندما عادت الحياة إليها في العصر البرونزي الأخير، انتعشت جزئياً لفترة قصيرة دون أن تبني لنفسها سوراً جديداً، ثم هجرت في مطلع القرن الثالث عشر وغمرها النسيان إلى القرن العاشر قبل الميلاد. أي أن مدينة أريحا لم تكن قائمة عندما دخل الاسرائيليون إلى فلسطين^(٥٢).

51- Kathleen Kenyon, The Bible And Recent Archaeology, op.cit, P.33

52- Ibid, PP. 33-40

وفيما يتعلق بمدينة «عاي»، فإن البيانات الأثرية تشير إلى أن المدينة قد انتهت تماماً قبل ألف عام من وصول الاسرائيليين. وعلى ذلك فإن أوائلهم لم يسمعوها إلا بذكرى تلك المدينة العظيمة التي ازدهرت في عصر البرونز المبكر. وقد تم الكشف في المستويات العليا للموقع عن قرية غير ذات شأن تعود إلى القرن العاشر قبل الميلاد، أي بعد فترة طويلة من دخول الاسرائيليين. أما بخصوص مدينة «حاصور»، فقد دلت التنقيبات على أن المدينة قد دمرت في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهو التدمير الذي يتطابق في تاريخه مع حملة الفرعون سيتي الأول على فلسطين. ثم أعيد بناء المدينة مباشرة لتدمر قرابة عام ١٢٣٠ ق.م، أي حوالي الفترة المفترضة لدخول الاسرائيليين^(٣٠). بعيداً عن هذه المواقع الثلاث، تتفاوت البيانات الأثرية فيما يتعلق بالمدن التي يروي سفر يشوع اقتحامها وتدميرها، فمنها ما يتطابق مع التاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين، ومنها ما يتباعد. ولكن الذي يجعل الأمر أكثر تعقيداً مما نعتقد، هو أن الدمار الذي لحق المدن الفلسطينية خلال الربع الأخير من القرن الثالث عشر، لا يمكن إرجاعه بصورة مؤكدة إلى جهة بعينها. فإضافة إلى أحداث سفر يشوع، وهي أحداث غير مؤكدة تاريخياً، هناك شعوب البحر الذين كانوا في طريقهم إلى مصر في تلك الفترة، ثم تراجعوا عنها أمام رمسيس الثالث الذي دفعهم إلى فلسطين وطاردهم هناك، وعلى ذلك فإن جزءاً لا بأس به من المدن المدمرة يمكن عزوها إلى شعوب البحر أو إلى رمسيس الثالث نفسه.

وخلاصة القول في موضوع دخول كنعان، هو أنه لم يتوفر لدينا دليل تاريخي يثبت رواية التوراة، أما الدلائل الأركيولوجية فلا تؤيد الرواية التوراتية إلا في بعض جوانبها. وحتى في هذه الحالة، فإن الشكوك تبقى قائمة والبرهان غير أكيد. ومن المرجح أن الدخول قد تم بشكل بطيء وسلمي في

معظم الأحوال، وعلى فترات طويلة ومتباعدة سمحت للقادمين بالاختلاط مع المقيمين في الأرض واستيعاب ثقافتهم، وأن هؤلاء القادمين لم يدخلوا بأعداد كبيرة من شأنها تغيير الطبيعة السكانية للمنطقة والطغيان على الغالبية الكنعانية الموجودة هناك منذ بدايات التاريخ المكتوب. ومن المؤكد أن السيطرة القصيرة للإسرائيليين في مملكتي السامرة ويهوذا، لم تكن إلا سيطرة سياسية لا تعكس بالضرورة تفوقاً عددياً.

والبرهان على هذه المقولة يأتي من علم الآثار الذي لم يستطع أن يكتشف أية دلائل تشير إلى دخول فلسطين، خلال الجزء الأخير من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، من قبل جماعات كبيرة العدد ذات طابع ثقافي متميز. فالثقافة الكنعانية في جميع المواقع الفلسطينية، بقيت مستمرة في تطورها الطبيعي دون انقطاع أو انحراف يؤشر إلى حلول أقوام جديدة أتت معها بتقاليد غريبة عن كنعان^(١٤)، تستثني من ذلك طبعاً منطقة الفلسطينيين على الساحل الفلسطيني حيث تتبعنا من الفصل السابق الظهور المفاجيء للثقافة الفلسطينية واختفاءها السريع بعد ذلك.

لقد تداخلت في سفر يشوع الأحداث التاريخية مع الأحداث الملحمية بشكل يجعل من الصعوبة بمكان فرز الحقيقة عن الخيال.

٣ - عصر القضاة:

بعد سفر يشوع الذي يصف اقتحام القبائل الاسرائيلية أرض كنعان واستيلائها على أرض فلسطين كاملة، نجد سفر القضاة يعطينا صورة مختلفة تماماً عن تلك القبائل المنتصرة. فبعد الاستقرار في الأرض، نجد أن القادمين ليسوا إلا جماعات مفككة منقسمة على نفسها إلى فريقين متخاصمين هم

54- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, Op. Cit, P. 204-206.

القبائل الشمالية والقبائل الجنوبية، وأن خطأً من المدن الكنعانية القوية تشكله أورشليم وجازر وعجلون يفصل بين المجموعتين ويمنع اتصالها. وأن بعض المدن الكنعانية التي من المفترض أنها وقعت في أيدي الاسرائيليين إبان اجتياحهم، تعيش حياتها الطبيعية كمدن مستقلة، وبعضها الآخر قد سكنه الاسرائيليون إلى جانب الكنعانيين الذين لم يتمكنوا من طردهم. كما نجد غزاة الأمم المتجبرين، ليسوا إلا فرقاً مستضعفة واقعة تحت نير جيرانهم الفلسطينيين، يضطهدونهم ويسومونهم سوء العذاب.

ويعطي المؤرخون من ذوي الاتجاه التوراتي لهذا الواقع المتناقض تفسيرات أكثر تناقضاً وأقرب إلى اللاهوت منها إلى المنطق التاريخي. ولنقرأ على سبيل المثال ما يقوله عالم اللغات القديمة اللامع البروفيسور س. هـ. غوردن في كتابه «الشرق الأدنى القديم» الذي أفرد ثلثه لتاريخ بني اسرائيل، في معرض تفسيره لأحوال الاسرائيليين في عصر القضاة: [عند اقتحام أرض كنعان، لم يمارس الاسرائيليون عملية إبادة كاملة للكنعانيين ولم يطردوهم من مدنها وأراضيهم. وحينما كانت شوكة الاسرائيليين تقوى كانوا يستعبدون الكنعانيين ويشغلونهم في أعمال السخرة لصالحهم. لقد أرادت المشيئة الإلهية ابقاء الكنعانيين إلى جانب بني اسرائيل، من أجل ابقاء روح النضال قوية وشعلة الايمان متقدة، فإذا رجحت كفة الكنعانيين في الصراع، عاد الاسرائيليون عن غيهم وانقلبوا إلى عبادة الاله القادر على تخليصهم من يد أعدائهم]...!!

لقد دام عصر القضاة قرابة قرنين من الزمان، ومع ذلك لم يستطع علم الآثار تقديم أي دليل على وجود ازدهار ثقافة اسرائيلية متميزة، وخصوصاً في المواقع التي كانت مركز الأحداث في سفر القضاة مثل «شلوه» و«بيت إيل» و«جبعه» و«دان». ففي موقع جبعه التي كانت مقر داود ومسقط رأسه، لم يعثر

المنقبون إلا على قرية صغيرة تعود إلى مطلع عصر الحديد حوالي عام ١٢٠٠ ق.م، ذات تحصينات بدائية وبيوت ذات أسقف خشبية. الأمر الذي يشير إلى أن الاسرائيليين كانوا يعيشون على هامش المجتمعات الكنعانية والفلسطينية القوية. والشيء نفسه ينطبق على بيت إيل التي كانت مدينة كنعانية متواضعة في عصر البرونز الأخير، ثم هدمت وانقطع فيها الاستيطان إلى بداية عصر الحديد، حيث عادت الحياة إليها من خلال بلدة صغيرة ذات بنيان بدائي، استمرت حتى القرن العاشر، أي طيلة فترة عصر القضاة. أما مدينة دان التي اعتبرت في سفر القضاة الحد الشمالي للاستيطان الاسرائيلي، فقد تبين من غلبة النمط الخزفي الفلسطيني في موقعها، أنها كانت واقعة تحت النفوذ الفلسطيني معظم فترة عصر القضاة^(٥٦).

ولعل في قصة شمشون المعروفة في سفر القضاة، أوضح دليل على استمرار الأسلوب والمضمون الملحمي في سفر القضاة. وعلاقة شخصية شمشون بشخصيات ملحمة أخرى في أدبيات الشرق القديم، معروفة ولا مجال هنا لاعطاء مزيد من التفصيلات*.

٤ - المملكة الموحدة :

بعد خضوعهم لاضطهاد الفلسطينيين فترة طويلة، قرر الاسرائيليون توحيد قواهم تحت قيادة أول ملوكهم «شاول» الذي أمضى حياته في قراع الفلسطينيين، عبر روايات لا يمكن تصنيفها إلا في زمرة الملاحم. وتبلغ الحكمة

56- K. Kenyon, Archaeology In The Holy Land, op.cit, PP.229-232

* - راجع مؤلفي «كنوز الأعماق، قراءة في ملحمة جلجامش» دار العربي، دمشق ١٩٨٧ ومؤلفي الأسبق «ملحمة جلجامش»، دار الكلمة، بيروت ١٩٨٢.

الملحمية لحياة شاول ذروتها، في مشهد موته مع أولاده الثلاثة. نقرأ في صموئيل الأول ٣١: ٢- ١٣ [واشتدت الحرب على شاول فأصابه الرماة رجال القسي فانجرح جداً من الرماة. فقال شاول لحامل سلاحه استل سيفي واطعني به لئلا يأتي هؤلاء الغلف ويطعنوني ويقبحوني، فلم يشأ حامل سلاحه لأنه خاف جداً. فأخذ شاول السيف وسقط عليه. ولما رأى حامل سلاحه أنه قد مات شاول، سقط هو أيضاً على سيفه ومات معه. فمات شاول وأبنائه الثلاثة وحامل سلاحه وجميع رجاله في ذلك اليوم معاً... وفي الغد لما جاء الفلسطينيون ليعدوا القتلى، وجدوا شاول وبنيه الثلاثة ساقطين في جبل جلبوع، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه... وسمروا جسده على سور بيت شان. ولما سمع سكان يابيش جلعاد بما فعل الفلسطينيون بشاول، قام كل ذي بأس وساروا الليل كله وأخذوا جسد شاول وأجساد بنيه عن سور بيت شان وجاءوا بها إلى يابيش وأحرقوها هناك. وأخذوا عظامهم ودفنوها]. وهذا مشهد يليق بملحمة من ملحمتي هوميروس المعروفتين، وخصوصاً فيما يتعلق باحراق جثة شاول وأولاده قبل دفنهم، وهي عادة غير معروفة في تعاليم التوراة، تركها محررو التوراة في حلتها الملحمية هذه رغم تعارضها مع الشريعة.

وخلف داود شاول، بعد أن أظهر بطولات خارقة أثناء خدمته مع شاول، استهلها بقتله فارس الفلسطينيين «جليات»، وهو فتى غرلاً يحمل سوى المقلاع وعصا الراعي، وهذه فكرة كثيرة التكرار في ملاحم الشعوب. إضافة إلى ذلك فإن بقية سيرة حياة داود كملك تفشي الكثير من العناصر الملحمية المعروفة في الشرق القديم. فقد كان الأصغر بين إخوته الثمانية، مع ذلك اختاره الرب ليخلف شاول على الملك. وهنا يمكن أن نقارن مع ملحمة كرت الأوغاريكية، حيث كان كرت ثامن إخوته. ومثل كرت أيضاً الذي حصل على عروسه بالحرب، كذلك داود الذي ترتب عليه قتل العديد من الفلسطينيين مهراً لعروسه. وكلا الملكين يتعرض لغضب سماوي بسبب خطاياهما، فداود يخطيء بزواجه من زوجة أوريا الحثي بعد أن دبر قتله،

وباحصائه بني اسرائيل، وكثرت مخطيء بنسيانه تقديم النذور للآلهة، فتعرض مملكتنا الاثنين للجوائح والمصائب، وهلك من بني اسرائيل سبعون ألفاً. وشخصية داود في سفر صموئيل أبعد ما تكون عن ملامح الرصانة التي حاول محررو التوراة رسمها للملكهم، فكان مولعاً بالموسيقى، ويقود موكب الرقص العنيف أمام تابوت العهد بعد معارك النصر كملك وثني.

لقد وحد داود قبائل الشمال وقبائل الجنوب، وأسس أول وآخر مملكة موحدة لبني اسرائيل. وتقول الرواية التوراتية التي لم يؤيدها شاهد تاريخي، أن داود بعد أن استقرت له الأمور داخلياً، قد اتجه إلى التوسع فاخضع منطقة شرقي الأردن، ثم امتد شمالاً إلى آرام فاخضع دمشق والممالك الآرامية الأخرى. أما ابنه سليمان فقد تفرغ من بعده إلى البناء والتشييد والتجارة والنشاط الديبلوماسي، فبنى هيكل الرب في اورشليم وإلى جانبه المنطقة الملكية بقصورها المتعددة وأبنيتها الادارية، وجعل العاصمة وحصنها تحصيناً قوياً. وإضافة إلى أعماله في اورشليم فقد أعاد بناء ثلاث مدن كنعانية قديمة هي حاصور ومجدو وجازر. وقد بلغ من ثروة سليمان في ذلك الوقت أن سفنه قد جاءت في إحدى حملاتها محملة باربعمائة قنطار من الذهب، أي ما يعادل سبعة عشر ألف كيلوغراماً بأوزاننا المعروفة اليوم، وبلغ من رخاء الناس أن الفضة في اورشليم كانت مثل الحجارة!!

فأين هذا الإطناب التوراتي من البيئة الأركيولوجية والتاريخية؟ في الحقيقة، يمكن لنتائج التنقيب الأثري، وخصوصاً في المدن الملكية الثلاثة مجدو وجازر وحاصور أن تسند واقعة قيام سلطة مركزية خلال القرن العاشر قبل الميلاد في فلسطين الداخلية، غير أن المنقبين لم يعثروا على دلائل تقدم حضاري وازدهار اقتصادي. فخارج المواقع القليلة التي لقيت عناية خاصة، كان أهل المملكة يعيشون حياة فقيرة جداً وبسيطة إلى أبعد الحدود. أما الديانة السائدة في كل المواقع التوراتية المكتشفة، فكنعانية قديمة تتمحور

حول آلهة الخصب المعروفة^(٥٧). أما عن عظمة أورشليم أيام الملك سليمان، فإن علم الآثار (كما بينا سابقاً بالتفصيل) لا يستطيع تقديم بينة عليها لأن المدينة بكاملها قد ضاعت بسبب استخدامها كمقالع للحجارة، عدا أجزاء من السور لا تقدم كثيراً من المعلومات الدقيقة، رغم تقديمها لتواريخ أكيدة. والشيء نفسه ينطبق على هيكل سليمان الذي لم يبق منه ولا من أسواره حجر واحد. وجل ما بقي قائماً إلى اليوم هو جزء من أساسات سور هيكل زربابل الذي أقيم بعد العودة من المنفى، وما يدعى خطأ ببرج داود، الذي يرجع إلى فترة المكابيين في القرن الثاني قبل الميلاد، وأجزاء من سور هيرودس بها فيها حائط المبكى التي تعود إلى القرن الأول قبل الميلاد. وتؤكد عالمة الآثار السيد كاثلين كينيون، التي كشفت عن كل ما يمكن كشفه في موقع أورشليم القديمة، عدم جدوى البحث عن هيكل سليمان لأنه قد ضاع إلى الأبد.

أما من الناحية التاريخية، فلا يمكن التثبت من قيام المملكة الموحدة، ولا من وجود داود وسليمان، بسبب عدم تقاطع الأخبار التوراتية هنا مع أي نص تاريخي قديم. إلا أنه يمكن استنتاج قيام المملكة الموحدة، ووجود أساس تاريخي لسليمان وداود، وذلك من البيانات التاريخية اللاحقة التي تثبت وجود مملكتي يهوذا واسرائيل، وورود أسماء خلفاء سليمان على هاتين المملكتين في السجلات الآشورية مثل عمري وأخاب وياهو ومنسي ومنحيم. إلا أنه يصعب فرز الملامح التاريخية لداود وسليمان عن الظلال الملحمية التي أحاطت بهما في الرواية التوراتية. أما عن توسع المملكة الموحدة وتكوينها لامبراطورية مترامية الأرجاء فليس إلا حبكة ملحمية صرفة، لا تتقاطع مع أية معلومة تاريخية أكيدة.

وخلاصة القول في أمر المملكة الموحدة اعتماداً على البيانات الأركيولوجية والتاريخية، هو أنها لم تكن سوى مملكة صغيرة لا تزيد رقعة ولا

منعة. عن ممالك بلاد الشام القائمة في ذلك العصر، قامت خلال فترة قصيرة لا تتجاوز السبعين عاماً ثم آلت إلى الانهيار.

٥ - المملكة المنقسمة والانهيار:

بعد موت الملك سليمان حوالي عام ٩٢٥ ق.م، عادت الخلافات القبلية من جديد، وانقسمت المملكة إلى مملكة يهوذا في الجنوب تحت حكم ابن سليمان المدعو «رحبعام»، ومملكة اسرائيل في الشمال تحت حكم «يربعام». ويمكن القول اعتماداً على نتائج التنقيب الأثري، أن المملكة الحقيقية المزدهرة قد استمرت في الشمال، حيث الأراضي الزراعية الخصبة والطرق المفتوحة على التجارة في البر والبحر. أما في المملكة الجنوبية التي لم تنل من القسمة إلا الأراضي الفقيرة، فقد عاشت أورشليم في حالة من العزلة محاطة ببلاد معادية من جميع جهاتها. وبينما انفتحت السامرة على بقية العالم الكنعاني وصارت جزءاً منه، ازداد انكفاء أورشليم على نفسها تدريجياً ودخلت عصر التحجر والمحافظة الذي عاشه اليهود إلى نهاية تاريخهم.

وقد رأينا من خلال دراستنا الأركيولوجية لعدد من المواقع الرئيسية في المملكتين، تطابق الرواية التوراتية في جزء لا بأس به منها مع نتائج التنقيب الأثري ونصوص الشرق القديم. وهذا يدل على أن أسلوب محرري التوراة قد بدأ بالتغير بعد حادثة موت سليمان وانقسام المملكة، حيث يضعف تدريجياً السرد الملحمي للأحداث، وتحل محله محاولة شبه ناجحة لسلسلة الأحداث بأسلوب تاريخي منسق، غير أنه رغم العديد من التقاطعات الثابتة بين الرواية التوراتية والشواهد الأثرية والتاريخية، خلال فترة المملكة المنقسمة، فإن محرري التوراة كانوا في كثير من الأحيان على شيء من الانتقائية في تقديم الأحداث. فاشترك الملك آخاب في حلف قرقرة ضد شلمنصر الثالث لم يرد

في التوراة، وليس لدينا ما يدعو إلى الشك في صحة الخبر الآشوري المتعلق بذلك، حيث تم تقديم معلومات مفصلة عن عدد الجنود والفرسان والعربات التي قدمها آخاب للمعركة. وكذلك الأمر فيما يتعلق بخضوع الملك ياهو للعاهل الآشوري، وتقييل الأرض تحت قدميه، الذي أغفلته الرواية التوراتية بينما نراه مصوراً في منحوتة بارزة آشورية كتب تحتها: «جزية ياهو بن عمري».

ورغم المحاولة شبه الناجحة لتقديم تسلسل تاريخي منسق فيما يتعلق بأخبار المملكة المنقسمة، فإن الظلال الملحمية بقيت تؤطر الكثير من الأحداث والأشخاص. فملاك الرب يضرب جنود سنحاريب عند أسوار أورشليم ويقتل ١٨٥ ألفاً من جنوده (الملوك الثاني ١٩ : ٣٥). والنبى إيليا أيام الملك آخاب يقتل مائة من جنود الملك أتوا لاحتضاره (الملوك الثاني ١ : ٣ - ١٦)، ويذبح أربع مائة من أنبياء البعل بعد تغلبه عليهم في منافسة تقديم الذبيحة (الملوك الأول ١٨ : ٢٠)، ويفلق مياه الأردن بضربة من رذائه (الملوك الثاني ٢ : ٨)، وهوينزل المطر أو يجسه عن الأرض (الملوك الأول ١٧ : ١، ١٨ : ١ - ٤٦)، ويركب عربة نارية تحمله إلى السماء (الملوك الثاني ٢ : ١١ - ١٣).

بناء على ما تقدم كله، نخلص إلى القول بأن كتاب التوراة قد ابتدأ بالأسطورة في مطلع سفر التكوين، حيث جاء بعدة أساطير تنتمي إلى النسق الميثولوجي السوري - البابلي. ثم انتقل إلى السرد الملحمي الذي يعتمد أحداثاً مفرقة في القدم تختلط بالخرافة وتحيط بها هالات البطولة والمعجزة، بطريقة يصعب معها تبين الخط الفاصل بين الحقيقة والخيال. بعد ذلك أخذ الخيط التاريخي يتوضح تدريجياً بين الخيوط المتشابكة للسرد الملحمي، حتى توصل محررو التوراة إلى محاولة ناجحة جزئياً للتوثيق التاريخي، يجب التعامل معها بحذر بسبب انتقائيتها وتدخل أهواء أصحابها.

من هنا، يجب تصنيف مضمون الكتاب وفق هذه الزمر الأربعة وإرجاع

كل رواية إلى زمرتها قبل دراستها والتعقيب عليها . فليس من المعقول أن نبحت عن الأساس التاريخي لدمار مدينتي سدوم وعمورة بنار وكبريت من السماء ، بالطريقة التي نبحت فيها عن الأساس التاريخي لدمار السامرة أو اورشليم ، كما فعل الصليبي عندما أعطى القيمة التاريخية نفسها لكلا الحادثن ، انطلاقاً من القبول الكامل للرواية التوراتية باعتبارها تاريخاً مؤكداً .

الباب الثالث

البيئة النصية
من كتاب التوراة

بعد قراءتنا للتوراة مجدداً على ضوء نظرية كمال الصليبي ، تبين لنا حقيقة محيرة ، وهي أن كل ما في هذا الكتاب ، سواء بنصه العبري المَسُوري (محركاً كان أم غير محرك) ، أم بترجماته المختلفة إلى اللغات القديمة ، لا يتفق على الاطلاق مع نتائج «التوراة جاءت من جزيرة العرب» . وقبل أن نبدأ في بسط بيناتنا النصية ، نرى من الواجب التوقف قليلاً عند مسألة تاريخ النص العبري للتوراة وترجماته القديمة ، لأن الصليبي لم يشرح لنا في مقدماته النظرية سوى جزء يسير من الحقائق المتعلقة بهذا الموضوع .

يقول الصليبي في مطلع فصله الثاني تحت عنوان «مسألة نهج» :
[والموضوع هنا ، هو التوراة العبرية ، وهي مجموعة من نصوص تاريخية وأدبية ودينية باللغة القدم كتبت أصلاً بأحرف أبجدية خالية من الحركات والضوابط . ولأن لغة هذه النصوص خرجت عن إطار الاستعمال العام منذ زمن يعود إلى ما بعد القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد ، فإنه لا يمكن لأحد أن يعرف كيف كانت هذه اللغة تلفظ وتصوت في الأصل لدى الشعب أو الشعوب التي تكلمتها . ولقراءة التوراة العبرية وفهمها يتوجب على الباحث إما أن يتبع تقليد العبرية المتأخرة ، أو أن يسعى إلى الارشاد عبر اللغات السامية التي ما زالت حية مثل العربية والسريانية . وعلى العموم فإنه من الأضمن للباحث في

التوراة أن يعتبر لغتها العبرية لغة مجهولة عملياً يجب تفكيك رموزها من جديد بدلاً من معاملتها كلغة مكشوفة الأسرار].

[وبفضل الأمانة العلمية التي تحلى بها المسوريون، وهم العلماء اليهود التقليديون القدماء الذين ضبطوا النصوص التوراتية بالإشارات الصوتية، فإن النص المكتوب بالأحرف الساكنة للتوراة العبرية وصل إلينا من القدم دون أن يمس تقريباً. . ولا بد أن الأسفار التوراتية عموماً، كما هي موجودة بين أيدينا، قد أخذ معظمها شكله الحالي قبل النهاية التاريخية لبني إسرائيل، أي في حدود القرن السادس أو الخامس قبل الميلاد. والدليل على ذلك هو أن التوراة العبرية كانت قد ترجمت فعلاً بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية وإلى اليونانية وقد بدىء بها في المرحلة الهلينية. وإن إضافة الأحرف الصوتية إلى العبرية التوراتية، باستعمال إشارات صوتية خاصة، هو ما فعله المسوريون الفلسطينيون والبابليون بين القرن السادس والتاسع أو العاشر من العصر المسيحي. وكانت اللغة العبرية في حينه قد غابت عن الاستعمال العام منذ ألف سنة أو أكثر]. (الصفحات ٥٧ - ٥٩).

تتضمن هذه المقدمة النظرية عدداً من المعلومات التي تنقصها الدقة، والآراء غير المستندة إلى واقع الأمور:

١ - يقول الصليبي أن هناك نصاً عبرياً واحداً لكتاب التوراة، تسلسل بشكله الثابت منذ القرن الخامس قبل الميلاد إلى القرن العاشر الميلادي حيث انتهت عملية تنقيطه على يد المسوريين. والحقيقة أن دراسات وثائق البحر الميت قد أثبتت وجود عدة نصوص للتوراة العبرية، لم يكن النص المسوري إلا واحداً منها.

٢ - وهو يقول أن التوراة العبرية قد ترجمت بكاملها إلى اللغة الآرامية خلال المرحلة الأخمينية (أي بين فتوحات قورش والاسكندر)، وإلى اليونانية التي بدىء بها في المرحلة الهلينية. والحقيقة أن ما يدعى بالترجمات، وهي ترجمات التوراة إلى الآرامية الشرقية قد تمت بعد الميلاد، وفي حدود الفترة

الواقعة بين القرنين الثاني والخامس الميلاديين ، كما تمت الترجمة المعروفة بالبطشيطا إلى السريانية في خلال الفترة نفسها .

٣ - وهو يرى أن اللغة العبرية قد خرجت عن إطار الاستعمال العام بعد القرن السادس أو الخامس (ص ٥٧) ، وماتت كلغة محكية ، حيث راح قراء التوراة الذين لم يعرفوا كيف كانت اللغة العبرية لكتبهم المقدسة تلفظ في الأصل ، يضيفون إليها الإشارات على الأساس الآرامي ، اللغة التي كانوا بها يتكلمون (ص ٤٥) . والحقيقة إن خروج اللغة العبرية عن إطار الاستعمال العام ، والذي لا يعود قطعاً إلى هذا الوقت المبكر ، لا يعني موت اللغة لأنها بقيت لغة مقدسة تستخدم في العبادات والطقوس وقراءة أسفار التوراة ، على الأقل بالنسبة للكهنة المتفرغين . وإذا كان العلماء المسوريون الذين أكد الصليبي على دقتهم قد حفظوا النص العبري للتوراة لفترة تزيد عن ألف سنة ، فكيف تموت اللغة العبرية في القرن الخامس ق . م ، ولما يمض على بناء هيكل زربابل بضعة عقود من الزمن .

٤ - إن أول تحريك للنص العبري الساكن قد اكتمل على يد المسوريين بين القرن التاسع والعاشر الميلاديين ، بعد مضي أكثر من ألف عام على موت اللغة العبرية (ص ٥٩) ، ولهذا فإن ادخال الحركات والضوابط على النص ، قد تم بصورة اعتباطية في كثير من الأحيان ، مما غير اعراب الجمل وحوار المعاني (ص ١٥) . والحقيقة أن النص العبري المحرك قد اكتمل فعلاً على يد المسوريين في القرن العاشر الميلادي ، غير أن النص الساكن قد تم تحريكه بصورة غير مباشرة في وقت مبكر ، وذلك عن طريق الترجمة إلى لغة مصوتة ، كال يونانية التي ترجم التوراة إليها أواسط القرن الثالث قبل الميلاد . ولا عطاء مثال مبسط عما نعنيه بالتصويت غير المباشر ، نقول إن كلمة «كتب» باللغة العربية ، إذا وردت هكذا وبدون تحريك ، وإلى جانبها ترجمتها الانكليزية «Wrote» فإن الكلمة تعني الفعل «كَتَبَ» ، لا «كُتِبَ» كجمع لكلمة «كتاب» .

ولقد كان بين أيدي المسوريين عدد لا بأس به من الترجمات إلى لغات مصوطة (كما سنبين لاحقاً) ترشدتهم في مواضع الإشكال، وهذه الترجمات قد صيغت في وقت مبكر كان خلاله واضعوها على صلة مباشرة باللغة الحية أكثر من زملائهم المسوريين. من هنا، فإن وصف كمال الصليبي عمل المسوريين بالاعتباط لا يتفق وقوله فيهم: [ولو كان الباحثون المحدثون في التوراة بمثل عناية المسوريين واحتراسهم لما كان علم التوراة الحديث على ما هو عليه من تشويش اليوم] (ص ٥٩)؟ ورغم أن هذا الأمر لا ينفي وقوع المسوريين في أخطاء عديدة، إلا أنه يجعل من مقولة الصليبي (بأن من الأضمن للباحث اعتبار لغة التوراة لغة مجهولة يتوجب تفكيك رموزها)، مبالغة لا تقوم على مبرر تاريخي أو علمي.

ومن أجل القاء مزيد من الضوء على ملاحظتنا أعلاه، سنعمد فيما يلي إلى تقديم عرض تاريخي سريع لمسألة النص التوراتي^(١).

إن كل ترجمات التوراة إلى اللغات الحديثة، ترجع إلى النص المسوري، الذي اكمل العلماء المسوريون تنقيطه في تاريخ لا يتجاوز القرن العاشر الميلادي. وكلمة مسوري ومسوريون هي النسبة إلى «ماسوراه»، أي التقليد، لأن علماء الكتاب في ذلك الوقت، قد قرروا وضع الصيغة التقليدية النهائية لقراءة التوراة، من أجل اغلاق باب الاجتهاد في هذا المجال، في زمن صارت فيه اللغة العبرية في عداد اللغات الميتة فعلاً. غير أن النص الساكن الذي عمل المسوريون على تحريكه، يرجع في عهده إلى مجمع «حمنيا» في أواخر القرن الأول الميلادي بين عامي ٩٠ و ١٠٠ ميلادية، حيث قام علماء الكتاب باختيار النص العبري المعتمد من بين نصوص عديدة كانت متداولة حينها.

إلى جانب النص التقليدي، لدينا ترجمات قديمة للتوراة بعضها يرجع

1- John Allergo, The Dead Sea Scrolls, Penguin, London 1966, Chapter ٤, P 59-83

إلى ما قبل الميلاد، اعتمدت نصوصاً مغايرة للنص التقليدي الذي تم تثبيته بعد ذلك، أهمها الترجمة اليونانية المعروفة بـ «السبعينية» (السبتوجنت)، التي أنجزت في الاسكندرية أواسط القرن الثالث قبل الميلاد. على يد اثنين وسبعين عالماً في الكتاب، إبان عهد «بطليموس فيلادلفوس» (٢٨٥ - ٢٤٦ ق.م)، الذي جمعهم لهذه المهمة بعد أن سمع بالكتاب وأحب ضمه إلى مكتبته. وقد غدت الترجمة السبعونية الكتاب المتداول بين اليهود المتكلمين باليونانية، وشاعت في شتى بلدان حوض المتوسط، وبعد وقت قصير تم اعتمادها من قبل الكنيسة المسيحية الناشئة. وعندما أخذ المسيحيون يحتاجون اليهود اعتماداً على النص السبعيني، فقد جاذبته عند اليهود فعملوا إلى انجاز ترجمة أخرى، فظهرت ترجمة Aquila حوالي منتصف القرن الثاني الميلادي، والتي يبدو أنها اعتمدت نصاً أقرب إلى النص التقليدي منه إلى النص الأصلي للترجمة السبعينية. وقد استبدل اليهود هذه الترجمة بالترجمة السبعينية التي بقيت مرجعاً عند المسيحيين. وبعد ذلك بقليل ظهرت ترجمة Symmachus التي تميزت بحرية أكثر في التعبير وبأسلوب يوناني أكثر جزالة. وبعد ذلك بنصف قرن ظهرت ترجمة Theodotion، التي يبدو أن أصلها العبري أقرب إلى أصل Aquila والنص التقليدي منه إلى السبعينية. وخلال النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، قام أوريجين الاسكندري بوضع نص مقارن قسمه إلى عدة أعمدة، حيث وضع في العمود الأول النص التقليدي، وفي الثاني النص التقليدي مكتوباً بالاحرف اليونانية*، واتباع ذلك بترجمة Aquila ثم Symmachus ثم Theodotion، وفي العمود الأخير الترجمة السبعينية مراجعة من قبله. غير أن المراجعة التي قام بها أوريجين للترجمة السبعينية، قد غدت بحد ذاتها ترجمة مستقلة، وتم تداولها على هذا الأساس.

* - راجع ما أشرنا إليه منذ قليل حول التصويت غير المباشر للنص العبري.

بين هذه الترجمات اليونانية، كان يبدو أن السبعينية وحدها تنتمي إلى تقليد يختلف عن التقليد الذي تنتمي إليه بقية الترجمات. ورغم أن الخلاف لا يمس القضايا الجوهرية، إلا أن السبعينية تقدم، في أجزاء من الكتاب وخصوصاً في الكتب التاريخية، قراءة أوضح، بينما يتفوق النص القليدي في المزامير والأمثال والأسفار الشعرية الأخرى. وكان السؤال المطروح، هو إلى أي حد تمثل السبعونية تقليداً مستقلاً تمام الاستقلال؟ وإلى أي حد ساهم المترجمون في حصول الاختلاف؟. وقد بقي هذا السؤال معلقاً دون جواب حتى عام ١٩٤٨ حين بدأت الوثائق المعروفة بمخطوطات البحر الميت تباعاً من كهوف وادي قمران عند البحر الميت، ومنها لفائف تحتوي على أجزاء متفرقة من أسفار التوراة، بينها أجزاء لا بأس بها من سفر أشعيا وسفر صموئيل الأول، ومتفرقات من أسفار موسى الخمسة، وشذرات أخرى من هنا وهناك. وقد أرجع الباحثون أقدم نص بينها إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد. بينما تتوزع بقية الوثائق التوراتية على مدى القرن الثاني قبل الميلاد.* وفي وقت قصير تم تشكيل لجنة دولية لقراءة نصوص قمران وترجمتها شارك فيها علماء من خمس دول هي: الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا والمانيا وبولندا. وكانت لفيفة سفر إشعيا أول ما تم ترميمه وقراءته، وقد تبين أنها تتبع بدقة النص التقليدي حتى في أصغر جزئيات التهجئة، الأمر الذي أكد على قدم النص التقليدي واستمراريته. إلا أن الأجزاء التي عثر عليها من سفر صموئيل الأول، وتمت عملية ترميمها وقراءتها بعد عدة سنوات، كانت مفاجأة للعلماء، لأنها قدمت نصاً يتفق مع السبعينية كلمة فكلمة تقريباً. وبذلك تم

* - يقول كمال الصليبي في حاشية مقتضبة أسفل الصفحة ٥٩، ١٦ وثائق البحر الميت قد تكون ذات فائدة في دراسة اليهودية الفلسطينية في أيام الرومان، ولكنها لا تنفع في حل الغاز وغوامض التوراة العبرية، وليس لها قيمة بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة]. ولكننا سنظهر فيما يلي مدى قيمة هذه الوثائق بالعلاقة مع غرض هذه الدراسة.

الحصول على جواب السؤال القديم المعلق، فالترجمة السبعونية تمثل تقليداً مختلفاً عن النص السوري، ذي أصول مستقلة. وسنقدم فيما يلي مثلاً من سفر صموئيل الأول في ترجمته السبعينية، وفي نص قمران وفي النص التقليدي السوري وفق الترجمة العربية، لاعطاء فكرة عن نوعية الاختلاف والاتفاق بين هذه النصوص الثلاثة:

صموئيل الأول ١: ٢٣ - ٢٤

قمران	السبعونية
فمكثت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.	فمكثت المرأة وأرضعت ابنها حتى فطمته.

النص التقليدي
فمكثت المرأة وأرضعت ابنها حتى
فطمته.

وأصعدته معها الى «شيلوة» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزاً وليفة دقيق وزق خمر. ودخلت بيت الرب في شيلوة ومعهم الصبي.	وصعدت معه إلى «سلوام» مع عجل ذي ثلاث سنين وخبزاً وإيفة دقيق وزق خمر. ودخلت بيت الرب في سيلوم ومعهم الصبي.
--------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	-----------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

ثم حين فطمته أصعدته معها
بثلاث ثيران وإيفة دقيق وزق خمر،
وأنت به إلى الرب في «شيلوة».
والصبي صغير

وجاءوا أمام الرب، وذبح أبوه التقدمة، كما فعل سنة بعد سنة للرب. ثم قربوا الصبي فذبح العجل. وأنت حنة، أم الصبي إلى «علي» وقالت: . . .	وجاءوا أمام الرب، وذبح أبوه التقدمة، كما فعل سنة بعد سنة للرب. ثم قربوا الصبي فذبح العجل. وأنت حنة، أم الصبي إلى «علي» وقالت: . . .
-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------	-------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------------

فذبحوا الثور، وجاءوا بالصبي إلى
«علي» وقالت: . .

ولعل من المفيد أيضاً أن نعطي مثلاً عن كيفية انحراف الترجمة
السبعينية عن أصلها العبري القديم في بعض المواضع الحرجة التي تعكس
العناصر الوثنية في التوراة، وعن كيفية التفاف النص التقليدي على هذه
الفقرات. والمثال من سفر تثنية الاشتراع . .

التثنية ٣٢ : ٤٣

السبعونية	قمران
تهللوا أيها الأمم مع شعبه وأنتم يا ملائكة الله اعبدوه	تهللي أيتها السماوات معه وأنتم أيها الآلهة اعبدوه

النص التقليدي
تهللوا أيها الأمم، شعبه

والى جانب التأكد من وجود أصل عبري مستقل للترجمة السبعينية،
فقد أكدت لنا مخطوطات البحر الميت وجود أصول عبرية قديمة لنصوص

توراتية متداولة إلى جانب النص التقليدي ، مثل التوراة السامرية . فالسامريون ، منذ تكوين طائفتهم الصغيرة في القرن الخامس قبل الميلاد يعتمدون توراة لا تحتوي إلا على أسفار موسى الخمسة ، ويعتقدون ببطلان ما عداها . وهذه تختلف مع النص التقليدي في ستة آلاف موضع ، بينها ١٩٠٠ موضع تأتي في اتفاق مع الترجمة السبعينية . وتعود أقدم نسخها إلى القرن الحادي عشر الميلادي ، رغم أن السامريين يعتقدون بأنها ترجع إلى أيام موسى نفسه . وكان علماء الكتاب يقفون موقف الحذر من الأسفار السامرية ، معتقدين أن الاختلافات فيها إنما هي من صنع السامريين ، لتثبيت معتقداتهم في مواجهة اليهود والدفاع عن وجهات نظرهم تجاههم . إلا أن مخطوطات البحر الميت قد أثبتت وجود أصل عبري قديم للتوراة السامرية . ففي الكهف الرابع من كهوف قمران ، تم العثور على بقايا من مخطوط قديم لأسفار موسى الخمسة ، يتفق مع التوراة السامرية ضد النص التقليدي والترجمة السبعينية . الأمر الذي أثبت أصالة وقدم كتاب السامريين وانتسابه إلى تقليد مستقل بذاته ، له من المشروعية ما للنص التقليدي .

وهكذا نجد أن الطائفة المنشقة عن اليهودية ، التي كانت تقيم في مناطق قمران المنعزلة ، كانت تحتفظ إلى جانب نصوصها الخاصة ، بنصوص توراتية تنتمي إلى تقاليد متعددة دون أن تلزم نفسها بتقليد معين . ومن المؤكد أن تعدد التقاليد هذا ، هو الذي حث مجمع «جمنيا» على تثبيت النص التوراتي بشكل نهائي ، باعتماد أحد التقاليد واعتباره الممثل الحقيقي للكتاب المقدس . وهذا التقليد المعتمد هو الذي أوصله المسوريون إلى صيغته المنقطة المعروفة اليوم . ولعل أهم ما قدمته مخطوطات البحر الميت التوراتية إلى علم الكتاب ، هو تغيير موقف العلماء الحديثين من النص المسوري ، لأنه لم يعد يمثل النص الوحيد الحقيقي في مقابل نصوص مشكوك بأمرها . وصار من المشروع ، بل ومن الضروري ، أن يرجع العلماء إلى النصوص الأخرى في مواضع الاشكال

أو الغموض التي يطرحها النص المسوري التقليدي ، بعد أن تبين أن لها من الأصالة ما يدانيه .

وبعيداً عن التقاليد المتنوعة للنص التوراتي ، أخذ العلماء تدريجياً بالاعتماد على نصوص أوغاريت ، بعد أن تبين مدى الصلة بين الكنعانية الأوغاريتية ولغة التوراة المدعوة بالعبرية (والتي ليست سوى كنعانية فلسطين مكتوبة بالخط الآرامي المربع) . وقد أدت هذه الدراسات المقارنة حتى الآن ، إلى القاء الضوء على مئات المواضيع الغامضة في النص التقليدي اعتماداً على نصوص أوغاريت . وسنقدم فيما يلي مثلاً واحداً لغرض الإيضاح^(١) ، وهو مأخوذ من أنشودة دبورة في سفر القضاة ، التي يعتبرها علماء الكتاب من أقدم نصوص التوراة ، وذلك اعتماداً على أسلوبها وطبيعة الكلمات المستخدمة فيها :

«جلعاد» في عبر الأردن سكن ،

و«دان» لماذا استوطن عند السفن ،

و«أشير» أقام على ساحل البحر ، وفي فرضه سكن .

- القضاة ٥ : ١٧ -

تلوم النبوة دبورة في هذا المقطع القبائل التي لم تهب إلى مساعدتها ضد «سيسرا» قائد جيوش مدينة حاصور الكنعانية . والمشكلة تكمن هنا في السطر الثاني الذي يقول إن أهل دان أقاموا عند السفن ، في الوقت الذي نعرف فيه أن الدانيين لم يسكنوا عند البحر ولم يمارسوا أي نشاط بحري على الإطلاق . فالذي يضيف الغموض على ادانة دبورة للدانيين هو كلمة «السفن» التي وردت في العبرية الساكنة «ءنيوت» وتعني «سفن» . ولكن السفن هنا لا محل لها في المعنى المراد توصيله ، ولا بد أن في الكلمة تجانساً في التهجئة مع كلمة أخرى تختلف عنها في المعنى . ومثل هذه الفرضية بدا مرجحاً ، نظراً لقدم الأنشودة وخروج بعض كلماتها عن الاستعمال العام . ولكن ماهو المعنى

1- Peter C. Craigie, Ugart And The Old Testament, Erdmans, Michigan 1983, pp. 84-

الأخر، الذي خرج عن الاستعمال، لكلمة «ء نيوت»، خصوصاً وأنه لا وجود
لمعنى آخر لها في التوراة؟

وكمثال قريب من اللغة العبرية عن مثل هذا التجانس بين كلمتين
متفقتين في التهجئة ومختلفتين في المعنى، نجد كلمة «زند» التي تعني أعلى
الذراع، و«زند» التي تعني عود الخشب الذي تقدح به النار، وذلك بتحريكه
حركة دائبة ضمن ثقب محفور في عود آخر يدعى «الزنده» مما يؤدي إلى
اشتعاله بالنار. وقد بقيت الكلمة الأولى مستعملة في لغتنا الحديثة، بينما
انقرضت الكلمة الثانية التي لا نعثر عليها إلا في الأشعار الجاهلية أو المعاجم.
ولكن المشكلة المتعلقة بموضوعنا هنا، هي أن التوراة هي المرجع الوحيد للغة
العبرية، ومن غير الممكن تقصي الكلمات المهجورة في أي مرجع آخر. هنا
قدمت الكنعانية الأوغاريتية الحل الأقرب إلى الصحة لفهم كلمة مهجورة في
الكنعانية التوراتية.

ففي ثلاثة نصوص أوغاريتية، وردت كلمة «ءن» وبشكلها الآخر «ء
ني» بمعنى يسترخي أو يركن إلى الراحة. وفي أحد هذه النصوص وردت
الكلمة متعلقة بالفعل «جر» أي يبقى، وهذه حقيقة مثيرة للاهتمام، لأن «جر»
الأوغاريتية تعادل «جور» العبرية المستعملة في السطر أعلاه والمتبوعة بالكلمة
الغامضة «ء نيوت» وبذلك يكون التعبيران الأوغاريتي والتوراتي متعادلان
لغوياً، وتغدو الترجمة الصحيحة للمقطع كما يلي:

جلعاد في عبر الأردن سكن.

ودان لماذا بقي مرتاحاً

وأشير لماذا اقام على ساحل البحر، وفي فرضه سكن.

لقد أردنا من ذلك كله توضيح عدد من الأمور الهامة الوثيقة الصلة
بموضوعنا. فاولاً، إن حل اشكالات النص العبري للتوراة، عند هذه
المرحلة المتطورة من علم الكتاب، لا يتأتى من التسمر عند الصيغة المسورة

ومحاولة استنطاقها ما لا تستطيع النطق به ، كما فعل كمال الصليبي . ذلك أن المعلومات التي صارت متيسرة أمام الباحثين الآن ، تتيح لهم عدداً متنوعاً من المصادر التي تضيء النص التقليدي من خارجه ، خصوصاً وأن ترجمات التوراة المختلفة التي اعتمدت أصولاً مغايرة للنص التقليدي ، قد صار لها الآن المشروعية نفسها ، واللجوء إليها يزود الباحث بنظرات ثاقبة ومصيبة ، لمن كان أقرب إلى لغة التوراة من أي بحاث في العصر الحديث . فإذا عجزت هذه الترجمات عن إيضاح بعض الغوامض ، يبقى لدينا نصوص قمران ، واللغة الكنعانية الأم بلهجاتها المختلفة مثل الأوغاريتية والفينيقية .

وإن ما قمنا به من تعريف سريع بالترجمات اليونانية للتوراة وتواريخ انجازها وتسلسلها إلينا من مصادر عبرية مختلفة ، ومن تعريف بمخطوطات قمران التوراتية ، ينفي مقولة الصليبي عن موت اللغة التوراتية اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد ، وإن موت هذه اللغة قد ساهم في نسيان جغرافية الحدث التوراتي (الصفحات من ٤٥ إلى ٤٩) . فإذا كان أقدم نص توراتي من نصوص قمران يرجع إلى نهاية القرن الثالث قبل الميلاد ، وأقدم ترجمة ذات أصل مستقل ، وهي السبعونية ، ترجع إلى أواسط القرن الثالث قبل الميلاد ، أي بعد قرنين فقط من بناء نحميا لسور أورشليم بعد العودة من السبي ، وقرنين ونصف من إعادة بناء الهيكل على يد زربابل ، فكيف تسنى لهؤلاء نسيان مسرح الحدث التوراتي في غرب العربية ، خلال هذا الوقت القصير جداً .

وأخيراً ، إن توضيح تاريخ النص التقليدي للتوراة العبرية ، الذي اعتمد عليه الصليبي كوثيقة وحيدة ، يضعنا في جوف تهديدي للبدء في تقديم بيناتنا النصية التي تعتمد على الوثيقة ذاتها .

وسنعمد فيما يلي من فصول هذا الباب إلى تقديم ما قاله كتاب التوراة بكلماته ذاتها ، حول بعض المسائل الهامة التي أثار حولها الجدل الدكتور كمال الصليبي ، وجميعه لا يقدم سنداً من قريب أو بعيد لأطروحاته كلها .

٩- مسألة الأردن

بعد نقل مواقع الحدث التوراتي إلى غرب العربية، واجهت الصليبي مشكلة شائكة هي مشكلة «نهر الأردن» الذي ترتبط به جل أحداث التوراة الرئيسية. فكيف توصل إلى حلها؟. نقرأ في فصله المعنون «مسألة الأردن» ما يلي:

[الأردن (هـ- يردن) لم يكن في التوراة العربية نهراً. وأكثر من ذلك، فإن أهل الاختصاص يعرفون تماماً أنه ما من مكان وردت فيه الكلمة في النصوص التوراتية معرفة على أنها نهر. أما كيف صار النهر الفلسطيني الشهير يعرف بهذا الاسم فهي مسألة تستحق التمحيص بحد ذاتها، ولكنها ليست المسألة التي ستتطرق إليها هنا. والمسألة المباشرة والأنية هي التالية: إذا كان أردن التوراة العبرية ليس نهراً، فماذا يمكن أن يكون؟... في الاستعمال التوراتي، تؤخذ كلمة «هـ- يردن» تقليدياً على أنها اسم النهر المعروف في فلسطين، ولكنها ليست دوماً اسماً بل تعبير طوبوغرافي يعني «جرف» أو «قمة» أو «مرتفع». وفي المبنى «عبر هـ- يردن» (عبراً أو ما بعد الأردن)، الذي أخذ حتى الآن على أنه يعني «عبر الأردن» (أي شرق الأردن) تشير «هـ- يردن» بلا استثناء إلى الجرف الرئيسي لسراة عسير الجغرافية، الذي يمتد من الطائف في جنوب الحجاز إلى منطقة ظهران الجنوب قرب الحدود اليمنية. وفي معظم الحالات، تشير «عبر هـ- يردن» إلى أراضي عسير الداخلية تفريقاً لها عن عسير الساحلية التي كانت أرض يهوذا الاسرائيلية. وعلى العموم فإن

«هـ - يردن» من دون «عبر» يمكنها أن تشير إلى أي جزء من جرف عسير، وكثيراً ما تشير أيضاً إلى أي من القمم والمرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز] (ص ١٣٣ - ١٣٤).

والنقطة المصيبة في مقدمة الصليبي عن مسألة الأردن، هي أنه فعلاً لم ترد الكلمة في التوراة معرفة على أنها نهر في كل المواضع التي وردت فيها. ولكن السياق الذي وردت فيه دوماً، لا يدع مكاناً للشك بأن المقصود بالكلام هو نهر بعينه يدعى نهر الأردن. وسنقدم فيما يلي بضع أمثلة تكفي لتوضيح ذلك.

نقرأ في سفر الملوك الثاني ٦ : ١ - ٦ [وقال بنو الأنبياء لأليشع هوذا الموضع الذي نحن مقيمون فيه أمامك، ضيق علينا. فلنذهب إلى الأردن ونأخذ من هناك كل واحد خشبة ونعمل لأنفسنا هناك موضعاً لنقيم فيه. فقال اذهبوا... وإذا كان واحد يقطع خشبه وقع الحديد في الماء، فصرخ وقال أه يا سيدي، لأنها عارية (أي أن الفأس كانت مستعارة). فقال رجل الله أين سقط؟ فأراه الموضع فقطع عوداً وألقاه هناك فطفأ الحديد...]. في قصة معجزة النبي اليشع هذه، هناك تتابع منطقي في الأحداث لا يمكن أن يشير إلى أن المقصود بالأردن جرف صخري من أي نوع كان. فالجماعة تذهب لتحتطب خشباً من ضفاف الأردن لا من ذرى الجرف الصخري حيث لا توجد الأخشاب، وهناك تقع رأس الفأس الحديدية من أحد الرجال في الماء، الذي هو ماء نهر الأردن، لأن مجمعات المياه عادة لا توجد في الجروف الصخرية.

ونقرأ في سفر يشوع عن معجزة فلق مياه الأردن أمام الاسرائيليين عند عبورهم ما يلي: [فقال الرب ليشوع... وأما أنت فأمر الكهنة حاملي تابوت العهد قائلاً: عندما تأتون إلى ضفة مياه الأردن تقفون في الأردن... ويكون حينئذ تستقر بطون أقدام الكهنة حاملي تابوت الرب، سيد الأرض كلها، في مياه الأردن، أن مياه الأردن المياه المنحدرة من فوق تنفلق وتقف ندا وحداً. ولما ارتحل الشعب من خيامهم لكي يعبروا الأردن، والكهنة حاملو تابوت العهد

أمام الشعب، فعند اتيان حاملي التابوت إلى الأردن وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه، والأردن ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، وقفت المياه المنحدرة من فوق وقامت ندأ واحداً بعيداً جداً عن أدام، المدينة التي إلى جانب صرتان، والمنحدرة إلى بحر العربية بحر الملح انقطعت تماماً وعبر الشعب مقابل أريحا]. يشوع ٣: ١٣ - ١٧. [فكان لما صعد الكهنة حاملوا تابوت العهد من وسط الأردن، واجتذبت بطون أقدام الكهنة إلى اليابسة أن مياه الأردن رجعت إلى مكانها وجرت كما من قبل إلى كل شطوطه] يشوع ٤: ١٨.

من هذا الوصف الملحمي الحي لعبور الأردن، يتضح دون لبس أو إبهام أن المقصود بالأردن هو نهرو وليس جرفاً صخرياً. ذلك أن الحديث يدور حول «مياه الأردن» و«ضفة مياه الأردن» و«الأرجل التي تنغمس في ضفة المياه» و«شطوط الأردن»، ونحن إذا استبدلنا كلمة «الجرف» بكلمة «الأردن» في المقاطع أعلاه لحصلنا على الوصف الغامض التالي: [عندما تأتون إلى ضفة مياه الجرف، تقفون في الجرف. ويكون حينما تستقر بطون أقدم الكهنة حاملي تابوت الرب في مياه الجرف، أن مياه الجرف. . الخ. فعند اتيان حاملي التابوت إلى الجرف وانغماس أرجل الكهنة حاملي التابوت في ضفة المياه، والجرف ممتلىء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد. وقفت المياه المنحدرة من فوق. . الخ]، وهو قول لا معنى له إطلاقاً.

وفي تعليقه على كلمة «شاطيء الأردن» أو «شطوط الأردن» يقول الصليبي إن تعبير «شاطيء الأردن» الذي يرد في ترجمات التوراة كترجمة لتعبير «سفت هـ - يردن» بالعبرية، لا يعني «شاطيء الأردن» بل «شفا الجرف» (ويستشهد على ذلك بسفر الملوك الثاني ٢: ١٣ دون أن يورد الشاهد. فلتنظر الآن إلى تعبير «شاطيء الأردن» في سفر الملوك الثاني ٢: ٧ - ١٣ في سياقه العام لنعرف ما هو المقصود فعلاً بـ «سفت هـ - يردن». يروي الموضع من السفر معجزة قيام النبي ايليا بفلق مياه الأردن بردائه، فقبل ان يصعد إيليا

إلى السماء بمركبة نارية يأخذ بيد الإشع إلى الأردن حيث يسلمه النبوة هناك :
[ووقف كلاهما بجانب الأردن . وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء فانفلق إلى
هنا وهناك فعبرا كلاهما في اليبس . ولما عبرا ، قال إيليا لا إشع اطلب ماذا
أفعل لك قبل أن أؤخذ منك . فقال ليكن نصيب اثنين من روحك علي ...
وفيما هما يسيران ويتكلمان ، إذا مركبة من نار وخيل من نار ففصلت بينهما ،
فصعد إيليا في العاصفة إلى السماء . وكان الإشع يرى وهو يصرخ . . ولم يره
بعد . فأمسك ثيابه ومزقها قطعتين ، ورفع رداء إيليا الذي سقط عنه ورجع
ووقف على شاطئ الأردن ، فأخذ رداء إيليا الذي سقط عنه وضرب الماء
وقال أين هو الرب إله إيليا ، ثم ضرب الماء أيضاً فانفلق إلى هنا وهناك فعبر
الإشع].

من الواضح في المقطع أعلاه أن الحديث يجري عن نهر وليس عن جرف
صخري . فالنبيان يقفان أولاً «بجانب الأردن» ، ولا معنى لقولنا أنهما وقفا
«بجانب الجرف» وهناك يأخذ إيليا رداءه ويضرب الماء فيفلقه ويعبر كلاهما في
اليابسة . وبعد صعود إيليا إلى السماء ، يستبدل النص تعبير «جانب الأردن»
بتعبير «شاطئ الأردن» حيث يقف الإشع في نفس الموضع على الضفة
الأخرى التي عبها إليها ويكرر المعجزة بعد أن حلت عليه روح إيليا . ولا مكان
هنا لاستبدال «شاطئ الأردن» بـ «شفا الجرف» لسببين ، الأول أنه ما من مبرر
يدعو النبيين إلى الصعود إلى أعلى الجرف ، والثاني أن شفا الجرف لا يحتوي
على المياه .

غير أن الصليبي يتقدم بتفسير لوجود الماء على الجرف الصخري ،
وذلك في تعليقه على رواية عبور يشوع لنهر الأردن الواردة أعلاه ، عندما
عبرت قوات يشوع الأردن «وهو ممتليء إلى شطآنه» ، فيقول أنهم [انطلقوا
إلى عبورهم في وقت الحصاد ، عندما كانت الوديان على جانبي الجرف ممتلئة
بمياه السيول . وعندما وصلوا إلى النقطة التي يمكنهم عبورها ، تراجعت

المياه، أو هي جعلت تتراجع بيناء سدود لتحويل مجراها، لتسمح لهم بالعبور. فنهري الأردن لا يفيض في وقت الحصاد، وهو آخر الربيع. وعلى العموم فإن هذا هو موسم الأمطار الغزيرة في عسير الجغرافية، وهي الأمطار التي يمكنها أن تتسبب في سيول هائلة أحياناً [ص ١٣٨ وحاشيتها رقم].

وهذا التفسير لا ينطبق على رواية العبور بتاتاً. فصياغة تعبير «والأردن ممتليء إلى جميع شطوطه كل أيام الحصاد، دقيقة وواضحة ولا تحتمل استبدال كلمة الأردن، كنهر، بالجرف الصخري، وإلا لتحدثت الرواية التوراتية عن سيول ووديان الجرف. ثم انه من الواضح أن الحديث هنا يجري عن عقبة مائية دائمة يتوجب اجتيازها، لا عن سيل مؤقت يمكن انتظار تراجعه خلال فترة قصيرة. أما عن قول الصليبي بأن نهر الأردن لا يفيض في وقت الحصاد وهو آخر الربيع، فإن النص التوراتي لم يتحدث عن فيضان بل عن امتلاء، والفرق كبير بين المعنيين. ذلك أن الأردن لا يفيض فعلاً في أي فصل من فصول السنة، ولا يجب أن نخلط هنا بين ظاهرة الفيضان التي تتميز بها بعض الأنهار كالنيل مثلاً حيث يغمر الماء الأراضي الزراعية المحاذية لصفته، وظاهرة الامتلاء الطبيعي للنهر حيث يزداد منسوب المياه دون حدوث الفيض. فمياه الأردن ترتفع في الربيع بسبب ذوبان الثلوج على جبل حرمون، وقد تصل فعلاً إلى جميع شطوطه في بعض السنين. وهذه ظاهرة تشترك بها كل الأنهار التي تعززها مياه الثلوج الجبلية.

وفي سفر صموئيل الثاني ١٩ : ١٥ - ١٨، نجد أن الأردن يُعبر بواسطة القوارب وخوضاً على الأرجل: [فرجع الملك وأتى إلى الأردن، وأتى يهوذا (أي جمع سبط يهوذا) إلى الجلجال سائراً لملاقاة الملك، ليعبر الملك الأردن. فبادر شمعي بن جيرا البنياميني الذي من بحوريم ونزل مع رجال يهوذا للقاء الملك داود، ومعه ألف رجل من بنيامين وصبيا، غلام بيت شاؤول وبنوه الخمسة عشر وعبيده العشرون معه. فخاضوا الأردن أمام الملك، وعبر القارب لتعبير بيت الملك وعمل ما يحسن في عينيه]. في هذا المقطع، لا

نستطيع التصديق أيضاً بأن السيول على جانبي الجرف هي التي قطعها الرجال خوضاً على الأرجل ، ثم جاءوا بقارب ليعبر عليه الملك وأهله مياه الأردن ، فالتعبير اللغوي «خاضوا الأردن» لا يمكن أن ينطبق إلا على مياه النهر. فنحن نستطيع أن نقول مثلاً «خاض نهر بردى» أو «خاض بردى» لتأدية المعنى نفسه ، ولكن من الخطأ أن نقول : «خاض الجرف» بمعنى خاض سيولاً على جانبي الجرف . أما عن خوض مياه نهر الأردن على الأرجل فأمر معروف ، حيث يتسع سرير النهر في مواضع عديدة تدعى معابر أو مخاضات ، وتكثر خصوصاً في الشمال .

وفي سفر الملوك الثاني ٥ : ٩ - ١٤ ، يأتي «نعمان» القائد الآرامي إلى النبي اليسع آملاً أن يشفيه من برصه ، فيطلب منه النبي أن يغتسل في نهر الأردن ليشفى : [فجاء نعمان بخيله ومركبته ووقف عند باب اليسع فأرسل إليه اليسع رسولاً يقول اذهب واغتسل سبع مرات في الأردن فيرجع إليك لحملك وتطهر. فغضب نعمان ومضى وقال : هوذا قلت أنه يخرج إلي ويقف ويدعوباسم الرب الهه ويردد يده فوق الموضع فيشفى الأبرص . أليس إبانة وفرفر نهر دمشق أحسن من جميع مياه اسرائيل ، أما كنت اغتسل بها فأطهر؟ ورجع ومضى بغيط . فتقدم عبيده وكلموه وقالوا : يا أبانا لو قال لك النبي أمراً عظيماً أما كنت تعمله؟ فكم بالحري إذا قال لك اغتسل واطهر. فنزل وغطس في الأردن سبع مرات حسب قول رجل الله ، فرجع لحمة كلحم صبي صغير وطهر].

وتعقيباً على هذه الرواية ، لا يجد الصليبي مناصاً من الاعتراف بأن كلمة الأردن هنا تعني جدول ماء ، فيقول [وعلى العموم فإن تعبير «يردن» يظهر في بعض الحالات في التوراة بمعنى جدول أو بركة . وهذا المعنى تكون الكلمة مشتقة من «يرد» بمعنى ذهب إلى الماء . وهكذا فإن «هـ - يردن» التي غطس فيها نعمان الآرامي سبع مرات ليعالج نفسه من الجذام كانت بالتأكيد بركة ماء أو نبعاً أو جدولاً . وإذا أخذ في الاعتبار أنها كانت قرب السامرة

(«شمرون» التي هي «شمران») في جنوب القنفذة، فإن «يردن» نعمان كانت بلا شك تشير إلى مجمع مياه وادي «نعص» الذي يجري هناك]. وهكذا يضيف الصليبي دلالة جديدة تضاف إلى الدلالات التي أعطاها لكلمة الأردن. فهي الجرف الرئيسي لسراة عسير، أو أي جزء من هذا الجرف، أو أي من القمم والمرتفعات التي لا تحصى في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز، أو أي جدول أو بركة ماء. وهذه، لعمري، خيارات واسعة جداً للتعامل مع كلمة بسيطة واحدة، وردت في صيغة واحدة عبر الكتاب بأكمله. ولا ندرى لماذا اختار محررو التوراة استعمال هذا التعبير الفضفاض للدلالة عن عدد متنوع من المعالم الجغرافية، وهم المعروفون بتسميتهم الدقيقة للأماكن والمعالم والأشخاص المهمين منهم والثانويين، إلى درجة تبعث على السام أحياناً.

ويتوقف الصليبي عند صيغتين تكررتا مرات قليلة في التوراة هما «هذا الأردن» و«أردن أريحا» فيقول: [«يردن يرحو» لا يعني «أردن أريحا»، بل «جرف يرحو». ويرحو هنا تشير إلى مرتفع من جبل «عيسان» في بلاد زهران، حيث يبدأ وادي «وراخ»، وفيه أيضاً قرية اسمها وراخ. وحقيقة أن هنالك أكثر من «يردن» واحدة، تظهر أيضاً في التعبير «هـ - يردن هزة» أي «هذا الجرف» أو «هذا المرتفع»، وليس «هذا الأردن» الذي يرد ما لا يقل عن ست مرات في أسفار مختلفة من التوراة. ولو كانت «هـ - يردن» اسماً لنهر معين، أو في هذه الحالة اسماً لجرف أو مرتفع معين، لكان يصعب التفكير بسبب يقضي بالإشارة إليه بهذه الكثرة بالتعبير «هذا الأردن»](ص ١٣٥).

والحقيقة، أنه لدينا أكثر من مثال يثبت أن المقصود بأردن أريحا هو ذلك المقطع من نهر الأردن المقابل لمدينة أريحا. ففي سفر العدد ٣٣: ٤٨ - ٥٠ [ثم ارتحلوا من جبال عباريم ونزلوا في عربات موآب على أردن أريحا. نزلوا على الأردن من بيت بشموت إلى آبل شطيم في عربات موآب. وكلم الرب موسى في عربات موآب على أردن أريحا قائلاً. .] فالنص هنا يستخدم «أردن أريحا»

بالتراصف مع «الأردن». فبعد القول بأن القوم نزلوا في منطقة عربات موآب على «أردن أريحا»، يحدد بدقة المناطق التي نزلوا فيها على «الأردن» فهي تمتد من بشموت إلى آبل شطيم. ومن ناحية أخرى فنحن لا نرى في استخدام تعبير «أردن أريحا» خروجاً عن المؤلف. ففي العربية يمكن أن نقول مثلاً «إن فرات جرابلس أضيق مجرى من فرات الرقة» أي أن الفرات في منطقة جرابلس أضيق مجرى من الفرات في منطقة الرقة. وأهل المنطقة الوسطى في سورية حيث يمر نهر العاصي، يسمى مقطع النهر باسم المكان القريب منه، فيقولون «عاصي الخراب» و«عاصي الجديدة» و«عاصي الميلاس».

أما تعبير «هذا الأردن» الذي قال الصليبي أنه يرد مالأ يقل عن ست مرات في أسفار مختلفة من التوراة، وأن وروده بهذه الكثرة يشير إلى دلالة على مرتفعات مختلفة عن بعضها، فإننا أيضاً لا نرى في هذا الاستخدام خروجاً عن المؤلف. فقد نقول بالعربية «إعبر هذا الفرات» بديلاً عن قولنا «عبر نهر الفرات هذا». أما كثرة ورود التعبير في أسفار التوراة، التي يؤكد عليها الصليبي، فلا أساس لها من الصحة، فمن بين مائة وأربعين مرة تقريباً ورد فيها اسم الأردن، جاء ست مرات ضمن تعبير «هذا الأردن».

ولابد من الإشارة أخيراً إلى السؤال الذي طرحه كمال الصليبي في مطلع مقدمته دون أن يلمح إلى إجابة شافية عنه عندما قال: [أما كيف أصبح النهر الفلسطيني الشهير يعرف بهذا الاسم، فهي مسألة تستحق التمحيص بحد ذاتها، ولكنها ليست المسألة التي ستتطرق إليها هنا.]. والواقع أن تسمية نهر الأردن في فلسطين قديمة قدم كنعان، ولا نخال الصليبي قادراً على عزوها للإسرائيليين الذين سموا المواقع والهيئات الجغرافية في فلسطين بأسماء مواقع وهيئات ألفوها في غرب العربية، ذلك أن نهر الأردن قد ورد باسمه الكنعاني في السجلات المصرية قبل وقت طويل من ظهور الاسرائيليين (راجع الصفحة ٧١ سابقاً).

١٠- الخروج ومسألة مصر

إن المشكلة الأساسية في مسألة تاريخية التوراة تكمن ، كما اشرنا سابقاً ، في عدم توافق الرواية التوراتية ، في ما يتعلق بدخول الاسرائيليين إلى مصر والخروج منها ، مع التواريخ المصرية والسجلات الملكية الفرعونية . ولما كان الخروج من مصر بالطريقة التي قدمتها الرواية التوراتية ، يشكل المحور الرئيسي في كتاب التوراة برمته ، فقد جهد المؤرخون المهتمون بهذا الموضوع في صياغة نظريات معقولة حول الخروج وزمنه ، تجعله في سياق مع التاريخ المصري . فقال البعض بأن الاسرائيليين ليسوا إلا جماعة من الهيكسوس غادروا مصر إبان الثورة الشاملة التي طردتهم من هناك حوالي عام ١٥٧٠ ق.م . وقرن البعض بين العبرانيين والعابريين الذين كانوا يهاجمون المدن الفلسطينية خلال فترة تل العمارنة في مصر . وقام فريق ثالث بالتوسط بين النظريتين ، فقال ان الاسرائيليين قد خرجوا من مصر مع الهيكسوس ودخلوا فلسطين باعتبارهم عابري و ، بعد فترة تجول تزيد عما ذكر في التوراة . غير أن آراء المؤرخين تنفق اليوم على أن الخروج قد تم في عهد الفرعون رمسيس الثاني ، حوالي عام ١٢٦٠ ق.م ، وذلك لأسباب عديدة لا مجال لبسطها هنا ، منها أن الخروج قد تم ، وفق الرواية التوراتية ، من مدينة «رعمسيس» . وهذه المدينة ، كما هو معروف من السجلات المصرية ، قد بناها رمسيس الثاني الذي اشتهر بتشييد المباني العامة واطلق عليها اسمه . ومنها

أيضاً، أن اسم اسرائيل قد ورد لأول مرة في السجلات التاريخية، في نص للفرعون «مرفتاح» عام ١٢٢٠ ق. م، يتحدث عن وجود فئة في كنعان اسمها اسرائيل. وقد ورد الاسم في صيغة لغوية هير وغيلفية تدل على شعب متجول غير مستقر^(١).

في مقابل هذه المحاولات التاريخية الجادة لإعطاء صبغة شبه تاريخية لحادثة الخروج الملحمية، قامت محاولات أخرى تهدف إلى تقويض كل معارفنا التاريخية المتحصلة حتى الآن وفق المناهج العلمية، من أجل اثبات صحة الرواية التوراتية بحرفيتها وكما وردت في التوراة، باعتبار أن الكتاب هو كلمة السوحي التي لا تخطيء. من ذلك، نذكر أعمال الأميركي «عمانوئيل فيليكوفسكي»، وخصوصاً كتابه «عصور في الفوضى»^(٢)، الذي أحدث ظهوره منذ عام ١٩٥٣ كثيراً من الجدل داخل حلقات الاختصاصيين وخارجها. وكان منطلق فيليكوفسكي هو أن عدم التوافق بين الرواية التوراتية والتاريخ المصري، لا يرجع إلى خلل في الرواية التوراتية بل إلى خلل في المعلومات التاريخية المتحصلة لدينا. من هنا، أخذ على عاتقه مهمة تصحيح تاريخ مصر وتاريخ الشرق الأدنى القديم، فعمد إلى دفع التواريخ المصرية مدة ستمائة سنة إلى الامام، وعاد بتاريخ الخروج إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، إبان نهايات المملكة المتوسطة، وذلك بأسلوب مبدع يختلط فيه البحث التاريخي بالأسلوب الروائي البوليسي*.

ونظرية الصليبي في مسألة الخروج، تعتمد بدورها على القبول بحرفية الرواية التوراتية والبحث عن منفذ للخروج من مأزقها التاريخي، ولكن دون

1- W.H. McNeill and J. Sedlars, The Ancient Near East, Oxford, 1968, P.25

2- I. Velikovsky, Ages In Chaos, Abacus, London, 1981.

* - لا يقل اعجابي بهذا الكتاب عن اعجابي بكتاب الصليبي، رغم قناعتي التامة ببطلان النظريتين.

مساس بتواريخ الشرق القديم ، بل بالغاء أية امكانية للمقارنة بينها وبين الرواية التوراتية ، وذلك بنقل مسرح الحدث إلى غرب العربية حيث تنعدم التواريخ والأحداث التاريخية الثابتة .

وقد تعامل الصليبي مع مسألة مصر بحرية أكبر مما رأيناه في مسألة الأردن . فإذا كان الأردن تارة الجرف الرئيسي لسراة عسير ، وتارة ثانية أي مرتفع من القمم والمرتفعات التي لا تخص في الجانب البحري من عسير وجنوب الحجاز ، وتارة ثالثة أي مجرى أو مسيل أو بركة ماء ، فإن موقع مصر ينتقل عند الصليبي من أفريقيا إلى الجزيرة العربية جيئة وذهاباً ، وفق الحادثة التوراتية المترافقة معها . فإن كان للحادثة التوراتية تقاطع ثابت مع واقعة تاريخية مثبتة ، لم يجد الصليبي مناصاً من الاعتراف بأن المقصود بالكلمة التوراتية «مصر» هو مصر الفرعونية ، وإن لم يكن للحادثة أي تقاطع تاريخي ثابت ، أخذها بحرفيتها كحادثة تاريخية ، ووجد لمصر مصر المرتبطة بها موقعها المناسب ، فهي إما قرية «المصرمة» في مرتفعات عسير بن أبها وخميس مشيط ، أو قرية «مصر» في وادي بيشة في عسير الداخلية أو «آل مصري» في منطقة الطائف .

ففيما يتعلق بحملة الفرعون «شيشق الأول» على مملكة يهوذا ، والوارد ذكرها في سفر الملوك الأول ١٤ : ٢٥ - ٢٨ ، يعترف الصليبي بأن المقصود بمصر هنا هو مصر الفرعونية . وهو لا يستطيع غير ذلك لأن شيشق الأول (٩٤٥ - ٩٢٤ ق.م) معروف تاريخياً على أنه الفرعون الأول من الأسرة الثانية والعشرين في مصر ، وأخبار حملته مذكورة في السجلات المصرية بتفاصيلها . وكذلك الأمر فيما يتعلق بحملة الفرعون «نخو» وهزيمته من قبل البابليين عند الفرات ، الوارد ذكرها في سفر الملوك الثاني ٢٣ : ٩ - ٣٠ ، لأن الفرعون نخو (٦٠٩ - ٥٨٣ ق.م) معروف تاريخياً على أنه الملك الثاني من الأسرة السادسة والعشرين في مصر ، وأخباره كثيرة في سجلات وادي الرافدين . أما فيما يتعلق بقصص الأباء ، ودخول مصر أيام يوسف ثم الخروج منها

بقيادة موسى ، وجميعها روايات لا تتقاطع مع أخبار الشرق القديم وسجلاته ، فقد حول مسرحها باطمئنان إلى غرب العربية ، فرحيل «ابرام» وزوجته «ساراي» إلى مصر بعدما حدث جوع شديد في الأرض (التكوين ١٢ : ١٠ - ٢٠) هورحيل إلى موقع قرية «المصرمة» بين أبها وخميس مشيط ، التي يرى فيها «مصريم» سفر التكوين ، وفي حاكمها المتسلط «فرعة»* . فرعون الرواية التوراتية . والمصرمة هذه ، هي التي وصل إليها يوسف بن يعقوب وتبعه بعد ذلك اخوته حيث أقاموا وتناسلوا إلى زمن الخروج . وفي ذلك يقول الصليبي : [ليس هناك أدنى شك بأن أسلاف الاسرائيليين من العبرانيين كانوا ذات يوم قوماً قبلياً وقع في الأسر وأجبر على العمل في السخرة في مكان اسمه «مصريم» ، لم يكن بالضرورة مصر ، وأنهم خرجوا من هناك في هجرة جماعية برعاية قائد يسمى موسى ، نظمهم في مجتمع ديني وأعطاهم شريعتهم ، وأنهم عبروا نقطة تسمى هـ - يردن ليست بالضرورة نهر الأردن برعاية قائد آخر اسمه يشوع ليستقروا في أرض كانت لهم عليها أخيراً السيطرة السياسية] (ص ٥٣) .

هذا جل ما يذكره الصليبي عن رواية الخروج من مصر . وهو رغم تحديده للمكان الذي خرج منه الاسرائيليون بالمصرمة في القسم الجنوبي لمرتفعات عسير (انظر خريطة الصليبي رقم ٦) . وتحديده لمكان الانطلاق لعبور الأردن بمنطقة الطائف في الشمال (انظر خريطة الصليبي رقم ٧) ، إلا أنه لم يعن بدراسة مسار الخروج من المصرمة إلى الطائف ، وذلك فيما عدا بضع اشارات ثانوية في هوامش الصفحة ٧٠ والصفحة ٥٢ . ولعل السبب الأساسي في ذلك ، هو عدم قدرته على حل مشكلة عبور البحر الذي شقه موسى بعصاه ومشى فيه على اليبس مع اتباعه . فمهما كان اتجاه الطريق الذي سار عليه الفارون بين المصرمة والطائف ، فانهم لن يلتقوا ببحر أو بتجمع مياه

* - لقب الفرعون في اللغة المصرية القديمة هو «برعو» .

كبير يشبه البحر*. ولكنه توقف طويلاً عند جبل «حوريب» الذي تجلى عنده الرب لموسى أول مرة في شجرة تحترق، عندما كان يرعى غنم حميه «يثر ون»، كاهن «مديان» بسيناء، ثم عرج على الموضع نفسه بعد الخروج بجماعته من مصر، وهناك وقعت المعركة الكبرى بينهم وبين العماليق.

في تعرفه على جبل حوريب يستعين الصليبي هذه المرة بالقرآن الكريم، فيقول إن القرآن الكريم حيثما تكلم عن الآباء العبريين أو عن إسرائيل أو عن الأنبياء اليهود، أشار إلى عدد من الأماكن التي هي من الأسماء المعروفة في غرب شبه الجزيرة العربية. وحيث يمكن للتوراة مثلاً أن تعطي اسم جبل في غرب شبه الجزيرة العربية، فإن القرآن قد لا يعطي اسم هذا الجبل، بل اسم واد أو بلدة أو اسم موقع آخر في الجوار نفسه. وحتى الآن جرى البحث عن جبل حوريب التوراتي في سيناء ولم يعثر عليه بهذا الاسم. ولكن القرآن يقول لنا بدقة أين كان حوريب، فهو مرتفع جبلي في المنطقة البحرية من عسير، ويسمى اليوم جبل هادي. وعلى سفح جبل هادي هناك قرية ما زالت تدعى حتى اليوم «الطّوا»، يمكن أن تكون قد أعطت اسمها ذات يوم إلى رافد مجاور يصب في وادي بقرّة، ولا بد أن هذا الرافد هو الوادي المقدس طوى المذكور في القرآن، وفي وادي بقرّة، توجد هناك حتى اليوم قرية تدعى «حارب»، لا بد أن تكون قمة جبل هادي المجاورة قد أخذت اسمها منها (ص ٦٩ - ٧٠).

والاستشهاد هنا يتم بما ورد في سورة القصص ٢٩ - ٣٠ حيث نقرأ [فلما قضى موسى الأجل وسار بأهله، آنس من جانب الطور نارا فقال لأهله امكثوا إني آنست نارا لعلّي آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون. فلما أتاهم نودي من شطي الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، أن ياموسى

* - تدارك الصليبي هذه الثغرة في كتابه الجديد «خفايا التوراة وإسرار شعب إسرائيل» الذي وصلنا بينما كان مخطوط كتابنا تحت التنضيد.

إني أنا الله رب العالمين]. وبما ورد في سورة طه : ١١ - ١٢ [فلما آتاها نودي ياموس إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى]. والحقيقة ، فإن كمال الصليبي في استشهاده بالقرآن الكريم قد قدم نصف الحقيقة فقط ، لأن جبل الطور الذي بالواد المقدس طوى يقع في سيناء على ما تذكره آيات أخرى ، وهذا يتطابق مع الرواية التوراتية عن مكان جبل حوريب . نقرأ في سورة التين : ٢ [وطور سينين وهذا البلد الأمين] ، وفي سورة المؤمنين : ٢٠ [وشجرة تخرج من طور سيناء تنبت بالدهن وصبغ للأكلين] .

ويرتبط بمصر في التوراة بلد آخر إسمه «كوش» الذي يرد في معظم المواضع مقترناً بمصر . وبما ان النصوص التوراتية توحي بأن كوش تقع إلى الجنوب من مصر ، فقد طابق الباحثون بينها وبين الحبشة ، خصوصاً وأن الترجمة السبعينية تورد الاسم تارة بصيغته العبرية «كوش» وتارة ترجمه إلى الحبشة . ولكن الكثير من المؤرخين وعلماء اللغات القديمة يميلون إلى اعتبار كوش على أنها أرض النوبة . غير أن للصليبي رأياً مختلفاً في هذه المسألة ، فهو بعد أن نقل مصر إلى غرب العربية كان لا بد من نقل كوش معها ، حيث يعثر على مكانها القديم في موقع «الكوثة» اليوم قرب خميس مشيط . . وهو يتخذ من رواية هجوم «زارح الكوشي» على مملكة يهوذا منطلقاً لاثبات وجهة نظره . نقرأ في سفر أخبار الأيام الثاني ٩ : ١٤ [فخرج إليهم زارح الكوشي بجيش ألف ألف ، وبمركبات ثلاث مئة وأتى إلى مريشة . ودعا آسا الرب وقال .. فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وأمام يهوذا ، فهرب الكوشيون وطردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار... وضربوا جميع المدن التي حول جرار لأن رعب الرب كان عليهم ، ونهبوا كل المدن لأنه كان فيها نهب كبير] .

وتعلقياً على هذه الرواية يقول الصليبي : [وتبرز مشكلات أخرى من خلال ذكر جرار في أخبار الأيام الثاني ١٤ ، حيث تبدو البلدة وكأنها تخص الكوشيين . وقد عرف هؤلاء الكوشيون تقليدياً بكونهم حبشيين ... وإذا نحن سلمنا بأن الكوشيين كانوا بالفعل حبشيين ، يبقى هناك السؤال كيف تيسر

لهؤلاء الحبشيين أن يسيطروا على أرض هي أرض جرار، ويفترض أنها كانت في فلسطين؟ وهل كان هؤلاء الحبشيون مصريين من عهد الأسرة الخامسة والعشرين، أي الأسرة الحبشية (٧١٦ - ٦٥٦ ق.م)؟ هذا أمر غير معقول باعتبار أن سيطرتهم على جرار كانت في عهد آسا ملك يهوذا الذي توفي قبل عهد الأسرة الحبشية هذه بحوالي قرن ونصف القرن... وكل هذا اللغز الغامض المحيط بجرار قد يكون من الأفضل الانطلاق من الدليل الوارد في أخبار الأيام الثاني ١٤، ومحاولة تحديد الهوية الحقيقية للكوشيين المذكورين في هذا النص. وكما أشير سابقاً، فإن كوش يترافق ذكرها في النصوص التوراتية مع مصريم التي تشير بالتأكيد إلى مصر في بعض الفقرات التوراتية، أما في أماكن أخرى في التوراة فإن مصريم تشير إلى أي من المواقع العديدة في غرب شبه الجزيرة العربية بما فيها قرية المصرمة في مرتفعات عسير بين أبها وخميس مشيط، أو قرية مصر في وادي بيشه في عسير الداخل والباحث عن كوش في ذلك الجوار العام يجدها فوراً في «الكوثة» - كوٲ - قرب خميس مشيط.

وفي الواقع، فإن الرواية التوراتية لم تذكر أن قائد القوة المهاجمة كان ملكاً لمصر أو حتى ملكاً لكوش، بل اكتفت بوصفه بالكوشي. وفي ذلك دلالة هامة وواضحة على أن الكوشيين لم يصعدوا من اقليم في جنوب مصر إلى مملكة يهوذا، بل كانوا يعملون لمصلحة فرعون مصر، وإلا لكان النهس قد وصف زارح بأنه ملك كوش، كما وصف «ترهاقة» فيما بعد. ولدينا أكثر من بيئة نصية على تواجد مكثف للقوات الكوشية في الجيش المصري (راجع أخبار الأيام الثاني ١٢: ٣). وأغلب الظن أن زارح هذا لم يكن سوى قائداً مصرياً من أصل حبشي أو نوبي توجه بأمر من الفرعون على رأس حملة قوامها الكوشيون لتأديب ملك يهوذا، وقد سيطروا في طريقهم على مدينة جرار وجوارها من أراضي الفلسطينيين. وعندما صدهم آسا تراجعوا إلى جرار التي كانت بمثابة قاعدة المؤخرة لحملتهم. وعندما أخلوها نهبها آسا مع المواقع المجاورة لها، والتي لم تكن أصلاً من أملاكه.

ونحن إذا رجعنا إلى النصوص التي وردت فيها «كوش» في التوراة، تبين لنا أن الإشارة فيها إلى كوش، هي إشارة واضحة إلى بلد كبير تقرنه النصوص بفارس والهند وغيرها من حضارات ذلك الزمن. الأمر الذي يستبعد «كوثة» الصليبي في غرب العربية من مسرح الأحداث. نقرأ في سفر أشعيا ١١ : ١١ [ويكون في ذلك اليوم أن الرب يعيد يده ليقتني بقية شعبه من آشور ومن مصر ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر]. ويتكرر ذكر كوش مراراً كثيرة في التوراة، وغالباً ما تذكر بالترافق مع ممالك كبرى مثل فارس والهند وعيلام وفوط (ليبيا)، الأمر الذي يؤكد صحة مطابقتها مع الحبشة أو بلاد النوبة، ويستبعد «كوثة» الصليبي في غرب العربية من مسرح الأحداث. نقرأ في سفر أشعيا ١١ : ١١ [ويكون في ذلك اليوم، أن الرب يعيد يده ليقتني بقية شعبه التي بقيت من آشور ومن مصر ومن قروس ومن كوش ومن عيلام ومن شنعار ومن حماة ومن جزائر البحر]. وفي حزقيال ٥ : ٣٨ [وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس ... فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة ...].

وحيثما ذكرت كوشي بالترافق مع مصر، كانت الإشارة واضحة في النص إلى مصر الفرعونية، الأمر الذي يستبعد «مصرمة» و«كوثة» كمال الصليبي في غرب العربية. نقرأ في إرميا ٤٦ : ٧ - ٩ [من هذا الصاعد كالنيل كأنهار تتلاطم أمواها. تصعد مصر كالنيل، وكأنهار تتلاطم المياه. فيقول (الرب) أصعد وأغطي الأرض، أهلك المدينة والساكين فيها. اصعدي أيها المركبات ولتخرج الأبطال. كوش وفوط القابضان المجن ...]. وفي حزقيال ٢٩ : ٩ - ١٠ [وبأتي سيف على مصر، ويكون في كوش خوف شديد عند سقوط القتلى في مصر. . ويسقط عاضدو مصر وتنحط كبرياء عزتها من مجد إلى أسوان]. وفي حزقيال ٢٩ : ١٠ [لذلك هاأنذا عليك وعلى انهارك، وأجعل أرض مصر خرباً خربةً مقفرةً من مجد إلى أسوان إلى تخم كوش]. إضافة إلى ارتباط كوش بمصر الفرعونية في هذه النصوص، فإن فيها إشارة

واضحة إلى موقع كوش إلى الجنوب من مصر، فهي تلي مناطق أسوان في أقصى جنوب مصر.

وفي سفر استير ١ : ١ يرد ذكر كوش باعتبارها إحدى النقاط القاصية التي امتدت إليها الامبراطورية الفارسية، ويقترن ذكرها هنا بالهند [وحدث في أيام احشويرش، هو احشويرش الذي ملك من الهند إلى كوش. .]. واحشويرش هذا هو حفيد قورش الكبير واسمه باليونانية Xer Xes (٤٨٥ - ٤٦٥ ق.م)، وقد ورث امبراطورية قورش وقمبيز التي امتدت من الهند إلى وادي النيل. وقد ترك لنا احشويرش نصاً يرسم فيه حدود امبراطوريته المترامية، والبلدان التي تؤدي له الجزية وتخضع لأوامره وشرائعه، فيذكر الهند والعربية وأيونيا ومصر وليبيا وما بين هذه الأقطار، ثم ينتهي بكوش^(٣). ومن البدهي أن لا يكون حد الامبراطورية الفارسية في نقطته القصوى، التي تطابقت في كلا النصين الفارسي والتوراتي، هو «الكوثة» ذلك الموقع المغمور في غرب العربية.

وفي النصوص التوراتية التي ترد فيها كوش غير مقترنة بغيرها من البلدان، يتضح من وصفها أنها ليست سوى ذلك الجزء الذي يلي مصر على حوض النيل. نقرأ في سفر أشعيا ١٨ : ١ [يا أرض حفيف الأجنحة التي في عبر أنهار كوش، المرسلة رسلاً في البحر وفي قوارب من البردى على وجه المياه. إذهبوا أيها الرسل إلى أمة طويلة وجرداء إلى شعب مخوف]. إن التعابير المستعملة هنا مثل أنهار كوش وقوارب البردى التي تسير على وجه المياه، والرسل التي تعبر البحر، لا يمكن أن تشير إلا إلى بيئة لها علاقة بنهر النيل وأفريقيا.

وهناك بيئة منطقية نستمدّها من أخبار حملة شيشانق ملك مصر على أورشليم الواردة في أخبار الأيام الثاني ١٢ : ١ - ٤ [وفي السنة الخامسة للملك

3- Leo Openheim, Babylonian And Assyrian Historical Texts op cit, p. 316.

رجعهم ، صعد شيشق ملك مصر على أورشليم لأنهم خانوا الرب ، بألف ومئتي مركبة وستين ألف فارس . ولم يكن عدد للشعب الذين جاءوا معه من مصر ، لوبيين وسكيين وكوشيين . وأخذ المدن الحصينة التي ليهودا وأتى إلى أورشليم] . فإذا كانت حملة شيشانق قد تمت ، كما يقول الصليبي ضد غرب العربية (ص ٢٠٧) ، فكيف حوت في صفوفها الكوشيين من أهل «الكوثة» ، وهي مدينة في غرب العربية ذاتها؟ وما الذي حمل بأهل الكوثة إلى مصر ليعودوا كرة أخرى كعناصر مقاتلة في جيشها إلى جانب عناصر افريقية أخرى مثل اللوبيين والسكيين؟

وتتفق النصوص المصرية مع النصوص التوراتية بخصوص موقع كوش في جنوب مصر . نقرأ على سبيل المثال في نص من عهد الفرعون «سنوسريس الأول» (١٩٧١ - ١٩٢٨ ق.م) تركه أحد قادته العسكريين : [تبعني سيدي عندما أبحر جنوباً ليقهر الشعوب البربرية الأربعة . أبحرت جنوباً كابن لسيد نبيل يحمل الختم الملكي ، وقائد للقوات خلفاً لأبيه الشيخ ، المفضل لدى القصر والمحبوب من البلاط . عبرت كوش متجهاً جنوباً إلى أقاصي البلاد ، جلبت معي كل أنواع الهدايا الثمينة واطبقت شهرتي الآفاق . ثم عاد جلاليته بعد القضاء على أعدائه في كوش]^(١) .

أما الآشوريون فقد دعوا كوش باسم «كوشو» . ويتفق ما ورد في سجلاتهم عنها مع ما تحصل لدينا من النصوص التوراتية والمصرية . ونقرأ في التوراة عن أول احتكاك بين الآشوريين والكوشيين في سفر الملوك الثاني ١٩ : ٨ - ٩ ، حيث يصعد «ترهاقة» ملك كوش لنجدة ملك يهوذا الذي حرضه على آشور [فرجع ربشاقى ووجد ملك آشور (سنحاريب) يحارب لبنة لأنه سمع أنه ارتحل عن لحيش . وسمع عن ترهاقة ملك كوش قولاً : قد خرج ليحاربك . فعاد وأرسل رسلاً إلى حزقيا قائلاً هكذا تكلمون حزقيا ملك يهوذا

4- W. McNeill and J. Sedlar, The Ancient Near East op. cit, p. 25.

قائلين . . [. وترهاقة ملك كوش المذكور في هذا النص ، هو الفرعون الثالث من الأسرة الخامسة والعشرين والتي تدعى بالأسرة الحبشية ولم يكن في عهد سنحاريب قد ارتقى العرش ، بل كان يعمل قائداً في خدمة الفرعون السابق ، ثم ارتقى العرش قبل عدة سنوات من ارتقاء «أسرحادون» كآخر فراعنة الأسرة الحبشية . وكما وجدنا ترهاقة يتدخل في السياسة الفلسطينية أيام الملك حزقيا ، كذلك نجده وقد صار فرعوناً يتدخل في شؤون الساحل الفينيقي محرصاً الممالك الفينيقية على آشور . نقرأ في نص لأسرحادون :

[. . قهرت صور التي في البحر ، وأخذت كل مدن وممتلكات ملكها «بعلو» الذي وضع ثقته في ترهاقة ملك كوش . ثم قهرت مصر وكوش . أما ملكها ترهاقة فقد أصيبته بخمسة جراح برميات السهام ، وحكمت فوق جميع بلاده وحملت منها الأسلاب . بعدها ، كل الملوك في البحر من يدنانا (قبرص) إلى ترشيش (الساحل الاسباني) خضعوا لي وتلقيت منهم الجزية[^(٥)].

بعد فتح مصر وكوش ، يقوم اسرحادون بتعيين ملوك مصريين محليين في مختلف المقاطعات تابعين له مباشرة ويعود إلى آشور . غير أن ترهاقة الذي توارى عن الأنظار في الأحرار ، يعود إلى تنظيم قواته ويستولي على مصر مجدداً ويطارد الملوك المعينين من قبل آشور . فيحمل عليه خليفة اسرحادون «آشوربانيبال» . نقرأ في خبر هذه الحملة :

[ترهاقة ملك مصر وكوش ، الذي هزمه أبي اسرحادون وحكم بلاده ، نسي عظمة آشور وعشتاروبقية أسيادي الآلهة ، واضعاً ثقته في قوته . انقلب على الملوك والولاة الذين عينهم أبي في مصر ، ودخل مدينة «عمفيس» التي الحقها أبي بملك آشور ، فجعلها مقراً له ... دعوت قواتي التي أوكلها إلى الإله آشور والإله عشتار ، واتخذت الطريق المباشر إلى مصر وكوش ... ترهاقة

5- Leo Oppenheim, *Babylonian and Assyrian Historical Texts*, op. cit, P.290

ملك مصر وكوش، سمع في ممفيس باقتراب حملتي، فدعا كل محاربيه وأرسلهم إلى المعركة الفاصلة ضدي. ولكني هزمت القوات المدربة لجيشه في معركة مفتوحة كبيرة. سمع ترهاقة في ممفيس بخبر الهزيمة فأعلمه الهلع من عظمة آشور وعشتار، حتى غدا كالمجنون، ثم هرب طالباً حياته إلى مدينة «ني» (طيبه). ولكني تقدمت وأخذت هذه المدينة أيضاً (يلي ذلك تعداد لأسماء الملوك الذين أعادهم آشور بانيبال إلى مناصبهم، وبينهم نخو، الذي سيغدو فرعوناً فيما بعد ويقاوم نبوخذ نصر). كل هؤلاء الملوك والحكام والولاة الذين عينهم أبي في مصر، والذين تركوا مناصبهم إبان تمرد ترهاقة وتوزعوا في البلاد، أعدتهم إلى مراكزهم السابقة، وتوليت من جديد مقاليد مصر وكوش. أما ترهاقة الذي أخذه الخوف في غيبته من أسلحة آشور سيدي، فلم يسمع عنه خبر بعد ذلك»^(٦).

فأين «المصرمة» و «الكوثة» في هذا الإطار الواسع لتاريخ الشرق القديم؟

استطراد حول الخروج قصة بلعام بن بعور:

عندما ناقشنا مسألة تاريخية الرواية التوراتية، وخصوصاً في الأسفار الخمسة الأولى منها، توصلنا إلى نتيجة مفادها أن أحداث هذه الأسفار المدعوة بأسفار موسى*، لا يمكن تصنيفها إلا في عداد الملاحم التي تعودت التقاليد الشعبية تدبيجها والإضافة عليها جيلاً بعد جيل، دون أن يمنع ذلك

6- Ibid, PP. 294-295

* - وطبعاً لا علاقة لموسى بهذه الأسفار، لأنه لم يكن سوى شخصية بين حشد شخصياتها الكثيرة، وأخبارها تأتي بقصص عما قبل موسى وما بعده

من وجود عناصر تاريخية موهلة في القدم لا يمكن فرزها بسهولة عن نتاج الخيال الجامح، واستخلاصها من شبكة الأحداث الملحمية التي تحيط بها. وهذه العناصر التاريخية، لا تغدو تاريخاً بالمعنى العلمي للكلمة إلا في حال تقاطعها مع وقائع تاريخية ثابتة، أو مع جملة نتائج أثرية. وفي الحقيقة، فإن رواية الخروج من مصر من بدايتها في مدينة رعمسيس إلى نهايتها عند شاطيء نهر الأردن لم تجد لها سنداً حتى الآن من شاهد تاريخي أو أركيولوجي. إلا أن هناك حادثة صغيرة في سفر العدد الاصحاح ٢٢، تؤيد ما ذهبنا إليه من وجود أحداث موهلة في القدم وشخصيات عاشت في غابر الأزمان، وجدت طريقها إلى حبكة الملحمة.

نقرأ في العدد ٢٢: ١ - ٨ [وارتحل بنو اسرائيل ونزلوا في عربات موآب من عبر أردن أريحا. . . وكان بالاق بن صفور ملكاً لموآب في ذلك الزمان. فأرسل رسلاً إلى «بلعام بن بعور»، إلى «فتور» التي على النهر في أرض بني شعبه ليدعوه قائلاً: هوذا شعب قد خرج من مصر، هوذا قد غشي وجه الأرض، وهو مقيم مقابلي. فالآن تعال والعن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني، لعله يمكننا أن نكسره فاطرده من الأرض، لأنني عرفت أن الذي تباركه مبارك والذي تلعنه ملعون. فانطلق شيوخ موآب وشيوخ مديان، وحلوان العرافة بين أيديهم وأتوا إلى بلعام وكلموه بكلام بالاق، فقال لهم بيتوا هنا الليلة فأرد عليكم جواباً كما يكلمني الرب. فمكث رؤساء موآب عند بلعام].

عن بلعام بن بعور هذا، يقول الصليبي [وكان بلعام هذا من «أرام» (عزم)، العدد ٢٣: ٧) من «جبال قدم» (في الترجمات جبال المشرق ٢٣: ٧). وقد سبق القول أن «أرام» هو على الأرجح الاسم القديم للحجاز وما يليه إلى الشرق من وادي الرمة «رم» بمنطقة القصيم. وقد سبق أيضاً أن أرض «قدم» ليست أرض المشرق، بل موطن بني جذمة (جذم، قابل مع قدم) بداخل الحجاز بين الطائف والمدينة، ومنه منطقة القصيم. وكان بلعام يقيم هناك في «فتور» التي على النهر (٢٢: ٥). وفتور هذه على الأرجح هي اليوم واحة

الطرفية (بالاستبدال) بمنطقة القصيم، حيث يمر النهر الذي هو مجرى وادي الرمة. ويدوان بلعام لم يكن اسم شخص العراف، بل اسم القبيلة أو العشيرة التي ينتمي إليها. والدليل على ذلك أن بلعام (بلعم، تماماً كما في التوراة، وبالتصويت ذاته) ما زال إلى اليوم اسماً لقرية من جوار الطرفية بمنطقة القصيم»^٦.

وفي الواقع، فإن نتائج التنقيب الأثري في منطقة «دير العلا» الواقعة إلى الشمال من مصب نهر الزرقاء بشرقي الأردن، قد كشفت عن نصوص آرامية على غاية كبيرة من الأهمية، بينها نص عنوانه: [هذه سطور «بلعام بن بعور» ناظر الألهة]^(٧). وهذه بيئة أركيولوجية وكتابية دامغة، تظهر إلى أي مدى يمكن لمنهج مقابلة أسماء المواقع، أن يؤدي إلى نتائج بعيدة عن واقع الأمور، عندما يفتقر إلى التقاطعات التاريخية والأركيولوجية.

لقد كان بلعام بن بعور شخصية دينية آرامية رفيعة المقام، كما يبدو من النص التوراتي والنص الآرامي. وقد بقيت ذكراه قائمة في الذاكرة الشعبية، ثم انتقلت بطريقة ما إلى الرواية التوراتية. وهاهو يخرج إلينا من تحت انقاض موقع آرامي عريق، ليزكرنا بأن التاريخ يكتب بمعول التنقيب، لا بالتأملات اللغوية الذهنية.

* - هذا مقطع من فصل «شهادة بلعام» في الكتاب الثاني لكمال الصليبي الذي يقدم فيه تطبيقات متنوعة لنظريته الأصلية. وقد وصلنا الكتاب عندما كان مخطوط كتابنا قيد لتنفيذ. ومن هنا جاء هذا الاستطراد.

٧- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، الجمهورية العربية السورية، ١٩٨٨، ص ٧٠.

١١- أرض كنعان

شكلت أرض كنعان، تاريخياً، المناطق السورية الواقعة إلى الغرب من نهر الفرات بما فيها فلسطين. أما الكنعانيون كشعب، فلم يُفصل بعد في أمر موطنهم الأصلي وتاريخ استيطانهم في الأرض التي أعطتهم اسمها أو أعطوها اسمهم، إلا أن هنالك من البيانات ما يشير بوضوح إلى أنهم كانوا موجودين في سورية الجنوبية منذ الألف الرابع قبل الميلاد. ذلك أن العديد من المدن التي أسست مع نهاية الألف الرابع ومطلع الألف الثالث، مثل بيت شان ومجدو وأريحا وبيت يارج تحمل أسماء كنعانية^(٨).

ورغم تعدد الآراء في نشأة الكنعانيين الأولى ومصدرهم، تبقى جميعها في حدود الفرضيات غير المثبتة. فمن قائل بقدمهم من منطقة الخليج العربي، أو أرتيريا، أو البادية السورية - العربية، أو سيناء. وجل هذه الآراء يعتمد على المؤلفين الكلاسيكيين المتضاربة أقوالهم بهذا الخصوص. والحق أن أكثر النظريات قرباً من المنطق السليم، هي التي تجعل الكنعانيين أصليين في أرضهم، وترى في مدنها الأولى تطوراً طبيعياً لمستوطنات العصور الحجرية الأقدم^(٩). ذلك أن الكثير من مقار الكنعانيين التاريخيين، كانت مستوطنات

8- W. F. Albright, The Role of Canaanite In The History (In: the Bible And The Ancient Near East, Eisenbrauns, Indiana, 1979) PP. 328-332

9- S. Moscati, The World of The Phoenicians, Cardinal, London, 1979, PP. 22-23

مزدهرة في عصور ما قبل التاريخ . ولا أدل على ذلك من أريحا وجيبيل وأوغاريت . فأريحا كانت أحد المراكز القليلة التي ظهرت فيها الزراعة لأول مرة في التاريخ مع مطالع العصر الحجري الحديث خلال الألف الثامن قبل الميلاد . وكانت في بنيتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، نموذجاً موعظاً في القدم للمدن الأولى التي ظهرت في سومر منذ أواسط الألف الرابع قبل الميلاد . ومثلها في ذلك جيبيل التي ظهرت أيضاً مع مطالع العصر الحجري الحديث ، واستمرت مسكونة إلى نهاية العصر البرونزي حيث تضاءلت أهميتها وتحول موقعها القديم إلى القرية التي ما زالت قائمة اليوم . وأيضاً أوغاريت التي نشأت في العصر الحجري الحديث واستمرت مسكونة إلى حين دمارها على يد شعوب البحر حوالي ١٢٠٠ ق.م^(١٠) .

ويمدنا موقع جيبيل بشكل خاص بأهم وأغزر الوثائق الأثرية التي تشير إلى عراقة المدن الكنعانية وعلاقاتها المبكرة مع الحضارات المجاورة . فقد عثر في الموقع على مصنوعات مصرية عليها نقوش هير وغليفية يعود تاريخها إلى النصف الأول من الألف الثالث قبل الميلاد ، تثبت علاقات ملوك جيبيل بفراعنة مصر من الأسرات الأولى . وفي المنطقة الملكية بمدينة عاي الكنعانية بفلسطين ، عثر على طاسات حجرية مصرية تعود إلى عهد الأسرة الثالثة . وبالمقابل ، فقد عثر في مقابر الأسرة الفرعونية الأولى على فخاريات وم مصنوعات كنعانية أخرى من الساحل السوري . كما استطاع علماء اللغات تمييز عدد من الكلمات الكنعانية المستعارة إلى الهير وغليفية المبكرة مثل «كرم» أي كرم العنب ، و«قمحو» أي قمح^(١١) . غير أن العلاقات الودية والمتكافئة بين مصر وكنعان ، ما لبثت أن تحولت إلى علاقة تسلط وسيطرة من قبل

10- James Mellaart, The Neolithic of The Near East, Thames and Hudson, London 1981.

11- W.F. Albright, op. cit, p.332

المصريين مع مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، حيث بدأ فراعنة المملكة المتوسطة، بعد إعادة توحيد مصر عقب الفترة الانتقالية الأولى، بالنظر إلى ممالك بلاد الشام كمناطق نفوذ طبيعية لهم. ولكن كنعان لم تكن مطية سهلة لهم، ولنا في نصوص اللعن المصرية العائدة إلى تلك الفترة، والتي تصف حكام المناطق الكنعانية بالمتمردين وتطلب من القوى الإلهية تدميرهم، مثال حي على ذلك.

وخلال الفترة الانتقالية الثانية في مصر إبان حكم الهكسوس، تراخت قبضة مصر عن كنعان مدة قرنين من الزمان انتعشت خلالها دويلات المدن الكنعانية، واستطاعت تدريجياً امتصاص موجة العموريين، التي اجتاحت المنطقة منذ مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، وسببت انقطاعاً في الحضارة الكنعانية ودماراً لأهم مواقعها الحضرية. وإضافة إلى الدماء العمورية التي رفدت بلاد كنعان، فقد وفدت إليها جماعات عرقية غير سامية من الشمال، مع بدايات الانسياح الحوري الذي غمر مناطق بلاد الشام الشمالية. ومع مطلع القرن الخامس عشر، نعثر في فلسطين بشكل خاص على أسماء حكام هندو-أوربين، كما هو الحال في مجدو وأورشليم وأشقلون، دون أن ندرى بالتفصيل عن الكيفية التي تم بها توطن هذه الجماعات الغربية.

إلا أن مصر بعد تحررها من الهيكسوس، أواسط القرن السادس عشر قبل الميلاد، عادت إلى توطيد وجودها في فلسطين وسورية، وتنازعت مع الحثيين السيطرة على بلاد الشام حتى سقوط الامبراطورية الحثية على يد شعوب البحر، الذين تابعوا بعد ذلك تدمير الممالك الكنعانية في طريقهم إلى مصر، حيث تكسرت موجة هجومهم العارمة أمام قوة جيش رمسيس الثالث، آخر عمالقة التاريخ المصري. وقد نجم عن هجمات شعوب البحر فراغ حضاري في بلاد كنعان، أخذ الأراميون الذين بدأوا بالتوطن في سورية الداخلية بملئه تدريجياً، والسير بالمنطقة نحو عصر جديد. ولم تحتفظ الهوية الكنعانية بوجودها إلا على الشاطئ اللبناني في المنطقة المحصورة بين الجبل

والبحر، حيث تابعت الحضارة الكنعانية استمرارها وتطورها في حلتها الفينيقية الجديدة، وأيضاً في منطقة فلسطين الداخلية التي تركها الفلسطينيون بعد أن توطنوا في المناطق الساحلية، والتي وقعت تدريجياً ولمدة قصيرة نسبياً تحت السيطرة السياسية للفتات الهامشية المدعوة بالاسرائيليين.

هذه المناطق الأخيرة للتواجد الكنعاني، هي التي عرفها الاسرائيليون، وهي التي تحدث عنها كتاب التوراة باعتبارها أرض كنعان، وحددها في التكوين ١٠: ١٩ - ٢٠ [وكانت تخوم الكنعاني من صيدون حينما نجىء نحو جرار إلى غزة. وحينما نجىء نحو سدوم وعمورة وأدمة وصبوئيم إلى لاشع]. وهذا النص رغم عموميته وبعده عن الدقة الجغرافية بمفهومها العلمي الحديث، إلا أنه يشير فعلاً إلى ما تبقى من أرض كنعان في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

وتسمية «كنعان» و«كنعانيين» الواردة في التوراة، ليست مصطلحاً توراتياً كما يتصور البعض، بل هي تسمية قائمة قبل تحرير أسفار التوراة، وقبل التاريخ المفترض لدخول الاسرائيليين إلى كنعان. فقد استعملت النصوص المصرية تسمية «كنعان» منذ الألف الثاني قبل الميلاد، وكانت ترد بصيغة «بي كنعان» - Pekanan^(١٢). كما استعملتها المصادر المحلية في سورية، مثل نقش «ادريمي» ملك آلالاخ، من أواسط الألف الثاني قبل الميلاد، والذي يصف فيه هروبه إلى بلاد كنعان من وجه مغتصبي عرش أبيه، ثم عودته المظفرة بعد ذلك^(١٣). وقد بقيت الكلمة مستخدمة إلى العصر الهلنستي، حيث نجدها على العملة المعدنية المسكوكة في بعض مدن الساحل الكنعاني، كما نجدها في

12- W. Mcneill And J. Sedlar, The Ancient Near East, op. cit, P.25

13- James Pritchard, The Ancient Near East, Princeton, 1975, V.11, PP.96-99

المصادر الكلاسيكية . وفي بلدان شمال أفريقيا ، نجد التسمية ما تزال قائمة إلى ما بعد الميلاد ، حيث يتمسك المعمرون بأصلهم الكنعاني^(١٤) .

ولا نريد هنا ، أن ندخل في المسألة اللغوية حول أصل التسمية ، رغم كثرة ما قيل في ذلك . غير أننا نود أن نشير أخيراً إلى أن الكنعانيين لم يعودوا استخدام اسم كنعان في الإشارة إلى أنفسهم أو أرضهم ، ذلك أن أرض كنعان لم تعرف عبر تاريخها الوحدة السياسية أو السلطة المركزية . من هنا كانت الانتماءات دوماً لدولة المدينة ، وانتسب كل فريق إلى مدينته وتسمى باسمها . نستثني من ذلك الفترة التي كانت لصيدون فيها سلطة على جاراتها الفينيقية ، حيث استعملت تسمية الصيدونيين للدلالة على الشعب الفينيقي ، سواء من قبل الفينيقيين أنفسهم أم من قبل من احتك بهم خلال تلك الفترة . هذه كنعان بلاد الشام في التاريخ ، وهي كنعان الوحيدة التي نعرفها حتى الآن . فماذا قال كمال الصليبي في أمرها؟

[إن أرض الكنعانيين التوراتيين في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في فلسطين ، كان يفترض بها أن تضم المنحدرات البحرية لعسير من منطقة بلحمر في الشمال عبر رجال ألمع ، إلى منطقة جيزان في الجنوب ، ومعظم هذه المنطقة ضمناً . وهنا يمكن ملاحظة وجود قريتين تسميان «القناع» (قارن بالجذر كنع ومنه كنعن) في منطقة المجاردة شمال منطقة بلحمر . وفي الجوار الأوسع ذاته ، هناك قرية تسمى «العزة» ، وكذلك قرية تسمى «القناع» ، وواحدة تسمى «ذي القناع» ، وواحدة تسمى «القنعات» ، وقرتان تسميان «القنعة» توجدان في منطقة جيزان ، هذا دون أن نتطرق إلى ذكر أسماء الأمكنة المشتقة من الجذر نفسه في أجزاء أخرى من عسير وجنوب الحجاز . وأخيراً هناك قرية تسمى «آل كنعان» (ءل كنع ، وتعني حرفياً إله كنعان) في وادي بيشة عبر الشق المائي في منطقة المجاردة . والدليل الاسمي المتعلق بموقع

14- S. Moscati, op. cit, P.21

الكنعانيين التوراتيين، تفريقاً عن أولئك الشاميين، في غرب شبه الجزيرة العربية يستدعي إعادة نظر دقيقة وبالعُمق في الأفكار الشائعة حول هذا الموضوع] (ص ١٠١ - ١٠٢).

هؤلاء الكنعانيين قد بدأوا بالهجرة إلى الساحل السوري قبل هجرة الاسرائيليين فهم : [قد نزحوا من غرب شبه الجزيرة العربية في زمن مبكر ليعطوا اسمهم لأرض كنعان على امتداد الساحل الشامي شمال فلسطين في المنطقة التي سماها الاغريق فينيقيا... وفي كتابه عن الفينيقيين وعن سوريي فلسطين في القرن الخامس قبل الميلاد، لا يبدي أي شك حول كونهم من غرب شبه الجزيرة العربية. وهو يقول عن الاثنين «هؤلاء الناس، واستناداً إلى روايتهم نفسها، قطنوا قديماً على البحر الأحمر، وبعبروهم من ذلك المكان استقروا على ساحل البحر في سورية، وما زالوا يقيمون». ومهما كان شأن الهجرات الفلسطينية والكنعانية إلى هناك، لا بد أن تكون قد نمت حجماً بمرور الزمن... ولعل هجرة هؤلاء الفلسطينيين والكنعانيين ازدادت حجماً على إثر الهزائم المتتالية التي لحقها بهم بنو اسرائيل في مواطنهم الأصلية] (ص ٣٣ - ٣٤ وخريطة الصليبي رقم ٦).

وفي الحقيقة فان الصليبي هنا يستنتج من هيرودوتس بحرية كبيرة، ذلك أن المؤرخ الاغريقي لم يقل أن الفينيقيين قد أتوا من غرب العربية، بل قال انهم جاءوا من شواطئ بحر أريريا (وهي التسمية الاغريقية للبحر الأحمر) دون أن يرجح الجانب العربي من البحر على الجانب الأريتيري المقابل في افريقيا، ونظريته معروفة تاريخياً بالنظرية الأريتيرية. وهذه ترجمة للموضعين الذين أورد فيهما ذكر موطن الفينيقيين الأول في الكتاب الأول الفقرة رقم واحد نقرأ: [إن هؤلاء يوم جاءوا من سواحل بحر أريريا إلى شاطئ بحرنا، سافروا في البحر مسافة طويلة حالما استقروا في البلاد التي اتخذوها موطناً لهم إلى الآن، وطفقوا يتاجرون بالبضائع المصرية والأشورية بأن ينقلوها إلى عدة أماكن منها...]. وفي الكتاب السابع، الفقرة رقم ٨٩: [والفينيقيون كانوا

يسكنون سواحل بحر اريريا، كما يقولون هم أنفسهم. وعندما اجتازوا من هناك إلى سواحل سورية، قطنوها. وهذا القسم من سورية، مع كل البلاد التي تمتد إلى تخوم مصر، يسمى فلسطين^(١٥). يضاف إلى ذلك أن المؤلفين الكلاسيكيين الآخرين لا يوافقون هيرودوتس الرأي. فلقد ذهب «استرابو» إلى أن الكنعانيين قد جاءوا من خليج البصرة، وأكد على وجود معابد ومدائن شبيهة بما هو موجود في فينيقيا، وأيده في ذلك «بليني». أما «فيلو الجبيلي»، فقد قال بأن الكنعانيين أصيلون في سورية ولم يهاجروا إليها من أي مكان^(١٦).

وبعد أن حد الصليبي أرض كنعان في المنحدرات البحرية لعسير على مسافة كبيرة من ساحل البحر الأحمر، يقوم بتحديد مواقع أهم المدن الكنعانية الفينيقية الواردة في التوراة، في المناطق الداخلية لعسير وغرب العربية:

[صور التوراتية، لم تكن مدينة على حافة البحر (يم بالعبرية)، بل الواحة الحالية الكبيرة المسماة اليوم بالتحديد «زور الوادعة» في منطقة نجران بمحاذاة بلاد «يام» (قارن مع يم العبرية) المجاورة للصحراء العربية الداخلية. وسفنها (ء ونيوت بالعبرية) كانت في الحقيقة قوافل حيوانات محملة (الأون بالعربية هو أحد جانبي ظهر الدابة) ... وجبيل التوراتية (جبيل بالعبرية غير المحركة) ليست جبيل لبنان. وهناك جبيل معينة تقع قرب صور التوراتية هي «القابل» (قبل) في اقليم نجران. وأرواد غرب شبه الجزيرة العربية هي اليوم «رواد» في مرتفعات عسير] (ص ٣٤ - ٣٥). [ومن المؤكد أن «صيدن» ليست هي الميناء اللبناني «صيدون». ومن بين أربعة صيدونات تدعى اليوم «زيدان» أو «آل زيدان» (زيدن، قارن بالعبرية صيدن) توجد اليوم في أجزاء مختلفة من عسير، فإن تلك الواردة في سفر التكوين: ١٠، لا

15- تاريخ هيرودوتس، ترجمة حبيب بسترس، مطبعة القديس جاورجيوس، بيروت

. ١٨٨٦

16- S. Moscati, op.cit, P.20

بد أن تكون اليوم قرية «آل زيدان» في مرتفعات جبل شهدان ، وهو قمة من جبل بني مالك . في أرض جيزان الداخلية [(ص ٩٩)] .

فهل تتفق نصوص التوراة ، مهما كانت الطريقة التي يُقرأ بها النص العبري الساكن ، مع جغرافية الصليبي هذه ؟ في الحقيقة ، ان هذه النصوص تتفق مع ما تحصل لدينا حتى الآن من دراسة السجلات القديمة لمصر وبلاد الرافدين ، ومن التدقيق في نتائج التنقيبات الأثرية الحديثة . فمدن كنعان الفينيقية ، هي نفسها تلك المدن البحرية التي تحدثت عنها السجلات التاريخية القديمة ، وهي على الساحل السوري وليست في عسير الداخلية . ولنبدأ بمدينة صور .

يرد ذكر صور لأول مرة في التوراة بشكل مفصل ، في خبر اتصال ملكها بسليمان : [وأرسل حيرام ملك صور عبيده إلى سليمان لأنه سمع أنهم مسحوه ملكاً مكان أبيه ، لأن حيرام كان محباً لداود كل الأيام] . فيطلب سليمان من ملك صور أن يرسل له خشباً من لبنان وحرفيين للبناء : [وأرسل حيرام إلى سليمان قائلاً قد سمعت ما أرسلت به إلي . أنا أفعل كل مسرتك في خشب الأرز وخشب السرو . عبيدي ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر ، وأنا أجعله أرماتاً في البحر إلى الموضع الذي تعرفني عنه وأنفضه هناك وأنت تحمله] الملوك الأول ٥ : ١ - ٩ . وفي رواية أخرى ، يتم تحديد المكان الذي سيتم إنزال الأخشاب فيه ، وهو « يافا » : [. . . ونحن نقطع خشباً من لبنان حسب كل احتياجك ونأتي به إليك أرماتاً على البحر إلى يافا ، وأنت تصعده إلى أورشليم] الأيام الثاني ٢ : ١٦

من الواضح هنا ، أن صور المقصودة ، هي الميناء الفينيقي المعروف على الساحل اللبناني . فحيرام سينقل الأخشاب بحراً ، وسليمان سيستلمها من البحر أيضاً وينقلها بعد ذلك إلى أورشليم . فلو كانت صور المعنية هنا هي زور الوادعة بمنطقة نجران ، فأى سفن في أن ينقل حيرام خشب الأرز إلى شاطئ البحر حيث يستلمه سليمان ويقفل راجعاً به إلى أورشليم ، ولماذا لا

تنقل الأخشاب برأ؟ ثم ان النص قد حدد نقطة الانزال عند ميناء يافا، ويافا التوراتية في رأي الصليبي تقع إما في منطقة جيزان وهي «الوفية» أوقرب خميس مشيط وهي «الوافية» (ص ١١٧ و ١٢٠)، وكلا الموقعين يبعدان مسافات شاسعة جداً عن شاطئ البحر. ويجب أن نلاحظ هنا أن «الوفية» تقع في منطقة زور الوادعة نفسها، أما «الوافية» فليست بالبعيدة عن «آل شريم» التي هي اورشليم داود وسليمان عند كمال الصليبي (ص ٨٣) فلماذا تنقل الأخشاب إلى واحدة منها ولا تسلم في اورشليم ذاتها؟

وهناك أكثر من بينة نصية على أن يافا المذكورة في التوراة هي يافا الشام، وليست أيأ من الموقعين اللذين يحددهما لها الصليبي في غرب العربية. فمن سفر عزرا ٣: ٧ نفهم بوضوح أن يافا هي ميناء بحري وليست مدينة داخلية: [وأعطوا فضة للنحاتين والنجارين، ومأكلاً ومشرباً وزيتاً للصيغونيين والصوريين، ليأتوا بخشب أرزلبنان إلى بحريافا، حسب إذن كورش ملك فارس لهم]. ومن ميناء يافا يبحر النبي «يونان»: [فقام يونان ليهرب إلى ترشيش من وجه الرب، فنزل إلى يافا ووجد سفينة ذاهبة إلى ترشيش، فدفع أجرتها ونزل فيها ليذهب معهم إلى ترشيش من وجه الرب. فأرسل الرب ريحاً شديدة إلى البحر فحدث نوء عظيم في البحر حتى كادت السفينة تنكسر. فخاف الملاحون وصرخوا كل واحد إلى الهه، وطرحوا الأمتعة التي في السفينة إلى البحر ليخففوا عنهم] (يونان ١: ٣-٥).

وترشيش المذكورة هنا، هي الموقع البحري البعيد الذي كانت سفن صور تبحر اليه للتجارة. وقد كان للملك سليمان سفناً تبحر اليه مع سفن ملك صور بعد أن توطدت العلاقة بينهما: [كان للملك في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام. فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنوات حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقروداً وطواويس] الملوك الأول ١٠: ٢٢. وأيضاً: [لأن سفن الملك كانت تسير إلى ترشيش مع عبيد حورام، وكانت سفن ترشيش تأتي مرة كل ثلاث سنين] الأيام الثاني ٩: ٢١. والطريق إلى ترشيش شاقة

ومهولة : [بريج شرقية تكسر سفن ترشيش] المزمور ٤٨ : ٧ .
وقد ذكرت ترشيش أيضاً في مصادر الشرق القديم ، وفي المصادر الكلاسيكية اللاحقة . ففي السجلات الآشورية ترد تحت اسم «ترسيسي» ، التي يقول أسرحادون أنها كانت الحد الأبعد لنفوذه في البحر : [كل ملوك أعالي البحار ركعوا عند قدمي وتلقيت منهم الجزية الكبيرة . من بلاد يدنانا (قبرص) إلى ترسيسي]^(١٧) . ويغلب الظن أن ترشيش أوترسيس تقع في جنوب اسبانيا ، وهي التي ذكرها المؤلفون الكلاسيكيون باسم «ترتيسوس» ، الأمر الذي يعطي بعداً هاماً للتوسع الكنعاني الفينيقي في البحر المتوسط ، منذ القرن العاشر قبل الميلاد^(١٨) ، وقد حدد المؤلفون الكلاسيكيون مكانها بموقع «قادس» ، وهي جزيرة صغيرة مقابل اسبانيا في المحيط الأطلسي ، وكانت قادس مستعمرة فينيقية قامت في موقع ترشيش الأقدم ، وعلى هذا يقول «بلييني» من القرن الأول الميلادي في كتابه «التاريخ الطبيعي» أن معنى قادس هو المكان الحصين أو القلعة ، وأنها بنيت في مكان ترشيش القديمة . وقد التحمت جزيرة قادس مع البر الرئيسي اليوم ، بتأثير الرسوبات التي يصبها النهر الكبير بالقرب منها^(١٩) .

إذن ، فسفن صور المذكور في التوراة ، لم تكن قوافل حيوانات محملة ، كما يقول الصليبي . وهناك المزيد من البيانات النصية على ذلك .
نقرأ في أشعيا ٢٣ : ١ - ٨ [وهي من جهة صور . ولولي ياسفن ترشيش لأنها خربت ... اندهشوا سكان الساحل ... عند وصول الخبر إلى مصر يتوجهون عند وصول خبر صور ، أعبروا إلى ترشيش ، ولولوا سكان

17- Leo oppenheim, op.cit, P.290

18- S. Moscati, op.cit, P.34

19- محمد الصغير غانم ، التوسع الفينيقي ، المؤسسة الجامعية ، بيروت ١٩٨٢ ، ص ص ٨٢ - ٨٥ .

الساحل . أهذه لكم المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها، تنقلها رجالها بعيداً للتغرب؟ من قضى بهذا على صور المتوجة التي تجارها رؤساء؟].
ونقرأ في حزقيال ٢٨ : ١ - ٩ [وكان إلي كلام الرب قائلاً: يا ابن آدم قل لرئيس صور، هكذا قال السيد الرب، من أجل أنه قد ارتفع قلبك وقلت انا اله، في مجلس الآلهة أجلس في قلب البحار، وأنت انسان لا إله . . . لذلك هانذا أجلب عليك غرباء عتاة الأمم فيجردون سيوفهم على بهجة حكمتك ويدنسون جمالك، ينزلونك إلى الحفرة فتموت موت القتلى في قلب البحار].
وفي سفر حزقيال ٢٦ : ٣ - ١٧ [هانذا عليك يا صور، فأصعد عليك أنما كثيرة كما يعلي البحر أمواجه، فيخربون أسوار صور ويهدمون أبراجها وأسحي ترابها عنها وأصيرها ضيغ الصخر، فتصير مبسطاً للشباك في وسط البحر... لأنه هكذا قال السيد الرب. هانذا أجلب على صور نبوخذ راصر ملك بابل... بحوافر خيله يدوس كل شوارعك، يقتل شعبك بالسيف فتسقط إلى الأرض أنصاب عزك وينهبون ثروتك ويغنمون تجارتك ويهدمون أسوارك ويهدمون بيوتك البهيجة، ويضعون حجارتك وخشبك وترابك في وسط المياه... كيف بدت يا معمورة من البحار، المدينة الشهيرة التي كانت قوية في البحر هي وسكانها الذين أوقعوا رعبهم على جميع جيرانها، الآن ترتعد الجزائر يوم سقوطك وتضطرب الجزائر التي في البحر لزوالك].

وفي حزقيال ٢٧ : ١ - ٤ و ٢٥ - ٢٦ و ٣٢ - ٣٤ [وكان كلام الرب إلي قائلاً: وأنت يا ابن آدم فارفع مرثاة على صور وقل لصور الساكنة عند مداخل البحر، تاجرة الشعوب إلى جزائر كثيرة، هكذا قال السيد الرب. يا صور أنت قلت أنا كاملة الجسما، تخومك في قلب البحور]. . [سفن ترشيش قوافلك لتجارتك، فامتلات وتمجدت جداً في قلب البحار. ملاحوك قد أتوا بك إلى مياه كثيرة، كسرتك الريح الشرقية في قلب البحار]. . [يرفعون عليك مناحة ويرثونك ويقولون أية مدينة كصور كالمسكتة في قلب البحر. عند خروج بضائعك من البحار أشبعت شعوباً كثيرة. بكثرة ثروتك وتجارتك

أغثيت ملوك الأرض . حين انكسارك من البحر في أعماق المياه سقط متجرك وكل جمعك].

وفي زكريا ٩: ٣ - ٤ [وقد بنت صور لنفسها حصناً وكومت الفضة كالتراب، والذهب كطين الأسواق. هوذا الرب يملكها ويضرب في البحر قوتها، وهي تؤكل بالنار].

فأين صور، هذه المدينة البحرية العظيمة كما تصورها التوراة، من الواحة الكبيرة المسماة «زور الوادعة» في غرب العربية؟

فاذا انتقلنا إلى صيدون التوراتية التي وجد الصليبي لها أربعة مواقع تدعى «زيدان» و«آل زيدان» في عسير الداخلية ومرتفعات شهدان في أراضي جيزان الداخلية، وجدناها ترد مقترنة بصور وبالجزر البحرية. نقرأ في إرميا ٢٥: ٢٣ [كل ملوك صور وكل ملوك صيدون وملوك الجزائر التي في عبر البحر]. وترد صيدون أيضاً مع الموانيء الفينيقية البحرية الأخرى أرواد وجبيل، كمدن متعاونة مع صور مجاورة لها على البحر. نقرأ في أشعيا ٢٣: ٢ - ٥ [تجار صيدون العابرون البحر ملأوك، وغلتها زرع شبحور حصاد النيل على مياه كثيرة فصارت متجرة لأمم. اخجلي يا صيدون لأن البحر، حصن البحر نطق قائلاً: لم أتمخض ولا ولدت ولا رببت شباناً ولا نشأت عذارى. .]. وفي حزقيال ٢٧: ٨ - ٩ [أهل صيدون وارواد كانوا ملاحيك، حكماءك يا صور الذين كانوا فيك هم ربابينك، شيوخ جبيل وحكماءها كانوا فيك قلافوك*].

وترتبط هذه الموانيء المتجاورة، في النصوص التوراتية، بجبل لبنان فخشب الأرز كما رأينا يحتطب من لبنان ويرمى في بحريافا (الملوك الأول: ٥

* - القلافة، هي حرفة من يخرز ألواح السفن ويجعل في خللها القار، ومنها قلاف وجمعها قلافون. وقلف السفينة أعدها وسد خللها بالليف والقار.

والأيام الثاني : ٢ وعزرا ٣). ويصنع البنائون منه سوارى للسفن : [أخذوا
أرزاً من لبنان ليصنعوه لك سوارى ، صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك] حزقيال
٢٧ : ٤ - ٥ .

وهكذا ، فإن البيئة النصية التوراتية تثبت متعاونة مع البيئات المستمدة
من السجلات المصرية والآشورية ، أن المواقع الكنعانية الفينيقية المذكورة في
التوراة ، هي تلك التي قامت تاريخياً على الساحل السوري ، ولا علاقة لها من
قريب أو بعيد بغرب العربية .

١٢ - يهوذا واسرائيل

في بحثه عن يهوذا واسرائيل في غرب العربية، تتجلى كل سليات المنهج الأحادي لكمال الصليبي. فهنا يقوده السعي وراء تطابقات الأسماء إلى نتائج تتنافى ونصوص التوراة التي يعتمد عليها باعتبارها مضموناً تاريخياً ثابتاً. فأرض يهوذا ليست تلك التي رسمت لسبط يهوذا وبنيامين في أيام يشوع، والتي شكل معظمها فيما بعد مملكة يهوذا الجنوبية، بل هي كامل الجانب البحري من عسير الجغرافية، من الشق المائي لامتداد السراة وحتى صحراء تهامة الداخلية، أي بمعنى آخر كل أراضي اسرائيل التوراتية. أما اسرائيل فليست أرضاً، بل تسمية للشعب الذي أتى أصلاً من جبال السراة وسكن في أرض يهوذا. وعلى ذلك، فلا وجود لأرض محددة شغلتها مملكة يهوذا، ولا لأخرى شغلتها مملكة اسرائيل، بل كان لكل من السلطتين المركزيتين في اورشليم والسامرة مدن وقرى مبعثرة في كامل أرض يهوذا، تدين بالولاء لها، وتتداخل مع مدن وقرى الجماعة الأخرى وهذه بدورها تتداخل مع مدن وقرى الفلسطينيين كما أوضحنا في فصل سابق (ماذا عن الفلسطينيين). وهذه ظاهرة سياسية فريدة في التاريخ، حيث تحكم ثلاث سلطات مركزية مستقلة أرضاً مشتركة تضم مجموعات بشرية موزعة حسب ولاءاتها السياسية، دون أن تختص كل مجموعة بأرض ذات تخوم واضحة.

فيما يتعلق بيهوذا يقول الصليبي: [والواضح أن «يهوذا» كان اسماً جغرافياً

قبل أن يصبح اسماً لقبيلة من بني اسرائيل . وصيغته العبرية «يهوده» هي اشتقاق من «يهد» المماثلة للعربية «وهد» وهو جذر يفيد معنى الانخفاض . ومن الجذر «وهد» بالعربية الوهد والوهدة بمعنى المنخفض أو الهوة في الأرض . ويهود ويهوده التوراتيتان تأنيان من العبرية يهد ، ولا بد أنهما كانتا تعبيرين طبوغرافيين ساميين قديمين يحملان المعنى نفسه . والواقع إن الأرض الهضبية الممتدة على الجانب البحري من عسير الجغرافية ، ليست مجرد أرض تحتوي على قمم وسلاسل متضافرة فيما بينها بعضها يبرز من الامتداد الرئيسي للسراة وأخرى تقف معزولة هنا وهناك ، بل هي أيضاً تحتوي على وهاد منخفضة تتعرج بين القمم والسلاسل ، ولا شك أن هذا هو ما أعطى يهوذا اسمها القديم] .

[ويمكن للباحث أن يدرس أمثلة كثيرة من النص التوراتي لكي يبرهن أن أرض يهوذا التوراتية ، كموطن لبني اسرائيل على وجه العموم وليس لقبيلة يهوذا وحدها ، كانت تضم المنحدرات البحرية لعسير وجنوب الحجاز حتى مرتفعات الطائف . وأحد الأمثلة الواضحة يأتي من سفر عزرا ٢ : ٣ - ٦٣ وسفر نحميا ٧ : ٨ - ٦٥ عن عودة بني اسرائيل من الأسر في بابل إلى أرض يهوذا . وهذان النصان ، وباختلافات ضئيلة ، يدرجان أسماء المجموعات العائدة من بني اسرائيل استناداً إلى البلدان والقرى الأصلية لها ، وليس استناداً إلى الأسرة أو القبيلة في أية حال ، كما اعتقد حتى الآن ، وباستعراض النصين يمكن للباحث المزود بخريطة مفصلة لشبه الجزيرة العربية ، وبالمعاجم المتوفرة عن أسماء الأماكن بالعربية كموجه مضاف ، أن يعثر على الأكثرية العظمى من البلدان والقرى التي أوردتها سفرا عزرا ونحميا كمواقع ما زالت موجودة ، وتحمل الأسماء نفسها ، أو بصيغ من هذه الأسماء يسهل التعرف إليها بشكل مباشر ، وذلك في أجزاء من غرب شبه الجزيرة العربية تمتد بشكل تقريبي من جوار الطائف والليث شمالاً وحتى منطقة جيزان في الجنوب] (ص ١٥٥ - ١٥٧) .

والحقيقة أن هذه الأطروحة لا تجد لها سنداً من نصوص التوراة .
والكتاب لم يشر في أي موضع من أسفاره ، تلميحاً أو تصريحاً إلى منطقة ما
اسمها يهوذا كانت موطناً لبني اسرائيل . فأرض يهوذا التوراتية هي التخوم التي
قسمت في أرض كنعان للسبط الذي ينتسب إلى جده الأعلى «يهوذا» ، وقد
حدد سفر يشوع بدقة وتفصيل المدن والقرى التي كانت نظرياً من نصيب
يهوذا ، وشكلت فيما بعد مع نصيب سبط بنيامين مملكة يهوذا . وهي حسب
يشوع ١٥ : [هذا نصيب سبط بني يهوذا حسب عشائرتهم . وكانت المدن
القصوى التي لسبط بني يهوذا إلى تخوم آدوم جنوباً . فيصثيل وعيدر وباجور
وقينة وديمونة وعدعده وقادش وحاصور وثنان . وزيف وطالم وبعلوت .
وحاصور وحدته وقريوم وحصرون ، هي حاصور . وأمام وشاع ومولاده .
وحصر جده وحشمون وبيت فالط . وحصر شوغال ويثر سبع وبزيوتيه . وبعله
وععيم وعاصم . والتولد وكسيل وحرمة . وصقلع ومدمنة وسنسة . ولباوت
وشحليم وعين ورمون . كل المدن تسع وعشرون مع ضياعها . في السهل :
أشتاول . . (يلي ذلك تعداد لتسع وثمانين موقعاً بين مدينة وبلدة وقرية) .
لم يلجأ الصليبي ، كما يحتم عليه منهجه في مقابلة أسماء الأماكن
والمواقع ، إلى البحث عن الأماكن الواردة أعلاه في غرب العربية ، والتي يبلغ
تعدادها مائة وثلاثين موقعاً ، بل لجأ إلى تحليل أسماء المجموعات العائدة من
السبي البابلي ، وافترض أن تلك الأسماء تشير إلى البلدان والقرى الأصلية
التي تركها المنفيون . وانتهى من ذلك إلى لائحة طويلة بأسماء مواقع موجودة
في غرب العربية تتطابق ، بعد عمليات معقدة من القلب والابدال ، مع أسماء
فئات العائدين . إلا أن المشكلة التي لم يشر الصليبي إلى طريقة حلها ، هي
أن أسماء هذه المواقع التي عثر عليها لم ترد في التوراة بتاتاً ، ولم تجر الإشارة إلى
أي منها كموقع من مواقع يهوذا أو اسرائيل ، أو حتى كموقع مرتبط بالروايات
الأقدم الخاصة بالأباء . وبمعنى آخر ، فإن كمال الصليبي لم يقف عند حدود
منهجه في مقابلة أسماء المواقع التوراتية مع أسماء مواقع قائمة في غرب العربية

اليوم، بل تعدى ذلك إلى ابتكار أسماء مواقع غير موجودة أصلاً في التوراة وطابقها على أسماء مواقع قائمة في غرب العربية .
ولتتابع بالتفصيل فيما يلي أسماء المجموعات العائدة، وكيف عثر الصليبي على أسماء مواطنها الأصلية في أرض يهوذا المفترضة . وإني لأحث القاريء غير المتخصص على الصبر والأناة في متابعة قائمة الأسماء الطويلة وتحليلنا لها، لما تلقى من أضواء على منهج الصليبي وكيفية استخدامه له .

آ - الكهنة :

يرى الصليبي أن اسم هذه الفئة «كهني» بالعبرية يجب ألا يؤخذ على أنه صيغة الجمع لكلمة «كهن» أو «كاهن» بالعبرية، بل على أنه جمع لـ «كهني» منسوبة إلى «كهن» كاسم مكان يجده في «قهيوان» بمنطقة جيزان . كما يرى أن تعداد هذه الفئة البالغ ٤٤٨٩ ، أي عشر عدد الاسرائيليين العائدين ، يجعل من الصعب تصور أن واحداً من كل عشرة رجال كان كاهناً . ولكن العجب من ارتفاع نسبة الكهنة بين العائدين يزول إذا عرفنا الدور الذي لعبه الكهنوت والكهان في الحياة الدينية والعامّة كما رسمتها التوراة . فقد بدأ الكهنوت من أيام موسى عندما سن النظام الجديد له ، وتعينت رتبة الكهنوت في عائلة هارون (الخروج ٢٨) وكرس هؤلاء للرب باحتفال عظيم . وفي أيام يشوع خصصت للكهنة ثلاث عشرة مدينة مع مساحاتها في نصيب يهوذا وشمعون وبنيامين (يشوع ٢١ : ١٣ - ١٩) ، مما يشير إلى عددهم الكبير بالنسبة إلى بقية الشعب . وفي أيام داود قسم الكهنة إلى ٢٤ فرقة وازداد عددهم وتعددت الأسر التي ينتمون إليها (الأيام الأول ٢٤ : ٤) . فإذا أضفنا إلى ذلك كله أن السبي البابلي قد طال عليه القوم ونبلاءهم وترك فقراء الأرض ، أدركنا السبب الكامن وراء زيادة نسبة الكهنة في سبي يهوذا . أما عن

«كهنة» التي يجدها الصليبي في «قهبان» بمنطقة جيزان، فلم ترد كاسم مكان في أي موضع من أسفار التوراة، ولم ترتبط بأية حادثة توراتية ضئيلة كانت أم كبيرة.

بعد ذلك ينتقل الصليبي إلى تحليل أسماء المجموعات المنضوية تحت الكهنة كما وردت في سفر عزرا ونحميا.

١ - بنويدعيا (يدعية). يجد موطنهم في «وادعة» (ودع بلا تصويت) في وادي نجران.

وفي الحقيقة، لم يرد في التوراة اسم يدعيا أو يدعية باعتباره موقعاً، بل ورد مراراً كاسم علم. وأول يدعيا مر ذكره كان رئيساً لفرقة الكهنة الثانية أيام الملك داود (الأيام الأول ٢٤ : ٧)، واليه تنتسب مجموعة بنويدعيا العائدة من السبي.

٢ - بنوإمير (ء مر). يجد موطنهم في واحة «الأمار» في منطقة اليمامة في وسط شبه الجزيرة العربية، شمال منطقة نجران.

بينما لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل ورد كاسم علم وهو رئيس فرقة الكهنة السادسة عشر أيام الملك داود (الأيام الثاني ٢٤ : ١٤)، واليه تنتسب مجموعة بنوإمير العائدة من السبي.

٣ - بنو فشحور، يجد موطنهم في «الحرشف» من قرى يام نجران. بينما لم يرد هذا الاسم في التوراة في غير هذا الموضع بتاتاً.

٤ - بنو حاريم (حرم). يجد موطنهم في «وادي حرم» عند الحد الغربي لمنطقة اليمامة.

لم يرد الاسم في التوراة كموقع، وإنما كاسم علم. وهو رئيس فرقة الكهنة الثالثة (الأيام الثاني ٢٤ : ٨)، واليه تنتسب مجموعة بنو حاريم العائدة. كما تسمى بالاسم نفسه رجل من الجيل الثاني بعد السبي (نحميا ١٢ : ١٥) وآخرون غيره (نحميا ١٠ : ٥ وعزرا ٢ : ٣٢).

ب - اللاويون :

الزمرة الثانية من العائدين هي مجموعة اللاويين (هـ - لويم) ويرى الصليبي في «لويم» جمع «لوي» نسبة إلى «لو» أو «لوه» وأن هؤلاء لم يكنوا لاويين كهنوتياً، بل كانوا مجتمعاً يعود في أصله إلى ما هو اليوم قرية «لاوه» (لوه بلا تصويت) في وادي أضم.

وفي الحقيقة، لم يرد في التوراة أي موقع باسم «لوه». أما «لاوي» فاسم علم معروف، وهو لاوي ابن يعقوب، رأس سبط اللاويين. وقد أوكلت إلى هؤلاء منذ أيام موسى رعاية الشؤون المقدسة وخدمة تابوت العهد (الخروج ٣٢: ٢٦ - ٢٩ والعدد ٩: ١١ و ١٣ و ٤١ و ٤٥ و ٨: ١٦ - ١٨) وقد بلغ تعدادهم في ذلك الوقت ٢٢٠٠ (العدد ٣: ٤٣ و ٤٦). وكانت هذه الخدمة وراثية في سلالتهم. فلماذا لا يكون اللاويون في عداد العائدين من السبي؟ ولماذا يفضل الصليبي ابتكار موطن لهم لم يرد ذكره في التوراة؟ أما المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة فهي:

١ - بنو يشوع. يجد الصليبي موطنهم في قرية «شعية» في منطقة الليث على مسافة ما إلى الأسفل من وادي أضم.

بينما لم يرد اسم الشعية في التوراة باعتباره موقعاً. أما يشوع فهو من أشهر أسماء الأعلام التوراتية. فبالإضافة إلى يشوع بن نون هناك عدد كبير ممن تسمى بهذا الاسم من الأشخاص البارزين في الرواية التوراتية. ومنهم رأس عائلة لاوية عاد إلى أورشليم في قافلة الراجعين من السبي.

٢ - بنو قديميئيل (قديمي ءل)، يجد موطنهم في قرية «القدمة» في الجوار السابق (ءل - قدم قارن مع قديميئيل).

لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، بل هو اسم علم تسمى به عديدون، ومنهم لاوي عاد مع عائلته من السبي، وكان من المشرفين على بناء الهيكل (عزرا ٢: ٤ و ٩: ٣).

٣ - بنو هوديا (هودويه) . يجد موطنهم في قرية «الهذبة» في وادي أضم .
لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم ، بل هو اسم علم تسمى به البعض
ومنهم هوديا ابن هوناة من بني يامين (الأيام الأول ٩ : ٧) ، ورئيس عائلة من
بني لاوي عاد مع عائلته من السبي (عزرا ٢ : ٤٠) .

ج - المغنون :

المغنون «هـ - مشرريم» هم الزمرة الثالثة من العائدين ، بما فيهم بنو
آساف . ويجد الصليبي موطنهم في قرية «المسرة» في منطقة بارق غرب منطقة
المجاردة بعسير . وإلى الشرق من المسرة توجد قرية «آل يوسف» (يسف بلا
تصويت) التي يعتقد أنها آساف .

لم يرد ذكر موقعين بهذا الاسم في التوراة بأي صيغة كانت . أما «هـ -
مشرريم» باعتبارهم المغنين أو الموسيقيين ، فقد كانوا يؤلفون مجموعة هامة من
اللاوين أفرزهم الملك داود لأداء التراتيل والأناشيد الدينية بمصاحبة العידان
والرباب والصنوج . وكان آساف الذي ينتمي إليه فريق المغنين العائدين من السبي أحد
رؤساء هذه المجموعة : [وأفرزدوا رؤساء الجيش للخدمة بني آساف وهيمان ويدئون ،
المتنبئين بالعيدان كل هؤلاء تحت يد أبيهم لأجل غناء بيت الرب
بالصنوج والرباب والعيدان ، لخدمة بيت الله تحت يد الملك] - الأيام الثاني
٢٥ : ١ - ٦ . فلماذا لا يكون المغنون بما فيهم بنو آساف في عداد العائدين من
السبي ؟

د - البوابون :

البوابون (هـ - شعريم) هم الزمرة الرابعة من العائدين . وعند الصليبي لم يكن هؤلاء من البوابين ، بل جاءوا من المكان المسمى حالياً «الشعراية» (شعري بلا تصويت) في منطقة الطائف .

لم يرد في التوراة ذكر لمثل هذا الموقع . أما هـ - شعريم باعتبارهم البوابين ، فقد كانوا جماعة مفرزة لحراسة باب المدينة والهيكل (صموئيل الثاني ١٨ : ٢٦ ، والملوك الثاني ٧ : ١٠) . وقد بلغ عدد البوابين على أبواب هيكل اورشليم ٤٠٠٠ بواب (الأيام الأول ٢٣ : ٥) . وكان لهم رؤساء يديرونهم حسب مراتبهم (الأيام الأول ٢٦ : ١ - ١٣ والأيام الثاني ٨ : ١٤) . أما المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة فهي :

١ - بنو شلوم (شلوم) ، ويوجد موطنهم الأصلي في «الشمول» بمنطقة الشعراية الأنفة الذكر .

لم يرد في التوراة ذكر لمثل هذا الموقع ، بينما ورد «شلوم» كاسم علم مراراً كثيرة . فهو شلوم بن نفتالي ، مؤسس عشيرة المشليميين (العدد ٢٦ : ٤٩) ، وشلوم رئيس بوابي قدس الأقداس (الأيام الأول ٩ : ١٧) . وشلوم بن يابيش الذي قتل الملك زكريا (الملوك الثاني ١٥ : ٨ - ١٥) ، وشلوم أحد أفراد أسرة رؤساء الكهنة التي من صادوق (الأيام الأول ٦ : ١٢ - ١٥) ، وشلوم عم النبي إرميا (ارميا ٣٢ : ٧ - ٨) ، وأخيراً هو بواب للهيكل وأحد أبناء بني بعد الرجوع من السبي (عزرا ١٠ : ٢٤ و ٤٢) .

٢ - بنو آطير (ء طن) ، يوجد موطنهم في «وتر» بالجوار نفسه .

لم يرد ذكر في التوراة لمثل هذا الموقع ، بل هو اسم علم ويعني بالعبرية «المغلق» أو «الذي يغلق» . ولذا يغلب أن اسم رأس المجموعة العائدة كان مسمى لوظيفة من وظائف البوابين .

٧ - بنو عقوب (عقوب) . يوجد موطنهم في «عقيب» بالجوار نفسه .

لم يرد ذكر هذا الموقع في التوراة ، بل هو اسم علم لرأس عائلة من بوابي

الهيكل على بابه الشرقي (الأيام الأول ٩: ١٧) واليه تنتسب المجموعة العائدة من البوايين .

٤ - بنو طلمون (طلمن) . يجد موطنهم في «المنظلة» .

لم يرد ذكر لمثل هذا الموقع في التوراة، بل هو اسم علم لبواب من بني لاوي : [والبوابون شلوم وعقوب وطلمون وأخييان وأخوتهم، شلوم الرأس . وحتى الآن هم في باب الملك إلى الشرق . هم البوابون لفرق بني لاوي] . الأيام الأول ٩: ١٧ - ١٨ .

٥ - بنو حطيطا (حطيظ) . يجد موطنهم في الحويط .

ورد حطيطا كاسم علم مرة واحدة، وهو رأس أسرة رجع أفرادها من السبي البابلي (عزرا ٢: ٤٢)

٦ - بنو شوباي (شبي) . يجد موطنهم في «الثوابية» بالجوار نفسه .

وقد ورد شوباي كاسم علم مرة واحدة في الكتاب، وهو لاوي من عائلة البوايين عاد مع أسرته من السبي (عزرا ٢: ٤٢) .

هـ - خدم المعبد :

خدم المعبد (نتينيم) هم الزمرة الخامسة من العائدين . ويرى الصليبي أنهم لم يكونوا بالتأكيد خدم معبد، بل كانوا رجال قبيلة منتشرة في مواقع نفوذ من مناطق جيزان ورجال ألمع وقنا والبحر . والمناطق الثلاث هذه . . . لبعضها البعض في جنوب عسير . وربما كان موطن القبيلة الأصلي إحدى قريتين تسميان الآن «طناطن» (طنطن) .

وفي الحقيقة فإن «نتينيم» تعني بالعبرية «المكرسون» وهم جماعة كرسها الملك داود لخدمة الهيكل وخدمة الكهنة اللاويين (عزرا ٨: ٢٠) . وكان موسى من قبل قد كرس لهذا العمل جماعة المديانيين (عدد ٣١: ٤٧) . ثم عين

يشوع لهذا العمل الجبعونيين وعهد اليهم باحتطاب الحطب وسقي الماء للعابدين ولذبح الرب (يشوع ١٩: ٢٢ - ٢٧). ولما كان عدد المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة يبلغ الـ ٣٥ مجموعة، فاننا سنختار بضع عينات عشوائية منها:

١ - بنولبانه (لبنه) وجد موطنهم في «اللبانه» في منطقة جيزان. لم يرد في التوراة موقع بهذا الاسم، ولم يرد أيضاً كاسم علم إلا في سفر عزرا ٢: ٤٥ كاسم لرأس اسرة من خدام المعبد العائدين من الأسر. ويدوان الكلمة مشتقة من الوظيفة التي كان يمارسها هؤلاء في خدمة المعبد فـ «اللبونه» بالعبرية تعادل «اللبان» بالعربية، وهو صمغ عطر أبيض اللون أو مصفره، يشتعل فتنبعث منه رائحة عطرية. وكان إحدى المواد التي يتركب منها دهن المسح المستعمل في تكريس الكهنة لوظيفتهم المقدسة. (الخروج ٣٠: ٣٤) كما كان يضاف مع الزيت إلى التقدمة (سفر اللاويين ٢: ١ - ٢ و ١٥ و ١٦).

٢ - بنورآيا. وجد موطنهم في «راية» بمنطقة حيزان. لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علم ورد مرتين في التوراة إضافة إلى سفري عزرا ونحميا. فهو رآيا بن شوبال، أحد أحفاد يهوذا من حصرون (الأيام الأول ٤: ٢)، وهو رآيا بن ميخا من سبط رآويين (الأيام الأول ٥: ٥).

٣ - بنورصين. وجد موطنهم في «رضوان» في منطقة جيزان، أو «الرازنة» في رجال المع.

لم يرد موقع بهذا الاسم في التوراة، بل هو اسم علم آرامي، تسمى به أحد ملوك دمشق (الملوك الثاني ١٥: ٣٧ و ١٦: ٥ - ٩). ويغلب أنه كان معروفاً في كنعان أيضاً.

٤ - بنونقودا. وجد موطنهم في «ناجد» في منطقة جيزان. إلا أن ما لم ينتبه إليه الصليبي قبل أن يحدد موطن بني نقودا، هو أن سفر عزرا قد وضعهم

مع الأسر التي لم تستطع اثبات انتماؤها إلى بني إسرائيل (عزرا ٢ : ٥٩) فكيف نبحت في أرض يهوذا المفترضة عن موطن لجماعة لم يهتد النص التوراتي بصحة نسبهم؟

٥ - بنو سيسرا . رجح أن موطنهم «شرس» في شمال اليمن أو «شرسي» في منطقة الطائف .

بينما الكلمة اسم علم كنعاني قديم تسمى به قائد جيوش ملك حاصور (القضاة ٤ : ٩) ولا أثر لها في التوراة كاسم موقع .

و - عبيد سليمان :

عبيد سليمان (عبيد شلعة) هم الزمرة السادسة من العائدين ، ويوجد موطنهم في قرية «آل عبدان» في ناحية فيفا من منطقة جيزان ، وقرية «آل سلمان يحمي» ، حيث تميز «آل عبدان» عن غيرها من القرى التي تحمل نفس الاسم بتعريفها بـ «عبدان سلمان» (قارن مع عبيد سليمان) .

هنا يبلغ منهج الصليبي أقصى درجات افتتنانه بمقابلة أسماء المواقع ، دون النظر إلى أية بيئة منطقية أخرى . فالقريتان الحديثتان «آل عبدان» و «آل سلمان يحمي» والتي تعرف الأولى بالثانية تمييزاً لها ، يفترض أنها كانتا قائمتين قبل ثلاثة آلاف عام ، وإن احدهما في تلك الأيام كانت تعرف بالأخرى تمييزاً لها عن «عبدانات» كانت قائمة أيضاً كما هو الحال اليوم .

وعلى كل فخلاصة القول في موضوع عبيد سليمان ، كما نفهم من سفر عزرا ٢ : ٥٥ - ٥٨ ونحميا ٧ : ٥٧ - ٦٠ ، أنهم كانوا عبيداً عينوا لمساعدة التينيم (خدم المعبد) منذ أيام سليمان ، لأن عدد هؤلاء لم يكن كافياً لاداء المهام الموكلة اليهم . ولا يوجد في أسفار التوراة أي موقع مشتق اسمه من هذه الكلمة . ولما كانت قائمة المجموعات المنضوية تحت هذه الزمرة طويلة جداً ،

فاننا سنختار أيضاً بضع عينات عشوائية منها، اضافة إلى عينات أخرى من بقية أسماء الأسر التي لا تنتمي إلى إحدى هذه الزمر الستة :

١ - بنو آرح . وجد موطنهم في «الرحا» أو «الورخة» في منطقة الطائف .
بينما الكلمة اسم علم تسمى به رئيس من أشير (الأيام الأول ٧ : ٣٩)
وذلك إضافة إلى آرح الوارد في نحميا ٦ : ١٨ الذي تزوجت حفيدته بطوبيا
العموني (نحميا ٦ : ١٨ و ٧ : ١٠) .

٢ - بنو حاريم . وجد موطنهم في «عربات حارم» في منطقة محابيل .
بينما الكلمة اسم علم تسمى به رجل من نسل هارون ، كونت أسرته
الفرقة الثالثة من الكهنة أيام داود (الأيام الأول ٢٤ : ٨) ، ويغلب الظن ان
هذه المجموعة العائدة تنتمي إليه . ولدينا اثنين يحملان الاسم نفسه وذلك في
نحميا ١٢ : ١٥ و ١٠ : ٥ .

٣ - بنو عناثوت ، وجد موطنهم في «عنطوطة» في منطقة جيزان .
بينما الكلمة اسم علم تسمى به ابن باكر البنيامينين ، ورئيس بيت في
قبيلته (الأيام الأول ٧ : ٨) . وهو أيضاً واحد من الذين ختموا العهد مع نحميا
بعد العودة من السبي (نحميا ١٠ : ١٩) . وهناك مدينة تحمل هذا الاسم أيضاً
في نصيب بنيامين قرب اورشليم (إرميا ١ : ١) ، وفي موقعها الآن قرية صغيرة
اسمها «عناتا» .

٤ - بنو برزلاي الجلعاوي . وجد موطنهم في «البرصة» المعرفة بالنسبة
إلى موقع مجاور هو «الجلعد» ، تحوير عن «جلعد» .

وبرزلاي الجلعاوي ، هو رجل من جلعاد كان صديقاً لداود (صموئيل
الثاني ١٩ : ٣١) . وقد أوصى داود ابنه سليمان أن يحسن إلى أولاده ويجعلهم
من الأكليين على مائدته (الملوك الأول ٢ : ٧) . وهناك برزلاي المحولي هو
ميكال ابنة شاول (صموئيل الثاني ٢١ : ٨) ، وبرزلاي ثالث تزوج من ابنة
برزلاي الجلعاوي وتسمى باسمهم ، وهو الذي عاد خلفاؤه من السبي (عزرا
٢ : ٦١ - ٦٢) .

٥ - بنويوآب . يجد موطنهم في «الباب» في بلاد غامد ، أو «بواء» في منطقة الطائف .

والكلمة اسم علم تسمى به ابن سرايا أبوجماعة من الصنّاع (الأيام الأول ٤ : ٤) وأيضاً بكر أولاد صيرويه أخت داود ، ورئيس جيشه (الأيام الأول ١٦ : ٢ و ١١ : ٦) .

٦ - بنو باني . يجد موطنهم في قرية «البنى» أو «البنياء» في منطقة الطائف .

والكلمة اسم علم ، تعني بالعبرية «بناء» كما في العربية . وقد تسمى به خمسة أفراد على الأقل (راجع صموئيل الثاني ٢٧ : ٣٦ . والأيام الأول ٩ : ٤ و ٦ : ٤٦ ونحميا ١١ : ٢٢ و ٣ : ١٧ و ٩ : ٤) .

٧ - بنو طوبيا . يجد موطنهم في «بويط» بوادي «الجائزة» في منطقة الليث .

والكلمة اسم علم . فالى جانب أربعة أشخاص معروفين في التوراة بهذا الاسم ، هناك سفر معروف بين أسفار الابوكريفا باسم «سفر طوبيا» نسبة إلى الشخصية البارزة فيه واسمه طوبيا .

ان ما قدمناه أعلاه من تحليل لأسماء المجموعات العائدة من سبط يهوذا إلى اورشليم ، بعد أن سمح «قورش» الفارسي للمنفين بالعودة ، يكفي للدلالة على انه لم يكن هناك في أي وقت من الأوقات أرض في غرب العربية اسمها يهوذا . فالمجموعات العائدة جلها ينتسب إلى أعلام هم مؤسسوها ، أو هي زمر ذات وظائف دينية معروفة وقائمة منذ القدم ، ولا علاقة لها من قريب أو بعيد بأسماء أماكن موجودة في غرب العربية .

ماذا عن اسرائيل :

إذا كانت يهوذا هي أرض الشعاب والوهاد على امتداد الجانب البحري

لجنوب الحجاز وعسير ، فان أرض اسرائيل ، في رأي الصليبي ، لا بد أن تكون في الأصل مرتفعات السراة هناك . فالاسم بالعبرية «يسره ء ل» الذي نص سفر التكوين بوضوح على أن معناه «يجاهد مع الله» له في رأيه تفسير آخر ، حيث «يسره» هي اسم قديم من الفعل نفسه بمعنى الكلمة العربية «سرو» أو «سري» . والسرو هو ما ارتفع من الوادي وانحدر على غلظ الجبل . والسراة من سري هي أعلى كل شيء . وبذلك فالاسم «يسره ء ل» يعني «سراة ايل» أي «سراة الله» ، حيث الإشارة هنا إلى مرتفعات السراة بين الطائف واليمن (ص ١٩٥ وما يلي من فصل اسرائيل والسامرة) .

ونحن من حيث المبدأ مع كل اجتهاد يلقي ضوءاً على نص غامض أو حادث تاريخي ملتبس ، ولكننا في نفس الوقت مع مبدأ «لا اجتهاد في مورد النص» عندما يكون النص واضحاً كل الوضوح مانعاً لأي اجتهاد أو تفسير ، كما هي الحال في النص التوراتي حول أصل اسم اسرائيل أو يسره ء ل . ففي سفر التكوين ، الاصحاح ٣٢ ، يظهر ليعقوب بعد عبوره مخاضة يبق انسان اشتبك معه في صراع حتى طلوع الفجر . ولم يكن خصم يعقوب في هذا الصراع سوى الرب نفسه : [فبقي يعقوب وحده ، وصارعه انسان حتى طلوع الفجر . ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُق فخذ فأنخلع حق فخذ يعقوب من مصارعتة معه ، وقال اطلقني لأنه قد طلع الفجر ، فقال لا أطلقك ان لم تباركني ، فقال له ما اسمك فقال يعقوب ، فقال لا يدعى اسمك في ما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت . وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك ، فقال لماذا تسأل عن اسمي ، وباركه هناك ، فدعا يعقوب اسم المكان فينيثيل قائلاً لأنني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي] . ونحن لا نستبعد أن يكون في النص التوراتي أعلاه ، نوع من الايتولوجيا Aetiology في تفسير اسم اسرائيل ، لولا أن الصليبي قد أغلق هذا الباب عندما وصف الاسرائيليين بأنهم [الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخياً وعبروا عن ذلك بطريقة واضحة منسجمة] (ص ٥٣) . فكيف تسنى

لهم والحالة هذه نسيان موطنهم القديم في جبال السراة، وكيف غاب عنهم معنى اسم اسرائيل منسوباً إلى تلك الجبال، فوقفوا أمامه حائرين يبتكرون القصص لتفسيره؟

ولتتابع مع الصليبي . فشعب اسرائيل [لا بد أنه كان في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربية . وقد اتحدت هذه القبائل في زمن ما وأصبحت شعباً استوطن أرض يهوذا وأقام لنفسه هناك مملكة في أواخر القرن الحادي عشر أو مطلع القرن العاشر قبل الميلاد ... ولكن مملكة «كل اسرائيل» لم تعمر طويلاً، وسرعان ما فقدت وحدتها السياسية، وبحلول النصف الثاني للقرن العاشر قبل الميلاد، كانت تسيطر على أراضيها سلالتان متنازعتان من الملوك، ملوك يهوذا وعاصمتهم في «آل شريم» (الموقع المقترح لأورشليم التوراتية) . وملوك اسرائيل، . . . والواقع هو أن الانقسام بين يهوذا واسرائيل لم يكن جغرافياً بقدر ما كان انقساماً في الولاء السياسي والديني بين أبناء الشعب الواحد والأرض الواحدة . ويبدو أن ملوك يهوذا واسرائيل كانوا يسيطرون في أحوال كثيرة على مواقع مختلفة في المنطقة ذاتها، وكثيراً ما كانت هذه المواقع قريبة من بعضها البعض] (ص ١٩٧ و ١٩٨) .

وكلام الصليبي يعني أن ملوك اسرائيل كانوا يحكمون في السامرة، ولدة مائتي عام منذ تأسيس مملكتهم إلى دمارها وإلحاقها بآشور، مجموعة من المدن لا تربطها أرض واحدة، بل تتبعثر في غرب العربية من شمالها إلى جنوبها وتتداخل مع المدن التابعة لمملكة يهوذا، وأن مملكة يهوذا كانت في وضع مشابه إلى حين دمار اسرائيل وإلحاق مدنها بآشور، حيث أصبحت مدنها حينذاك متداخلة مع مدن وقطاعات يديرها حكام آشوريون . هذه الصورة المعقدة والفريدة من نوعها في التاريخ للخارطة السياسية لغرب العربية، تزداد تشويشاً إذا أخذنا في الحسبان مدن الفلسطينيين التي وزعها الصليبي بين مدن يهوذا واسرائيل، وكثيراً من المدن الآرامية التي حشرها بين هذه جميعاً . وسنوضح فيما

يلي ما نعيه ، بأمثلة قليلة تكفي بالغرض استمدت معلوماتها من طبوغرافية الصليبي .

ففي منطقة القنفذة الساحلية ، تقع «شمران» التي يجد فيها الصليبي الموقع القديم لمدينة السامرة عاصمة اسرائيل (ص ٢٠١) ، وهناك «جبعون» عاصمة الملك داود و«لخيش» و«عزيقه» و«بيت لحم» التابعة ليهودا (ص ٢٠٣) ، وهناك «مقدي» التي هي «مجدو» التابعة لاسرائيل (ص ١١٩) ، وهناك «شقله» التي هي «اشقلون» مدينة الفلسطينيين الشهيرة (ص ٢٥٣) ، وهناك «قرقرة» الآرامية التابعة لمملكة «حماة» أو «أمط» بمنطقة الطائف (ص ٣٧) ، وهناك «شكيم» التابعة لاسرائيل (ص ٢٠٠) .

وفي منطقة الليث في أقصى شمال عسير ، نجد «غزة» التابعة للفلسطين (ص ٢٥٢) ، و«عيطام» التابعة ليهودا (ص ٢٠٢ ، ٢٠٣) ، و«دان» التابعة لمملكة اسرائيل (ص ٣٠٢) .

وفي منطقة رجال ألمع الواقعة في وسط عسير ، نجد «أشدود» مدينة الفلسطينيين (ص ٢٥٢) ، و«صهيون» مدينة داود المختلفة عن اورشليم والتابعة حكماً ليهودا ، و«بيت رحوب» و«آرام صوبية» التابعتين للآراميين التوراتيين (ص ٣٠) .

وفي منطقة جيران بأقصى الجنوب ، نجد «جت» مدينة الفلسطينيين (ص ٢٥٣) ، و«دمشق» الآرامية (ص ٣٠ و ٢٩١) ، و«يافا» الكنعانية (ص ١٢٠) ، و«جازر» التابعة ليهودا (ص ١١٨) .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل نحن أمام جغرافيا بشرية وسياسية ، أم أمام عدة تمرينات في مقابلة أسماء المواقع .

١٣ - بلاد آرام

لقد غير إعصار شعوب البحر، الذي داهم منطقة الشرق الأدنى القديم حوالي عام ١٢٠٠ ق. م، الخارطة البشرية والسياسية لبلاد الشام. فتدمير المدن الكنعانية في فلسطين قد سهل تسرب بعض الجماعات الهامشية التي كانت تنتقل دون هدى باحثة عن مأوى في منطقة شرقي الأردن. وتدمير الممالك الكنعانية في سورية الداخلية من كركميش إلى مشارق فلسطين، خلق فراغاً أخذت تملؤه تدريجياً القبائل الآرامية التي كانت جواله في المنطقة منذ زمن بعيد، فاستقرت وشكلت ممالك قوية رسمت تاريخ بلاد الشام خلال الألف الأول قبل الميلاد.

ونحن لا نعرف على وجه التحديد تاريخ الهجرة المفترضة لهؤلاء الآراميين إلى منطق الهلال الخصيب، ولا عن البدايات الأولى لتواجدهم فيها. ولعلمهم كانوا هنا منذ أقدم الأزمنة يعيشون حياة البداوة والتنقل. ولعل أقدم وثيقة ورد فيها ذكر آرام، هي نقش أكادي يعود إلى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد، يتحدث عن انتصار الملك «نارام سن» على «خرشا متكي» شيخ «آرامي». وبعد ذلك ورد اسم آرام في وثيقة من فترة أور الثالثة (٢٠٥٠ - ١٩٥٠ ق. م)، دون عليها اسم «آرامي» إشارة إلى مدينة أو إقليم*،

←

* - هذا الشاهد إلى نهاية المقطع يستند إلى الدكتور علي أبو عساف في كتابه «الآراميون»

ووثيقة أخرى من الفترة نفسها ورد فيها «آرام» كاسم علم لشخص يدعى «آرامو». وفي السجلات الملكية لمدينة ماري، ورد ذكر «آرام» و«أحلامو» باعتبارهما قبائل يرد أفرادها إلى ماري للمتاجرة.

ومنذ القرن الرابع عشر قبل الميلاد، كثرت الوثائق التي تتحدث عن الأحلامو والآراميين. فلدينا رسالة موجهة من حاكم «دلمون» إلى والي «نفر» المعروفة في منطقة سومر، يشتكي فيها من الأحلامو الذين نهبوا تمور بلادهم. وبابل نفسها لم تكن في مأمن من خطرهم إذ كانوا يسببون المتاعب للحكام المحليين ويهددون المواصلات بين مدنهم. كما ورد ذكر الآراميين في نصوص أوغاريت من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، حيث ورد ذكر اسم العلم «ابن آرامي»، وذكر «حقول الآراميين» الأمر الذي يدل على أن جماعات من الآراميين قد بدأت في تلك الفترة هجر حياة التنقل، والاستقرار في الأرض. ولم تخل المصادر المصرية أيضاً من ذكر الآراميين منذ بدايات القرن الثالث عشر، وكذلك المصادر الحثية^{٢٠}.

وعندما بدأ الآشوريون بالتوسع غرباً، كان الآراميون والأحلامو المرتبطين بهم مصدر إزعاج للآشوريين. وقد ورد في سجلات الملك «تغلات فلاصر الأول» خبر قضائه عليهم: [حاربت الأحلامو والآراميين ثمانين وعشرين مرة، حتى أتت عبرت الفرات في سنة واحدة مرتين. لقد قضيت

الصفحات ١١ إلى ١٢. ولكننا لا نرى فيها تحصل لدينا من معلومات عن الآراميين في تلك الفترة، ما يشير إلى احتمال تشكيلهم لمدينة في ذلك الوقت المبكر. والأرجح أن «ارامي» هنا أنها تشير إلى مناطق التواجد الآرامي.

20- الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، دار أماني، الجمهورية العربية السورية ١٩٨٨، الصفحات ١٦، ١٣، ١٧.

عليهم من «تدمير» الواقعة في بلاد «أمورو» و«عانة» في بلاد «سوحو» إلى «ريبيقو» في «كار-دونياش»^(٢١).

ومع انتهاء الألف الثاني قبل الميلاد، بدأت هذه الجماعات البدوية القلقة بالتوطن في مناطق الجزيرة السورية وبلاد الشام الداخلية، وأسست إمارات ودويلات مدن قوية. ثم استطاع الفرع الكلداني منها تثبيت أقدامه في الجزء الجنوبي من بلاد بابل، وأسس المملكة البابلية الجديدة. ونستطيع من تتبع أسماء الدويلات الآرامية الأولى، أن نستنتج أن التنظيم القبلي قد بقي سائداً بين الآراميين فترة طويلة من الوقت بعد تكوين إماراتهم المستقرة. فأسماء الإمارات كانت مستمدة من أسماء الأسر الحاكمة، وذلك مثل «بيت زماني» في حوض دجلة وعاصمتها «اميدي» في موقع «دياربكر» الحالية، و«بيت بحيان» في حوض الخابور وعاصمتها «جوزان» في موقع «تل حلف» الحالية، وبعدها إلى الشرق «بيت عديني» بين كركميش على الفرات ونهر بليخ وعاصمتها «تل برسيب» في موقع «تل أحمر» اليوم، و«بيت أجوشي» في منطقة حلب وعاصمتها «أرفاد»، وإذا أردنا استعراض بقية الممالك الآرامية نذكر مملكة «يادي» التي سيطرت على منطقة جبال الأمانوس وعاصمتها «شمال» في موقع بلدة «زنجرلي» الحالية، ومملكة «حماة» نحو الجنوب تليها مملكة «دمشق». وهناك بضع ممالك آرامية لا يتوفر حولها الكثير من المعلومات التاريخية والأثرية، وردت أخبارها مفصلة في التوراة هي «آرام صوبة» إلى الشمال الغربي من دمشق، و«آرام معكة» على سفوح جبل الشيخ الغربية، و«جيشور» من جنوب جبل الشيخ إلى نهر اليرموك، و«بيت رحوب» في منطقة شرقي الأردن، و«طوب» على المناطق الحدودية اليوم بين سورية والأردن^(٢٢). وكما عاشت الممالك الكنعانية السابقة تحت التهديد المستمر للقوة

21- Leo Openheim, op. cit, P.275

22- الدكتور علي أبو عساف، المرجع السابق، الصفحات من ١١ - ٧٤.

المصرية والقوة الحثية، فقد عاشت الممالك الآرامية الجديد، تحت التهديد المستمر للقوة الآشورية. فالممالك الآرامية قد بدأت بالتشكل مع البدايات الأولى للتوسع العسكري الآشوري الذي ما انفك يوجه الضربة تلو الأخرى لدويلات بلاد الشام، التي كانت تواجهه إما منفردة أو من خلال أحلاف مؤقتة، وعندما انهارت آشور، لم تتأخر كثيراً الدولة البابلية الجديدة في ملء الفراغ الناجم عن غيابها في بلاد الشام، ثم حل قورش الفارسي وخلفاؤه محل هؤلاء. غير أن الثقافة الآرامية، رغم كل الظروف المحيطة التي حاقت بها، قد أدت دورها الكبير وطبعت المنطقة بطابعها، وتمكنت أخيراً من غزاتها جميعاً من خلال اللغة الآرامية التي وحدت أقطار الشرق القديم من حدود الهند إلى البحر المتوسط في بوتقة واحدة، أطلق عليها المؤرخ المعروف أرنولد توينبي اسم «العالم السوري»، مثبتة أن الروح العسكرية أمرزائل في تاريخ الحضارات، وإن ما يبقى هو التاج الثقافي الانساني الأصيل.

هذا العالم الآرامي الزاخر، هو الذي تروي بعض أخباره أسفار التوراة، منذ البدايات الأولى لقصص الأباء التي يمكن وضعها في الإطار العام لمطلع الألف الثاني قبل الميلاد، عندما كان الآراميون قوماً رحلاً يتنقلون بين العراق والشام. فالآباء في سفر التكوين ينتمون إلى إحدى هذه الجماعات الآرامية التي كانت تعيش على شاطئ الفرات الأعلى في منطقة «آرام النهرين» بين نهر بليخ ونهر الفرات، ومنطقة «فدان آرام» أي سهل آرام في الجوار نفسه، كما هو واضح من سفر التكوين ٢٤ و ٢٨، حيث يرسل إبراهيم عبده إلى أرضه وعشيرته بأرام النهرين ليخطب من هناك امرأة لابنه اسحاق، لأنه لا يريد له زوجة من بنات كنعان. ومثله يفعل اسحاق عتله يوصي ابنه يعقوب أن يذهب إلى فدان آرام ليخطب لنفسه امرأة من عشيرة أمه. وفي سفر التثنية ٢٦: ٥ نقرأ في تعليمات أداء الطقوس «فيأخذ الكاهن السلة من يدك ويضعها أمام مذبح الرب الهك، ثم تصرخ وتقول أمام الرب: آلهياً تلتها كان أبي فأنحدر إلى مصر وتغرب هناك».

وهنا نود التنبيه إلى مسألة عاجلها بالتفصيل نقاد التوراة، ولسنا أول من يشير لها هنا، وهي وجود عدة تقاليد في قصص الآباء جمعها محررو التوراة في تقليد واحد، وأكثر من سلسلة نسب ضموا إلى واحدة. فهناك «إبرام» الذي خرج من أور الكلدان (التكوين ١١ : ٣١ - ٣٣، وهناك «إبرام العبراني» (التكوين ١٤ : ١٣)، وهناك «إبراهيم» الذي قرنه فيما بعد سفر التكوين بهذين الإبرامين [فلا يدعى اسمك بعد إبرام بل يكون اسمك إبراهيم] (التكوين ١٧ : ٥). ومن ناحية أخرى هناك إسحاق، ابن إبراهيم، وولده يعقوب، اللذان ضمهما سفر التكوين إلى سلسلة أخرى تنتهي بالمدعو «إسرائيل» حيث تمت المطابقة بين يعقوب حفيد إبراهيم وإسرائيل : [فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل] التكوين ٣٢ : ٢٨. والتفصيل في هذا الأمر خارج عن مسار موضوعنا، ولكننا أمام هذه التقاليد المغرقة في القدم والمختلط بعضها ببعض، وانطلاقاً من موقفنا في النظر إلى أحداث سفر التكوين كمجموعة من القصص الملحمي التي يصعب أمامها فرز الوقائع الأصلية، نقول إن آباء سفر التكوين ممن ينتسب بعضهم إلى آرام، هم غير آباء مجموعات سفر الخروج، وهؤلاء بدورهم ليسوا الممثلين الرئيسيين والوحيدين لأحداث مملكتي إسرائيل ويهوذا فيما بعد. وهذا في حد ذاته موضوع مستقل للبحث، نتركه الآن لننتقل إلى المراحل شبه التاريخية، والتاريخية في أحداث التوراة.

يتزامن تشكيل المملكة الموحدة في فلسطين في مطلع القرن العاشر قبل الميلاد، مع تكوين الممالك الآرامية في بلاد الشام. ومن المنطقي أن يحدث الصدام بينهما، وكانت بدايته على ما تذكره الرواية التوراتية بين داود وحدد عزز ملك صوبة : [وضرب داود هدر عزز بن رحوب ملك صوبة، حين هب ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفاً وسبع مئة فارس وعشرين ألف رجل. فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزز ملك صوبة، فضرب داود من

آرام اثنين وعشرين ألف رجل ... وسمع توعي ملك حماة أن داود قد ضرب كل جيش هدد عزر، فأرسل توعي يورام ابنه إلى الملك داود ليسأل عن سلامته ويباركه لأنه حارب هدد عزر وضربه ، لأن هدد عزر كان له حروب مع توعي] صموئيل الثاني ٨: ٣ - ١٠ .

ويسدو من عدم ذكر اسم ملك دمشق في هذا النص ، أن آرام دمشق كانت في ذلك الحين تابعة لملك صوبية . ولكنها لن تلبث حتى تنفصل بعد فترة ، وتقوم فيها أسرة حاكمة مستقلة . فعن أخبار الاحتكاك الثاني بين المملكة الموحدة والآراميين ، في النصف الثاني من القرن العاشر أيام الملك سليمان نقرأ في سفر الملوك الأول ١١ : ٢٢ - ٢٥ [وأقام الله له حصناً آخر ، رزون بن اليداع ، الذي هرب من عند سيده هدد عزر ملك صوبية ، فجمع إليه رجالاً فصار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم ، وانطلقوا إلى دمشق وأقاموا بها وملكوا في دمشق . وكان حصناً لإسرائيل كل أيام سليمان] .

ولكن هذه الأحداث ، عند كمال الصليبي ، وما تلاها في الروايات التوراتية عن آرام ، لا تجري في بلاد الشام بل في غرب العربية . وقد افترض الباحثون الذين استندوا أكثر ما يكون إلى الدليل التوراتي المؤول تأويلاً خاطئاً أن الآراميين كانوا أصلاً من سكان منطقة من شمال الشام تقع غرب الفرات . ولكن العودة إلى تمحيص الدليل التوراتي المذكور ، تدل على أن ما تشير إليه التوراة العبرية باعتباره آرام (ء رم) كان موجوداً في الواقع في غرب شبه الجزيرة العربية . وآرام النهرين (ء رم نهرين) لم تكن بلاد ما بين النهرين بل قرية «النهارين» ، وهي اليوم من منطق الطائف في جنوب الحجاز . ويتبع ذلك أن فدان آرام (فدن ء رم) كانت قرية «الدفينة» (دفن بلا تصويت) في جنوب الحجاز . وكذلك فإن أسماء أخرى تربطها التوراة العبرية بآرام ، مثل بيت رحوب وآرام صوبية ، وحتى دمشق «ذا مسك» في منطقة جيزان ، يمكن أن تكون موجودة بالاسم نفسه في الحجاز وعسير . ووادي «ورم» أيضاً يحمل اسم آرام هناك . . و«أمت» التي اعتبرت حتى اليوم إشارة إلى حماة في وادي

العاصي في شمال الشام ، هي عملياً قرية «أمط» الحالية في منطقة الطائف . . [(ص ٣٠ و ٣٧) .

ولكن تقاطعات أخبار آرام في التوراة مع النصوص الآرامية في بلاد الشام والسجلات الآشورية ، تثبت لنا بما لا يدع مجالاً للشك بأن آرام المذكورة في التوراة هي آرام بلاد الشام . وأول تقاطع نحصل عليه بين هذه المصادر يتعلق بملك دمشق المدعو «بن حدد» ، والمعروف تاريخياً بين حدد الأول ، وفي التوراة بين حدد بن طبريمون . فالملك «آسا» ثالث ملوك يهوذا بعد الانقسام ، يستنجد بملك دمشق ليعينه على «بعشا» ملك اسرائيل الذي كان يغزو أرضه : [وكانت حرب بين آسا وبعشا كل أيامهما . وصعد بعشا ملك اسرائيل على يهوذا وبنى الرامة لكي لا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا . وأخذ آسا جميع الفضة والذهب الباقية في خزائن بيت الرب وخزائن بيت الملك ودفعها ليدعيده ، وأرسلهم الملك آسا إلى بنهدد بن طبريمون بن حزيون ، ملك آرام الساكن في دمشق قائلاً : إن بيني وبينك وبين أبي وأبيك عهداً . هوذا قد أرسلت لك هدية من فضة وذهب فتعال انقض عهدك مع بعشا ملك اسرائيل فيصعد عني . فسمع بنهدد للملك آسا وأرسل رؤساء الجيوش التي له على مدن اسرائيل] . الملوك الأول ١٥ : ١٦ - ٢٠ .

وقد تم العثور في أرض آرام ، قرب مدينة حلب ، على نصب بازلتي ارتفاعه حوالي المتر ، نذره الملك بن حدد بن طبريمون ، ملك آرام دمشق الوارد ذكره في النص التوراتي ، للإله «ملقارت» والنصب يرجع بتاريخه إلى حوالي عام ٨٦٠ ق.م ، أي إلى السنوات الأخيرة من حكم هذا الملك . وقد نقش على النصب : [النصب الذي أقامه بن حدد بن ط (بريمون بن

حزبون) ملك آرام لسيدته ملقارت الذي نذرله فسمع لقوله[^(٢٣)]. والنصب الآن محفوظ في متحف حلب بسورية، ويمكن لأي قارئ للآرامية الاطلاع عليه.

يلي عرش دمشق بعد بن حدد الأول، بن حدد الثاني المعروف في النصوص الآشورية بحدد عدري، وهو الذي قام بأجراء محاولة للوقوف في وجه التوسع الآشوري، إذ جمع حوله أحد عشر ملكاً من ملوك دويلات بلاد الشام، وهب إلى «قرقرة» على نهر العاصي جنوب مدينة جسر الشغور الحالية لنجدة «إرخوليني» ملك حماة الذي كان يتعرض لهجوم كاسح من قبل قوات شلمنصر الثالث. وقد خلّد الآشوريون ذكرى انتصارهم في هذه المعركة في العديد من النصوص، ودونوها على الرقم والتماثيل. وقد قدمنا سابقاً ترجمة لنص شلمنصر الثالث حول معركة قرقرة (انظر الصفحات من ٩٤ الى ٩٩). وعند معركة قرقرة، نستطيع القيام بعدد من التقاطعات بين المصادر الآشورية والآرامية والتوراتية. فإرخوليني ملك حماة والرجل الثاني في حلف قرقرة بعد حدد ادري (بن حدد الثاني)، مذكور في عدد من النقوش التي تم العثور عليها في مناطق حماة، مثل الرستن وقلعة المضيق ومحرده، والتي يقول عن نفسه فيها أنه إرخوليني ابن يارتاس وأنه بنى معبداً للربة بعلاطي. كما عثر على نقوش أخرى في مدينة حماة نفسها، تذكر «اورتاميس» ابن إرخوليني الذي بنى سوراً جديداً للمدينة^(٢٤).

²³- Franz Rosenthal, Canaanite And Aramaic Inscriptions (In Ancient Near Eastern Texts) op. cit, P.655

طر أيضاً:

الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ١٣٣.

²⁴- H.Sader, op. cit, PP. 222-223

طر أيضاً:

الدكتور علي أبو عساف، الآراميون، المرجع السابق ص ٥٦.

ولم تكن معركة قرقرة بالمعركة الفاصلة بين دمشق وآشور، لأن الملك الآشوري لم يستطع فتح المدينة رغم هزيمة المتحالفين. وقد مات بعدها بن حدد الثاني غيلة وهو على فراش المرضي بيد أحد قواده المدعو «حزائيل». وهنا تتفق الرواية الآشورية والرواية التوراتية في التفاصيل العامة لموت ملك دمشق واسم قاتله الذي ملك مكانه. نقرأ في النص الآشوري: [لقد هزمت حدد عدري. ملك إميريشومع اثني عشر أميراً من حلفائه. وجندلت ٩٠٠, ٢٠ من محاربيه الأقوياء، ودفعت بمن تبقى من قواته إلى نهر العاصي ففرقوا في كل اتجاه يطلبون أرواحهم. أما حدد عدري نفسه فقد انتهى، واغتصب العرش مكانه حزائيل، ابن لا أحد، الذي دعا إليه الجيوش الكثيرة وثار في وجهي، فتعقبته إلى دمشق، مقره الملكي حيث قطعت أشجار بساتينه] (انظر الصفحة ٩٩ سابقاً).

وتعبير «ابن لا أحد» الذي استخدمه النص الآشوري، هو تعبير معروف في النصوص القديمة لوصف الملوك المتحدرين من أصل عامي. وكان مثل هؤلاء الملوك لا يذكرون في نصوصهم أيضاً أسماء آبائهم، لأنهم من سلالة غير ملكية.

وفي الرواية التوراتية يأتي «اليشع» النبي إلى دمشق، وكان [بنهدد مريضاً، فأخبر وقيل له قد جاء رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل خذ بيدك هدية واذهب لاستقبال رجل الله، واسأل الرب به قائلاً هل أشفى من مرضي. فذهب حزائيل لاستقباله وأخذ هدية في يده] وعندما يجتمع حزائيل باليشع، يتنبأ اليشع بموت بن حدد واعتلاء حزائيل العرش مكانه: [فاطلقني من عند اليشع ودخل إلى سيده. فقال له: ماذا قال لك اليشع؟ فقال: قال لي إنك تحيا. وفي الغد أجد اللبدة وغمسها بالماء ونشرها على وجهه].
وملك حزائيل عوضاً عنه [الملك الثاني ٨: ٧ - ١٥].

ملك حزائيل في دمشق وأطلق على ابنه اسم بن حدد تيمناً بأسماء ملوك دمشق من السلالة السابقة، وهو المعروف تاريخياً بين حدد الثالث. وفي عهد

هذين الملكين استعرت نيران حرب دائمة بين مملكة دمشق وملكتي اسرائيل ويهوذا . نقرأ في سفر الملوك الثاني ١٢ : ١٧ - ١٨ [حيث صعد حزائيل ملك آرام وحارب جت وأخذها ، ثم حول وجهه ليصعد إلى اورشليم . فأخذ يوأش ملك يهوذا جميع الأقداس التي قدسها يهوشافاط ويهورام وأخزيا آباءه ملوك يهوذا ، وأقداسه وكل الذهب الموجود في خزائن بيت الرب وبيت الملك وأرسلها إلى حزائيل ملك آرام فصعد عن اورشليم] . وفي الملوك الثاني ١٣ : ٢٢ - ٢٥ [وأما حزائيل ملك آرام فضايق اسرائيل كل أيام يهوآحاز... ثم مات حزائيل ملك آرام وملك بنهدد ابنه عوضاً عنه . فعاد يهوآش بن يهوآحاز وأخذ المدن من يد بنهدد بن حزائيل التي أخذها من يد يهوآحاز أبيه بالحرب . ضربه يوأش ثلاث مرات واسترد مدن اسرائيل] .

وقد أوردت المصادر السورية ذكر حزائيل ملك دمشق . فلدينا نقوش على قطع عاجية من حداتو (أرسلان طاش الحديثة عند الحدود التركية) عليها اسم حزائيل (انظر الصفحة ٩٩ سابقاً) مما يشير إلى توسع نفوذه شرقاً حتى الفرات . ولدينا نص آرامي تركه ملك حماة المدعو «زاكير» يتحدث عن حروبه مع بن حدد بن حزائيل ملك دمشق . ويرجع النص في تاريخه إلى مطلع القرن الثامن قبل الميلاد ، وقد عثر عليه في تل «آفس» قرب بلدة سراقب بين حماة وحلب منقوشاً على نصب كبير من الحجر البازلتي . وفيه يقول زاكير أن ملك دمشق بن حدد بن حزائيل قد تحالف ضده مع عشرة ملوك آخرين وحاصره في مدينة «حاتريكا» إلا أنه هزم التحالف بعون الآلهة (انظر الصفحة ١٠٠ سابقاً) . وحاتريكا المذكورة في النص معروفة أيضاً في النصوص الآرامية باسم «حزرك» وكانت عاصمة مملكة «نونخشي» التي قامت في السابق بين حماة وحلب ، ثم حلت محلها مملكة «لوعاش» . وبما أن زاكير يصف نفسه في النص بأنه ملك حماة ولوعاش ، فمن الأرجح أنه قد ضم لوعاش إليه وأقام في حزرك (حاتريكا) . ويرد ذكر هذه المدينة في التوراة باسم «حدراخ» بالترافق مع دمشق وحماة . نقرأ في سفر زكريا ٩ : ١ - ٢ [وحي كلمة الرب في أرض

حدراخ ، ودمشق محله . لأن للرب عين الانسان وكل أسباط اسرائيل ، وحماة
أيضاً تتأجها].

بعد هذا الفيض من البيانات النصية المتقاطعة مع البيانات التاريخية
والأثرية ، أي سند يبقى لأرام الصليبي القائمة في غرب العربية ؟ .

١٤ - بلاد العرب

كان العرب يتحكمون بالطرق التجارية الكبرى التي تصل تجارة الهند وجنوب العربية واليمن وأفريقيا بمناطق بلاد الشام الداخلية وثغورها الساحلية، كما كانوا يسيطرون على الطرق الواصلة بين بلاد الرافدين وسورية من جهة، ومصر وشمال أفريقيا من جهة أخرى. وكان النزاع على هذه الخطوط التجارية هو الدافع إلى الحروب العربية الآشورية التي ابتدأت منذ الغزوات الآشورية المنظمة للمنطقة. ولهذا، كان من الطبيعي أن نعتز على أول ذكر للعرب في السجلات التاريخية، في أخبار القرن التاسع قبل الميلاد وعلى وجه التحديد في سجل شلمنصر الثالث عن معركة قرقرة، التي قررت مصير السياسة الآشورية في بلاد الشام. فلقد شاركت القبائل العربية في حلف قرقرة ضد شلمنصر الثالث، وقدم زعيمها «جنديو العربي» إلى المعركة فرقة من الهجانة كاملة العتاد والتسلح (انظر النص في الصفحة ٩٤ سابقاً).

غير أن كمال الصليبي ينفي أن تكون الكلمة الآشورية «أريبي» التي وصف بها جنديو في النص، هي النسبة إلى «عرب»، ويرجح أن تكون نسبة إلى موقع في عسير يدعى اليوم «عربة» أو «عرابة». ثم يجد لجنديو نفسه أثراً إسمياً ما زال قائماً اليوم في قبيلة اسمها «بنو جندب» تعيش في أواسط عسير

(ص ٣٧). ولكن النصوص الآشورية اللاحقة، التي ورد فيها ذكر العرب وبلاد العرب، والتي لم يشر إليها الصليبي، توضح بما لا يدع مجالاً للشك بأن الكلمة الآشورية «أريبي» هي نسبة إلى العرب، وأن هؤلاء هم شعب كبير متنوع في تقسيماته القبلية ومتوزع في مختلف أنحاء الجزيرة العربية.

. يرد ذكر العرب مرة ثانية في سجلات «تغلات فلاصر الثالث» (٧٤٤ - ٧٢٧ ق.م)، حيث نعلم عن استلامه الجزيرة من ملكة عربية اسمها «زيبية»، وقهره للملكة أخرى اسمها «شمسة». ونعرف من المناطق التي أرسلت له الجزيرة بعد استسلام الملكة شمسة، «تباء» و«سبأ» (انظر الصفحة ١٢٥ سابقاً). وفي نص لـ «صارغون الثاني» (٧٢١ - ٧٠٥ ق.م) نقرأ عن القبائل العربية التي قهرها هذا الملك وبينها قبيلة «ثمود»: [بناء على نبوءة صادقة من الهي آشور، سرت وقهرت قبائل ثمود وإباديدي ومارسيانو وحايبا، العرب الذين يعيشون بعيداً في الصحراء، الذين لا يعرفون البحار ولا الرؤساء، ولم يأتوا بجزيرتهم لأي ملك. لقد أبعدت من بقي منهم حياً وأسكنتهم في السامرة]^(٢٥).

وفي نص لـ «أسرحادون» (٦٨٠ - ٦٦٩ ق.م)، نقرأ معلومات وافية عن العرب: [من «أدوماتو»، معقل العرب الذي فتحه أبي سنحاريب وأخذ منه الجزيرة والأسلاب وصور الآلهة وساق إلى آشور ملكة العرب «إشكالاتو»، أتى حزائيل ملك العرب بهدايا كثيرة إلى نينوى حاضرة ملكي، وقبل قدمي وتوسل من أجل إعادة صور آلهته. عطفت عليه، وأصلحت العطب الذي لحق بصور «عتر - شمين» و«داي» و«نوحاي» و«رولداو» و«ابير يللو» و«عتر - قورما» آلهة العرب، وأعدتها إليه بعد أن نقشت عليها كتابة تعلن عظمة «آشور» مولاي، وتذكر اسمي. ثم جعلت عليهم ملكة، «طاربو» التي ترعرعت في قصر أبي، فأعدتها إلى بلادها مع آلهتها. وعندما وافت المنية

25- Leo Oppenheim op. cit, P.286

حزائيل ، وضعت على عرشه ابنه «ياطع» - lata ، وفرضت عليه جزية إضافية ... بعد ذلك أهاج «أوابو» - Uabu (ربما وهب بالعربية) كل العرب ضد ياطع ليستأثر بالملك ، ولكني - أنا أسرحادون ، ملك آشور ملك الجبهات الأربعة ، المحب للعدالة والمبغض للخديعة - أرسلت جيشي لنجدة ياطع ، فأخضع كل العرب وهزم أوابو ومقاتليه ، وأتى بهم إلي مكبلين بالأصفاد ، فوضعت أطواقاً في أعناقهم وقيدتهم إلى أعمدة بوابتي^(٢٦) .

وفي نص لـ «آشوربانيبال» (٦٦٨ - ٦٣٣ ق.م) نقراً : [في حملي التاسعة ، جمعت قواتي وسرت ضد «يواطي» - Uate ملك بلاد العرب (أريبو) ، لأنه حنث بالعهد ونسي معاملتي الحسنة له ، فرفع عنه نير حكومي الذي فرضه عليه مولاي آشور . لقد امتنع عن المجيء والسؤال عن صحتي ، ومنع الجزية والهدايا ، واستمع إلى تحريضات «أكاد» على الثورة ، كما فعلت عيلام ، ولم يأبه لعهوده معي وقسمه ... بعد أمر أوجي إلى من آشور وعشتار ، أهدت بجيشي وهزمت في معركة دموية ... قهرت كل أهل بلاد العرب عن ثاروا معه . . . وقام جيشي باحراق الخيام التي يعيشون فيها . أما يواطي - ، فقد هرب وحيداً إلى بلاد الأنباط - Nabati^(٢٧) .

وفي نص آخر لآشوربانيبال ، نعرف عن القبائل العربية التي أطلقت عليها التوراة اسم «قيدار» : [«أمولادي» ملك «قيدار» - Qi-da-ri ، هب لقتال ملوك بلاد العرب التي وهبها لي آشور وعشتار وبقية الآلهة العظام . ولكني بناء على وحي صادق من آشور وسن وحدد ونينو وعشتار ونورتا ونرجال ونسكو ، قمت إليه وهزمته وقبض عليه رجالي حياً ، ومعه أيضاً «عادية» - Adia زوجة يواطي ملك بلاد العرب ، وأتوا بهما إلي] . . وفي نص آخر : . . وأما

26- Ibid, P. 292

27- Ibid, P.298

عادية ملكة بلاد العرب ، فقد هزمتها هزيمة منكرة ، وأحرقت خيامها وقبضت عليها حية ، وأتيت بها مع الأسرى الآخرين إلى آشور^(٢٨) . ولكن الملك يواطي الذي توارى عن الأنظار في بلاد الأنباط ، يعود إلى الظهور وإثارة الفتن في وجه الآشوريين بالتعاون مع الأنباط تارة والقيداريين تارة أخرى ، مما نستطيع تتبعه في عدة نصوص آشورية أخرى ، يوصف في بعضها بملك الإسماعيليين - Su-mu-il ، حتى يقبض عليه آشور بانيبال حياً^(٢٩) .

هذه الصورة الواضحة للعرب وبلادهم ، التي ترسمها لنا السجلات الآشورية ، هي التي نراها أيضاً في أسفار التوراة . فبلاد العرب ليست مجاورة لمملكتي يهوذا واسرائيل ، وأهلها لا يمتون بصلة لأهل التوراة ، بل هم شعب مغاير لهم في كل شيء ، ولا تربطه بهم رابطة قريبة كانت أم بعيدة .

نسمع بأخبار العرب في التوراة ، منذ أيام الملك سليمان . ففي سفر الملوك الأول وأخبار الأيام الثاني ، نجدهم تجاراً يؤمون اورشليم : [وكان وزن الذهب الذي جاء سليمان في سنة واحدة ست مئة وستاً وستين وزنة ذهب ، فضلاً عن الذي جاء به التجار والمستبضعون . وكل ملوك العرب وولاة الأرض كانوا يأتون بذهب وفضة إلى سليمان] الأيام الثاني ٩ : ١٣ - ١٤ . ثم نراهم بعد ذلك غزاة متحالفين مع خصوم مملكة يهوذا : [وأهاج الرب على يهورام روح الفلسطينيين والعرب الذين بجانب الكوشيين ، فصعدوا إلى يهوذا وافتتحوها وسبوا كل الأموال الموجودة في بيت الملك مع بنيهِ ونسائه أيضاً] الأيام الثاني ٢١ : ١٦ - ١٧ . [ولما سمع سنبلط وطوبيا والعرب والعمونيون والأشدوديون أن أسوار اورشليم قد رمت والثغر ابتدأت تسد ، غضبوا جداً وتآمروا جميعاً أن يأتوا ويحاربوا اورشليم ويعملوا بها ضرراً] نحemia ٤ : ٧ - ٨ . والعرب يسكنون في بلاد الوعر وفيافي العطش . ونعرف من قبائلهم في

28- Ibid, P. 298

29- Ibid, P.300

أخبار التوراة «تيماء» و«قيدار» و«ددان» وجميعها واردة في سجلات بابل وآشور. نقرأ في سفر أشعيا ٢١: ١٢ - ١٧ [وحي من جهة بلاد العرب، في الرعر في بلاد العرب تبيتين يا قوافل الددانيين. هاتوا ماء للملاقة العطشان، يا سكان أرض تيماء وافوا الهارب بخبزة، فانهم من أمام السيوف قد هربوا... فإنه هكذا قال لي السيد، في مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجد قيدار، وبقيّة عدد قسي أبطال بني قيدار تقل، لأن الرب إله اسرائيل قد تكلم].

وتنسب الرواية التوراتية أهل تيماء إلى «تيماء» ابن اسماعيل (التكوين ٢٥: ١٥ والأيام الأول ٢٢: ١ - ٣٠. وتذكر بالترافق مع سبأ (أيوب ٦: ١٩) وحزقيال ٢٧: ٢١ - ٢٢)، ومع ددان (أشعيا ٢١: ١٣ و ١٤ و ارميا ٢٥: ٢٣). وهي تقع اليوم في القسم الأعلى من جزيرة العرب، في منتصف المسافة بين مكة ودمشق. أما ددان فكانت محطة للقوافل ومركزاً للتجارة الآتية من اليمن والهند، وتقع إلى الجنوب الغربي من تيماء، واسمها الحديث «العلا». وكان الددانيون من التجار المرموقين في العالم القديم، نقرأ في سفر حزقيال في معرض حديثه عن صور: [ددان تاجرتك بطنافيس للركوب. العرب وكل رؤساء قيدار هم تجاريدك، بالخرفان والكباش والأعتدة، في هذه كانوا تجارك. تجار شبا ورعمة هم تجارك، بأفخر كل أنواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب أقاموا أسواقك] حزقيال: ٢٠ - ٢٢.

أما بنو قيدار فينسبهم سفر التكوين ٢٥: ١٣ إلى «قيدار» وهو ابن اسماعيل الثاني. وهم كما نخبرنا سفر ارميا يعيشون تحت الخيام ويربون الغنم والجمال: [عن قيدار وعن ممالك حاصور التي ضربها نبوخذ راصر ملك بابل، هكذا قال الرب، قوموا اصعدوا إلى قيدار واخربوا بني المشرق. يأخذون خيامهم وغنمهم يأخذون لأنفسهم شققهم وكل أنيتهم وجمالهم وينادون اليهم الخوف من كل جانب] ارميا ٤٩: ٢٨ - ٢٩. ويطلعنا سفر نحميا على اسم أحد ملوكهم المدعو «جشم»، الذي استطعنا أن نحصل عنده على تقاطع تاريخي يثبت وجوده وتاريخ حكمه. فعندما كان نحميا يبني سور

أورشليم الجديد حوالي عام ٤٥٠ ق.م ، أثار عمله توجس القبائل التي كانت تستفيد من طريق التجارة المفتوح إلى فينيقيا : [فلما سمع سنبلط وطوبيا وجشم العربي وبقية أعدائنا أنني قد بنيت السور ولم تبق فيه ثغرة ، أرسل سنبلط وجشم إلي قائلين هلم نجتمع معاً في القرى في بقعة أونو ، وكانا يفكران أن يعملوا بي شراً] نحميا ٦ : ١ - ٢ . وقد تم العثور في «تل المسخوطة» عند قناة السويس قرب الاسماعيلية (وهي المنطقة الحدودية مع سيناء قديماً) على بضعة طاسات فضية عليها نقوش آرامية قصيرة ، كتب على أحدها : [نذر إلى «هان - إيلات» من «قينو» ابن «جشم» ملك قيذار . .] . ويرجع هذا الأثر بتاريخه إلى بحر القرن الخامس قبل الميلاد^(٣٠) ، أي إلى فترة نحميا كاتب السفر المعروف .

ويرد في سفر أشعيا خبر ذو دلالة عن قيذار ومدينتهم «سالع» التي نرجح أنها «بيترا» المدينة النبطية المعروفة : [لترفع البرية ومدنها صوتها ، الديار التي سكنها قيذار ، لترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا] أشعيا ٤٢ : ١١ . ومدينة سالع الواردة هنا كانت تابعة للإيدوميين الذين امتدت مناطقهم من جنوب البحر الميت إلى خليج العقبة وصحراء سيناء ، وكانت على ما يذكره سفر عوبديا : ٣ قلعة حصينة يهرع إليها الإيدوميون وقت الحصار ، وقيمون في الأعالي في شقوق الصخر . ولكن يبدو ، وفق رواية أشعيا أعلاه ، أن القيذاريين قد استولوا عليها فيما استولوا من أراضي الإيدوميين ، وأن الأنباط الذين تلوهم لم يكونوا سوى فريق قيداري أقام في سالع بصورة دائمة ، وتحول اسمها إلى بتر فيما بعد . واسم بتر يعني باليونانية الصخر ، وكذلك اسم سالع بالكنعانية .

من هذه الشواهد النصية من كتاب التوراة وتقاطعاتها المتنوعة ، نستنتج أن العرب الواردين في التوراة بشتى قبائلهم وفروعهم ، لا علاقة لهم بموقع

30- Franz Rosenthal, op. cit, p.657

«العربة» في منطقة عسير (على حد قول الصليبي). وبلاد العرب المقصودة في التوراة، هي جزيرة العرب بما فيها عسير واليمن، حيث تذكر سبأ والسبئيون إلى جانب بقية الجماعات العربية. وهذه الأرض لاهلها بمملكة يهودا واسرائيل.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا كانت ذكرى غرب العربية قد انمحت من ذاكرة اليهود تدريجياً، وذلك اعتباراً من القرن الخامس قبل الميلاد، وأخذوا ينظرون إلى فلسطين باعتبارها المسرح المركزي للحدث التوراتي (ص ٤٢ - ٤٩)، فكيف تتمحي هذه الذكرى من كل مصادر التاريخ القديم؟ لقد عاصر المؤرخون الاغريق أواخر عهد دولة يهودا إبان القرن الخامس قبل الميلاد، وكتبوا بدقة وتفصيل عن شعوب وأحوال جزيرة العرب، فلماذا لم يتطرقوا إلى دولة اسمها يهودا موجودة في عسير، ولماذا لم يحكموا عن تاريخها القديم وأخبارها؟ لماذا صمت عنها «هير ودوتس» الملقب بأبي التاريخ والذي عاش بين ٤٨٠ و ٤٢٥ ق.م. وزار معظم مناطق الشرق القديم فأسهب في الرواية عن تاريخها، ووصف بلدانها وعادات أهلها ودينهم وطقوسهم، مما رآه بأم عينه أو سمع مباشرة أخباره من أصحابها. ومثله «ثيوفراست» الذي عاش في القرن الرابع بين عامي ٣٧٢ و ٣١٢ ق.م، وبعده «إيراتوسيتين» و«ديودور الصقلي» و«سترابو» و«بلييني» وغيرهم. كيف حيكت مؤامرة الصمت على هذا النطاق العالمي، لتتهتك أسرارها في أواخر القرن العشرين بعد الميلاد؟

إن من يقرأ الوصف الدقيق لأحوال بلاد العرب في تاريخ هير ودوتس، يدرك مدى الدقة في أعمال المؤلفين الكلاسيكيين، وجهدهم الكبير في تحري الحقائق. يقول هير ودوتس في بعض المقاطع التي تصف بلاد العرب:

[ومن جهة الجنوب، آخر المعمور، بلاد العرب. وفيها وحدها يوجد البخور والمر والقرفة والدارصيني واللادن. والعرب يجنون كل هذه الأشياء بتعب جزيل إلا المر. ولكي يجنوا البخور، يحرقون تحت الأشجار التي تولده صمغاً

يسمى ميمة يأتي به الفينيقيون إلى الأغارقة... وعلى هذه الطريقة يجني العرب البخور. ولكن طريقة جني القرفة هي هذه: حينما يذهبون في طلبها يغطون أبدانهم ووجوههم أيضاً إلا العيون، بجلود الثيران والماعز. والقرفة تنبت في بحيرة قليلة العمق، وعلى هذه البحيرة وحولها توجد حيوانات من جنس الطير تشبه الخفافيش، فتصبح صياحاً شديداً، وهي قوية جداً فيجتهد العرب بدفعها ويقون عيونهم، وبهذا التحفظ يجنون القرفة... وتستشق في بلاد العرب رائحة ذكية جداً، والعرب عندهم نوعان من الغنم يستحقان الاعتبار... وبلاد الحبشة تمتد غربي بلاد العرب باتجاه الجنوب، وهذه آخر البلاد المعمورة، ويحصل منها كثير من الذهب وفيلة ضخمة جداً. وكل أنواع الأشجار البرية والأبنوس. والرجال فيها كبار الأبدان حسان الصور كاملو البنية ويعمرون طويلاً... [٣١].

ويقول ديودور الصقلي في أحوال الأنباط في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، نقلاً عن شاهد عيان معاصر لتلك الفترة اسمه «هير ونيموس القرديائي»: [لقد آلوا على أنفسهم ألا يبذروا حباً ولا يغرسوا شجراً يؤتي ثمراً، ولا يعاقروا الخمرة ولا يشيدوا بيتاً، ومن فعل ذلك كان عقابه الموت وهم ملتزمون بهذه المباديء، لأنهم يعتقدون أن من تملك شيئاً استمر ما ملك، واضطر من أجل ذلك أن ينصاع لما يفرضه عليه ذوو القوة والجبروت... وثمة قبائل عربية كثيرة تتخذ الصحراء مراعي لقطعانها، ولكن الأنباط يفوقون الجميع بثرائهم] [٣٢].

ومن ناحية أخرى، فلأن مملكتي يهوذا واسرائيل قد قامتا في عسير لجاورتا طيلة حياتهما حضارات اليمن من سبأ ومعين وقتبان، فلماذا تحدث المؤلفون الكلاسيكيون عن دول اليمن وشعوبها، ولم يتحدثوا عن الدول

31- تاريخ هير ودوتس. المرجع السابق، الكتاب الثالث من الفقرة ١٠٧ إلى ١١٤.

32- احسان عباس، تاريخ دولة الأنباط، دار شرق، عمان ١٩٨٧، ص ١١ و ٢٩.

والشعوب المفترضة في عسير؟. يقول «ثيوفراست» عن بلاد اليمن: [هناك تنبت أشجار البان والمر والدار صيني في بلاد سبأ وحضرموت وقتبان ومالي. والجبال هناك مرتفعة ومغطاة بالثلوج والنباتات وتتفجر منها أنهار تجري إلى الاودية والسهول. . وكان من عادة الذين يجنون اللبان والمر أن يحملوه من كل ناحية إلى هيكل إله الشمس الذي لم يكن لهم بيت تبلغ عظمته من نفوسهم مبلغه، والذي كان له حراس مدججون بالسلاح أشداء من العرب، فإذا ما وصلوا إلى هذا الهيكل بما جنوه من اللبان والمر، قدموا منه مقداراً إلى الحرس، ثم يضع كل واحد منهم ما جناه في مكان وعليه لوح كتب عليه مقدار الوزن والثمن. فإذا جاء التجار نظروا الألواح وأخذوا ما وقع عليه اختيارهم، وتركوا في مكانه الثمن المعين في اللوح]⁽³³⁾.

ويقول «سترابو» نقلاً عن مصادر أقدم، في دول اليمن: [ويقطن في تلك البلاد شعوب أربعة. أهل معين على شاطئ البحر وتعرف عاصمتهم باسم قرنا، ثم أهل سبأ وعاصمتهم مأرب، ثم أهل قتبان ومنطقتهم تمتد إلى الخليج وفيها مدينة ملوكهم المسماة تمّة، ثم أهل حضرموت وعاصمتها سبته. وأهل هذه المنطقة ذوو غنى وجاء عظيم وأبنيتها فخمة، خصوصاً الهياكل والقصور، وعماراتها تشبه عمارات المصريين]⁽³⁴⁾.

فلماذا فات على هؤلاء جميعاً الالتفات إلى يهوذا واسرائيل المتلاصقة حدودها، وفق طبوغرافية الصليبي، مع حدود ممالك اليمن؟ ثم ماذا عن النقوش اليمنية نفسها، التي حُلّت نصوصها بالملثات حتى الآن، لماذا لم ترد فيها إشارة ولو عابرة إلى جيرانها الشماليين. وأين أخبار دويلات اليمن في التوراة؟ ففيها عدا زيارة ملكة سبأ لسليمان (الملوك الأول: ١٠)، هل يعقل أن تنقضي حياة مملكتي يهوذا واسرائيل المفترضة في غرب العربية دون احتكاك مع دول

33- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، دار القلم، بيروت ١٩٨، ص ٢٣٥.

34- المرجع نفسه ص ٢٣٦.

اليمن القريبة ، وهما اللتان دخلتا في حروب لم تنقطع مع كل الدويلات المحيطة بهما . وأخيراً ، ماذا عن المصادر العربية ذاتها ، وعن الاخباريين الذين رووا لنا كل ما وصلهم عن ممالك اليمن القديمة وعن شعوب العرب البائدة ، لماذا لم تتسلل إليهم ولو معلومة واحدة تشير ولو من بعيد إلى قيام دولة سليمان ودولتي اسرائيل ويهوذا في عقر دارهم ؟
إن نظرية كمال الصليبي ، إضافة إلى بيناتها اللغوية ، مطالبة بالإجابة المقنعة عن كل هذه الأسئلة المشروعة .

١٥- بلاد موآب ونقش ميشع

إلى جانب الممالك الآرامية المعادية، التي جاورت إسرائيل ويهوذا من الشمال والشمال الشرقي، فقد جاورهما إلى الشرق، عبر الأردن والبحر الميت، شعبان هما العمونيون والموآبيون، وإلى الجنوب فيما يلي البحر الميت سكن الأيدوميون. وكانت هذه الشعوب الثلاثة في خصام دائم مع يهوذا وإسرائيل منذ أيام المملكة الموحدة، وغالباً ما ذكرت في التوراة بالترافق مع بعضها بعضاً، مما يشير إلى تجاوزها وتداخل حدودها. وهي الصورة نفسها التي رسمتها لهذه الشعوب الثلاثة السجلات الآشورية التي تورد ذكرها معاً وبالترافق مع الدويلات المجاورة لها.

نقرأ في نص للملك الآشوري تغلات فلاصر الثالث قائمة بالملوك الذين كانوا يؤدون له الجزية في فلسطين وشرقي الأردن: [سانيو ملك بيت عمون، سلامانو ملك موآب، ميتيني ملك أشقلون، يهوآحاز ملك يهوذا، كوش ملاكو ملك إيدوم...]^(٣٥). وكذلك في نص لسنحاريب: [توبعلو ملك صيدون، عبد ليتي (أي عبد اللات) ملك ارواد، أورو ملك جبيل، ميتيني ملك أشدود، بودو إيلي ملك بيت عمون، كاموسن أدبيي ملك موآب، غيرامو ملك إيدوم. كلهم جاءوا إلي بالهدايا]^(٣٦) وفي نص لأسر حادون:

35- Leo Oppenheim op. cit, p.282

36- Ibid, p. 287

[دعوت إلى ملوك بلاد حاتي على الضفة الأخرى من النهر. بعلو ملك صور، منسي ملك يهوذا، قوش جبري ملك إيدوم، موسوري ملك موآب...].^(٣٧)

وتنسج الرواية التوراتية على المنوال نفسه: [يسمع الشعوب فيرتعدون، تأخذ الرعدة سكان فلسطين، حيثئذ يندهش أمراء آدوم، أقوياء موآب تأخذهم الرجفة] - الخروج ١٥: ١٥. [أنت ماراً اليوم بتخم موآب، فمتى قربت إلى تجاه بني عمون لا تعادهم لا تهجموا عليهم، لأنني أعطيك من أرض بني عمون ميراثاً] - التثنية ٢: ١٩. [.. وأخذ شاول الملك على إسرائيل وحارب جميع أعدائه حواليه، موآب وبني عمون وآدوم] - صموئيل الأول ١٤: ٤٧. [وكان بيده (داود) آنية فضة وآنية ذهب وآنية نحاس... من آرام ومن موآب ومن عمون] - صموئيل الثاني ٨: ١٢. [لأنهم تأمروا عليك بالقلب معاً، عليك تعاهدوا عهداً. خيام آدوم والإسماعيليين، موآب والهاجريون، جبال عمون وعماليق...]. - المزمور ٨٣. [.. وكذلك كل اليهود الذين في موآب وبين بني عمون وفي آدوم، والذين في كل الأرض سمعوا أن ملك بابل قد جعل بقية ليهوذا وقد أقام عليهم «جدليا»] - ارميا ٤٠: ١١. [ويدخل إلى الأرض البهية فيعشر كثيرون. وهؤلاء يفلتون من يده آدوم وموآب ورؤساء بني عمون] - دانيال ١١: ٤١.

ونعرف من مدن الموابيين في التوراة «ديبون» العاصمة و«قريوت» و«ميدبا». وموقع ديبان القديم هو المكان المعروف اليوم بخربة ذيبان على بعد ثلاثة أميال شمال غرب عرعر، وقد اكتشفت فيها آثار عديدة للموابيين أهمها «الحجر الموابي» وهو نصب حجري نقش عليه «ميشع» ملك موآب نصفاً طويلاً يتحدث عن حروبه مع إسرائيل. أما مركز العمونيين الرئيسي فقد صار فيما

بعد مدينة «عمان» الحالية . وقد تحدثنا سابقاً عن سالع عاصمة الايدوميين وعلاقتها ببيترا .

لم يأبه كمال الصليبي كثيراً لأمر إيدوم فذكرها عرضاً في إحدى حواشي الكتاب وطابقها مع «وادي إدام» في جنوب مكة ، أما العمونيون فلم يتعرض لهم بتاتاً ولم يحدد لهم مكاناً في غرب العربية . ولكنه توقف طويلاً عند موآب بسبب وثيقة ميشع ملك موآب ، وهي أطول وأهم وثيقة كتابية تم العثور عليها حتى الآن في فلسطين وشرقي الأردن ، ولغة النقش وكتابه تنتمي إلى كنعانية فلسطين المدعوة خطأ بالعبرية المبكرة ، والتي تطورت فيما بعد إلى اللغة التوراتية المدعوة بالعبرية ، والتي تبنت الخط الآرامي المربع الذي يدعى الآن بالخط العبري .

ولسوف نتوقف طويلاً ، فيما يلي من هذا الفصل ، عند نقش ميشع ملك موآب ، لأنه يقدم بينة أثرية وتاريخية واضحة عن مسرح الحدث التوراتي ، ولكي نعرف كيف تعامل كمال الصليبي مع هذه البينة وأمثالها . وبما أن الصليبي قد شكك في كل الترجمات التي تمت لهذا النص حتى الآن ، وقدم تصحيحات لها هنا وهناك ، ودعا إلى إعادة قراءة النقش بنصه الأصلي ، فأننا سنقدم أولاً صورة للنقش بكتابه الأصلية ، ثم نحل رموز النقش بحروف عربية ، ثم نقدم ترجمة له اعتماداً على أكثر من ترجمة عالمية ، ونزود القاريء المهتم بتتبع تعليقنا على الترجمة ، بقائمة بأحرف كتابة النقش وما يقابلها من أحرف عربية ، واضعين كل هذه الأدوات أمام من يشاء ، للحكم في هذه المسألة التي نعتبرها من أدق المسائل المتعلقة بموضوع هذا الكتاب .

حل رموز نقش ميشع ملك مواب بحروف عريية^(٣٨)

- ١ - انك مشع بن كمش ملك ماب هد
- ٢ - بيني ابي ملك على ماب شلتن شت وانك ملك
- ٣ - تي احرا بي واعس هيمت زات لكمش بقرحه بن (ي)
- ٤ - شع كي هشعني مكل ه لكن وكى هراي بكل سناي عمر
- ٥ - ي ملك يسرال ويعنوا ماب يمن ربن كي يانف كمش
- ٦ - بارصه ويحلفه بنه ويامر جم ها اعنوا ماب بيبي امر
- ٧ - وارا به ويبته ويسرال ابد ابد علم ويرش عمري ات كل (ار)
- ٨ - ص مهدبا ويشب به يمه وحصي يمي بنه اربعن شت ويش
- ٩ - به كمش بيبي وابن ات يعلمعن واعس به هاشوح وابن
- ١٠ - ات قرين واش جد يشب بارص عطرت معلم ويبن له ملك ي
- ١١ - سرال ات عطرت والتحم بقر واحزه واهرج لت كل همم
- ١٢ - هقرت لكمش ولاب وشاب مشم ات ارال دوده وا (س)
- ١٣ - حبه لفني كمش بقريت واشب به ات اش شرن وات اش
- ١٤ - محرت ويامر لي كمش لك احذات نيه عل يسرال وا
- ١٥ - هلك بلله والتحم به ميقع هشحرت عد هصهرم واح
- ١٦ - زه واهرج كل شبع الف ج (ب) رن و . ن وجبرت و
- ١٧ - ت ورحمت كي لعشتر كمش هحرمته (واقع مشم ا)
- ١٨ - لي يهوه واسحب هم لفني كمش وملك يسرال بنه ات

38- ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٨ .

- ۱۹ - يهص ويشب به بهلتحمه بی ويجرشه کمش ميني (و)
 ۲۰ - اقح مماب ماتن اش کل رشه واساه بيهص واحزه
 ۲۱ - لسفت عل ديين انك بنتي قرحه حمت هيعرن وحمت
 ۲۲ - هعفل وانك بنتي شعريه وانك بنتي مجدله وا
 ۲۳ - أنك بنتي بت ملك وانك عستي كلاي هاشو (ح) لم (بن) بقر (ب)
 ۲۴ - هقروبران بقرب هقربقرحه وامر لكل هعم عسول
 ۲۵ - کم اش بر پسته وانك کرتي همکرتت لقرحه بأسر
 ۲۶ - ي يسرال انك بنتي عرعر وانك عستي همسلة بأرنن
 ۲۷ - انك بنتي بت بمت كي هرس ها انك بنتي بصرکي عين
 ۲۸ - ش ديين همشن كي کل ديين مشمعت وانك ملك
 ۲۹ - ت . . . مات بقرن اشريسفتي عل هارص وانخ بنت
 ۳۰ - ي (مهد) با وبت دبلتن وبت بعلمعن واساشم ات ن
 ۳۱ - صان هارص وهورنن يشب به . ب وق اش
 ۳۲ - أمر لي کمش رد هلتحم بحورنن وارد
 ۳۳ - به کمش بيبي وعل ده مشم عش
 ۳۴ - شت شديق وان

ترجمة النص^(٣٩)

- ١ - أنا ميشع ملك موآب الديباني (نسبة إلى ديبان العاصمة).
- ٢ - أبي مَلِك على موآب ثلاثين سنة، وأنا ملكت.
- ٣ - بعد أبي، وبنيت هذا المرتفع لـ «كموش» (الإله) بـ «قرحه».
- ٤ - لأنه أعانني على كل الملوك، ولأنه نصرني على أعدائي، (في النص: كي هрани بكل سنائي . أي أراني في أعدائي . وهو تعبير ما زال مستخدماً في العامية)، أما عمري .
- ٥ - ملك اسرائيل، فانه أذل موآب أياماً كثيرة، لأن كموش كان غاضباً على أرضه.
- ٦ - فخلفه ابنه وقال سأذل موآب في أيامي . قال (هذا).
- ٧ - فنظرت اليه وإلى بيته، واسرائيل باد، باد إلى الأبد وعمري احتل كل أرض.
- ٨ - «مهدبا» وأقام عليها في أيامه، ونصف أيام ابنه اربعين سنة . (ولكن) أرجعها .

39- W. F. Albright, *Palestinian Inscriptions* (in: *Ancient Near Eastern Texts*, op.cit) PP. 320-21

ولفنسون، تاريخ اللغات السامية، المرجع السابق، ص ص ١٠٨ - ١١٠ .

٩ - كموش في أيامي . فبنيت «بعل معان» وجعلت فيها بركة لنزن

الماء) وبنيت .

١٠ - «قزيتان» (اسم مدينة) . وكان أهل «جاد» (من أسباط اسرائيل)

يسكنون في أرض «عطرث» (اسم مدينة) من زمن بعيد . وعمر ملك .

١١ - اسرائيل «عطرث» فحاربت المدينة وأخذتها وقتلت كل أهل

١٢ - المدينة، فهنيء كموش وموآب . وجئت من هناك برئيسهم

«أرئيل» ، وسحبته

١٣ - أمام كموش بـ «قريوت» (اسم مدينة) ، واسكنت بها أهل

«شران» وأهل

١٤ - «محرت» . فقال لي كموش إذهب وخذ «نبة» (اسم مكان) من بني

اسرائيل

١٥ - فسرت بالليل وحاربت من مطلع الفجر إلى الظهيرة ، وأخذتها

١٦ - وقتلتهم جميعا ، سبعة آلاف رجل وامرأة

١٧ - وجارية ، لأنني وهبتهم قرباناً لعشتر كموش . وأخذت من

هناك . . (نقص في السطر) .

١٨ - يهوه ، وسحبتهم أمام كموش . ثم بنى ملك اسرائيل

١٩ - «يهص» (اسم مدينة) ، وسكن بها وهويحاريبي . فطرده كموش

من أمامي .

٢٠ - وأخذت من موآب مائتي رجل من أفضلهم ، وسيرتهم إلى يهص

وأخذتها .

٢١ - فضممتها إلى ديبون . أنا بنيت قرحة ، وحثت هيعرن ،

٢٢ - وحث هعوقل (أسماء مدن ، فبنيت أبوابها وبنيت أبراجها

٢٣ - وأنا بنيت بيت الملك ، وجعلت بركتين بقرب

٢٤ - المدينة . ولم توجد بئر في داخل بلدة القرحة ، فقلت للشعب

إجعلوا

- ٢٥ - لكم آباراً في ييوتكم . وأنا قطعت الأشجار لقرحة على يد الأسري من بني
- ٢٦ - اسرائيل . أنا بنيت «عُرْعُر» (اسم مدينة)، وأنا مهدت الطريق إلى «أرنن» (نهر يصب في بحيرة لوط) .
- ٢٧ - أنا بنيت «بيت ياموث» (معبد) لأنه كان قد تخرب ، وبنيت «بَصْر» (اسم مدينة) لأنها كانت خراباً .
- ٢٨ - . . . ديبون خمسين ، لأن كل ديبون خضعت لي وأنا
- ٢٩ - حكمت ... مائة المدن التي ضممته إلى المملكة ، وأنا بنيت
- ٣٠ - «مهدبا» و«بيت دبلتان» و«بيت بعل معان» (أسماء مدن) وسيرت إليها .
- ٣١ - غنم البلاد . و«حورنان» (اسم مدينة) أقام بها . . .
- ٣٢ - . . . فقال لي كموش انزل لقتال حورنان فنزلت
- ٣٣ - . . . (لقتال المدينة وأخذتها) وكموش سكن بها في أيامي .
- ٣٤ - . . . وأنا . . .
- هذا النصب التذكاري أقامه ميشع ملك موآب لتخليد انتصاراته على الاسرائيليين ، والإشادة بأعماله العمرانية والاصلاحية في موآب . فبعد خضوع موآب لاسرائيل سنيماً عديدة أيام الملك عمري وابنه آخاب ، قام ميشع بتحرير البلاد وطرد الاسرائيليين من كل مكان أقاموا فيه بأرض موآب ، ثم تفرغ بعد ذلك للإصلاحات الداخلية . وتأتي الرواية التوراتية على ذكر هذه الحروب بين ميشع واسرائيل في سفر الملوك : ٣ ، فتقول إن ميشع قد عصى على اسرائيل بعد وفاة آخاب بن عمري ، فسار اليه يهورام بن آخاب مستعيناً بيهوشافاط ملك يهوذا ، وحاصرته الجيوش في عاصمته ثم ارتدت عنه بعد أن قدم ابنه البكر قرباناً على سور المدينة . ورغم هذا الاختلاف بين الروایتين ، إلا أنهما تتفقان على تمرد ميشع واستقلاله عن اسرائيل ، وفشل هؤلاء في اخاد ثورته والانسحاب من بلاده .

ولكن كمال الصليبي ، الذي لم يقدم لنا فكرة عن مضمون نقش ميشع ، ولم يشر إلى الرواية التوراتية المتعلقة بقتال ملك اسرائيل لميشع ، يتقدم بتفسير غاية في الغرابة لوجود الحجر المويّبي في منطقة شرقي الأردن ، على مسافة شاسعة من «أم الياب» ، المكان الذي يفترضه كموطن للمويّبيين التوراتيين في مرتفعات الطائف ، فيقول في تقديمه لمسألة نقش ميشع : [في هذا النقش المويّبي ، يتحدث ميشع ملك مويّ (مسح ملك م ء ب) عن حروبه مع عمري ملك اسرائيل ، وابنه من بعده (وهو آخاب بن عمري الذي لا يذكره النقش بالاسم) . وبسبب الغزوات المتتالية التي تعرضت لها أرض مويّ في هذه الحروب ، اضطر ميشع إلى الجلاء عنها ، فانتقل مع أتباعه من مويّ إلى «قرحة» (لعلها اليوم جحرا من قرى الكرك) ، حيث أقام لنفسه عاصمة جديدة . وهذه المناسبة ، أقام ميشع الحجر الذي كتب عليه هذا النقش] (ص ١١٢) .

وهذا التفسير ، يضرب عرض الحائط بمضمون النقش وبالرواية التوراتية الموازية له . فميشع لم يحارب الملك عمري وابنه آخاب من بعده ، ولم يضطر بسبب هزائمه المتتالية إلى الجلاء عن أرضه ، بل انتزع استقلاله بعد فترة طويلة من خضوع مويّ لعمري وابنه من بعده ، وأجبر الاسرائيليين على الانسحاب ، وهذا ما تؤيده الرواية التوراتية نفسها . ومن ناحية أخرى ، كيف نفسر قيام ملك مهزوم من وجه أعدائه ، تاركاً لهم موطن آبائه وأجداده ، باقامة نصب في أرض مهجره الجديد ، يتحدث فيه عن انتصاراته وانجازاته واصلاحاته في بلده !! . وإذا كانت هذه الهزيمة والهجرة الجماعية لشعب مويّ قد حدثت فعلاً ، فكيف غفلت الرواية التوراتية عن ذكرها ، وعن تخليد هذا النصر المبين على شعب اعتبر دوماً من الاعداء التقليديين لبني اسرائيل ؟ وكيف نفسر استمرار وجود مويّ كجارة لاسرائيل ویهودا في الأخبار التوراتية اللاحقة حتى دمار اورشليم ، وتبشير الأنبياء المتأخرين بزوالها ، مما نجده في نبوءات ارميا وعاموس ودانيال ؟

ثم يتابع الصليبي : [وليس هناك في الحجر الموابي ما يشير إلى أن موباب كان اسماً قديماً لمرتفعات الكرك شرق البحر الميت، أو إلى أن مملكة اسرائيل كانت تقع في فلسطين، ونحن إذا أعدنا قراءة النقش بنصه الأصلي، وليس من خلال الترجمات التي أجريت له حتى الآن، يصبح من الواضح تماماً أن الحروب التي جرت بين اسرائيل وموباب، والتي يتحدث عنها النقش انها جرت في الحجاز وليس في شرق الأردن، وان مملكتي اسرائيل وموباب، بالتالي، كانتا متجاورتين في غرب شبه الجزيرة العربية وليس في جنوب الشام] (ص ١١٢).

ونحن لا ندري أي شيء آخر يجب أن يحتويه النقش، أكثر مما احتوى، للدلالة على أن موباب التوراتية كانت في شرقي الأردن. فالحجر الموابي قد عثر عليه بين خرائب مدينة ديبان في الموقع المعروف منذ زمن طويل بخربة ذيبان بشرقي الأردن، بين عدد كبير من الآثار الموابية، وصاحب النصب يذكر بلسانه أنه ميشع ملك موباب الديباني، وأنه قد هزم الاسرائيليين وعمر ما خربوه إبان سيطرتهم على بلاده، ثم يأتي على ذكر عدد كبير من المدن الموابية وكلها مذكورة في التوراة، ورواية ميشع على نصبه التذكاري تتفق مع الرواية التوراتية في الخطوط العريضة ولا تتناقض معها.

ورغم دعوته إلى إعادة قراءة النقش بنصه الأصلي، فإن الصليبي لا يفعل سوى تقديم أسطر قليلة من النص الكامل، معزولة عن سياقها العام ليعيد قراءتها على طريقته. وحتى هذه الأسطر المختارة نفسها، لا تقدم إلينا بنصها الكامل، بل كأجزاء أسطر معزولة عن سطورها ولسوف نتابع فيما يلي هذه الشواهد القليلة من نقش ميشع الطويل.

[في الكلام عن الهجوم الأول على موباب الذي قام به أتباع الملك عمري ... يصف النقش موباب بأنها «يمن ربن». ويقراءة «يمن» كجمع لـ «يُم» بمعنى يوم، وقراءة «ربن» كجمع للصفة «رب» بمعنى عديد، أخذ المترجمون حتى الآن تعبير «يمن ربن» على أنه أياماً عديدة. وهي ترجمة لا

تتفق تماماً مع المعنى العام للنص ، والواقع هو أن التعبير يشير ببساطة إلى أن موآب كانت تقع «جنوب ربن» . والمكان الوحيد في الشرق الأدنى الذي ما زال يحمل الاسم «ربن» هو قرية «رابن» في الحجاز . وعلى ذلك فإن موآب التوراتية قابلة للتعريف اليوم بكونها قرية «أم الياب» في وادي أضم . وأم الياب هذه ، تقع عملياً إلى الجنوب من رابن أي يمن ربن] (ص ١١٢) .

الجملة القصيرة المؤلفة من كلمتين ، التي يشير إليها الصليبي في المقطع أعلاه ، هي جزء من السطر الخامس في النقش :

٤ - لأنه أعاني على كل الملوك ولأنه نصرني على أعدائي . أما عمري
٥ - ملك اسرائيل ، فانه أذل موآب أياماً طويلة (يمن ربن) لأن كموش كان غاضباً على أرضه (أي على أرض موآب) .

فإذا أخذنا بوجهة نظر الصليبي في كون «يمن ربن» لا تعني أياماً كثيرة ، بل «جنوب موقع رابن» ستكون ترجمة السطر الخامس على الوجه التالي :

٥ - (أما عمري) ملك اسرائيل ، فانه أذل موآب الواقعة إلى الجنوب من ربن . .

ونحن نحتكم إلى المنطق ونتساءل ، أي الترجمتين تتفق مع السياق العام للنص ؟ ولماذا يحتاج ملك موآب إلى تحديد موقع بلاده على أنها تقع إلى الجنوب من قرية لم تعرف قط كموقع من مواقع الموآبيين ، سواء في نقش ميشع ناه الذي عدد كل مدنها وقراهم تقريباً ، أم في التوراة التي لم تترك موقعاً من مواقع الموآبيين إلا وأتت على ذكره . وإذا لم تكن «رابن» هذه موقعاً من مواقع الموآبيين ، فلا بد أنها كانت في الماضي مملكة قوية معروفة من ممالك الشرق القديم حتى يقوم ملك موآب بتعريف مملكته بأنها تقع إلى الجنوب منها . فإين ذكر رابن هذه في سجلات الشرق القديم التي لم تترك موقعاً مهماً إلا وأتت على ذكره ؟

ثم يتابع الصليبي : [هناك جملة في النقش تقرأ : «ويرس عمري

ك ... ص (كل هـ - ء رص) مهدب». وقد أخذت الجملة حتى الآن على أنها تشير إلى احتلال عمري ملك اسرائيل لبلدة «مادبا» في شرقي الأردن. ولو كانت مادبا (مدب ء) هي المعنية حقاً هنا، لما كتبت «مهدب ء» نظراً لأن حرف الهاء الذي يتوسط الكلمة لا يسقط عادة في اللفظ في اللغات السامية. وما تقوله الجملة فعلاً هو: «وعمري احتل كل الأرض من هدب ء» وهدب ء هذه، هي اليوم قرية «الهدبة» شمال «أم الياب» في مرتفعات الطائف المشرفة على وادي أضرم [ص ١١٣].

في المقطع أعلاه، إشارة إلى جملة قصيرة تؤلف الجزء الأخير من السطر السابع والكلمة الأولى من السطر الثامن (انظر النص). وهو يوردها بالكنعانية كما يلي: [ويرس عمري ك ... ص مهدب ء] مفترضاً وجود تشوه بسيط في نهاية السطر السابع، يقترح في مكانه «كل هـ - أرض» أي «كل الأرض»، حيث الهاء هنا هي «أل» التعريف الكنعانية. ثم يعتمد بعد ذلك إلى تفكيك كلمة «مهدب ء» إلى شطرين هما «الميم» وهي حرف الجر بالكنعانية، و «هدب ء» التي يرى فيها اسم مكان هو «الهدبة» في مرتفعات الطائف، إلى الشمال من «أم الياب» التي رأى فيها سابقاً موآب التوراتية (ص ١١٣ أيضاً). فتغدو الجملة: [ويرس عمري كل هـ - أرض م - هدب ء] أي [وعمري احتل كل الأرض من هدب ء (أي ابتداء من الهدبة)].

وفي الحقيقة، فإننا لم نعثر في النص الأصلي لنقش ميشع على نقص أو تشوه في الموضع المشار إليه. وترجمة الجملة كما هي واردة بوضوح في النقش هي «وعمري احتل كل أرض مهدبا، وأقام عليها في أيامه ونصف أيام ابنه أربعين سنة». ومهدبا الواردة هنا، قد ذكرت في التوراة مراراً كمدينة للموآبيين تحت اسم «ميدبا»، (انظر على سبيل المثال سفر العدد ٢١: ٣٠ ويشوع ١٧: ١٦ والأيام الأول ١٩: ١٧ - ١٥ وأشعيا ١٥: ٢). وترد ميدبا بالترافق مع المدن الموآبية الأخرى المذكورة في نقش ميشع، كما هو الأمر في سفر يشوع ١٣: ٩ و ١٥ - ١٦: [أخذ الراؤ وبينيون والجاديون ملكهم الذي أعطاهم موسى في عبر

الأردن نحو الشروق . . فكان تخمهم من عروعر التي على حافة وادي
أرنون ، والمدينة التي في وسط الوادي وكل السهل عند ميدبا : حشبون وجميع
مدنها في السهل ، وديبون وباموت بعل وبيت بعل معون وبهصة وقد يموت
وميفعة وقَرَيْتايم]. وهذه المدن المذكورة هنا ، قد وردت في نقش ميشع في
الأسطر التالية : ميدبا وردت مهدبا في السطرين ٨ و ٣٠ ، وعروعر في السطر
٢٦ ، وديبون وردت ديبان في الأسطر ٢١ و ٢٨ ، وبعل معون وردت بعل
معان في السطرين ٩ و ٣٠ ، وبهصة وردت في السطرين ١٩ و ٢٠ ، وقَرَيْتايم
وردت قَرَيْتان في السطر ١٠ .

من هنا فان تفكيك كلمة «مهدبا» في السطر السابع من النص ، لا يقوم
على أساس مقنع ، وكذلك الأمر فيما يتعلق بالاضافة التعسفية لآل التعريف
«ه» قبل كلمة «أرص» .

أما عن قوله بأن «مهدبا» لا تتحول إلى «مادبا» لأن حرف الهاء الذي
يتوسط الكلمة لا يسقط عادة من اللفظ في اللغات السامية ، فقول لا محل له
هنا . لأن «مادبا» هو الاسم الحديث لموقع في شرقي الأردن اليوم ، يُظن أنه
الموقع القديم لمهدبا نقش ميشع أو ميدبا التوراة . والاسم الحديث ، إذا صح
أنه ذات الموقع القديم ، فانه محو عن «ميدبا» الاسم التوراتي . وتحول الياء
إلى ألف أمر وارد وفق لائحة تحولات الأحرف التي وضعها الصليبي نفسه
(الصفحات ٢١ و ٢٢) .

وكتعليق أخير على هذه الجملة التي تطوع الصليبي لملء فراغها في
الصفحة ١٣ من كتابه ، نذكر بأنه في الصفحة ١١ ، أي قبل صفحتين فقط ،
كان قد اعترض على قيام عالم الآثار واللغات السامية وليم . ف ألبرايت ،
بملء فراغ مماثل في أحد نقوش «لخيش» بفلسطين ، بكلمات مقترحة لفهم
النص . قال الصليبي [هناك بقايا جملة تقرأ كالتالي «ء دني هل ء تكتب ء . . .
. . . ه تعسو كزءت . . . سلم» والترجمة وهي مرة أخرى من عمل و . ف
ألبرايت تقول بكل صفاقة : «والآن يا مولاي هل لك أن تكتب لهم قائلًا لماذا

فعلتم هكذا حتى بأورشليم». إن مثل هذه الترجمة الاعتباطية لا يجوز السماح بها، حيث هناك أقل احترام للأمانة العلمية[!!!]

بعد ذلك يأتي الصليبي إلى شاهده التالي، وهو عبارة عن كلمتين متفرقتين وردتا في النقش، فيبحث في مدلوليهما دون إيرادهما في سياقهما الطبيعي: [في أجزاء من النقش ترد لفظة «قر» باعتبارها تعني «قرية» ولفظة «كمش» على أنها «كموش» اسم اله موآب. وفي أجزاء أخرى تظهر كل من «قر» و«كمش» بشكل مميز على أنهما أسماء لبلدتين أو قريتين متجاورتين في أراضي موآب. وقرينا «القر» و«قماشة» ما زالتا هناك إلى اليوم في الجزء نفسه من مرتفعات الطائف حيث تقع «الهدبة»].

وقد بحثنا دون طائل في النقش عن موضع وردت فيه كلمة «قر» على أنها تعني اسم موقع. وفي الحقيقة فقد وردت الكلمة أربع مرات في النقش، وذلك في السطر ١٥ و١٢ ومرتين في السطر ٢٤، وفي سياق منطقي ونحوي يشير إلى معناها كمدينة أو قرية. ففي السطر ١١ وردت الكلمة مسبقة بحرف الجر «ب»، وفي السطر ١٢ وردت مسبقة بأل التعريف «ه».

١١ - (فعمر ملك اسرائيل) «عَطُرْتُ» (اسم مدينة) فحاربت في المدينة

(ب قر) وأخذتها، وقتلت كل أهل

١٢ - المدينة (ه قر) .

ومن الواضح تماماً من سياق السطر ١١ أن «قر» تعني مدينة وأنها تعود إلى «عطرت» المدينة التي عمرها ملك اسرائيل فحارب فيها ميشع وأخذها. أما في السطر ١٢ فإن أل التعريف السابقة لـ «قر» تظهر بوضوح أنها تعني أيضاً مدينة وليس اسم موقع.

أما في السطر ٢٤ فقد وردت الكلمة مرتين مسبقة أيضاً بأل التعريف

«ه»

٢٣ - وأنا بنيت بيت الملك، وأنشأت البركتين بقرب

٢٤ - المدينة (هـ - قر) . ولم توجد بئر في داخل القرية (هـ - قر) بـ «قرحة» فقلت للشعب اجعلوا لكم آباراً .

إن آل التعريف الكنعانية «هـ» ، لا تدخل على أسماء المواقع ، تماماً كما هو الأمر في العربية حيث نقول «بغداد» وليس «البغداد» و«دمشق» وليس «الدمشق» إلا في حالات نادرة تكون آل التعريف فيها جزءاً من المسمى الأصلي للمدينة مثل «القاهرة» .

أما عن «كموش» إسم اله الموابيين ، فقد بحثنا في النص عن سياق يمكن أن يفهم منه ورود الكلمة كاسم لمدينة فلم نوفق إلى ذلك . وربما كانت إشارة الصليبي إلى السطر ١٨ وهو سطر غير واضح المعنى تماماً في نصفه الأول لأنه مسبوق ببضع كلمات مشوهة في آخر السطر ١٧ ، حيث نقراً :
١٧ - وأخذت من هناك . . .

١٨ - يهوه ، وسحبتهم أمام كموش . ثم بنى ملك اسرائيل .
ولكننا نتساءل ، إذا كانت كل من كلمتي «كموش» و«قر» قد وردتا في نقش ميشع كأسماء لمدن موابية ، فلماذا لم تأت أخبار التوراة على ذكرها بتاتاً ، وهي التي عددت كل مدن مواب ، منذ حلول بني اسرائيل في جوارهم أيام موسى إلى آخر أيام اورشليم ؟

بعد ذلك يقول الصليبي [هنا ، وعلى بعد آمن من خصومه الاسرائيليين في جنوب الحجاز ، أصبح هذا الملك «صاحب مواشي» كما تصفه التوراة العبرية ، قادراً على الازدهار مرة أخرى ، وعلى استملاك مراعي جديدة في أرض «حرن» أي حوران ، لما كان لديه من «بقرن» (أبقار) و«معز» (ماعز) و ص ء ن (ضأن أو أغنام) . وحتى الآن كان قراء منقوشة ميشع غاية في التشوش حول تفسيرها إلى درجة أنهم أخفقوا في التعرف إلى هذه الكلمات الأخيرة الثلاث كما تظهر في المنقوشة ، بما تعنيه في الواقع . وفي حين أن كلمة «بقرن» هي بوضوح «بقر» بصيغة جمع المذكر ، فقد قرأوها على أنها «ب - قرن» التي معناها «بقري» أما «معز» و«ضأن» فقد حذفنا كلياً من الترجمة بسبب سوء

التأويل العام للإطار الذي وردت فيه هاتان الإشارتان الصريحتان إلى الماعز والأغنام].

لا شك أن إشارة الصليبي في المقطع اعلاه، هي إلى الأسطر الأخيرة في النص، من السطر ٢٩ إلى السطر ٣٤. أما ما ذكره الصليبي عن تشوش قراء المنة وشة في تفسير هذا الجزء، فليس مصدره عجز المترجمين وسوء تأويلهم العام للنص، بل تشوشه الجزء الأسفل من النص، وفقدان الكثير من الكلمات التي لم يستطع المترجمون اقتراح بدائل مناسبة لها، لأن ما تبقى من الكلمات الواضحة في الأسطر الناقصة لا يقدم سياقاً ذا دلالة. ولا ندرى كيف استطاع الصليبي أن يستنتج من هذه الأسطر الستة المشوهة، أن ميشع قد أصبح قادراً على الازدهار مرة أخرى، وعلى استملاك مراعي جديدة في موطنه الثاني. أما عن كلمة «بقرن» الواردة في السطر ٢٩، والتي يرى أنها «بقر» بصيغة جمع المذكر وليست «بقري» (بمدن)، فإن معنى السطر (الذي لم يورد لنا نصه كاملاً) لا يستقيم بتاتاً مع هذا الاجتهاد (راجع النص). أما كلمة «ضأن» فلم تحذف كلياً من الترجمات، وهي واردة في نصنا أعلاه، وفي انسجام تام مع الاطار العام التي وردت ضمنه، ولكننا أخفقنا في التعرف على كلمة «معز» في ما وصلت إليه أيدينا من نسخٍ محققة ومنشورة للنص. ويمكن للقاريء أن يتحقق بنفسه من ذلك، ويساعدنا في البحث عن الكلمة، وهي تكتب بالكنعانية على الشكل التالي «IOY».

وأما عن أرض «حرن» التي يقرنها بحوران، ويقول أن ميشع قد استملك فيها مراعي جديدة، فقد وردت في النص «حورنان» لا «حرن»، وهي مدينة موآبية وردت في التوراة تحت اسم «حوروناييم»، وهي مثني كهف أو وهدة، ولا علاقة لها بحوران (انظر أشعيا ١٥ : ٥ ورميا ٤٨ : ٣ و٥ و٣٤).

وأخيراً نتساءل، إذا كان الموآبيون قد رحلوا عن جوار مملكتي يهوذا واسرائيل في أواسط القرن التاسع نحو شرقي الأردن، فكيف نجد مملكتهم ما زالت قائمة في مطلع القرن السادس إلى جانب مملكتي إيدوم وعمون، كما

نستشف من نبوءات النبي ارميا الذي أتاه الوحي ، كما يقول الكتاب ، في السنة الأولى لحكم نبوخذ نصر ملك بابل : [في ابتداء مُلك يهوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا ، صار هذا الكلام إلى ارميا من قبل الرب قائلاً . هكذا قال الرب لي ، اصنع لنفسك ربطاً وأنياراً واجعلها على عنقك وارسلها إلى ملك آدوم وإلى ملك موآب وإلى ملك بني عمون] . ارميا ٢٧ : ١ - ٣ . وهاهو ارميا يبشر بخراب موآب ، ويعدد مدنها واحدة واحدة ، بعد مضي أكثر من قرنين على التاريخ المفترض لزوال موآب ورحيل شعبها :

[قريب مجيء هلاك موآب وبليتها مسرعة جداً . اندبوها يا جميع الذين حواليتها وكل العارفين اسمها ، قولوا كيف انكسر قضيب العز عصا الجلال . انزلي من المجد اجلسي في الظماء أيتها الساكنة بنب ديبون ، لأن مهلك موآب قد صعد اليك وأهلك حصونك . قفي على الطريق وتطلعي يا ساكنة عروعر ، اسألي الهارب والناجية قولي ماذا حدث . قد خزي موآب لأنه قد نُقض . ولولوا واصرخوا أخبروا في أرنون أن موآب قد أهلك . وقد جاء القضاء على أهل السهل . على حولون وعلى يهصة وعلى ميفعة وعلى ديبون وعلى نبو وعلى بيت دبلتايم وعلى قريتايم وعلى بيت جامول وعلى بيت معون وعلى قريوت وعلى بصرة وعلى كل مدن موآب] ارميا ٤٨ : ١٦ - ٢٣ .

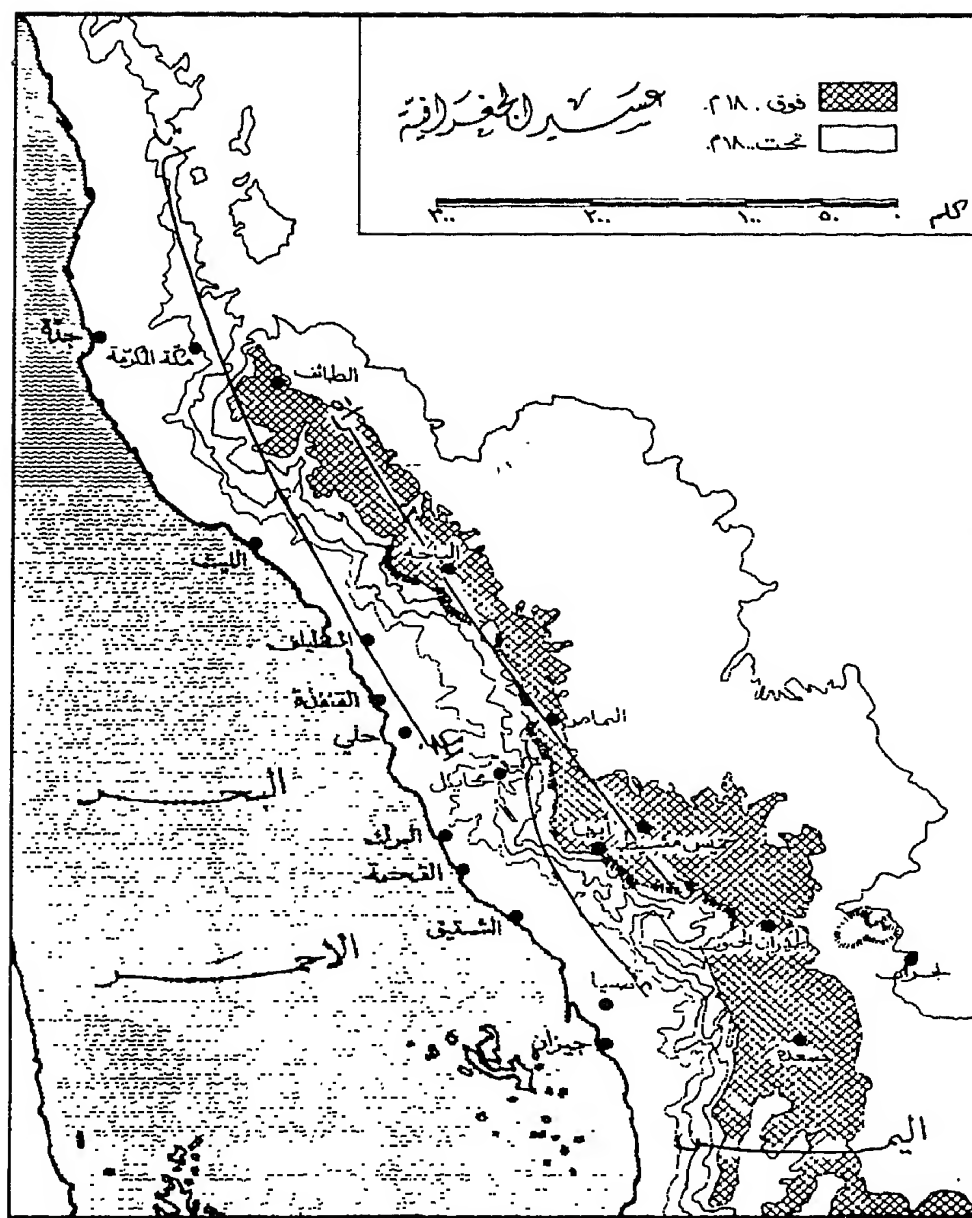
خاتمة

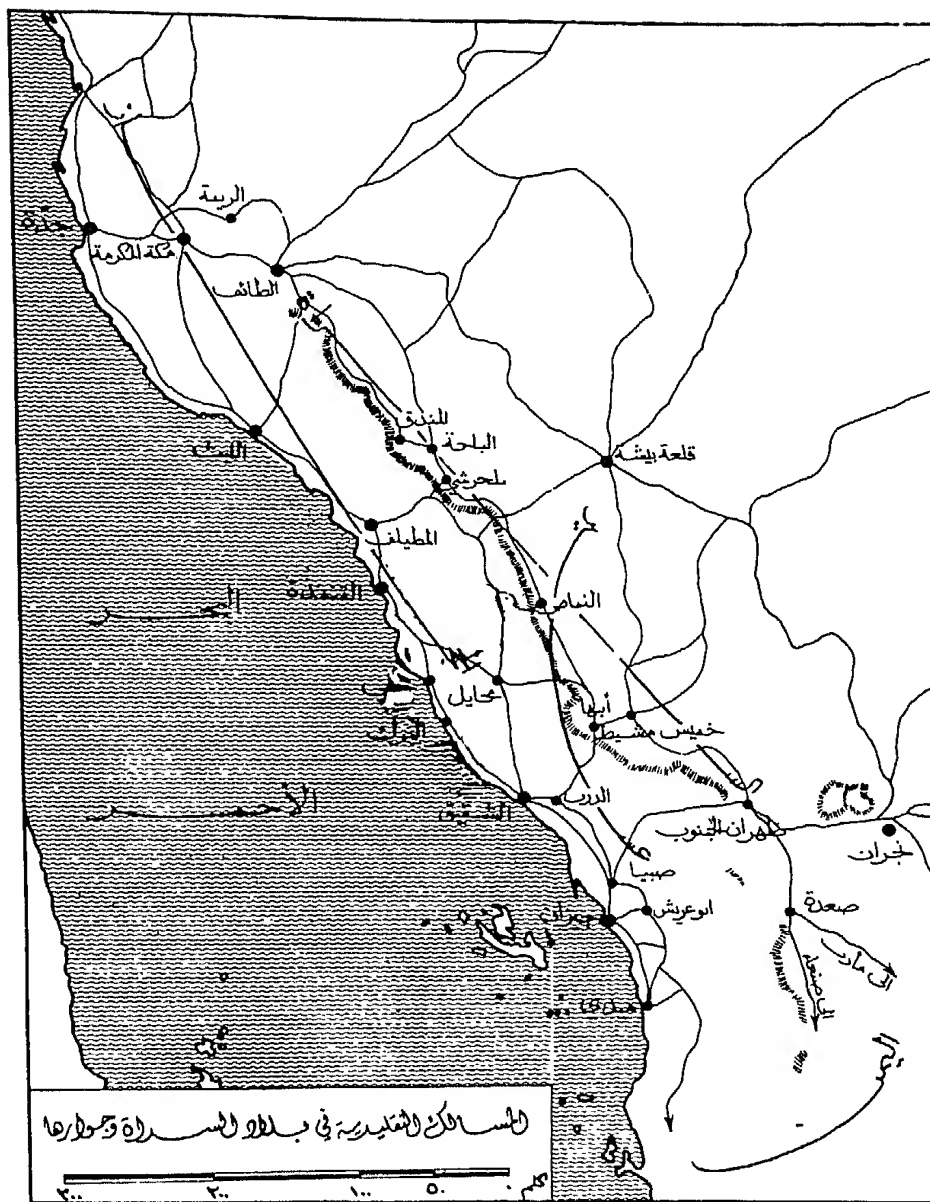
نحن من المؤمنين بأن دور الكتاب المتميز، لا يتمثل في ما يقدمه من أفكار جاهزة تعفي من التفكير بأخذ اليسير الذي يعطيه، بل في الحث على التأمل والبحث والنقد والتجاوز. وبهذا المعنى، فإن كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب»، قد أخذ مكانه كأحد المباحث الهامة الجديدة، دون أن ينال منه، كما نعتقد، تقصير نتائجه عن خلق قناعات تركز إلى سند موضوعي مكين.

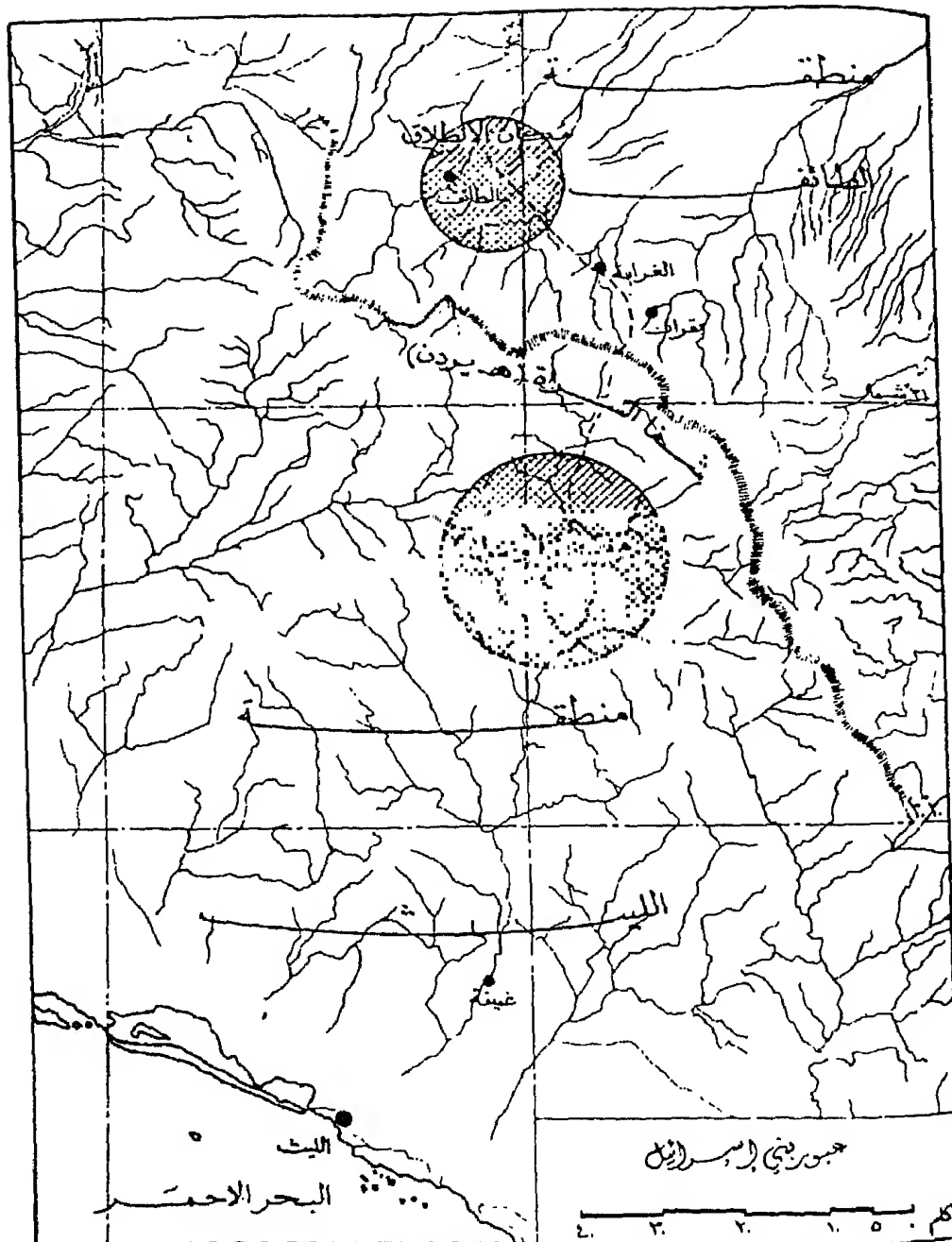
لقد قلنا في فاتحة الكتاب، بأننا ننطلق من موقف منفتح راغب في تقبل الجديد وإن حمل في طياته هدماً للقديم، ووعدنا بتمحيص علمي دافعه اهتمامنا بتاريخ وحضارة الشرق القديم، لا عنايتنا بمسألة التوراة وأهلها، ممن لا شأن لهم يذكر في ذلك التاريخ، ولا مكاناً متميزاً في تلك الحضارة. وقلنا بأننا مستعدون لتقبل ما يصمد من أطروحات الصليبي بعد وضعها على المحك العلمي، بل ولتبنيه. فماذا تبقى مما قدمه لنا كمال الصليبي بعد هذا الحوار الهاديء الطويل؟ جوابنا على ذلك أنه قد بقي الكثير. بقيت المحاولة العلمية الرصينة، والموقف الجريء، وسابقة محرضة على النقد في أقصى حدوده الممكنة.

إن من لم يطلع على خفايا كتاب الصليبي وأدق تفاصيله وأفكاره، كما فعلنا، لا يستطيع أن يدرك مدى الجهد العلمي المبذول لإكماله، ومبلغ ما رصد له من تحقيق وصبر وأناة، وما وراءه من ذخيرة علمية وفكر مرتب، مما جعله بحق مثلاً في البحث المنهجي المنظم. ونحن نرجي الشكر للدكتور كمال الصليبي على الأوقات الممتعة والمضنية التي بذلناها في مقابل جهده الكبير، وعلى الفرصة التي أتاحتها لنا مبادرته لوضع كثير من الأمور في نصابها، مما وددنا منذ زمن أن ننبري له، فكان حوارنا هذا بمثابة المدخل السهل لما أردناه.

ملاحق
غرائط كمال الصليبي







خريطة رقم ١٧

دليل الأسماء

«أ»

آل زيدان : ٢٥٨ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣	آبي بعل : ١١٨
آل الزرعي : ١٦٥	آبي ملك : ٦٠
آل سلام : ١٥٤ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ١٣	آتون : ٥٦
آل سلمان يحيى : ٢٧١	آزورو : ١١٤
آل شريم : ٢٧٥ ، ٢٥٥ ، ١٥٤	آحاز : ١٦٤ ، ١٠٦ ، ١٠٥
آل عزه : ٤٦ ، ٤٣	آخاب : ٩٤ ، ٩٨ ، ١٦٢ ، ١٦٩ ، ٢٠٧
آل عبدان : ٢٧١	٣٠٩ ، ٣٠٨
آل يوسف : ٢٦٧	آخوني : ٨٨
آل قياس : ١٧٠	آرام : ١٠٥ ، ٩٤
امورو : ٨٣ ، ٧٠ ، ٦٥ ، ٦٢ ، ٦٠ ، ٥٩	آدينو : ٩٤
١٨٦ ، ١٠٣ ، ٨٦	آرام النهرين : ٢٨٢ ، ٢٨٠ ، ٤٢
آمورو (بحر) : ٨٦ ، ٩١ ، ١٠٩ ، ١١٣	آرح : ٢٧٢
٢٧٩	آسا : ٢٣٨ ، ١٣٣
آهي مكى : ١١٨	آساف (بنو) : ٢٦٧
ابرام : ٢٨١ ، ٢٣٦	آشور بانيبال : ٢٩١ ، ١١٩
ابراهيم : ٢٨١ ، ٢٨٠ ، ١٣٥ ، ١٤ ، ١٣	آشور ناصر بال : ٨٥
أبها : ٢٣٩ ، ٢٣٥	آطير (بنو) : ٢٦٨
أبيدوس : ٣٨	آل جبعان : ١٧٠
أبيريللو : ٢٩٠	
اثيوبيا : ١١٤	

اسحاق: ١٣٥، ١٩٦، ٢٨٠، ٢٨١
 اسرائيل: ٣١، ١٠٦، ١٢٤، ١٦٤،
 ١٧٨، ٢٠٧، ٢٣٤، ٢٦١، ٢٧٣، ٢٨١،
 ٢٨٦
 أسرحادون: ١١٧، ٢٤٣، ٢٩٠، ٢٩٩
 الاسكندر: ١٨، ٧١
 اسماعيل، إسماعيليون: ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٠٠
 أسوان: ٢٤١
 أشدود: ١٠٧، ١٠٨، ١١٣، ١١٤،
 ١١٦، ١١٨، ١٩١، ٢٧٦
 أشقلون: ١١٣، ١١٨، ١٨٩، ١٩٠،
 ١٩١، ٢٧٦
 اشتانوت: ٩٤، ٩٨
 أشوكان: ١٣٩
 اشكالاتو (ملكة العرب): ٢٩٠
 أشير: ٢٢٢
 اعزاز: ٨٩
 أفاريس: ٤٠
 أفس: ١٠٠، ٢٨٦
 الأقرع (جبل): ٩١
 أكاد: ٧٧، ١٣٩
 أكشف: ٧١
 ألااخ: ٥٥، ٦٢، ٩٢، ١٦٣
 التقو (التقي): ١١٤، ١١٥
 اليشع: ٢٨٥
 الامانوس: ٨٠، ١٠١، ٢٧٩
 الأمار: ٢٦٥
 أمط (أمت): ٩٥، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣
 أم لحم: ٥٨

أجرويس: ١٣٦
 أحلامو: ٢٧٨
 أحس: ٤٠
 أحشويرش: ٢٤١
 أخينيون: ١٨، ٢١٤
 اخناتون: ٥٥، ٦٠
 إدريمي: ٢٥٠
 أدنو-بعل: ٩٤
 أدوماتو: ٢٩٠
 أراتنو: ٩١
 إرخوليبي: ٩٤، ٩٧، ٢٨٤
 أردانا: ٤٩
 الأردن: ١٥، ٧١، ١٩٨، ٢٠٨، ٢٢٥،
 ٢٣٦، ٢٦٥
 أردن أريحا: ٢٣١، ٢٦٥
 أرسلان طاش: ٨٤، ٩٩، ١٦٣
 أرغانا: ٩٤
 أرني (أرنان، أرنون): ٣٠٨
 أرنان اليبوسي: ١٤٨
 أرفاد: ٩٠، ٩١، ٢٧٩
 أرواد: ٨٣، ٨٤، ٨٦، ٩١، ٩٢، ٩٤،
 ١١١، ١١٨، ١٢٠، ٢٥٣، ٢٥٨
 أرمادا: ٨٣
 أروي: ١٣، ٥٨، ٥٩، ١٥٤
 أريثيل: ١٤٣، ٣٠٧
 أريبو: ٨٦
 أريتريا: ٢٥٢، ٢٥٣
 أريحا: ٣٩، ١٩٩، ٢٤٨
 استرابو: ٢٥٣

امنحويت: ٥٦	ايراتوسين: ٢٩٥
أمولادي: ٢٩١	ايزابيل: ١٦٢
أم الياب: ٣١١، ٣١٢، ٣١٧	ايكوسو: ١١٨
إمير (بن): ٢٦٠	ايل: ١٥
اميدي: ٢٧٩	ايلي تيشوب: ٨٣
اميرشو: ٩٤، ٩٥، ٩٩	ايليا: ٢٠٨
الأنباط: ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤	ايليا كاييتولينا: ١٤٢، ١٥٤
اميسا: ٩١	
انطاكية: ٥١، ٦٢	
انليل (ملك حاة): ١٠٦	«ب»
أهاتو: ٨٥	
أوبه (أوبي): ٧٠، ١٤١	بئر السبع: ٤١، ١٣٢، ١٣٥، ١٣٧
أوابو: ٢٩١	الباب: ٢٧٣
أورشليم: ١٣، ١٨، ١٩، ٣٢، ٥٦، ٥٧، ٥٨، ٩٢، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١٢١، ١٢٢، ١٣٧، ١٤١، ٢٠٦، ٢٠٧	بابل: ٧٧
أوروبس: ١٣٦	بادانا: ١٢٥
أورونتس: ٩١	بادي: ١١٤، ١١٦
أوريا الحثي: ٢٠٤	بارتاس: ٩٧
أوريين: ٢١٧	بازو: ١٢٥
أوريك: ١٠٦	بالاق: ٢٤٥
اوزير: ٧١	باني (بن): ٢٧٣
أوغاريت: ١٨٦، ١٩٠، ١٩٥، ٢٢٢، ٢٤٨	باهيل: ٦٢
أوشو: ١١٢، ١١٣	برجاية: ٩٠
ايللا: ٣٩، ٥٠، ٧٩، ٨٠، ١٣٩	برسيب (تل برسيب): ٨٨، ٢٧٩
ايلوم - ايلوميون: ١٠٣، ١٠٦، ١١٣	برزلاي: ٢٧٢
١١٤، ١١٨، ٢٩٤، ٢٩٩، ٣٠٠، ٣٠١	البرصة: ٢٧٢
ايني بعل: ١٢٥	برغا: ٩٤
	بَصْر: ٣٠٨
	بعشا: ٩٤، ١٣٣، ٢٨٣
	بعل معان: ٣٠٧

بملي، بعلو، بعل: ١١٧، ١١٩، ١٢٠،

٢٤٣، ٣٠٠

بلعام: ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦

بليبي: ٢٥٦، ٢٩٥

بن جوش: ١٠٠

بنامو: ١٠٤، ١٠٥

بن حدد الأول: ١٣٣، ٢٨٣

بن حدد الثاني: ٢٨٤، ٢٨٥

بن حدد الثالث: ٨٨، ١٠٠، ١٠٣، ٢٨٥،

٢٨٦

بنوبرقه (برق): ١١٤، ١١٥

بنوقيس: ١٧٠

بنيامينيون: ١٠٩

بيترا: ٢٩٤

بيترو: ٩٤، ٩٥، ٩٧

بيت أجوشي (راجع جوشي): ٨٩، ٩٠،

٩٢

بيت إيل: ١٦٠

بيت باموث: ٣٠٨

بيت بحيان: ٢٧٩

بيت بعل معان: ٣٠٨

بيت جبر: ١٠١

بيت داجون: ١١٤، ١١٥

بيت ديلتان: ٣٠٨

بيت رحوب (راجع رحوب): ٩٨

بيت زماني: ٢٧٩

بيت شان: ٦٢، ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٧١،

١٧٥، ٢٠٤

بيت شمش: ٧٤

بيت عدن: ٨٨، ٨٩

بيت عديبي: ٨٥، ٨٨، ٩٢، ٢٧٩

بيت عمري: (انظر عمري)

بيت عمون: (عمون): ١٠٦

بيت لحم: ٥٧، ٥٨، ٢٧٦

بيسان: ٦٣، ١٧٥

بيروت: ٧٠، ٧١

بيليست: ١٨٦

«ت»

تجارو: ٤٦

تخوتس الأول: ٤١

تخوتس الثالث: ٤٢، ١٧٢، ١٧٦

تدمر: ٢٧٩

ترقيسوس: ٢٥٦

ترجوم: ٢١٤

ترقا: ٧١

ترشيش: ٢٤٣

ترصة: ١٥٩، ١٦١، ١٦٥

ترهاقة: ٢٤٢، ٢٤٣

تعنك: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٧

تغلات فلاصر الأول: ٨١، ١٠٧

تغلات فلاصر الثالث: ١٠٤، ١٠٦، أ

١٢٥، ١٦٤، ٢٧٨، ٢٩٠، ٢٩٩

تل أبو حوام: ٧٤

تل أبوشوشة: ١٧١

تل برسيب: ٨٨

توعى : ٢٨٢
تونيب : ٩٢ ، ٦٧ ، ٥٥ ، ٥٤
توينبي : ٢٨٠
تيتوس : ١٧٩ ، ١٥٤
تيلمون : ٧٨
تيباء : ٢٩٣ ، ١٢٥

«ث»

الثعالب : ١١
ثمود : ٢٩٠
الثوابية : ٢٦٩
ثيوفراست : ٢٩٧ ، ٢٩٥

«ج»

جاد ٣٠٧
جازر : ٥٦ ، ٥٧ ، ١٤٧ ، ١٥٩ ، ١٧١ ،
٢٧٦ ، ٢٠٢
جبعه : ٢٠٢
جبعون : ١٧٠ ، ٢٧٦
جُبيل : ٨٣
جبيل : ٣٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٦ ، ٥٩ ، ٧٠ ،
٧١ ، ٧٣ ، ٨٣ ، ٨٦ ، ٩١ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ،
١١٨ ، ١١٩ ، ١٤٢ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٨
جحرا : ٣٠٩
جربلس : ٥٣ ، ٨٨ ، ١٣٦
جرار : ١٢ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ٢٣٨ ،
٢٣٩

تل بلاطه : ١٣٦
تل بيت مرسيم : ٧٤
تل الحامة : ٦٣
تل الحريري : ٧٩
تل الحصن : ٩٣
تل حلف : ٢٧٩
تل الدوير : ١٧٠
تل رفعت : ٩٠
تل زنجري : ٨٤ ، ١٠١ ، ١٠٤
تل الصارم : ٦٣
تل عطشانه : ٥١ ، ٥٥ ، ٦٢
تل العمارنة : ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢ ،
١٤٢ ، ١٧٠ ، ١٧٩
تل الفرخ : ١٦١
تل قرقور : ٩٩
تل القدح : ٧٢ ، ١٧٠
تل الكزل : ٤٩ ، ٦٠ ، ٨٣
تل كيسان : ٧١
تل ليلان : ١٣٩
تل المتسلم : ٤٥
تل مردنيخ : ٨٠
تل المسخوطة : ٢٩٤
تل المشرفة : ٣٩ ، ٥٠
تل النبي مند : ٤٤ ، ٤٩
تل النعامة : ٦٣
تمنة : ١١٤ ، ١١٥
تهامة زهران : ٤٤ ، ٤٧
توبعلو : ١١٢ ، ١١٣ ، ٢٩٩
توتول : ٧٨ ، ٧٩

حاصور: ٧١، ٧٢، ١٧٠، ١٩٩، ٢٠٠	جرزيم: ١٦١
حبرون: ١٧٠	جدليا: ٣٠٠
حبشه - حبشيون: ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٠	جشم العربي: ٢٩٣، ٢٩٤
حتشبسوت: ٤٢	جعد: ١١
حثي - حثيون: ٥٠، ٥٣، ٦٠، ٦٥، ٦٦	جلعد: ١١
٦٧، ٨١، ٨٥، ٩٣، ١٨٥، ٢٤٩، ٣٠٠	جلعاد: ٢٢٢
الحجر الموائي: ٣٠٠، ٣١٠	جندب (بنو): ٢٨٩
حداتو: ٨٤، ٩٩، ١٦٣	جنديبو العربي: ٩٤، ٩٥، ١٢٤، ٢٨٩
حدد عدري: ٩٤، ٩٩، ٢٨٤، ٢٨٥	الجوتيون: ٨١
حدد نيراري: ١٠٣	جوزان: ٨٩، ١١١، ٢٧٩
حد راخ: ٢٨٦	جوشي: ٨٥، ٩٠، ٩٤، ١٠٠، ٢٧٩
الحرشف: ٢٦٥	جيال: ٥١
حزائيل (ملك آرام): ٨٨، ٩٩، ١٠١	جيرابيس: ١٣٦
١٠٢، ١٠٣، ٢٨٥، ٢٨٦	جيحون: ١٤٤، ١٥٠، ١٥١
حزائيل (ملك العرب): ٢٩٠، ٢٩١	جيزان: ٨٨، ١٠٨، ١٧٣، ١٩١، ٢٥٥
حزازو: ٨٥، ٨٩	٢٥٨، ٢٦٢، ٢٧٦، ٢٨٠
حزرك: ٢٨٦	جيلزو: ٩٥
حزقيا: ٢٤، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٨	
١٥٠، ١٥١، ١٥٢	
حشمونيون: ١٩	
حطيطة (بنو): ٢٦٩	
حطيا: ١٢٥	
حلبا: ٥١، ٦٢	
حلب: ٥١، ٦١، ٦٢، ٧٠، ٩٤، ٩٧	
٢٧٩	
حليج: ١١١	
حماة: ٨٠، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣	
٩٤، ٩٧، ١٠٠، ١٠٤، ١٠٦، ١١١	
٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨٢، ٢٨٤	
	«ح»
	حاتريكا: ٩٠، ١٠٠، ٢٨٦
	حاتي: ٥٦، ٦١، ٦٥، ٧٠، ٨٣، ١٠٣
	١١٠، ١١٢، ١١٧، ٢٨٢
	حاتوسس: ٦٩
	حاتوشيلي: ٦٩
	حارب: ٢٣٧
	حارم (جبل): ٩١
	حاريم (بنو): ٢٦٩

دالزيوس الأول : ١٢٣
دان : ١٦٠ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢ ، ٢٧٦
داو : ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٥٤
٢٨١ ، ٢٨٢
داي : ٢٩٠
دبورة : ٢٢٢
دجر إيل : ٧١
دجر : ٧١
دجلة : ٩٣
ددان : ٢٩٣
الدفينة : ٢٨٢
دلون : ٢٧٨
دمشق : ٥١ ، ٨٨ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٩ ، ١٠١
١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ، ١١١ ، ١٦٤ ، ٢٧٦
٢٧٩ ، ٢٨٢ ، ٢٨٦
دوباني : ٨٥ ، ٩١
دور : ١١٩
ديار بكر : ٢٧٩
ديان : ٣١٠
ديون : ٣٠٠ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٧
دير الملا : ٢٤٦
ديودور الصقلي : ٢٩٥ ، ٢٩٦

«ذ»

ذامسك : ٨٨ ، ٩٩ ، ٢٨٢
ذيان (خرية) : ٣٠٠ ، ٣١٠

«ر»

رأيا (بنس) : ٢٧٠

رمت معوفل : ٣٠٧
رمت هيعرن : ٣٠٧
رحت : ٦٢ ، ٦٣ ، ٧١
الحرماية : ١٠٨
رخص : ٤٤ ، ٥٠ ، ٥٥ ، ٩١
هورابي : ٨١ ، ١٩٥
روتيب إيرا : ٣٩
روران : ١٠١ ، ٣١٦
رورنان : ٣٠٨ ، ٣١٦
رورناتيم : ٣١٦
روريب : ٢٣٧ ، ٢٣٨
روريون : ٤٣ ، ٤٤ ، ٦١
رولون : ٣١٧
رولة : ٦٣ ، ١٧٠
رويط : ٢٦٩
ريابا : ١٢٥
ريرام : ١٠٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥
ريفا : ٤٥ ، ١٦٧

«خ»

الخابور : ٤٤ ، ١١١ ، ٢٧٩
خاشاتاشي : ١٠٦
خدم المعبد : ٢٦٩
الخربان : ١٧٠
خرشامتكي : ٢٧٧
خرزاعة : ١٠٩

«د»

داجون - داجان : ٧٨ ، ٧٩ ، ١٩١

الزباب الأدنى : ٨٣	رابن : ٣١١
زارح الكوشي : ٢٣٨	راية : ٢٧٠
زاريتو : ١١٢	ربشاقى : ٢٤٢ ، ١١٦
زاكير : ١٠٠	رب عدي : ٥٩
زاهي : ٤٧ ، ٦٦ ، ٦٧	رين : ٣١١
الزباء : ١٢٥	رييقو : ٢٧٩
زبيبة (ملكة العرب) : ١٠٤ ، ١٢٥ ، ٢٩٠	رجال ألمع : ١٤٦ ، ١٩١ ، ٢٧٦
زربابل : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٣ ، ٢٢٤	الرحا : ٢٧٢
زنجرلي : (راجع تل زنجري)	رحبام : ٧٣ ، ١٣٧ ، ٢٤٢
زمري : ١٥٩	رحوب (بيت رحوب) : ٦٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٢٧٩ ، ٢٨٢
زور السوادة : ٢٣ ، ٢٤ ، ١١٨ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨	رحويي : ٩٤
زيمريدا : ٦٠	رزون (بن اليداع) : ٢٨٢
	رصين (بنو) : ٢٧٠
«س»	رصين (ملك دمشق) : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦
ساينوبعل : ١٠٦	رضوان : ٢٧٠
ساجور : ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧	رعمسيس : ١٩٨ ، ٢٣٣ ، ٢٤٥
السدود : ١٩١	رفع : ٧٢ ، ١٠٧ ، ١٠٨
ساراتيني : ٨٥ ، ٩١	رمسيس الثاني : ٦٥ ، ١٨٩ ، ١٩٨ ، ٢٣٣
ساريتا : ٦٩ ، ٧٠ ، ١١٣	رمسيس الثالث : ٦٤ ، ١٧٦ ، ١٨٠ ، ١٨٦
السارية : ١٣٧	رواد : ٨٤ ، ٢٥٣
سالح : ٢٩٤	روبوتو : ٥٧
ساموقينا	رولداو : ٢٩٠
السامرة : ٩٢ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١٥٩ ، ٢٠٧ ، ٢٧٦ ، ٢٩٠	رايات : ٤٩
سامريون : ١٧٩ ، ٢٢١	ريتينو : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٦٢ ، ٦٥
سانيو : ٢٩٩	«ز»
	الزباب الأعلى : ٨٣

سناهو- رع: ٣٧	سنوسترس: ٢٤٢
سبأ - سبثيون: ٢٩٧، ٢٩٥، ١٢٥	سنثرو: ١٠١
السبعونيه: ١٣، ٢١٧، ٢١٨، ٢١٩، ٢٣٨	سنثفرو: ٣٧
سترابو: ٢٩٧، ٢٩٥	سويك حوتب: ٣٩
السدود: ١٩١	سوحو: ٢٧٩
سدوم: ٢٠٩	سيانو: ٩٨، ٩٤
سراقتب: ١٠٠، ٢٨٦	سقي الأول: ٦٢، ٦٤، ١٧٦
سرا (جبل): ١١٨	سيليل: ١١٦
السراة: ٤٦، ٢٧٤	سيميرا: ٤٩، ٦٠، ٧٠، ٨٣، ١١١، ١٢٥
السفيرة: ٩٠	سيمريان: ٨٤
سقامة: ١٨٠	سيناء: ٤٦، ٢٣٨
سلامانو: ٢٩٩	
سلييل (ملك غزة): ١١٨	«ش»
سلوان: ١٥١، ١٥٢، ١٥٣	شارو حين: ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٦
سلوام: ١٥١، ١٥٠	شاسو: ٦٤
سلوقيون: ١٩	شامر: ١٦٠
سليمان (الملك): ٧٤، ٩٢، ١٤٧، ١٤٨	شامورامات: ١٠٣
١٥٩، ١٧٢، ١٧٣، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٥٤	شاليم: ١٤
٢٩٢	شاول: ١٧٨، ٢٠٣
سليمان لقانوني: ١٥٤	شبا: ٢٩٣
سمعان (جبل): ٨٩	شبع - شبعه: ١١
سموري: ٨٣	شران: ٣٠٧
سمير أميس: ١٠٣	شرسي: ٢٧١
سنبلط: ٢٩٢، ٢٩٤	شرقي الأردن: ١٩٨، ٢٢٥، ٢٤٦، ٢٧٧
سنجارا: ٨٥	الشمرية: ٢٦٨
سنجاريب: ١١٢، ١٥٠، ١٨٠، ٢٤٢	شموب البحر: ٥٣، ٦٠، ٨١، ٩٢
٢٩٩	١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ٢٠٠، ٢٤٨، ٢٤٩
ستقارا: ٩٤	٢٧٧
سنوحى: ٦٩	

شقلة: ١٩١

شكيم: ٣٨، ٥٦، ٧١، ١٣٦، ١٧٩، ٢٧٦

شلمنصر الثالث: ٩٢، ٩٣، ٢٠٧، ٢٨٤

شلمنصر الخامس: ١٠٧، ١١٠، ١٦٤

شلوم (بنو): ٢٦٨

شمال: ٨٤، ٩٢، ١٠١، ١٠٤

شمرون، شميران: ١١، ١٠٨، ١٦٥

٢٣١، ٢٧٦

شمسة (ملكة العرب): ١٢٥، ٢٩٠

شمسي إيلو: ٨٨

شمسي حدد: ١٣٩

شمسي مورونا: ١١٣، ١١٨

شمشون: ١٩٢، ٢٠٣، ٢٠٤

شنعار: ٢٤٠

الشنية: ٦٤، ١٧٧

شوارداتا: ٥٧

شوباظ انليل: ١٣٩

شوباي (بنو): ٢٦٩

شوبيلوماسي: ٥١، ٦٠

«ص»

صارغون الأول: ٧٧، ٧٨، ٨٠

صارغون الثاني: ١٧، ١٠٧، ١٦٤، ٢٩٠

صايل: ٤٢، ٤٥، ٦٤

صدقيا (ملك يهوذا): ١٢٢، ١٢٣

صدقيا (ملك أشقلون): ١١٤

الصرمين: ١٠٨

صوبة (آرام): ٩٢، ٢٧٦، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢

صهيون: ١٤٦

صور: ٢٣، ٢٤، ٦٠، ٧٠، ٧١، ٨٦

٩١، ١٠١، ١٠٣، ١٠٤، ١١٣، ١١٨

١١٩، ١٢٠، ١٤٢، ٢٤٣، ٢٥٣، ٢٥٤

٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨

صيدون: ٦٠، ٧٠، ٨٣، ٨٦، ٩١

١٠١، ١٠٣، ١١٢، ١١٣، ١١٧، ٢٥١

٢٥٨

صيدوني: ٨٣

«ط»

الطائف: ٤٣، ٥٢، ٥٣، ٦٤، ٨٩

١٧٧، ٢٣٦، ٢٦٢، ٢٨٢

طاربو (ملكة العرب): ٢٩٠

طبريه: ١٧٠

طرابلس: ٤٩، ٥٤

طرطوس: ٤٩، ٦٠

طلمون (بنو): ٢٦٩

الطوا: ٢٣٧

طوى: ٢٣٧، ٢٣٨

طوب: ٢٧٩

طوبيا (بنو): ٢٧٣

الطور (جبل): ٢٣٧، ٣٣٨

طور سيتين: ٢٣٨

«ع»

عزرا: ٢٦٢	عابرو: ٥٦، ٥٧، ٦٤، ٢٣٤
العزه: ١٩١	عارية (ملكة العرب): ٢٩١
عزيقة: ١٨٢، ٢٧٦	عازيرس: ٦١
عستارت: ٥١	عازيرو: ٥٩، ٦٠
عسقلان: ١١٣، ١١٤، ١٩٠	العاصي (نهر): ٦٦، ٦٧، ٨٥، ٩١، ٩٣
عشتر: ٣٠٧	٩٤، ٩٩، ٢٨٥
عشيرة: ١٣٧	عانة: ٢٧٩
عَطْرُت (عطروت): ٣٠٧	عاي: ١٩٩، ٢٠٠، ٢٤٨
عفرين: ٩٠	عبدليقي: ٢٩٩
عقرون: ١١٤، ١١٥، ١١٨، ١٩١	عبدو عشرينه: ٥٩، ٦٠
عقوب (بنو): ٢٦٨	عبدي ملكوتي: ١١٧
العقبة: ٤٦	عبدي هبة: ٥٧
عكا: ٥٦، ٧١، ١١٢، ١١٣، ١١٩	عَبْرِي (نهر): ٨٥، ٨٩
١٤٢	عترشمين: ٢٩٠
العلا: ٢٩٣	عترقورما: ٢٩٠
عماليق: ٣٠٠	عجلان: ١٧٠
عمان: ٣٠٠	عجلون: ١٤٧، ١٧٠، ٢٠٢
عمري: ٩٨، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨	عرب: ٩٨، ١٠٤، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦
١٢٥، ١٥٩، ١٦١، ٣٠٨، ٣٠٩، ٣١١	٢٨٩
العمق (سهل): ٧٥، ٩٠	عراية - عربية: ٢٨٩
عموري - عموريون: ٤١، ٨١، ١٤٤	عربات حارم: ٢٧٢
١٩٥، ٢٤٩	عربات موآب: ٢٣١، ٢٤٥
عمون - عمونيون: ٩٤، ٩٨، ١١٣	عرقا (عرقاتا): ٩٤، ١٢٥، ١٤٢
١١٤، ١١٨، ٢٩٢، ٢٩٩، ٣٠٠	عرقين: ١٩١
عمورة: ٢٠٩	عرمان: ٤٧، ٨٠
عناتا: ٢٧٢	عروعر (عُرعير): ٣٠٠، ٣٠٨، ٣١٣
عناثوت (بنو): ٢٧٢	٣١٧
عنطوطة: ٢٧٢	
عنقة: ١١	

- عياه: ١٠٩
عيال: ١٦١
عيرامو: ٢٩٩
عيسو: ١٩٦
عطام: ٢٧٦
عين دارا: ٩٠
- فقح: ١٠٧، ١٠٦، ١٠٥
فلافيا نيابوليس: ١٧٩
فلسفي - فلسطين: ١٨، ٥٨، ٩٢، ١٠٣، ١٧٨، ١٨٧، ١٩٠، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢٥٠، ٢٥٢
فلسطينيون: ١٨٧، ١٨٨، ١٩٢
فليكوفسكي: ٢٣٤
فتوئيل: ١٥٩
فنييل: ٢٧٤
فوط: ٢٤٠
فليو الجبيلي: ٢٥٣
فينيقي - فينيقيون: ٩٢
- «ق»
القابل: ٥٢، ٢٥٣
قادش: ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٥١، ٦١، ٦٦، ٦٧
قادس: ٢٥٦
قبرص: ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ٢٤٣، ٢٥٦
قبة الصخرة: ١٥٠
قدرون: ١٤٤
القدس: ١٤٣
القدمة: ٢٦٦
قدمييل (بنو): ٢٦٦
قر: ١٣٩
قرحة: ٣٠٦، ٣٠٧
قرقره: ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٨، ١١١، ١٢٤، ٢٠٧، ٢٧٦، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٩
- «غ»
الغاط: ١٩١
غامد: ١٧٣، ٢٧٣
غرار: ١٣٩
الغرز: ١٧٣
الغرزة: ١٧٣
غزة: ٤٢، ٤٦، ٧٢، ١٠٦، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤، ١١٦، ١١٨، ١٨٨، ١٩١، ٢٧٦
غيامو: ٩٣
- «ف»
فتور: ٢٤٥
فدان آرام: ٢٨٠، ٢٨٢
الفسرات: ٤٢، ٥٢، ٥٣، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٤، ٩٥، ١٠١، ١٠٣، ١١٤، ١١٩، ٢٨٠
فرت: ٨٦
فرعة: ٢٣٦
فشحور (بنو): ٢٦٥

قرقماشة : ٨٩ ، ٥٣ ، ١٣
قريتان : ٣٠٧
قريوت : ٣١٧ ، ٣٠٧ ، ٣٠٠
قطن : ١١
قطنا : ٩٢ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٩ ، ٣٩
قطينة (بحيرة) : ٤٩
قموة الصبيان : ١٤٦
القناع : ٢٥١
القفطرة : ٤٦
القفطنة : ١٧٠ ، ١٦٥ ، ٤٧ ، ٤٦ ، ٤٤ ، ١٨١ ، ١٨٠
قميز : ٢٤١ ، ١٧٤ ، ١٢٣
قمران : ٢١٨
قهوان : ٢٦٥ ، ٢٦٤
قورش : ٢٤١ ، ١٢٣ ، ٣٢
قوش جبري : ٣٠٠ ، ١١٨
القياسة : ١٧٠
قير : ١٠٦
قينأ : ٤٣
قينو : ٢٩٤
قيدار - قيداريون : ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤

«ك»

كاثلين كينيون : ١٥١ ، ١٤٠
كار أسر حادون : ١١٧
كار دونياش : ٢٧٩
كار شلمنصر : ٩٤

كاشيون : ٨١
كامد اللوز : ٧٠
كاموسن أدبيي : ٢٩٩
كتك : ٩٠
كرات : ١٨٧
كرت : ٢٠٥ ، ٢٠٤
كركرة : ٩٥
الكرك : ٣٠٩
كركميش : ١٣ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦١ .
٨٤ ، ٨٥ ، ٨٩ ، ١ : ٤ ، ١١١ ، ١١٢ ،
١٣٦ ، ١٨٦ ، ٢٧٧
كركوک : ٤٤
كرمل : ٤٦ ، ٤٥ ، ٤٣
كريت - كريتيون : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٩٢
كيريلنغ : ١٣٩
كفتور : ١٨٨
كلدانايون : ١١٠ ، ١٢٣
كموش : ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥
كنعان (تسمية) : ٢٥٠
الكنعة : ٤٤ ، ٤٧
کنزا : ٦١
كهنة - كهنييم : ٢٦٤
كوثة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤
كوش - كوشيون : ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،
٢٤١ ، ٢٤٢ ، ٢٤٤ ، ٢٩٢
كود : ٤٣ ، ٤٤ ، ٦٧
كوش ماليکو : ١٠٦
كوش ملاکو : ٢٩٩
كوشو : ٢٤٢

كوماجين: ١٠٦

كونداسشي: ٩٤

كونولو: ٨٥، ٩٠

كيزا: ٨٦، ٩١

كيفتو: ١٨٩

كيله: ٥٧

كيليكيا: ٤٥

ليبيا، لبيون، لوبيون: ١٨٥، ٢٤٠، ٢٤٢

الليث: ١٩١، ٢٦٢، ٢٧٦

الليطاني: ٧٠

ليلي بدر: ٤٩

«م»

ماتينو بعل (متان بعل): ٩٤، ١٠٦، ١١٨

ماجان: ٧٨

مادي: ١١١

ماري: ٥٠، ٥٣، ٧٩، ١٦٨، ١٧٠، ١٩٥

ماري (ملك دمشق): ١٠٣

متع ليل: ٩٠

مجدو: ٣٩، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٤٧، ٥٦

٧١، ٧٢، ٧٧، ١٦٧، ٢٧٦

محاليا: ١١٢

محرت: ٣٠٧

محلاتا: ٨٦

مخطوطات البحر الميت: ٢١٨

مديان: ٢٣٧

المراشا: ٩٥، ٩٩

مرنفتاح: ١٨٥، ٢٣٤

المسجد الحرام: ١٥٠

المسرة: ٢٦٧

مسعاي: ١٢٥

مَسُورِي - مَسُورِيُون: ٨، ٩، ١٤، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦

«ل»

لابايو: ١٧٩

لارموني: ٧٩

لاوة: ٢٦٦

لاوي - لاويون: ٢٦٦

لبانة (بتو): ٢٧٠

لَبْنَان: ٥٠، ٦٥، ٨٣، ٨٤، ٢٥٤، ٢٥٥

٢٥٩

لَبْنَان (جبل): ٥١، ٨٥، ١٠١، ١١٨

لبناني: ٨٣ لبينان: ٥٢، ٨٤، ١١٩

لخيش: ١٧٠، ١٨٠، ٢٤٢، ٢٧٦

لخيش (نقوش): ١٨٠، ١٨١، ٣١٣

لمحلة: ١١

لوبارنا: ٨٥، ٨٦

لوحاتي: ٨٦

لوعاش: ١٠٠

لوغال زاخيزي: ٧٧

اللوفية (كتابة): ٨٨

لولي: ١١٢، ١١٣

المشرفة : ٥٠	ميتيني : ١١٦ ، ١١٨ ، ٢٩٩
مصر : ١٥ ، ١٠٧ ، ١١٩ ، ١٥٩ ، ١٨٦	ميدبا : ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣١٣
٢٣٣ ، ٢٤٥	ميسيبي : ١٨٥
المصرمة : ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٤٤	ميشع : ٢٩٩ ، ٣٠٠
مصريم : ١٥ ، ٢٣٥	
معكة (آرام) : ٢٣٩	
المعلاة : ١١	«ن»
المفتون : ٢٦٧	
مقدي : ١٧٠	نابلس : ٧١ ، ١٣٧ ، ١٧٩
مكايي - مكاييون : ١٥٣	نابو بولاصر : ١٢١
ملك إيلو : ٥٧	ناجد : ٢٧٠
ملكي آشبا : ١١٨	نارام سن : ٨٠ ، ٢٧٧
ملكي صادق : ١٤	نبوخذ نصر : ١٧ ، ٣١ ، ١٢٠ ، ١٥٣ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٨١
ملو : ١٤٥ ، ١٥٣	نبوخذ راصر : ١٢٢ ، ٢٥٧ ، ٢٩٣
ملوحة : ٧٨	نبح العذراء : ١٥١
مناحيم : ١١٣	نبه : ٣٠٧
منحيم : ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦	نبو : ٣١٧
منزيقاني : ٨٥	نبوزردان : ١٢٣
منسي : ١١٨ ، ٣٠٠	نجران : ٥٢ ، ١٠٩ ، ٢٥٣
المنطقة : ٢٦٩	نحميا : ١٥٣ ، ٢٢٤ ، ٢٦٢
مهدبا : ٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٢	نحو : ٥٢ ، ٨٩ ، ١٢١ ، ٢٣٥ ، ٢٤٤
موآب : ١٨ ، ١٠٦ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ٢٤٥	نعمان : ٢٣٠
٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦	نقر : ٢٧٨
موسى : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧	النقب : ٤١ ، ٤٣
موسوري : ٣٠٠	نقميا : ٥٥
موشكو : ١٠٧ ، ١٠٨	نقودا (بنو) : ٢٧٠
موصوري : ٩٤ ، ٩٨ ، ١١٨ ، ٣٠٠	النصاص : ١٣ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٨ ، ٥٩
موكيش : ٥١ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٩٢	نمرود : ٨٥ ، ١٠٣ ، ١٦٤
ميتا : ١٠٧	

نهارين : ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥٢ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٦٧

نهر الأبرش : ٦٠

نهر الكبير الشمالي : ٩١

نهر الكبير الجنوبي : ٦٠

نوبة - توييون : ٤٠ ، ١١٩ ، ٢٤٠

نوحاي : ٢٩٠

نوخاشا (نوخشي) : ٦١ ، ٦٢ ، ١٠١

نوزي : ٤٤ ، ٦١

ني : ٤٩

نيابوليس : ١٧٩

نيفرحوتب : ٣٩

نينوى : ٩٣ ، ٩٥ ، ١١٨ ، ١٢٠

«هـ»

هاتور : ٥١

هاجريون : ٣٠٠

هادي (جبل) : ٢٣٧

الهامل : ١٤٦

هامورجا : ٨٥

هامونيري : ٥٩

هانو : ١٠٦ ، ١٠٧

هد عزز : ٢٨١ ، ٢٨٢

هدريان : ١٤٢

الهدبة : ٣١٢

هروب (جبل) : ١٠٨

هكسوس : ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، ١٩٥ ،

٢٣٣

هـ - نجب : ٤١

هندو أوريي : ٤٤ ، ٢٤٩

هودويا (يتي) : ٢٦٧

هوشع : ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١١٠ ،

هـ - يردن : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٣٦

هيرود : ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٣

هيرودوتس : ١٧٤ ، ٢٥٢ ، ٢٩٥

هيرونيموس القردياثي : ٢٩٦

«و»

وادة : ٢٦٥

وادي آدم : ٣٠١

وادي أضم : ٥٨ ، ٨٦ ، ٨٩ ، ١٧٣ ، ١٩١ ،

٣١١ ، ٣١٢

وادي بيشة : ١٨٧ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩

وادي تبة : ١٨٧

وادي تيريون : ١٤٤ ، ١٥٠

وادي حرم : ٢٦٥

وادي الرمة : ٢٤٥

وادي الست مريم : ١٤٤

وادي مثنان : ٤٣ ، ٥٢

وادي نجران : ٢٦٥

وادي نعص : ٢٣١

وادي ورم : ٢٨٢

الورخة : ٢٧٢

الوفية : ٢٥٥

«ي»

يأدي : ١٠١ ، ١٠٤ ، ٢٧٩

اليمن: ٢٩٧	يافا: ٥٦، ١١٤، ١١٥، ٢٣٦، ٢٥٤
ينوم: ٦٣، ٦٥	٢٦٧، ٢٥٥
يهوآحاز: ١٠٢، ٢٩٩	ياطع: ٢٩١
يهوذا: ٣١، ٥٨، ٧٣، ١٠٦، ١١٨، ١٢١، ١٥٠، ١٧٨، ٢٠٧، ٢٣٥، ٢٣٨	يام: ٢٣، ١٠٩، ٢٥٣
٢٦١، ٢٩٢، ٢٩٥	ياماني: ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩
يهورام: ٣٠٨	يامو: ١٠٩
يهص (يهصة): ٣٠٧، ٣١٧	ياهاقي: ٨٥، ٨٩، ٩٠
يهوشافاط: ٣٠٨	ياهو: ١٠١، ١٠٢، ١٦١، ٢٠٨
يواء: ٢٧٣	ياهيم: ٤٢، ٤٦
يوآب (بنو): ٢٦٦	ياوييدي: ١١١
يوآش: ٢٨٦	يوسي - يوسيون: ١٣٧، ١٤٣
يواطي: ٢٩١، ٢٩٢	يوق (غخاضة): ٢٧٤
يوسف: ١٩٧	يرون: ٢٣٧
	يدعيا (بنو): ٢٦٦
	يدنانا: ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ٢٤٣
	يراكي: ٨٥، ٩١
	يربعام: ١٥٩، ١٦٠، ١٦٤
	يرنت: ٦٧، ٩١
	يزرعيل: ١٦٥
	يسرة إيل: ٢٧٤
	يشوع (بن نون): ٤٥، ١٩٩، ٢٢٦
	يعتوري: ٨٥، ٩١
	يعقوب: ٣٨، ١٩٦، ٢٧٤، ٢٨١
	يعقوب هار: ١٩٥
	يم: ١٠٩
	يامة: ٢٦٥
	يمخاض: ٦٢
	يمسخ حلد: ٥٠

المحتويات

فائمة	٥
مدخل	
اطروحات كمال الصليبي ونتائجها	٧
حول المنهج	٢٣
الباب الأول:	٢٧
البيئة التاريخية «وثائق الشرق القديم»	
١ - سجلات مصر الفرعونية	٣٧
٢ - سجلات وادي الرافدين	٧٧
الباب الثاني	١٢٩
البيئة الأثرية «أركيولوجيا فلسطين»	
٣ - بئر السبع والبحث عن جزار	١٣٥
٤ - اورشليم حاضرة كنعان	١٤١
٥ - السامرة، كوزموبوليتانية كنعان	١٥٩
٦ - مجدو والمدن الملكية	١٦٧

١٨٠	٧ - ماذا عن الفلسطينيين
١٩٣	٨ - علم الآثار وتاريخية التوراة
٢١١	الباب الثالث
	«البينة النصية من كتاب التوراة»
٢٢٥	٩ - مسألة الأردن
٢٣٣	١٠ - الخروج ومسألة مصر
٢٤٧	١١ - أرض كنعان
٢٦١	١٢ - يهوذا واسرائيل
٢٧٧	١٣ - بلاد آرام
٢٨٩	١٤ - بلاد العرب
٢٩٩	١٥ - بلاد موآب ونقش ميشع
٣١٩	خاتمة
٣٢١	ملحق
	خرائط كمال الصليبي

المؤلف في سطور

* فراس السواح ، مفكر سوري يبحث في الميثولوجيا وتاريخ الأديان كمدخل لفهم البعد الروحي عند الإنسان .

* من مواليد حمص / سورية ١٩٤١

* صدرت له الأعمال المطبوعة التالية :

* مغامرة العقل الأولى

دراسة في الأسطورة - سورية وبلاد الرافدين

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٧٦ . الطبعة الحادية عشر

دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٦

* لغز عشتار

الآلهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة .

الطبعة الأولى ، دمشق ١٩٨٥ . الطبعة السادسة

دمشق دار علاء الدين ١٩٩٦

* جلجامش

ملحمة الرافدين الخالدة

الطبعة الأولى دمشق ١٩٩٦

* دين الإنسان

بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني

الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٤

الطبعة الثانية ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥

* آرام دمشق واسرائيل

في التاريخ والتاريخ التوراتي

الطبعة الأولى ، دمشق ، دار علاء الدين ١٩٩٥

صادرات دار علاء الدين

- ١ - صناعة العقود الخرزية هيلينا مورنتغ
- ٢ - أعشاب الشفاء د. ماجد علاء الدين - ١٩٩٣
- ٣ - أسرار الكون عدة علماء - دمشق - ١٩٩٢
- ٤ - أطلس العمليات الجراحية فلز طريفي - دمشق - ١٩٩٤
- ٥ - حقائق النوافذ جون براغن
- ٦ - طيب نباتات الزينة حازل ايفاس والكان عوم
- ٧ - تقليم وتربية أشجار الفاكهة طه الشيخ حسن - دمشق - ١٩٩٣
- ٨ - هرمونات النمو الزراعية نزار كاخي - دمشق - ١٩٩٠
- ٩ - دليل الحامل دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٣
- ١٠ - دليل مريض السكر دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٠
- ١١ - البيوت الزراعية لان ولز
- ١٢ - جراحة القلب د. كمال عامر - د. اسماعيل الخطيب
- ١٣ - الطريق إلى الصحة زويا ميخائيلنكو - دمشق - ١٩٩٠
- ١٤ - الطب الشعبي ومجالاته جارويس فيرمونت - دمشق - ١٩٩٢
- ١٥ - علاج الأمراض الجلدية بالأعشاب داتسكوفسكي - دمشق - ١٩٩٢
- ١٦ - فوائد عصير الخضار والفواكه نورمان وكمر - دمشق - ١٩٩٢
- ١٧ - الأجسام الطبيعية كيتا بجوردوسكي
- ١٨ - القوة العصبية بول بريغ - دمشق - ١٩٩٢
- ١٩ - كيف تقوي بصرك إيلا فلاديمير - دمشق - ١٩٩٣
- ٢٠ - كيف تكونين جميلة زويا ميخائيلنكو - دمشق - ١٩٩٢
- ٢١ - العناية الخاصة بالمرضى م. ميليتش
- ٢٢ - المساج النقطي زويا ميخائيلنكو - دمشق - ١٩٩٢
- ٢٣ - مشاريع الإنتاج الحيواني د. سلامة شقيف - دمشق - ١٩٩٢
- ٢٤ - موسوعة الطيور مجموعة باحثين - دمشق - ١٩٩٤
- ٢٥ - المأكولات الشهية للشعوب الشرقية ميلنسيك - ١٩٩٣
- ٢٦ - تطعيم أشجار الفاكهة وإكثارها طه الشيخ حسن - دمشق - ١٩٩٤

- ٣٨ - تاريخ القانون في العراق
..... عبد الحكيم الذنون - دمشق - ١٩٩٣
- ٣٩ - التحليل النفسي للأقوال المأثورة
..... سمير عبده دمشق - ١٩٩٣
- ٤٠ - تحضير الكيك والكاتو
مروغيت باتن - ترجمة فانتن عمران - دمشق - ١٩٩٣
- ٤١ - جليجامش
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩١
- ٤٢ - الجنس في العالم القديم
بول فرشياور - ترجمة فائق لحدود - دمشق - ١٩٩٣
- ٤٣ - الصحافة السورية بين النظرية والتطبيق
..... د. عدنان أبو فخر - دمشق - ١٩٨٤
- ٤٤ - صفحات من تاريخ فن الرقص في العالم
..... فائق شعبان - دمشق - ١٩٩٣
- ٤٥ - طقوس الجنس المقدس
..... ترجمة نهاد خياطة - دمشق - ١٩٩٣
- ٤٦ - العرافة وسوسة أم ..؟
ترجمة د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٩٣
- ٤٧ - مدخل إلى علم تصنيف المكتبات
..... برجس عزام - دمشق - ١٩٨٦
- ٤٨ - المأكولات الشهية للشعوب الشرقية
..... ف. م. ميلينيك - ترجمة سمير عبده
..... دمشق - ١٩٩٢

- ٢٧ - الحدث التوارثي
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣
- ٢٨ - ذكراه في القلب
..... آنا غاغارين - ترجمة
..... محمد بدرخان - دمشق - ١٩٩٠
- ٢٩ - دين الإنسان
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٤
- ٣٠ - رموز مقدسة
..... نيقولا ريبيخ - ترجمة
..... د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٩٣
- ٣١ - آرام دمشق واسرائيل
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٥
- ٣٢ - لغز عشتار
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣
- ٣٣ - مغامرة العقل الأولى
..... فراس السواح - دمشق - ١٩٩٣
- ٣٤ - ملحمة الزمن
..... انتولي سافروفوف - ترجمة د.
..... ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٣٥ - برتراند رسل
..... سمير عبده - دمشق - ١٩٩٣
- ٣٦ - بدايات الحضارة
..... عبد الحكيم الذنون - دمشق - ١٩٩٣
- ٣٧ - البلدان النامية والعلاقات الاقتصادية
..... س. بورتياكوف - ترجمة
..... د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٨٤

- ٤٩ - نحن والأبراج
... ترجمة دار علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٥٠ - نظرية الدولة في الفكر العربي
..... محمد علي جمعة - دمشق - ١٩٩٤
- ٥١ - شريعة حمورابي
مجموعة من المؤلفين - ترجمة اسامة سراس
..... دمشق - ١٩٩٣
- ٥٢ - الديانة الفرعونية
واليس بذج - ترجمة نهاد خياطة - دمشق - ١٩٩٣
- ٥٣ - أزمة العالم
فيدل كاسترو - ترجمة نصر الشمالي - دمشق
..... ١٩٨٩
- ٥٤ - الأخوة كينيدي
..... غروميكو - دمشق - ١٩٩٢
- ٥٥ - البيت الأبيض وأسرار المخابرات
الأمريكية .
..... ك. ف. بتروسينكو - دمشق - ١٩٩١
- ٥٦ - مذكرات عن الإنقلاب العسكري
... ميخائيل غورباتشوف - دمشق - ١٩٩٢
- ٥٧ - الاساطير والحقائق عن عائلة ستالين
..... ترجمة سميح شيا - دمشق - ١٩٩٤
- ٥٨ - ملحمة الرجال
..... احمد فرحات الناصر - دمشق - ١٩٩٤
- ٥٩ - أسرار المدافن المصرية
..... اجاڤا كريستي - ترجمة
..... مارتن باي - دمشق - ١٩٩٤
- ٦٠ - الشركس في فجر التاريخ
..... برزج سمكوغ - دمشق - ١٩٩٥
- ٦١ - سيد درويش
..... احمد بوبس - دمشق - ١٩٩٤
- ٦٢ - الزيتون
..... م. طه الشيخ حسن - دمشق - ١٩٩٥
- ٦٣ - الوقواق والديك
..... ترجمة د. ماجد علاء الدين
..... دمشق - ١٩٨٥
- ٦٤ - الوقت الضائع
ترجمة رسلان علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٦٥ - قصص قصيرة
ترجمة رسلان علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٦٦ - حكاية العملاق العجيب - جونج
... ترجمة ريماء علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٦٧ - قفزة
..... ترجمة رسلان علاء الدين - دمشق - ١٩٩٢
- ٦٨ - الذئب والثعلب
..... ترجمة د. ماجد علاء الدين -
..... دمشق - ١٩٨٥
- ٦٩ - المرأة والقرد
ترجمة د. ماجد علاء الدين - دمشق - ١٩٨٥
- ٧٠ - اللؤلؤة النادرة
..... ترجمة اكرم ابو راس - دمشق - ١٩٩٣
- ٧١ - حلوى الأطفال
..... ترجمة فاتن عمران - دمشق - ١٩٩٣



الحديث التوراتي والشرق الأدنى القديم

لا تكمن خطورة نظرية الدكتور كمال الصليبي التي بسطها في كتابه «التوراة جاءت من جزيرة العرب» في محتوى النظرية ذاتها بالدرجة الأولى ، بل في المنهج غير التاريخي الذي طبقه على مسألة تاريخية في غاية الحساسية بالنسبة إلى قضايا التاريخ القديم وقضايا الواقع السياسي الراهن . إن المقولات غير المدعومة علمياً تصدر عن مؤرخ معروف ، يمكن أن تقود إلى مزالق ومناهات أكثر مما توصل إلى حقائق تساهم في النهضة التي يشهدها علم التاريخ وعلم الآثار في هذه المنطقة اليوم ، وتفتح الباب أمام البعض لإلغاء العلم التاريخي لصالحه التبرير والرؤية الانفعالية والأيديولوجية لأحداث التاريخ .

فراس السواح ، الباحث المعروف في الميثولوجيا وتاريخ الديانات الشرقية ، يقدم في مؤلفه هذا ، مناقشة شاملة للأطروحات الرئيسية لكمال الصليبي ، اعتماداً على الحقائق التاريخية والأركيولوجية الثابتة ، في مقابل المنهج اللغوي الأحادي الذي أتى بالتوراة من جزيرة العرب ، وفي مقابل بعض الدراسات والأبحاث الأخرى التي تتذرع بالشعارات الإيديولوجية لتخفي الأسئلة العلمية اللازمة لفهم المسار الحقيقي لتاريخ الشرق القديم . وذلك من خلال حوار علمي هادئ بعيد عن المواقف الانفعالية والنظرات المسبقة ، وبطريقة يتناول من خلالها المفاصل الرئيسية في تاريخ الشرق القديم ، بشكل سلس ومتتابع ، وبعضاً من أهم مشكلاته ومعضلاته ، وذلك لتعميم الفائدة على مختلف شرائح القراء .

الناشر



منشورات دار علاء الدين دمشق

هاتف : ٢٣١٧١٥٨ - ٥٦١٧٠٧١ - ص.ب : ٢٠٥٩٨

To: www.al-mostafa.com